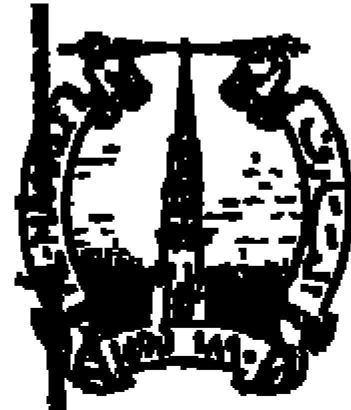
السيد فرج

حرب الصحراء المصرية

قصة الحرب فى صحراء مصر وشمال أفريقية

يونيو ١٩٤٠ — ديسمبر ١٩٤٢



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

DESERT WAR

By

Lieut. EL-SAYED FARAG

Egyptian Army

1943

P.T. 20

الإهـــداء

إلى الجنـــدىّ الباسل . . .

غالبًا ومغلوبًا ، حيًّا وميتًا

سيد قطب

المراجـــع

Destruction of an Army	Issued for the War Office by the Minst. Of Information.
The battle of Egypt	The Offical Record
Lybian log	E. G. O. Empire Air-Forces
Wavell in the Middle-East	Major - General H. Rowan Robinson

مقدمة الكتاب

لحضرة صاحب السعادة الفريق ابراهيم عطاالله باشا

رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى

وياور جلالة الملك

عند ما بلغني أن الملازم أول السيد فرج ، شارعٌ فى كتابة مؤلف جديد يضيفه إلى قائمة مؤلفاته القيمة تلقيت ذلك بالغبطة والتقدير ، وقد أتيح لى أن أتصفح هذا الكتاب الجديد الذى وسمه مؤلفه باسم « حرب الصحراء المصرية » فإذا به أول كتاب أخرج للناس فى هذا الموضوع باللغة العربية بل بأية لغة أخرى ، وإذا به لا ينفرد بميزة السبق وحدها ولكنه يجمع إلى دقة البحث واستقامة التفكير ، براعة العرض وأناقة التعبير .

وحرب الصحراء التى يبحثها هذا الكتاب هى واحدة من حروب هذا الصراع العالمى الكبير ، ولا شك أن ماحدث فى صحراء مصر وتم فى ميادين تونس كان من الأعمال الحربية الحاسمة ذات النتائج الفاصلة ، بل هى نقطة التحول أو بداية النهاية كما يصفونها بحق .

وقد حدثت فى هذه الحرب روحات وجيئات — على حد قول المؤلف — كان كل منها عملاً عسكريًا كبيراً حريًا بالدرس جديراً بالمراجعة وخصوصاً لشباب هذا الجيل المتيقظ من أبناء مصر، الذين لابد لهم من الاطلاع على ماجرى فى أراضيهم ، وما حدث على مقربة من ديارهم . ولا شك أنهم جدّ مشوقين إلى معرفة أسرار هذه الحوادث وخافياتها ، وخطط هذه الحرب وتطوراتها وأسلحتها ومعداتها وقادتها وجنودها .

أما رجال العسكرية فسيكونون أكثر شوقاً وتطلعاً إلى دراسة هذه الحملات الحربية بدقائقها وتفاصيلها ، وإنى أشير عليهم بأن يبحثوا دائماً مسائل المواصلات والتموين وأهمية الأرض وتأثيراتها على العمليات المختلفة ، وأن يدرسوا أسلحة الصحراء وأساليب التعاون فيما بينها ، وأن يدركوا قيمة الثبات مهما عظمت التضحيات ، وأن يعلموا أنه لا تكون هناك هزيمة نهائية ما دامت الروح المعنوية قوية

وإذا كنا ننصح دوامًا بالقراءة ونعدها مفتاح النهوض والارتقاء فإنى أهيب بأبنائى رجال الجيش أن يغترفوا من الثقافة العسكرية بأوفر نصيب ، وأن يعد كل منهم مكتبة يعبئ فيها كل جديد من المؤلفات والكتابات الحربية حتى يتيسر لهم متابعة التطورات الحديثة والإلمام بكل طارف وتليد مما يزيد دائرة معارفهم ويرفع مستوى معلوماتهم العامة وثقافتهم الحربية

وهذا القول الخاص أتبعه بنصح عام لجميع أبناء الوطن العزيز الذين لا يحبون أن يروا وطنهم مرة أخرى تحت خطر التهديد والذين يحبون أن يدفعوا عن بلدهم كل أذى ، وهو أن كل مواطن ، أينما كان موضعه ، مطالب بأن لا يغفل عن شئون الدفاع الوطنى وأن يعد نفسه جنديا من جنود البلاد ، وأن يأخذ بأسباب الاستعداد ، حيث لم تعد الحروب اليوم كما كانت فى الماضى قتالا بين جيشين ، بل صارت حروب أمم تعبئ جميع ما تملك من رجال وموارد . . .

أما بعد ، فهذا كتاب كان ضروريا أن يصدر فيتلقاه بشوق جميع أبناء مصر ، وأن يحتل مكانه فى المكتبة العربية بين المؤلفات الضرورية ، وإنه لما يدعو إلى الفخار أن يضعه مؤلف شاب من العسكريين ، وأن يوفق فى ذلك إلى أبعد حدود التوفيق

عاشت مصر ، ووفق الله أبناءها وأبلغهم الذروة من المجد فى عهد مولانا وقائدنا حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول أيده الله وسدد خطاه .

لفريق

١٥/٦/١٩٤٢

الحرب العالمية الثانية

ترفق القدر بأوروبا المعذبة يوم تمت تسوية ميونخ فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٨ ومر الخطر دون انفجار ، فكان يوماً من الأيام المعدودة فى التاريخ أطلت فيه الإنسانية على الهوة السحيقة التى حفرتها لها الأطماع الهوجاء والأحقاد الشريرة ، ثم أشاحت بوجهها ، وقد كان غريباً حقاً أن يكتوى نفس الجيل بحر بين عالميتين وأن تعود البشرية فتفجر نهراً جديداً متدفقاً من الدماء ، فتداركتها العناية فى اللحظة الأخيرة ولاحت فى الأفق بارقة الأمل .

وكان مصدر هذه الأزمة العنيفة ذلك النزاع الناشب بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا خاصاً بالألمان السوديت ، فكانت ألمانيا ترى ضرورة تحرير قومها العائشين تحت سيادة أجنبية ، ورفضت الحكومة التشكية ذلك واستحالت محاولات التوفيق لأن الفريقين المتنازعين تمسكا بنصوص نهائية غير قابلة لأى تعديل ، واتسعت الهوة وتطورت المسألة المحلية إلى مشكلة دولية خطيرة ، فإن انجلترا وفرنسا أعطتا تعهداً لتشكوسلوفاكيا بمساعدتها بينهما كانت ألمانيا مصممة على تحقيق طلباتها

بقوة السلاح ، وكان معنى تنفيذ ذلك التهديد هو أن تشترك فرنسا وإنجلترا وروسيا فى الحرب فوراً ضد ألمانيا . . ومتى نضجت فكرة الحرب إلى هذا الحد وصار جوّ العلاقات الدولية مشبعاً بالشكوك وعدم الثقة فمن الطبيعى أن تثور الأعصاب وتحشد الجيوش ، وعندئذ لا يحول دون وقوع الكارثة حائل

وبلغت الحالة منتهاها واتخذت الحكومات قرارها النهائى ثم وقفت انجلترا الوقفة الأخيرة وأمسكت بالبقية الضئيلة الباقية من الأمل فخاطبت زعيم إيطاليا ليبذل وساطته لإنقاذ السلم فى هذه المرحلة الخطيرة المتأخرة فبادر السنيور موسولينى بمخاطبة المستشار الألمانى الذى أجل التعبئة العامة ٢٤ ساعة وسافر إلى ميونخ للاجتماع برؤساء الوزرات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية . . وهكذا لم تقع الحرب فى موعدها . فقد كان الزحف على «براغ» محدداً بالساعة الثانية بعد ظهر الأربعاء ٣٨/٩/٢٨

وأمضى أقطاب الدول الأربع ست ساعات وانتهت مباحثاتهم فى الساعة الأولى والنصف من صباح ٣٠ سبتمبر إلى اتفاق فى شأن تسليم إقليم السوديت الألمانى ، ووافقت على ذلك حكومة تشكوسلوفاكيا وهكذا نجا العالم بأعجوبة من المذبحة الكبرى . . ولكن الشر لم يكن قد انتهى ولم تؤمن عودة الأزمة العصيبة بعد قليل . . . .

وتلبد الجو الدولى مرة أخرى وجثم كابوس المخاوف فقد اجتاحت القوات الألمانية كل تشكوسلوفاكيا ، ثم أطلت نذر الحرب من ناحية

دنزج التى طالبت ألمانيا بضمها إلى حظيرة الريخ ورفضت أى تدخل أجنبي فى هذه المسألة وأصبحنا مرة أخرى أمام صور النشاط السياسى والمناورات الحربية والاجتماعات المتوالية والرسائل المؤثرة والجزع العام، والوساوس والأوهام، ووقفت ألمانيا وإيطاليا فى معسكر قبالة إنجلترا وفرنسا، وحدث التسابق إلى موسكو ثم فوجىء العالم يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ بحادث خطير فى السياسة الدولية هز أعصاب الشعوب وأفقدها كل أمل فى إنقاذ السلام، فقد عدلت روسيا اتجاهها السياسى فجأة واتفقت مع ألمانيا بمعاهدة صداقة وعدم اعتداء ملغية بذلك مشروع التحالف الثلاثى بين روسيا وفرنسا وانجلترا فكان ذلك نذير سوء وإيذاناً بحرب لا هوادة فيها ولا أمل فى تفاديها

وقد كان محتملا بعد ذلك أن تعيد انجلترا وفرنسا النظر فى تسوية مسألة دنزج مثلما حدث فى تشكوسلوفاكيا ولكن ظهر تصميم قاطع على « عدم الدفع » هذه المرة ! ثم أعلن الزعيم الإقليمى فى دنزج ضمها إلى الريخ . . وتحركت القوات، ولم يعد هناك ما ينقذ العالم من حريق كبير ! ؟

قال مسيو سارو وزير داخلية فرنسا، عند ما لاح شبح الحرب :

« إن أصوات الملايين من قتلى الحرب العظمى الذين تصافوا الآن فى عالم الأبدية تنذرنا بحرب جديدة تجعل الأرض أتوناً من نار ودركا

سحيقاً تدفن فيه الحضارة ومجهودات أجيال متعاقبة .. يقول لنا هؤلاء الموتى إن الحرب ليست ضرورة محتمة و إن الرجال الحسنى النية والشعوب ذوى الإدارة الحسنة يستطيعون – ويجب عليهم — أن يبذلوا كل جهد لاجتناب الكارثة ولو فى اللحظة الأخيرة . . »

ولكن تغلبت نزوة الشر على نزعة الخير .

وتعطلت لغة الكلام ، وهدر المدفع بصوت راعد :

هذه هى الحرب . . .

ايطاليا والحرب

قبل سبعين عاما بعث البرنس بسمارك إلى السنيور مازينى فى فلورنسا يقول :

لما لم تستطع إيطاليا وفرنسا تغيير شكل الكرة الأرضية كانتا دائماً متزاحمتين على سطحها وغالباً عدوتين ، وقد منحتهما الطبيعة تفاحة الخلاف الشهيرة فكانت البحر المتوسط .. يجب أن تكون السيادة على هذا البحر فكرة إيطاليا الرئيسية ومحور سياستها وهدف حكوماتها وشعبها .

ولعل إيطاليا لم تكن متأثرة بمثل هذه « الفكرة » فى أى عهد مثلما كانت فى عهد موسولينى ، وقد رددت صحفه أكثر من مرة لفظة « البحيرة الايطالية » و « بحرنا » .. هذا إلى جانب علامات كثيرة فضحت مطامع إيطاليا فى هذه البقعة الممتازة التى أصبحت من مسارح الحرب الرئيسية .. فإيطاليا كانت تعد نفسها سجينة فى البحر المتوسط « وتريد أن تأخذ مفتاح أغلالها من سجانيها فى جبل طارق والسويس » !

ومنذ أن انطوت ايطاليا مع ألمانيا فى سياسة واحدة أصبح مفهوماً أنها ستدخل الحرب إلى جانبها ، وقد لعبت ايطاليا دوراً سياسياً ملحوظاً فى السنوات الفارطة خصوصاً فى وقت اشتداد الأزمات . فتعاونها مع ألمانيا فتح أمام الأخيرة أبواب فينا ، ووساطتها فى مسألة تشكوسلوفاكيا أرجأت الحرب عن موعدها فى مقابل ثمن باهظ ، ثم قيامها بالمظاهرات السياسية والمناورات الحربية فى أوقات منتقاة لإحداث تأثير خاص كان من دواعى تخوف الدول المجاورة ومن أسباب انشغال انجلترا وفرنسا ، وربما ترددها .

وكانت خطب رئيس إيطاليا ذات طابع خاص يحمل علامات التهديد والوعيد وتلوح دائماً بنذر المستقبل فيتلقاها شباب الفاشيستى بصيحة راعدة « تونس . كورسكا . السويس » وعند ما بلغ مقياس الخطر نهايته خاطب موسولينى رجاله فقال « إننا لمستعدون اليوم استعداداً ما بلغناه أبداً ، براً وبحراً وجواً ، ويسرنى أن أراكم لم تتغيروا . . فهل أنتم ثابتون ؟ فيردون بقوة نعم ! وعلى استعداد للطاعة ؟ نعم . . ومستعدون أن تقاتلوا ؟ نعم نعم ! إذن سيروا مع روما فى الأيام المقبلة ، إن الزحف لم ينته . . وما لأحد أن يوقفه ! »

ثم قال موسولينى : إن الحرب لازمة لحياة الأمة ، وإنها خير مجدد لشباب الشعوب ، وإنها منذ سنة ١٩٣٥ من الصناعات الوطنية الإيطالية !

ولما أعلنت الحرب لم تشترك إيطاليا فيها ، ولكن وقفتها المحوطه بالغموض والمنطوية على خطر لا يعرف مداه ولا موعده قد سببت إرباكا وتعطيلا لخطط الحلفاء ، وتأثيراً فى توزيع قواتهم وتوجيه دفتهم فاحتجزت فرق من الجند لها قيمتها فى أوقات شديدة الحرج والدقة انتظاراً لما يتكشف عنه الغد من نوايا إيطاليا ، وبذلك أصابت إيطاليا بصمتها ما عجزت عنه بضجيجها ! ووقفت الدول المجاورة لها فى حيرة وجزع لا تستطيع بسببهما أن تكشف عن نواياها الحقيقية فبقيت على حذر وانتظار مر . . فلما تتابعت حوادث الحرب وانتهى أمر فرنسا وجدت إيطاليا الساعة المناسبة لحمل السلاح فأعلنت الحرب فى ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ وقال موسوليني : لقد قضى الأمر وأحرقنا بمحض إرادتنا الكبارى التى خلفنا وإنى أعلن على رؤوس الأشهاد أن إيطاليا لا تنوى جر الشعوب التى تجاورها إلى نزاع فلتسمع سويسرا ويوغوسلافيا وتركيا ومصر واليونان . . .

هذه كانت الأقوال ، وسنرى ما كانت الأفعال . !

موقف مصر

تتبعت مصر الحالة الدولية عند ما تحرجت وأخذت تراقب بمنتهى الاهتمام ما كان يطرأ عليها من تطورات ، ويرجع اهتمام مصر بتطورات الأزمة الدولية فى أوروبا عند ما أصبحت مهددة بحرب عالمية إلى توقع اشتراك بريطانيا فى هذه الحرب واحتمال دخول إيطاليا فى ميدانها فى صف المانيا ضد فرنسا وبريطانيا .

فاذا وقع ذلك يكون ثمة خطر يهدد مصر .

وكانت مصر إلى جانب ذلك معرضة بحكم موقعها الجغرافى للإغارات الجوية ولبعض نتائج المعارك البحرية ولعمليات كانت منتظرة الوقوع بسبب قنال السويس . وقد رأينا فى السنوات التى سبقت الحرب كيف تحول البحر الأبيض المتوسط إلى مسرح للمناورات البحرية والجوية فلا يمتد الوقت به حتى يصبح ميدان المعارك الحاسمة .

وفى مصر الممر الرئيسى الذى يربط الشرق بالغرب . وطريقا بريطانيا إلى أجزاء الامبراطورية وهما قنال السويس التى تؤدى إلى الهند وطريق القاهرة المؤدى إلى الكاب .

كما كانت مصر مرتبطة ببريطانيا بمعاهدة لندن سنة ١٩٣٦ التى تنص المادة السابعة منها على أنه « إذا اشتبك أحد الطرفين فى حرب فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفاً وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة التى نصها : وتنحصر معاونة حضرة صاحب الجلالة ملك مصر فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة الملك والإمبراطور داخل حدود الأراضى المصرية ومع مراعاة النظام المصرى للإدارة والتشريع جميع التسهيلات الممكنة والمساعدة التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات » .

ولم تعد مصر أمة تسقط من الحساب إذا جاءت الحرب إلى البحر المتوسط فقد أصبحت من دوله المسئولة وصار لها نصيبها من مشكلاته . وقد أفادت مصر من الأزمات السياسية الدولية من حيث تقرير العلاقات بينها و بين بريطانيا ، كما أتيحت لها فرص الاستعداد واستيفاء ما استطاعت من شئون الدفاع الوطنى ، فقد هزتها الأزمات هزة الاستعداد للطوارئ فرأينا يقظة الحكومات ونشاط الجيش وتحفز الشعب وتنبهه إلى تقدير موقفه ومسئولياته .

وكان مجلس الوزراء يجتمع بين وقت وآخر لدرس الحالة الحربية و بتبادل الرأى مع السفارة البريطانية و يتصل بممثلى مصر فى الخارج لموافاته بتطورات الموقف السياسى فى أوروبا وما ينطوى فى ثنايا الأزمات ، وخصوصاً من ناحية المساعى البريطانية وموقف إيطاليا

فلما تطورت حالة الحرب باشتراك إيطاليا فى غمارها واجهت الوزارة المصرية ممثلى البلاد فى البرلمان وعرضت عليهم سياستها فنالت تأييداً إجماعياً ، واتخذ القرار الآتى فى جلسة ١٢ يونيو ١٩٤٠ .

« مصر تحترم التحالف وتحفظ العهد وتبذل فى أراضيها كل ما تطلبه الحليفة من معاونة ولا تشترك فى الحرب إلا إذا اعتدت عليها إيطاليا »

١ — إذا توغلت الجنود الإيطالية فى الأراضى المصرية مبتدئة

٢ — إذا ضربت المدن المصرية بالقنابل .

٣ — إذا حدثت إغارات جوية على مواقع الجيش المصرى

أما سياسة مصر بالنسبة للحرب فقد عبر عنها رؤساء الوزارات المتوالية أصدق تعبير فى بياناتهم التى أيدتها البرلمانات وأقرها الشعب وهى أننا لا ننشد الا السلام والاستقرار فى بلادنا وأنه لا بد من الاستعداد لمواجهة الطوارئ والسهر لتجنيب البلاد شرور الحرب ومشكلاتها وما وراءها من متاعب وصعوبات .

وفى ٢١ ابريل ١٩٤٢ أصدر رفعة رئيس الوزراء تصريحا جاء فيه « لن أعمل أو أوافق أو أسلم بجر مصر إلى الاشتراك فى الحرب أو تقديم جنود من أبناء هذه البلاد مهما كانت الظروف والأحوال . . »

وقد صدرت عدة تصريحات أثنى فيها زعماء انجلترا وأمريكا على سياسة مصر وأنها قد أدت واجبها وقامت بالتزاماتها وساعدت مساعدة فعالة فى تمهيد الطريق إلى النصر

الصــــحراء

حدود الممالك إما أنهار كبيرة أو سلسلة جبال أو صحراء ، وأقسى هذه العوائق كلها التى تعوق تقدم أى جيش وأعسرها على التذليل هى الصـــــــحراء . . .   « نابليون »

. . وعلى الرغم مما طالعتنا به المدنية العصرية وأثرت به فى الحرب المركبات والمعدات الحديثة فما زال للصحراء خطرها وما زالت حرب الصحراء حرب متاعب وأهوال وجهود مضنية ، فهذا الذى قاله نابليون وأيدته أحداث التاريخ الحربى ما زال حقيقة واقعة رغم كل تطور وتحسن وتجديد .

وربما لم تعد الصور القديمة التى شهدها الغزاة فى العهود السابقة هى نفس الصور الحديثة فلا شك أن اختلافاً متنوعاً قد طرأ على حرب الصحراء ولكن الذى تغير هو نوع القوافل وأساليب العمل ، أما طبيعة الأشياء فلم تتغير ، ومتاعب الصحراء منها ما أمكن تذليله بواسطة المعدات الحديثة ومنها ما بقى ثابتاً لم تستطع هذه المعدات أن تخفف حدته أو توهن شدته .

فقد ذكر التاريخ إخفاق أكثر من حملة فى عبور الصحراء وكيف

كان ذلك الإخفاق مسبباً مرة بصعوبة السير وأخرى بنفاد المياه وثالثة بضل الطرق — كما حدث لحملة قمبيز على سيوة فهلكت عن آخرها — إلى آخر هذه الأسباب التى أمكن تفاديها فى عصر الميكانيكا والشرائط والعجلات والتقدم فى الهندسة والطبوغرافيا . وإن كانت ما تزال تقتضى جهوداً وترتيبات مضنية .

وشهادة نابليون بمناعة الصحراء ووضعها أهم العوائق التى تحمى مملكة إنما كان بسبب ما يصادفه المحاربون فيها من مشكلات المياه وعدم صلاحية التربة وحرارة الجو وتعذر إخفاء التحركات والوقاية إلخ . . فكل يواجه فى الصحراء عدواً بغيضاً ، ففيها يجب أن يحافظ على خطوط المواصلات الممتدة مئات الأميال ، وفيها يجب أن توزع المؤن والذخائر على الطلائع المرابطة فى المواقع البعيدة ، وفيها أيضاً تجب الحيطة فى نقل الجنود وترحيل الجرحى . . كل هذا فى شمس متقدة ويباب لا ماء فيه ، تركض فى أرجائه العواصف الرملية المحرقة .

والمياه أمر حيوى للجنود وضرورياتهم ، وأيضاً للعربات . ويتطلب ضمان توفرها تفجير نهر صناعى يتبع الجيش فى تقدمه وذلك بمد المواسير وحمايتها . كذلك بتجهيز عربات خاصة لنقل المياه ، وعمل خزانات لحفظ كميات كبيرة بمثابة احتياطى ، مع مداومة الكشف عن موارد المياه المحلية أثناء الطريق واستغلالها ، وذلك كله يحتاج لمجهودات كبيرة وعناية وافرة .

والعقبة الثانية هى قسوة الجو على المحاربين فى الصحراء ، وخصوصاً للجنود الذين لم يعيشوا فيها ، بل ولم يألفوا غير حياة ملؤها الرفاهية يتمتعون فيها بالمدفئات أو المرطبات والمراوح ومكيفات الهواء .. فى أحوال جوية قليلة التحول قلما تشتد أو تقسو فإذا انتقلوا لمسرح الحرب فى الصحراء وجدوا شيئاً موحشاً مقلقاً ، وطالعهم عدو شديد يتمثل فى جو هذه الفيافى القاسية الحرارة فينال من صفاء فكرهم وحسن استعدادهم و يؤثر فى صحتهم وشهيتهم للقتال وخصوصاً وقد أصبح الجنود مغيبين فى بطون الدبابات والعربات فيلاقون الأمرين من الحرارة الطبيعية وحرارة المركبات ، فوق ما تتعرض له المشاة أثناء السير من شمس الصحراء القاسية التى تسبب إصابات شديدة ، وغالباً تتولد الأمراض للكثيرين منهم بسبب هذا الجو الردىء فتبرز مشكلة جديدة وهى ضرورة توفر الاستعدادات الطبيــة ووحدات العلاج وترتيبات ترحيل الجرحى والمرضى إلى مناطق العمران حيث تتعذر فى الصحراء أسباب المعالجة الدقيقة أو أماكن تناسب دور النقاهة والاستشفاء

و إلى جانب الحرارة يثب عامل آخر من عوامل العناء والإعاقة وهو الزوابع والتيارات الهوائية بما تحمله من ذرات دقيقة من الرمال تقذى العيون وتشتد فى بعض الأحوال فتفتر الهمة وتضر بالأعصاب وهى إلى ذلك مفسدة للعربات عند نفاذها إلى الأجزاء الميكانيكية ومخازن المياه والبنزين ...

ثم مشكلة تعذر الإختفاء . . فالصحراء تكشف تجمعات الجيوش وتحركاتها مما لا سبيل لإخفائه أو وقايته ، ولا يوجد فيها ما يساعد على الاستتار الذى تعطيه شوارع المدن أو الأرض المزروعة أو الطرقات وزاد ذلك إشكالاً — على المدافعين خصوصاً — نشاط السلاح الجوى إلى اكتشاف محلات العدو وأوضاعه وأخذ الصور الجوية الدقيقة لمواقعه مما يساعد على وضع خطط هجومية أكيدة النجاح .

ومشكلة التموين فى هذه الحرب عويصة لأنه فضلا عن الواجبات الاعتيادية فى الميادين الأخرى تتطلب هذه الارجاء حمل مقادير عظيمة من المياه والبنزين ونقلها مئات الأميال عبر الصحراء ، وتوزيعها على مئات النقط والمراكز المبعثرة هنا وهناك فالحاجة كبيرة إلى البنزين وتوفر وسائل الإصلاح التى تتطلبها طبيعة الأرض غير المهدة الخالية من الطرق ، و إلى ضرورة وجود قطع الغيار بوفرة

فالجيش يقاتل بمعداته أما فى حرب الصحراء فإنه يقاتل بقطع الغيار وورش التصليح. إذ أن سير هذه المركبات الميكانيكية المستمر فى الرمل والطرق الصحراوية يؤثر فى الدبابات والسيارات مما يجعل الإصلاح المستمر وتغيير الالآت وتجديدها أمراً ضرورياً ، ثم أن تعدد الأسلحة واختلاف السيارات يجعل هذه المهمة شاقة

ثم إنها حرب الفضاء الفسيح ، فميدان الصحراء يحتاج الأمر فيه إلى السرعة والعمليات الخاطفة

غير أن العامل الأساسى فى حرب الصحراء هو المياه وضرورة توفرها وإلى جانب ذلك لا يصبح ممكناً أن تقاد حملة عبر الصحراء ما لم يكن قوامها حشوداً من الدبابات والحملة الميكانيكية والطائرات حيث أن أساس هذه الحرب السرعة وخفة الحركة . . فعامل المياه وعامل الوقت هما محور الحرب الصحراوية ولا يمكن التثبت من كفاية قوة والاطمئنان إلى أعمالها ما لم تكن قد استعدت استعداداً كافياً من هذين العاملين .

أما انتصار الصحراء فأساسه الروح المعنوية . . فالصحراء شديدة ومصاعبها متعددة ، ولكن الذى يذلل شدتها ويهون صعبها هو قوة نفوس المحاربين وعزيمتهم وروح القتال التى تنطوى عليها صدورهم فلا تؤثر فيهم محن الطبيعة ما دام شيئاً قد ثبت فى أذهانهم واختلط بدمائهم، وهو :

العدو . . لقاؤه . . ومقاتلته . . والقضاء عليه

وســــــــــــــــــنرى

برقه
البردية
كابوتزو
سيدى عمر
مساعد
السلوم
بقبق
سيدى براني
مرسى مطروح
ليبيا
الشقة
مادلينا
بير الكنايس
بير الحسنه
بير قطراني
بير خالدة
بير فؤاد
امر القطاره
المملكة المصرية
جغبوب
عين كوكب
واحة سيوه
البحر الأبيض المتوسط
رشيد
الإسكندرية
الدخيلة
خليج العرب
فوكه
الضبعه
سيدى عبد الرحمن
العلمين
هضبة الرويسات
دير المناصب
الحمام
برج العرب
العامرية
دمنهور
كفر الشيخ
كفر الزيات
طنطا
شبين الكوم
الحجيات
وادي النطرون
بحيرة قارون
الفيوم
ابشواي

خط الحدود
طرق
سكة حديدية

الحدود الغربية

الحدود الغربية *

الحدود بين صحراء مصر الغربية ولوبيا الإيطالية تمتد من بقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين السلوم المصرية والبردية اللوبية ، وتسير هذه الحدود إلى الجنوب فى خط متعرج إلى ما بين سيوه وجغبوب ثم تستقيم على خط طول ٢٥° إلى العوينات *

وقد أقام الإيطاليون من أعوام قبل الحرب حاجزاً من الأسلاك الشائكة على امتداد هذه الحدود ولكنه ليس بذى قيمة حربية

و إذا استثنينا عدة واحات قليلة متناثرة يمكن القول بأن الصحراء الغربية أرض قاحلة تتخللها هضاب ومرتفعات متباينة..وأرض الصحراء تجمع المتناقضات ففيها هضاب رمادية اللون غير متساوية وسهول مترامية من الحصى على ألوان مختلفة وتلال صغيرة مسطحة من الصخر الأبيض أو الأسود وأرض صلبة مستوية ، ومساحات من الطفل الجيرى وطرقات مديدة متفاوته السعة والارتفاع ، ومنخفضات تملؤها أكوام الرمال . .

---

* تمت الاتفاقية على هذه الحدود بين الحكومة المصرية وكان يمثلها دولة أحمد زيور باشا والحكومة الايطالية وكان يمثلها المركيز كبيازو وذلك بدار رياسة مجلس الوزراء بالقاهرة فى ٦ ديسمبر ١٩٢٥

وقد تكون الصحراء رمالا ثقيلة يصعب سير العربات عليها أوصخوراً صلبة يتعذر اجتيازها أو تكون أرضاً صلبة مستويه تسمح بسير الحملات الميكانيكية والدبابات ، وعموما تندر الطرق الصالحة وتصعب التحركات.

ولما كانت الحرب الحديثة تقوم على أساس القوات الميكانيكية فإن الصحراء لم تعد مانعاًو إن كانت تكلف غالياً ، فطبيعة الأرض وخلوها فى الغالب من الطرق الصالحة تجعل الحركة بطيئة وتلزم الأفراد بالبطء والاحتراس وتجهد العجلات والآلات . . وقد تظهر أراض لاسبيل لاجتيازها حيث سلاسل الرمال الرخوة ، أو صخور صماء ذات انحدارات شديدة وحيث لا توجد هيئات طبيعية أو علامات مميزة أو أغراض يمكن التعرف بها على الطريق . . وتتضارب آثار العربات وتختلف الدروب فتصبح الملاحة البرية من أشق صور الحرب .

وفى أرجاء هذه الصحراء الشاسعة عدة طرق مهدت وأخرى صالحة للاستخدام فى الأغراض الحربية ، وهى تمتد من وادى النيل إلى الحدود الغربية والمراكز الساحلية ويوجد خط حديدى من الاسكندرية إلى مرسى مطروح تجاوره طريق مرصوفة إلى الحدود ، ويقابله فى لوبيا طريق السيارات (أوتوستراد) الذى افتتحه موسولينى فى شهر مارس سنة ١٩٣٧ ويبتدىء من كابوتزو على الساحل مارا بالبردية وطبرق والغزالة ودرنة و بنغازى وأجدابية والعقيلة وطرابلس حتى يبلغ حدود تونس وطوله نحو ١٨٠٠ كم

المناوشات الأولى

عند ما أعلنت إيطاليا الحرب على انجلترا وفرنسا وضح أن مهمتها ستكون حجز قوات إنجليزية كبيرة فى كل مكان يلمس حدود إمبراطوريتها ووضح أن الحدود المصرية ستكون تحت خطر التهديد ، فقد كان الإيطاليون يحشدون جنودهم وطياراتهم ويتأهبون .

ولما غزت إيطاليا اليونان كان على الإنجليز مساعدة حليفتهم غير أن ذلك لم يمنع توالى وصول الإمدادات لمصر من الهند ونيوزلندا واستراليا فى سيل متلاحق نظراً لسلامة المواصلات بالشرق فضيّع ذلك على الإيطاليين فرصة القيام بعمليات سريعة حاسمة فى صحراء مصر بينما تمكن الإنجليز من زيادة معداتهم واستعداداتهم .

وكانت خطة الدفاع قد وضعت قبل نشوب الحرب بسنوات تمشياً مع التيارات السياسية وبوادر الخصومات فاتخذت التدابير لتحصين مرسى مطروح ومناطق الحدود عامة وجهزت بالملاجئ الحصينة وحفر الدبابات وأعدت حقول الألغام ونطاقات الأسلاك الشائكة وغيرها من وسائل الدفاع الحديثة مع إصلاح الطرق ومد مواسير المياه ووسائل المواصلات المختلفة .

وقد اقتصرت الأعمال الحربية من يوم إشتراك إيطاليا فى الحرب على نشاط الطائرات وأعمال الدوريات بينما كانت القوات تحشد فى الجبهتين ومسائل التموين والمواصلات تشغل مجهودات الفريقين حتى صدر أول بلاغ رسمى من مركز قيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط باحتلال الإنجليز لقلعتى كابوتزو ومادلينا بعد ضربها بقنابل الطائرات ، وأن القوات البريطانية أسرت مائة جندى أو يزيد ، وأن الطائرات هاجمت الأهداف العسكرية فى سيدى عزيز وواحة جغبوب ، وضربت أنابيب المياه الممتدة من البردية وخطوط المواصلات المرتبطة بطبرق

كما كانت إغارات الطائرات الإيطالية على السلوم و برانى ومرسى مطروح تحتل البلاغات الرسمية منذ السادس عشر من شهر يونيو ، واعتادت الأسكندرية أن تسمع أصوات صفارات الإنذار غير مقترنة بعدوان حتى كانت ليلة ٢٣ يونيو وما تلاها من يوم عصيب فقد سمعت الإنذارات مع دوى المدافع وضجة القذائف من المساء حتى الثالثة صباحاً ثم استؤنفت الغارة بعد عشر دقائق حتى الخامسة والثلث وتبع ذلك غارة ثالثة ورابعة وخامسة فى النهار وقالت الجرائد أن هذه الغارة « شردت نوم المدينة وأرتها نموذجاً حياً من العدوان على المدن الآمنة . . . »

ولعل من الطريف أن نذكر أن هذه الغارة قامت بها تسع طائرات

ألقت نحو ستة عشر قذيفة ونتج عنها قتل شخصين و إصابة ٢٣ شخصاً . . . ! ؟

. . وبدأت القوات الإيطالية تعمل منذ أول سبتمبر فتقدمت إلى السلوم ومساعد وقد كانتا هدف الغارات الإيطالية المنتظمة ومرمى القنابل والقذائف المستمرة وأخذ الماريشال جرازيانى فى تعزيز دفاعاته غرب الحدود ، ثم تقدمت عناصر قوية من سيارات القتال واتصلت بالقوات الإنجليزية يوم ١٥ سبتمبر حول بقبق فأجلتها عنها واستمرت فى الزحف بالطريق الساحلى واحتل طابوران سيدى برانى مساء ١٦ سبتمبر

وكانت القوات الإيطالية مكونة من فرقتين مدرعتين تعززها مدفعية قوية ومشاة محملة فى عربات ومع هذا لم يجرؤ القائد الإيطالى على « البلتز كريج » الألمانى فيهجم هجوماً خاطفاً على مصر خشية أن تنهك قوى جنوده حين تصل إلى مرسى مطروح فزحف حتى بلغ سيدى برانى — وهى على مسيرة ١٠٠ كم من الحدود — وأخذ يثبت مراكزه و يعزز قواته متخذاً من هذه البلدة قاعدة حربية جديدة يستند إليها فى هجومه التالى على أن يزحف فى فترات متباعدة وفى مراحل قصيرة لا يزيد طول الواحدة منها على ٢٠ ك . م فينشىء فى كل مرحلة معسكراً منيعاً كما فعل فى « المقتيلة »

وعمد إلى تأمين جناحه الأيمن بإنشاء سلسلة من المعسكرات القوية

التحصين فى الحلفاية و بئر صوفانى ونبيوه وتمار بشكل دوائر محصنة أقيمت جولها المتاريس وأوكار الرشاشات وأمامها حقول الألغام ووراءها الأسلاك الشائكة وداخلها الجنود والأدوات والمواد وغيرها من وسائل التحصين والتسليح والتموين

وكانت خطة الإنجليز قد وضعت وفاقاً لمبدأ الحرب الصحراوية الذى يقول : إذا كانت الصحراء حليفتك فإن من الصواب أن تحمل خصمك على التوغل فيها قبل أن تصوب إليه ضربتك

وذلك بأن يكون خط الدفاع الأول فى مرسى مطروح ، فيضطر الجيش الإيطالى إلى أن يقطع المسافة إليها من السلوم — وطولها حوالى ٢٣٠ ك . م — فى صحراء مقفرة كثيرة الوعورة خالية من الماء ، فلا يبلغ هذا الخط حتى تكون قواه قد وهنت، وابتعد عن قواعده فتتعذر تموينه واستهدف لقنابل الطائرات وقذائف الأسطول على طول الطريق

ولما توقف الإيطاليون فى دفاعاتهم الجديدة وطال الوقت فى انتظار هجومهم أعطيت الفرصة للجنرال ويفل لزيادة قواته ومعداته والفراغ مما يلزم حملة كبيرة فى الصحراء . . وفى ليلة ٨/٧ ديسمبر بدأ هجومه الكبير.

كانت خطة ويفل الاستيلاء على سيدى برانى والنفاذ من منطقة الدفاعات الإيطالية — التى أحدثت الدوريات ثغرة فيها — ثم التقدم إلى بقبق ثم السلوم على أن يكون الهجوم بموجات متتالية من الدبابات

تعاونها المشاة وكان على الأسطول أن يضرب مقتيلة فى الوقت الذى تهاجمها فيه قوات معينة فتثبت القوة الموجودة فيها وتمنعها من التعاون مع غيرها ولذلك قام الأسطول بضرب سيدى برانى والأراضى والأغراض الهامة وقامت الطائرات بغارات عنيفة مستمرة على مطارات العدو وقواعده ومواصلاته للسيطرة على أجواء المعارك .

وفى ليلة ٨/٧ ديسمبر قامت بعض القوات البريطانية من دبابات ومشاة تحملها السيارات فى هدوء وتكتم فاجتازت مائة كيلومتر وقبل أن يبزغ ضوء الشفق كانت الجنود رابضة فى الأرض لا تبدى حراكاً وقد اتخذت جميع الوسائل الفنية لإخفاء كل مدفع وكل سيارة وكل جندى وظل الهدوء والتكتم ضار بين على الميدان طيلة يوم الأحد وفى الليل استؤنفت حركة التقدم ، وبدأ الهجوم ببزوغ فجر ٩ ديسمبر هجوماً خاطفاً ومفاجئاً لم يجل لحظة بخاطر الإيطاليين . . فقد كانوا يعدون عدتهم لهجوم قريب يقومون به ، وكانت طائرات سلاح الجو لا تنقطع عن إغاراتها العنيفة ووحدات الأسطول تلقى قذائفها المدمرة .

وكان الجنرال الإيطالى ماليتى قد اتخذ نبيوه قاعدة لغزو مصر فأقام معسكراً محيطه نحو أربعة أميال حصّنه من الخارج بالألغام الأرضية ومن الداخل بمدافع ميدان من عيار ١٨ ط وبمدافع مضادة للدبابات وأخرى مضادة للطائرات ورشاشات آليه .

وفى الوقت الذى كانت الحاميات تقضى أعمالها العادية بدون أى

تفكير فى قتال قريب فوجئ الجميع بالحرب بين ظهرانيهم والدبابات على أبوابهم ، فانبعث فى قلوبهم الرعب عند ما دهمتهم القوات الإنجليزية وارتبكت خطة الدفاع ، وكانت المفاجأة تامة ، وما كاد الإيطاليون يأخذون بمهمة الدفاع حتى كانت الهزيمة قد دارت حولهم ، فتوقفوا وسلموا .

وتحركت دبابات الجيش تتقدمها غلالة من نيران المدفعية تحوى الدخان واجتازت الثغرة التى أحدثتها الدوريات الأمامية فى دفاعات العدو فكانت واقعة سيدى برانى موقعة دبابات الجيش وقد انتهت يوم ١١ ديسمبر وبلغ عدد الأسرى من الإيطاليين حتى ذلك التاريخ ستة آلاف أسير .

وكان مركز سيدى برانى والمراكز الحصينة المختلفة فى المناطق المجاورة تبدو كعقبات لا سبيل للتغلب عليها ولكن سقطت سيدى برانى وجميع المنطقة الساحلية .

وترك الإيطاليون مثلث سيدى برانى — مقتيلة — نبيوة وانتقلوا إلى مثلث السلوم — كابوتزو — البرديه ، وقد وقعت فى أيدى الإنجليز يوم ١٦ ديسمبر وتم الاستيلاء على مساعد وسيدى عمر وشيفرزن وهى من الحصون التى أقامها العدو على الحدود .

وترجع أسباب الهزيمة الإيطالية فى هذه الجولة إلى العوامل الآتية :

(١) إهمال أعمال الدوريات والاستطلاع ، وبذلك لم يستطع

الإيطاليون الحصول على المعلومات أو معرفة نوايا الإنجليز حتى فوجئوا بالقتال كما لم أنهم يعتنوا بمكافحة الدوريات الإنجليزية التى قامت بأعمال أكثر من الاستطلاع وأحدثت ثغرة فى خطوط الدفاع لم يمكن سدّها حتى تدفقت منها القوات الإنجليزية فى هجومها المظفر .

(٢) فقدان السيطرة الجوية ، فاستطاع الإنجليز امتلاك ناصية الجو والاستفادة من هذه الميزة العظيمة ، فالتفوق الجوى مهد للجيش الطريق لعمليات ناجحة وأيده بمساعدات فعالة .

(٣) إنزواء الأسطول الإيطالى مما جعل السيطرة البحرية فى أيدى الإنجليز فأمكن لأسطولهم مساعدة الجيش زيادة على نشاطه البحرى .

(٤) ضعف الأسلحة المضادة للدبابات وهى التى تتيح للمدافعين الثبات أمام القوات المدرعة ، أما الاعتماد على المواقع الصناعية فقد أخفق تماما ، وهذا ما عرفه الإنجليز وتجنبوه فمدافعهم المضادة للدبابات كانت سبب نجاح دفاعهم .

(٥) إرتباك الخطة الدفاعية بسبب المفاجأة التى تمت بهجوم القوات الإنجليزية فى مكان ووقت لا يفكر فيهما العدو .

(٦) ضعف الروح المعنوية وفقدان ميزة المباداة وملازمة التردد للخطط الإيطالية مما نلاحظه فى أمثلة كثيرة خلال هذه العمليات

ففى أيام قليلة انهارت قوة الإيطاليين وتم جلاؤهم عن الحدود المصرية عدا أربعين ألفاً قدر لهم أن يحققوا رغبة زعيمهم فى الارتواء من ماء النيل ... ! ؟

سر تقدم الانجليز . . .

فى أسبوع واحد حطمت مجهودات ثلاثة أشهر

وأخلت القوات الإيطالية صحراء مصر وتراجعت بغير انتظام من مواقع محصنة كانت تظنها لا تقهر وكانت تعدها قاعدة لهجوم جديد .

ويرجع نجاح البريطانيين إلى دقة الترتيبات الإدارية وخدمات التموين ، والسيطرة الجوية الفعلية ، ومعاونة الأسطول ، واستخدام المفاجأة والمناورة بمهارة ، ونشاط الدوريات ، وهمة المهندسين فى رفع الألغام وإزالة الموانع ، وقوة دبابات الجيش التى كانت السلاح الحاسم فى معركة سيدى برانى . .

وقد قال الجنرال ويفل لجنوده المنتصرين وهم يتعقبون عدوهم :

« ستكون نتيجة القتال فى الصحراء الغربية من الحوادث الحاسمة فى الحرب وسيكون لانهزام العدو أثر لا يقدر ليس فى الشرق الأدنى وفى الموقف الحربى فحسب بل وفى مستقبل الحرية والمدنية فى العالم . . نحن متفوقون على العدو فى كل شىء إلا فى العدد . نحن أعلى تدريباً وأحكم رماية وأحسن عدة ، وفوق هذا وذاك لنا قلوب أقوى وتقاليد

أسمى ونقاتل دفاعاً عن قضية أعلى وأجدر . . فلنضرب بشدة »

وكان السؤال الذى يجول بالخاطر بعد تطهير الحدود المصرية من الإيطاليين هو هل تتقدم القوات البريطانية المنتصرة وتواصل الزحف فى برقة ، بعد أن تغيرت طبيعة الأرض التى أمامها فأصبحت تساعد العدو على مضاعفة جهوده فى المقاومة خصوصاً وقد كان يلوح أن الجنرال ويفل بعيد عن كل فكرة ترمى إلى اجتياح لوبيا وأنه يعمل فقط للدفاع وأن الماريشال جرازيانى كان قابضاً على دفة المبادأة . . ؟

وقد أجاب على ذلك الجيش الثامن فقد استمر فى هجومه بغير توقف مذللاً جميع العقبات التى فى طريقه إلى البردية ، وقد لبث محاصراً البلدة عشرين يوماً دون مهاجمتها لأنه عقب الانتصار الخاطف فى الصحراء والتقدم مائة ميل بعد الاستيلاء على سيدى برانى كانت هناك حاجة إلى استعداد جديد ، وكانت البردية تعد مفتاح الموقف فى لوبيا ففوق أنها حصن يشتمل على المستودعات الكبيره للمؤنة والمهمات الحربية يُسهِّل الاستيلاء عليها بعض مشاكل التموين، فإنها ستكون قاعده أمامية للزحف على البلاد الواقعة وراءها، كما أن استخدام الميناء يوفر نقل المؤن بالطريق الطويل الممتدة من مرسى مطروح وتصبح لها قيمة كبيرة عندما يأتى وقت الزحف إلى الأمام و إخراج قوات الإيطاليين من أفريقيا

وبدأت الدوريات الإنجليزية تستطلع الموقف فى البردية وتناوش استحكاماتها التى كانت تمتد إلى خمسة أميال مؤلفة من أوكار المدفعية

المضادة للدبابات ومخابىء الرشاشات ومن أسلاك شائكة وحفر وموانع وتجهيزات شتى قضى فى إعدادها ثلاث شهور ، كما كان الموقع الطبيعى للبردية حصيناً حيث الأرض صخرية تخترقها الأخاديد التى يحتمى فيها المدافعون كما كان وادى الجرفان فى الجهة الشمالية منها بمثابة سد طبيعى لإعاقة الدبابات

وقد مهد لفتح البردية بغارات جوية عنيفة بدأت فى ليلة رأس سنة ١٩٤١ بهجوم وصفته الأنباء بأنه « أعظم غارة فى الحرب ألقيت فيها القنابل » فقد مضت الطائرات أسراباً بعد أسراب طيلة الليل فألقت قنابلها كالمطر على البردية حتى أوهنت قوى دفاعاتها وأحدثت تصدعاً فى الحصون والاستحكامات وكان من أغراضها حمل الإيطاليين على الاعتقاد بأن الهجوم البريطانى بادىء فى الصباح فبقى الإيطاليون ينتظرون مجىء ذلك الهجوم فلم يجىء وراحت الطائرات ليلة ٢ / ٣ يناير يناير تضرب البردية ضرباً متواصلا حتى إذا انبثق ضوء القمر شاركتها وحدات الأسطول فى ضرب الاستحكامات فبعث المدافعون طائراتهم من قاذفات القنابل لمهاجمة الأسطول فردتها نيرانه خاسرة ، وأخذت المدفعية الإيطالية فى جنوب البردية تطلق نيرانها الشديدة على وسائل المواصلات البريطانية وكان الضرب مركزاً عنيفاً ولكنه قلما كان دقيقاً ، وأخذت قاذفات القنابل البريطانيـة تتابع أعمالها التدميرية فوق تحصينات البردية ومن حولها طائرات القتال التى كانت تحمى سيارات

الاتصال ، ولم تبد مقاومات تذكر من الطيران الإيطالى

وقد أفاد الإنجليز من دورياتهم أجل الفائدة إذ لا يشغل بال المهاجم شيء أكثر من حصوله على المعلومات الصحيحة عن أوضاع العدو ونواياه وهو لا يستطيع أن يضع خطته دون أن يكون أساسها قائماً على شيء من المعلومات الحيوية وبذلك يستطيع أن يعيّن أفضل منطقة للهجوم وأسلم طريقة لتنفيذه وأنسب وقت للحصول على المباغتة.. فعامل الوقت أساسى فى الحرب ، وهو فى حرب الصحراء شيء لا يمكن حصر ميزاته ، كما أنه لا يمكن الحصول على أى نجاح قبل الاستطلاع الكافى والتحضيرات المعتنى بها والبت فى أنسب الأوقات ليمكن مباغتة العدو وتدمير خطته .

ولا ينسى فى هذا الدور مجهود فرق المهندسين ونهوضها فى وسط الأخطار الماحقة إلى موانع الأسلاك الشائكة لإزالتها وتدمير أشراك الدبابات وسد الفجوات وتدمير المواقع المنيعة مما ساعد على إحداث ثغرتين فى التحصينات الخارجية فتقدمت فرقتان بريطانيتان من الوحدات الميكانيكية واخترقتا الاستحكامات واستطاعتا مع المشاة الاسترالية أن تدور حول وداخل خطوط الدفاع وأن تبيد من الخلف المواقع الأمامية ، وفى الوقت نفسه أخذت وحدات الفرنسيين الأحرار وفرقة ميكانيكية بريطانية تحول دون تحرك العدو من الشمال وقد قاوم الايطاليون أولاً مقاومة عنيفة ولكنها تراخت بعد قليل بل

انهارت فاختُرقت التحصينات بعد خمس ساعات فقط وتم تطويق البردية من الشمال والغرب مما سهل تنفيذ الهجوم .

وبعد ظهر ٥ يناير كف العدو عن كل مقاومة وسقطت البردية مع جميع القوات التى كانت تدافع عنها وجميع المؤن والمعدات الحربية وأُخذ الجنرال برجونزولى قائد الحامية وعدد من ضباط أركان الحرب أسرى .

ويرجع انتصار الاستراليين إلى الاستعدادات الميكانيكية ومهارة الدوريات فى أعمالها الاستطلاعية وتسللها إلى التحصينات الإيطالية والوقوف على أوضاع المدافعين وتجهيزاتهم بالتفصيل، كما أن معركة البردية كانت أوضح صورة للتعاون الوثيق لقاذفات القنابل وطائرات القتال والوحدات الميكانيكية وقوات الأسطول فأمكن تحطيم الحلقة الحديدية من التحصينات المقامة حول البلدة المنيعة فى ستة وثلاثين ساعة فقط .

واستمر الزحف غربا .

وكان الطريق البردية — طبرق .

وتقع طبرق على بعد ستين ميلا غربى البردية ولها ميناء صالحة لرسو السفن والطرادات الصغيرة ومنذ وقعت البردية فى أيدى الإنجليز كانت دورياتهم تخرج للاستكشاف وجمع المعلومات عن الاستحكامات التى كانت تتكون من خطين الأمامى منهما يبلغ ثلاثين ميلا والثانى ١١ ميلا وبهما فخاخ للدبابات وأوكار للمدافع والرشاشات وأسلاك شائكة حول الأطراف الخارجية .

وفى فجر ٢١ يناير بدأ الهجوم الرئيسى على طبرق ونجحت قوات

الإمبراطورية تؤيدها سفن الأسطول والطائرات البريطانية في اختراق الخطوط الخارجية والداخلية من الاستحكامات .

وكانت العواصف الرملية الكثيفة تكتسح الصحراء باستمرار في هذه المرحلة فأعاقت التقدم وكان الجنود يتحركون وسط سحب صفراء من الغبار كانت الرؤية لا تزيد فيها في بعض الأحيان عن عدة أمتار .

وهجمت القوات البريطانية والفرنسية من جميع نواحي قوس الاستحكامات التي كانت تحيط بطبرق والذي يبلغ طوله ٢٠ ميلاً وقام سلاح الطيران بمساعدات قيمة للقوات الهاجمة فأسكتت قاذفات القنابل مدفعية الايطاليين كما كانت طائرات القتال تقوم بداوريات الاستكشاف .

وقاومت قلعتا سولاغو وأبريت فأسكتتهما المدفعية قبل أن تهاجمهما القوات الاسترالية المؤيدة للدبابات وكانت قوة طبرق فرقة كاملة غير الحامية الدائمة

وسقطت طبرق بعد مقاومة ثلاثة أيام ووقع نحو ١٤ ألف أسير مع عدد من القواد فزاد ذلك من ارتباك خطط الايطاليين وعجزوا عن التمسك بالأرض والدفاع الحقيقي ، وكان التقهقر مضطرباً لا أثر فيه للفن الحربي أو عمليات التعطيل وجهود المؤخرة مما جعل عمليات المطاردة سريعة ميسورة فوصل الإنجليز بغير عناء إلى درنه قبل أن تستعد للدفاع يصد عنها التيار المندفع نحوها .

وتقع درنة على بعد ٩٠ ميلا غرب طبرق وترتكن على الساحل على حافة وادى ترتفع الجبال خلفه إلى مسافة تبلغ ٨٠٠ قدم ولم يكن للمدينة خلف أسوارها القديمة سوى القليل من مهيئات الدفاع وقد نصبت فيها بعض المدافع الساحلية والمدافع المضادة للطائرات .

وزحف المشاة الاستراليون بسرعة نحو موقع الأسلاك التى كانت تحيط بالاستحكامات الخارجية وأتموا اجتيازها وكانت حامية درنة مكونة من ١٠٠٠٠ جندى فدافعت دفاعاً قوياً لم يره البريطانيون منذ بدأ زحفهم .

وسقطت درنة صباح ٣٠ يناير بعد زحف ١٧٠ ميلاً فتم بذلك الاستيلاء على ثالث مدينة محصنة وكانت توجد فيها المياه العذبة بكثرة ويمكن الاستفادة من مينائها .

وكانت القوات البريطانية قد نظمت فى قسمين عقب الاستيلاء على طبرق فاتخذ القسم الأول طريق الساحل وأخذ درنة وسار القسم الثانى غرباً نحو بمبة والمخيلى وكان مؤلفاً من وحدات مصفحة ميكانيكية إذ كانت الخطة أن يسير الإستراليون نحو بنى غازى على الطريق الساحلى لمهاجمتها من الأمام بالمواجهة بينما تدور القوات المدرعة حول مؤخرة العدو لقطع خط رجعته والفتك بقواته المتقهقرة وهذا هو الواجب الأساسى للقوات المدرعة فى مثل هذه العمليات .

تقدمت القوات المدرعة فى طريق المخيلى بعد سقوط درنة وهاجمت

القوات الإيطالية المدرعة التى أخذت بطريق الانسحاب وبدأ التقدم نحو بنغازى فى طريق شاقة تبلغ ١٥٠ ميلا وكان الأمر يتطلب تجهيزات عديدة للسير فى هذه المرحلة المجهدة بعد أن طالت خطوط المواصلات طولاً لم تعرفه الحملات الحربية من قبل وبالنسبة لتنظيم خدمات التموين ومهمة إمداد وشد أزر قوات كبيرة وسط صحراء مقفرة بعد ما بذلت من مجهود وما لاقت من متاعب شداد .

وعلى طول الطريق المديدة الموحشة كانت العواصف الرملية تتراقص فى الصحراء والأرض تزداد صعوبة ووعورة تنفد الأمل وتقعد عن العمل ولكن الجنود كانوا ظمأى للحاق بالعدو وإفساد خطته ، يسرعون لكسب ميزة السبق فقد كانت تلك معركة السرعة والصبر والتحمل والعزيمة والروح الهجومية .

ففى يوم ٤ فبراير بدأ التقدم أو بدأت المعركة مع الأرض فالمركبات تغور فى الرمال أو تصطدم بالصخور أو تدور حول بقاع لا يمكن اجتيازها فى ساحة موحشة خالية من العلامات والتحديدات تبعث على القلق والشكوك . . وأخيراً ظهرت قلعة مسوس وتم احتلالها بغير مجهود كبير وفى اليوم التالى ظهرت طريق بنغازى فى مكان لم يصله العدو بعد ووضعت خطة دقيقة لمفاجأة الإيطاليين عند تقهقرهم وذلك بعدم إشعارهم بخطورة خط الرجعة فمنعت طائرات الاستكشاف من التحليق وكسب الإنجليز السباق ووصلوا إلى الطريق قبل أن يصل الانسحاب الإيطالى

إليه وكانت المفاجأة تامة إذ لم يتوقع العدو أن يصل الإنجليز إلى هذا المكان وفى هذا الوقت !

وأقبلت القوات الإيطالية المتراجعة فقوبلت بنيران قوية من المدفعية فارتبكت خطة الانسحاب وتوقفت العربات والدبابات وحاملات المدافع وسيارات الجنود مما كان يغطى ١٠ أميال من الطريق وإذا بالقوات الإيطالية بين فكى الكماشة ووقعت فى مكان لم تكن تتوقعه على الاطلاق بعد انسحابها من بنغازى .

وحدثت معركة رهيبة حقاً بسبب ما كان فيها من قوات متكافئة ووحدات ميكانيكية ومدفعية قوية فى الطرفين، وتبادل الفريقان زمام الموقف أكثر من مرة ثم دخلت قوات إنجليزية جديدة إلى المعركة فاستقرت كفة الميزان نهائياً وحاول الإيطاليون كثيراً شق طريق يمرقون منه فلم يسعفهم الموقف على النجاح ثم هجمت الدبابات الإيطالية هجمة أخيرة فأخفقت وأخيراً هدأ الموقف الحربى وصدر بلاغ إنجليزى يقول : إن قوات العدو قد سحقت تماماً .

هذه كانت معركة بيدافوم وقد حدثت بين قوتين مجهدتين غير مستعدتين لمعركة كبيرة وكانت الكفة الإيطالية راجحة بكثرة العدد ولكن الكفة الإنجليزية كانت راجحة بقوة العتاد ولذلك تأرجحت الكفتان طويلاً ثم حدث الاستقرار بفضل الروح المعنوية والقيادة

الحسنة ونشوة النصر الذى دارت كؤوسه على طول الطريق من البردية إلى بنغازى .

أما القوة الأخرى التى تقدمت من طبرق واستولت على درنة فلم تعط العدو فترة للراحة وظلت تدمر مواصلاته وتزيد تراجعه اضطراباً فلم يحسن الدفاع عن بنغازى ولم يأت صباح ٦ فبراير حتى كانت المعركة قد اختتمت بتسليم المدينـة ووقوع ولاية برقة بأسرها فى أيدى الإنجليز .

وهكذا تم قطع ١٥٠ ميلاً فى أسبوع واحد وهو عمل من الأعمال العسكرية الطيبة .

وكانت بنغازى مقر قيـادة المريشال جرازيانى ومركز قاعدته الحربية وكانت حاميتها وحدها ٣٠٠٠٠ جندى .

وفى ٢١ مارس سلمت جغبوب وكان قد اكتفى بمحاصرتها بعدد قليل من الجنود حتى تسقط من تلقاء نفسها .

وبذلك حدث فى أقل من شهرين اكتساح الجيوش الإيطالية واستعادة الصحراء المصرية ، واجتاز الجنرال ويفل ما يقرب من ٤٠٠ ميـل ضد عدو مكوّن من إحدى عشرة فرقة مجهزة بجميع معدات القتال الحديثة وفى مواقع أعدت بعناية للدفاع والهجوم خلال شهور سابقة وتم تحطيم أربع مواقع رئيسية بأقل خسائر ممكنة وأخذ سيدى برانى وطبرق والبردية و بنغازى والاستيلاء على ولاية برقة كلها .

ولعل أحسن وصف لما حدث هو ما جاء في بيان مستر تشرشل عند ما أبلغ مجلس العموم والشعب البريطاني والأمم المتحدة أنه « في خلال ثماني أسابيع حدثت تلك الحملة التي ستدرس فيما بعد من أمثلة الفن العسكري ، فالجيش الإيطالي في ليبيا البالغ مائة وخمسون ألفاً قد أسر أو أبيد ووقعت في أيدينا ولاية برقة . »

أما عن أسباب النجاح فقد ذكر أنه لم يكن في الإمكان نجاح الحملة لولا سيطرة الطيارين البريطانيين على الموقف ولو لم يطارد الأسطول الإنجليزي مراكب الإيطاليين ويلجئها إلى موانيها ويقدم للجيش المساعدات الفائقة .

وخصّ الجنرال ويفل بوصف يناسب العملية العظيمة التي وضع تصميمها وأشرف على تنفيذها فقال عنه « إنه من رجال الحرب ذوي الحصافة والصبر والجسارة والإقدام »

الألمـان فى الميدان

تقول المصادر الإنجليزية أنه لم يكن مقدراً بادىء الأمر احتلال إقليم برقة بأكمله ولكن القيادة البريطانية لم تحجم عن هذا الإجراء عند ما قررت اللحاق بالقوات الإيطاليـة وتدميرها والاستيلاء على ما لديها من أسلحة ومعدات ، ولذلك استمر تعقبها بغير عناء كبير حتى تم الاستيلاء على بنغازى والعقيلة واكتسحت برقة ، وأصبحت المواصلات البريطانية تمتد مئات الأميال فى أراض قاحلة غير معززة بمراكز حصينة يمكن الاعتماد عليها فى عمليات دفاعية ، كما زادت مشكلات التموين صعوبة وكلفة .

وقد لوحظت حركة نشاط كبيرة للمحور فى البحر الأبيض ، وعلى الرغم من وقوف الأسطول البريطانى وتفرغه لمنع الإمدادت عن لوبيا وسد طريق إرسال المؤن والجنود والمهمات من إيطاليا وصقلية إلى طرابلس وبنغازى فقد استخدمت المياه الإقليمية الفرنسية ووصلت قوات محورية كبيرة .

وكان للهزائم الإيطالية المتلاحقة أثر خطير فى إيطاليا فحدثت حركة تطهير وتغيير فى القيادة فعزل الماريشال جرازيانى ووصلت إلى إفريقيا

قوات ميكانيكية المانية لتدعيم القوات الإيطالية وتولى القيادة العامة الجنرال ڤون رومل ، فارس القوات المدرعة و بطل عمليات الاختراق فى بولندا وفرنسا .

ذلك فى الوقت الذى واجهت فيه الإمبراطورية البريطانية أحداثاً عنيفة فى البلقان واليونان اللذين دهمهما المحور كذلك حوادث الشرق الأوسط فوجد الألمان الفرصة المناسبة لمساعدة حلفائهم فأرسلوا حملة ألمانية إلى طرابلس لوقف زحف الجنرال ويفل وبذلك يُضمن إيقاف نشاط الإنجليز عن الميادين الأخرى .

وكان أمام القيادة والحكومة تقرير أحد أمرين : الاستمرار فى مطاردة العدو حتى تونس أو إرسال مساعدة فعالة لليونان تنفيذاً للتعهدات التى ارتبطت بها بريطانيا فرجحت الضرورة الثانية وسحب من جيش ويفل قوة يعتد بها فأصبحت قواته أقل مما يحتاجه الموقف فعزم على عدم التقدم مكتفياً بتثبيت العدو أمامه .

ثم بدأ المحور زحفاً شديداً استُخدمت فيه الدبابات الألمانية بجسارة لم تعرفها القوات الإمبراطورية من قبل فارتدت تواً منسحبة من أجدابيا ، ورأى الجنرال ويفل أنه مضطر لإخلاء بنغازى بسبب شدة الهجوم الألمانى واستحالة الدفاع عنها ورأى أن يتراجع حتى يجد المكان والوقت المناسبين للثبات وللكر بهجمات مضادة خصوصا

وقد بعدت قوات المحور عن قواعدها أكثر من ٤٣٦ ميلا من طرابلس إلى بنغازى .

وتقدمت القوات الألمانية المكونة من الدبابات والوحدات الميكانيكية وجنود المشاة المحملة فى عربات تشد أزرهم الطائرات الألمانية المتفوقة ، وحدث قتال عنيف فقد الإنجليز فيه ألفى أسير كما وقع ثلاثة من القادة العظام فى الأسر وهم الجنرال سير رتشارد أكنور ساعد ويقل الأيمن والجنرال نيوم والجنرال جامبير وهم الذين قادوا الأعمال الحربية فى إفريقيا وكانوا ممن تحملوا وضع الخطط الحربية الدقيقة وتولوا قيادة القوات التى نفذت هذه الخطط .

ولم تفطن القيادة الإنجليزية إلى غرض رومل ولم يجل بتفكيرها أنه يجرؤ على قطع هذه الفيافى الشاسعة فيمد خطوط مواصلاته ويتعرض لأخطار الصحراء ومشكلات التموين والإعاشة والتصليحات فوق ما يحتاجه غزو مصر من استعدادات هائلة ومد خط من الأنابيب لحمل نهر صناعى إلى الأمام مع الجنود ولم يزد اعتقاد القيادة الانجليزية فى شىء أكثر من أن رومل يحاول القيام بمناورات يحول بها دون إرسال الإمدادات إلى اليونان ويصل بها إلى التمكن من جلب قوات كبيرة من إيطاليا وصقلية ولكنه فاجأهم بهجوم خاطف واندفع فى طريقه إلى قلب الصحراء .

فلما ظهر أنه شارع فى هجوم كبير رأت القيادة البريطانية الانسحاب

صوب الشرق مع القيام بأعمال المؤخرة ريثما يتم الانسحاب إلى مراكز الدفاع فى شرق الجبل الأخضر .

وزحف رومل بقوة مناسبة عن طريق الساحل لطرد الانجليز بينما اتجهت قواته المدرعة عن طريق الصحراء جنوب الجبل الأخضر وهى عملية شاقة تعد مغامرة أكثر من خطة حربية ، فكانت حركة عكسية فى طرقاتها شبيهة فى فكرتها بما فعله ويفل أثناء تقدمه نحو بنغازى .

وأتاحت معركة المخيلى لرومل تنفيذ خطته والقيام بعمليات سريعة حاسمة هى (البليتز كريج) الذى اتبعه الألمان فى أوربا، وقد كان له التفوق فى الدبابات والسيارات المصفحة وميزة المبادأة مما يقرر الأمر فى حرب الصحراء . . وقد حدثت عدة أخطاء من القيادة الانجليزية لم يكشف الغطاء بعد عن تفاصيلها ولكن مستر تشرشل ذكر أن بعض الأخطاء قد حدثت مصحوبة بسوء الطالع فوقع الارتباك فى صفوف القوات الإنجليزية فارتدت بسرعة ، وقد لمّح أيضاً لفقد القواد الانجليز فى بداية المعركة وعزا ذلك « لتحركات شخصية لم تكن ضرورية »

انتقل الحذاء من قدم إلى قدم وهجرت المبادأة قوماً إلى قوم وأخذ رومل يسيطر على الموقف فلما بلغ عنتيلاب انفصلت فرقه إلى قوتين اتجهت إحداهما فى الطريق الساحلى نحو درنة فطبرق للاستيلاء على هذه المراكز القوية التى تصلح أن تكون قواعد هجوم متوالية وخصوصاً طبرق بينما اتجهت القوة الأخرى نحو بيرحكيم حيث انفصلت إلى قوتين

اتجهت إحداها نحو المخيلى بحركة سريعة قوية بفكرة الانضمام للقوات الموجهة لمهاجمة طبرق واتجهت الأخرى نحو الحدود المصرية للاستيلاء على السلوم وغيرها من المواقع الرئيسية

وكانت السرعة التى تتقدم بها القوات الألمانية محل قلق شديد على على مصير القوات الإنجليزية ومعركة مصر وبذلك حدث ما تنبأ به مستر تشرشل قبل أسبوع إذ توقع قتالاً شاقاً عنيفاً لا فى الدفاع عن برقة فحسب بل فى الدفاع عن مصر أيضاً

ففى ١٣ إبريل أحرز الألمان نجاحاً فى منطقة الغزالة والبردية وفى ١٤ منه مرت القوات الألمانية بطبرق التى دافعت بقوة وصمدت للهجمات العاتية فتركها رومل محوطة بقوات كافية من جنوده ولم يضع الوقت عبثاً فليس للمدن قيمة فى حرب الصحراء ولكن المهم هو اللحاق بالقوات الرئيسية للعدو ومعالجتها بالضربات الشديدة أينما اتجهت ، وقد نجحت قولاته الأخرى فى كل ما كلفت به وتراجعت القوات الإنجليزية أمام هذه الحملات العنيفة بينما دخلت فرقة ميكانيكية إنجليزية طبرق وساهمت مع حاميتها فى أعمال الدفاع ، أما القوات الباقية فانسحبت إلى داخل الحدود المصرية .

وبذلك تم فى أسبوع واحد قطع هذه المسافة الطويلة من بنغازى إلى السلوم بعد معارك دامية وانسحاب سريع وصفه مستر تشرشل

بأنه كان « هزيمة مكدرة فقد زحف الألمان بقوة أكبر وسرعة أعظم مما كان يقدّره قوّادنا »

أما طبرق فقد ظلت محاصرة وبذل الألمان جهوداً متعددة فى فترات مختلفة لاختراق إستحكاماتها ولكن بدون جدوى وكانت جميع الظروف فى صف حماتها إذ كانت تجد كفايتها من الماء، ويموّنها الأسطول، ويمكن استبدال رجالها بغيرهم وإمدادها من البحر، ومن الناحية الثانية كان الألمان فى شاغل نسبى عنها بتعقبهم للقوات الأساسية، وكانت نقط المياه بعيدة عن طبرق عدة أميال .. فكل هذه العوامل زيادة على التصحين الطبيعى لطبرق قد مكنها من الصمود فبقيت حربة قوية مصوبة تهدد جنب مواصلات المحور الذى لم يكن فى مقدوره التغاضى عن أهميتها والإيغال طويلاً بعيداً عنها — فأعطى ذلك فرصة للجنرال ويفل مكّنته من إعادة تنظيم قواته وتثبيت أقدامها وانتظار النجدات

ولا يصح أن نمر بهذا الفصل من الحرب دون أن يذكر سلاح الطيران البريطانى وما بذله من مجهود رائع فى القيام بأعمال عظيمة فى ضرب مطارات العدو ومعسكراته وإلقاء القنابل على خطوط المواصلات المديدة وتعطيل الزحوف الألمانية ومهاجمة القوافل البحرية وحماية الأسطول ومقاتلة طائرات المحور والفوز بالسيادة عليها فى هذه المرحلة الخطيرة المهددة لكيان القوات الإنجليزية

وفى السابع عشر من ابريل وصلت القوات المحورية إلى السلوم

ولكن تراخت قوة الهجوم وكان لزاماً أن تحدث وقفة بعد هذا المجهود المضنى و بعد مسيرة ٧٠٠ ميل فى عمليات حر بية شاقة وعاد الانجليز إلى قواعدهم آمنين إلى خطوط مواصلاتهم البرية والبحرية فتمسكوا بالأرض وأوقفوا الزحف .

وأخذت الإمدادات من الرجال والأسلحة تصل إلى الجنرال و يفل بدون انقطاع حتى أصبح رهن تصرفه ربع مليون جندى فى شهر مايو ٤١ وكانت فترة الهدوء قد طالت ولو أن نشاط الدوريات والطائرات كان عظيما .

و بدأ رومل مناوراته التى يحذقها فأجهد القيادة الانجليزية ، فى ١٢ مايو حرك خمس قولات فى عملية غير معهودة فى الفن الحربى خالية من مبدأ التعاون لارابطة بين فروعها ودون أن يكون لها خطوط ثابتة للتموين ، واستخدم فى ذلك نحو مائتى سيارة وألقى بقواته فى ثلاث ساحات بمواجهة خمسين ميلاً من البحر إلى الجنوب فزحف القول الأول من طريق الساحل المؤدى إلى سيدى برانى لمهاجمة المراكز الدفاعية الأمامية وتحول القول الثانى من المرتفع حول البحر واتجه جنوباً فوقف فى جبهة موازية للسهل الساحلى وهبط القولان الثالث والرابع المنحدر واجتازا الحدود المصرية غربى السلوم وحاول القول الخامس الالتفاف حول القوات الانجليزية — و بعد مناورات شتى انسحبت هذه الطوابير بعدد من الأسرى و بعد تصويب ضربات لها قيمتها .

وفى السادس عشر من مايو قام الجنرال ويڤل بهجمة مضادة صاحبها التوفيق فاحتل السلوم ومساعد وحلفاية وكان استرداد هذه المراكز ذا أهمية حربية تمكنه من القيام بأعمال أخرى ولكن قبل أسبوعين عاد هجوم الألمان بصورة أقوى فانسحب الانجليز من حلفاية وتقدمت أربعة طوابير ألمانية الأول منها يشتمل على عدد من الدبابات وراكبى الموتوسيكلات من كابوتزو على طول حافة المنحدر الموازى للبحر من اتجاه ممر حلفاية فردوا القوة البريطانية التى تصدت لهم وزحف طابوران مصفحان من كابوتزو جنوباً لتغطية جناح القوة الأولى اليمين واستمرت المعركة طول الليل أما الطابور الرابع فكانت مهمته محصورة فى مساعدة القولات الثلاث وبذلك تمكن الألمان من الحصول على مراكز تحمى جناحهم الأيمن وخطوط مواصلاتهم من هجمات الدوريات الانجليزية .

واستمر الموقف على هذا الحال بين نشاط الدوريات الانجليزية ومناورات القولات المدرعة الألمانية وهجمات الطائرات من الناحيتين وكانت هذه المرحلة مرحلة شدة وقسوة وتهديد متواصل واحتمالات متباينة وقد ذكر مستر تشرشل الحالة فى ذلك الوقت فكان مما قاله « سنرى هل ارتكب الألمان خطأ فى محاولتهم غزو مصر ؟ .. أننى لا أحاول أن أجعل من الهزائم نصراً ولم أقلل قط من قيمة الألمانى كرجل حرب ، ولا أستطيع أن أتكهن بما سيكون من أمر الموقف العسكرى فى ليبيا فأمامنا خصم جرىء ماهر — هل لى أن أقول أنه قائد عظيم .. »

كننجهام – كوننجهام – كننجهام

بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بما حدث من الإلقاء بالجيوش النازية فى معمعة الحرب الروسية و بما حدث فى الشرق الأوسط من انضمام سوريا والعراق إلى قضية الحلفاء وإيجاد صلة بين القوات الإنجليزية والروسية عن طريق إيران . . كل ذلك قد غيّر وجه الموقف الحربى .

وكان لزامًا على بريطانيا أن تضرب ضربة ما مستفيدة بما جاء فى صالحها من الحوادث مسدية المساعدة لحلفائها فأعدت العدة لطرد قوات المحور وتدميرها فى شمال أفريقيا فبقيت خمسة أشهر أو يزيد تزيد معدات قواتها فى صحراء مصر وتمدها بجميع الأسلحة التى أظهرت أثرها فى الحرب الجديدة خصوصاً وأن الأحوال الحربية فى الصحراء غير عادية فلا يتيسر القيام بهجوم سريع حاسم بعيد المدى إلا باستخدام الأسلحة المدرعة والقوة الجوية المتفوقة والوحدات الميكانيكية المدربة .

وقد سبق جميع ما صنع من الترتيبات تغيير القيادة الإنجليزية فى الشرق الأوسط فولى أمرها الجنرال سير كلود أوكنلك وتولى قيادة

الجيش الثامن الجنرال سير ألان كننجهام ، والقوات الجوية مارشال الطيران سير أرثر كوننجهام وأسندت قيادة الأسطول فى البحر الأبيض للأميرال سيرأندرو كننجهام .

وفى فجر اليوم الثامن عشر من نوفمبر ١٩٤١ شرعت القوات الإمبراطورية تشد أزرها أسراب من سـلاح الجو الملكى فى القيام بزحف عام نحو برقة يمتد من الشاطىء الشرقى للسلوم متجها نحو الجنوب حتى واجه جغبوب وكان التسلل إلى مناطق الحشد معبراً عن مهارة فائقة كما كانت الترتيبات التى وضعت لخداع العدو وستر التحركات وتوزيع القوات ترتيبات محكمة .

وتوغلت القوات الإمبراطورية نحو خمسين ميلا فى ليلة ممطرة دون أن تلقى معارضة تذكر من جانب العدو الذى فوجىء بهذه الحركة بينما كانت قواته موزعة ثلاث فرق مدرعة خلف خط حلفاية — سيدى عمر وفرقتان ألمانيتان بين البردية وطبرق وفرقة إيطاليـة جنوب طبرق .

وقام سلاح الطيران بحركة انقضاض قوية على مراكز العدو باغارات شاقة استمرت ١٢ ساعة ضربت فيها مراكز المحور بعد أن ظلت الطائرات شهوراً وهى تهاجم مواقعه ومطاراته وشرايين مواصلاته ومستودعات المؤن والوقود والأرصفة وأحواش البضائع كما أخذت سفن الأسطول تضرب حلفاية وتشدد ضغطها المتواصل على الخطوط الدفاعية

وبدأ الزحف على صورة قوس طرفاه السلوم وجغبوب فضغطت القوات الإنجليزية على المواقع المنيعة للعدو بين ممر حلفاية وسيدى عمر بينما كانت الوحدات الميكانيكية المدرعة تؤيدها جنود نيوزلندا وجنوب أفريقيا وجنود الهند قد اجتازت الحدود جنوبى سيدى عمر .

ولا بد أن القيادة الانجليزية قد بنت تصميمها على أساس تدمير قوات العدو المسلحة وخصوصاً وحداته المدرعة ورفع الحصار عن طبرق وتحسين الموقف بما يضمن الاستعداد للدفاع عن مصر فهذه المعارك التى حدثت بعد قليل كانت لهذه الأغراض ولم تكن لاحتلال موقع حصين أو الاستيلاء على منطقة من الأرض أو التقدم فى صحراء خالية .

وقد أسفرت العمليات الأولى عن احتلال الانجليز لسيدى رزق وطرد القوات الإيطالية المصفحة منها وحدثت عدة معارك بين الدبابات كانت شيئاً جديداً فى فن الحرب فقد أصبح الميدان ملعباً تجرى فيه القوات هنا وهناك وتدور فتتلاقى ثم تفترق وتعود فيضرب بعضها بعضاً وكان من المعارك القوية التى حدثت تلك المعركة بين الدبابات يوم ٢١ نوفمبر فى المثلث الواقع بين حصن كابوتزو — قبر صالح — سيدى رزق وقد تناولت منطقة واسعة واستمرت طول النهار فانتهز الجنرال كننجهام هذه الفرصة التكتيكية السانحة ودخل بقواته الرئيسية المدرعة بين الحشد الأكبر للدبابات الألمانية فى الناحية الشرقية و بين الحشد الأصغر منها فى الناحية الغربية وحاولت الدبابات الألمانية محاولات متعددة

أن تشق طريقها . . وهكذا استمرت المحاولات تتوالى بغير نتيجة حاسمة والقوات تتلاقى وتتضارب بدون معركة نهائية .

وحاولت حامية طبرق تؤيدها قوات هامة من الدبابات التى أرسلت تدريجياً فى مدى عدة أسابيع بفضل الأسطول أن تنضم إلى القوات الزاحفة من سيدى رزق فى الوقت الذى كان القتال سجالا أمام مراكز الألمان الحصينة بين حلفاية وسيدى عمر فكان الميدان ساحات متعددة متنقلة يتجاذب فيها الطرفان حبال الفوز وأزمّة الموقف .

ومن ذلك ما حدث فى سيدى زرق وقد تبادلها الفريقان عدة مرات حتى استقرت أخيراً فى أيدى الإنجليز

أما خطة الإنجليز فكانت الاشتباك بقوات المحور فى منطقة السلوم لتثبيتهم بينما تتحرك القوات المدرعة من الجنوب لتدور حول أقصى مواقع دفاع المحور لتهديد ظهر الألمان ومواصلاتهم فإذا تم نجاح هذه العمليات تحركت حامية طبرق لتتصل بها القوات المتقدمة لفك حصارها و يشترك الجميع فى هجوم عام نحو الغرب

وقد نجحت المراحل الأولى فى طريق تنفيذ هذه الخطة ووصلت القوات الإنجليزية إلى مشارف البردية واقتربت قوات غيرها من منطقة طبرق فوقفت أمام حقول الألغام وقابل الجنرال روميل هذه الحركة بسحب فرقه المصفحة من بداية الهجوم وألف منها خطاً فولاذيا فى الجنوب الشرقى لطبرق لمنع القوات الإنجليزية من الإتصال بحاميتها وقد

عمد أولاً إلى خداع الإنجليز بحشد قوة من الدبابات شمال سيدى عمر لتحمى قواته المدرعة الموجودة فى الجنوب فشغلتهم هذه الحركة عن فعلته الأصلية وهى سحب الجزء الأكبر من قواته لسد طريق طبرق

واستولت القوات الهندية على سيدى عمر وراحت تتدخل فى مؤخرة المراكز الدفاعية بين حلفايه وسيدى عمر بينما واصلت القوات النيوزيلاندية زحفها من غرب سيدى عمر إلى سيدى عزيز وكابتزو حتى بلغت جمبوت واحتلت البردية

بذلك أصبحت السلوم وممر حلفاية فى معزل

وفى يوم ٢٣ نوفمبر قام المحور بكرات عنيفة بالدبابات لعزل القوات الإنجليزية الزاحفة على معاقل طبرق ودفعها جنوباً وفى الوقت الذى كانت فيه دبابات المحور متجمعة فى شكل نقط قوية على بعد ٢٠ ميلا جنوب طبرق وتبدأ الزحف شرقا ، أخذت فرقة أريتى الإيطالية للدبابات التى كانت تحوم حول بير الغبى تتقدم أيضاً فى الاتجاه نفسه منحرفة نحو الجنوب

ودارت حرب دموية ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة وقد تراجع الألمان ثم هجموا ثانية فى الصباح وعادوا إلى قذف القنابل المحرقة التى أشعلت النار فى الدبابات البريطانية

ثم فترت معركة الدبابات بسبب شدة خسائر الفريقين وشرع المشاة يتقدمون من الجانبين ويشتبكون تدريجياً ودار القتال بالسناكى فى

ملحمة كبيرة مائعة اختلطت فيها جموع غفيرة كثيرة التحرك والتنقل من الرجال والآلات التى اشتبكت وسط عواصف الغبار فى جوار سيدى رزق

هذا بينما كانت الفرقة الخامسة الهندية تقترب من أوجلة (٢٠٠ ميل ج . غ طبرق ، ج . ش بنغازى) وهى واحة كان يحتلها الإيطاليون فاستولت عليها ثم استولت على واحة جالو .

وعاد تقدم الإنجليز فى محاولة ثانية نحو طبرق فكان على الألمان أن يبذلوا كل جهد لإيقافها وأن يحولوا بما لديهم من الجرأة. وسعة الحيلة والمرونة دون زحف الجيش الثامن فأقاموا على جناح السرعة خطوط دفاعهم فى المناطق الواقعة بين بير الغبى وسيدى رزق وطبرق وحشدوا قواتهم فى اتجاه الجنوب دون أن يعززوا خطوط دفاعهم الجديدة بقوات كبيرة ثم اندفعوا بأكبر قوة من الدبابات جنوباً والتفوا حول الجناح الأيسر ثم ساروا بأقصى سرعة فى اتجاه الحدود المصرية

وتكررت محاولات النفاذ وسط المراكز البريطانية حول سيدى رزق واستمر القتال ناشباً وفى ليل ٢٨/٢٧ نوفمبر استطاعت قوات المحور المدرعة لم شملها فى الجهة الجنوبية الشرقية من سيدى رزق وتحركت مرة أخرى نحو الغرب واشتبكت بالقوات الإنجليزية واخترقت الاستحكامات حول سيدى رزق بينما قامت قوة أخرى بالهجوم نحو الدودة لفصل قوات سيدى رزق عن قوة طبرق

وفى يوم ٢٩ حشد رومل فرقة أريتى الإيطالية وفرقتيه الميكانيكيتين لشق الطريق نحو الغرب ، ونشبت معركة عنيفة تصادمت فيها القوات المدرعة وأخذ الموقف يتراوح بين العنف والهدوء تتخلله فترات شدة ففترات سكون حتى فترت قوة القتال بعد معارك عديدة مرنة تتخللها تطورات محلية واسعة فى منطقة مساحتها ١٦٠٠ ميل مربع وكان مركز الثقل يتبدل فى هذه المعركة فى كل يوم تقريباً كلما همّ الإنجليز بهجوم وكلما كرّ الألمان بضربة سريعة

ثم خفّت حدّة القتال وازدادت مناعة خطوط الدفاع الألمانية فى منطقة السلوم — سيدى عمر وضاعت كل المجهودات التى بذلها الإنجليز مع ما تخللها من تضحيات وخسائر عديدة ، واستأنف الألمان هجومهم على الدودة و بير الغبى وفى منطقة الحدود حول كابتزو والسلوم وقد تمكنوا من الاستيلاء على سيدى رزق وجمبوت

وكان متوقعاً أن تكون هذه المعارك معارك الإنجليز فقد استعدوا لها خير استعداد وكان لهم التفوق الجوى وتأييد الأسطول المسيطر على البحر تأييداً مستمراً لتأمين الهجوم ، وكانت هذه المعركة هى الأولى التى تتمثل فيها جنود الامبراطورية بأعظم قوة فقد حارب فيها البريطانيون وجنود جنوب إفريقيا والنيوزيلايون والهنود بقوات ومعدات ضخمة ومع هذا أفسدت الخطط الألمانية الطريق لكسب المعركة و بعثرت قواتهم بعملياتها المرنة ومفاجآتهاومعاركها المشوشة التى تدور فى كل اتجاه

فقد كانت القيادة الإنجليزية تتوقع اشتباكا واحداً تضرب فيه ضربتها وتنتهى من المعركة ولكن قوبلت بعمليات غريبة حدثت عنها عدة معارك متباعدة ودار القتال فى ميادين الصحراء المترامية أو ذات الساحات المتناثرة . . وقد كان لدى الانجليز كما قدمنا ميزات ملحوظة كسلامة نظم التموين والمواصلات الميسورة والقوة الكافية من الدبابات والطائرات . . ولكن مستر تشرشل يفصح عن أسباب العجز فيقول « إن الذين يشتبكون مع الألمان إنما يشتبكون مع عدو صعب المراس قوى الموارد » ويذكر أن خسائر الإنجليز فى الدبابات كانت كبيرة لأن الدبابات الألمانية كانت تستعمل مدافع زنة قنبلتها ٦ رطل وهو تسليح « أفضل من تسليح دباباتنا »

ولما وصلت الحالة منتهاها ولم تجد القيادة الانجليزية حلاً لهذه العمليات المضطربة مضى الجنرال أوكنلك يوم ٢٤ نوفمبر إلى مقر قيادة المعركة وفى يوم ٢٦ قرر إعفاء الجنرال كننجهام من منصبه وعين خلفاً له الميجر جنرال ريتشى

. . ولا ننسى أن تشرشل كان يقول « أنها معركة الجنرال أوكنلك قبل كل شىء وأننا وجدنا فيه كما وجدنا فى ويفل شخصية عسكرية من الطراز الأول »

وبتغيير القيادة بدأت مرحلة جديدة

السلوم – بنغازى . . وبالعكس

لم يتخذ الهجوم البريطانى الثانى فى ليبيا السبيل الذى كان الجنرال أوكنلك وغيره يتوقعونه فقد كانت الفكرة المسيطرة على القيادة البريطانية هى أن يتم الاشتباك مع العدو فى معركة رئيسية يدمرون فيها قواته الميكانيكية فيصبح لا جول له ولا قوة . ولكن ذلك لم يحدث . فإن القيادة الألمانية قد عملت على إفساد هذه الخطة ففرقت الحشود وأدارت معارك عديدة عنيفة فى ميادين صحراوية متسعة الأرجاء متفرقة الساحات طويلة الصراع شديدة الوقع .

وكانت أعمال الإنجليز تستند إلى دعامات قوية كسلامة نظم التموين وقصر خطوط المواصلات والتفوق الجوى فى فترات طويلة ثم سيطرة الأسطول البريطانى على البحر وتأييده للعمليات البرية ووقوفه فى وجه قوافل المحور ومراكب الإيطاليين .

أما أعمال المحور فكانت تستند إلى دفاعات متينة بين السلوم وكابوتزو يبلغ طولها ٢٠ ميلا فلم يكن من الحكمة الهجوم على هذا الخط المنيع قبل الحصول على تفوق كاسح ولذلك اضطر الجنرال كننجهام

فى بدء عملياته إلى التوغل فى الصحراء إلى الجنوب حيث لا توجد استحكامات بذات القوة ثم التف بسيدى عمر إلى أن وصل الجناح الأيسر لقواته إلى بير الغبى . . وقد انتهت هذه المرحلة بنجاح فقد استخدمت آلاف السيارات للمحافظة على خطوط المواصلات الصحراوية الطويلة وساعد التفوق الجوى على حماية المطاردة وكانت النتيجة أن وجد الألمان أنفسهم يحاربون فى جبهة تمتد من الشرق إلى الغرب وليس من الشمال إلى الجنوب كما كانوا قد رتبوا خطتهم من قبل

وقد تحولت معركة برقة إلى ثلاث ساحات الأولى الجبهة الرئيسية فى جنوب شرق طبرق والثانية منطقة الحدود والثالثة الساحة الجنوبية الغربية أو ساحة جالو .

ففى الساحة الأولى حاولت القوات البريطانية فى الجنوب الشرقى من طبرق شق طريق لها فى وجه مقاومة عنيفة ففجرت الألغام وأقامت الجسور فوق حفر الدبابات و بعد ساعات سادت الموقف وتغلبت على مقاومات المحور وأسرت أكثر من ألف جندى ، وقد أحكم هجوم قوات طبرق على معاقل العدو فى وقت واحد مع هجوم القوات الزاحفة من الصحراء وتم الاتصال بينها .

وفى منطقة الحدود كانت المناوشات مستمرة وساحات القتال تتنقل بسرعة وكان الفريقان يتكبدان خسائر فادحة بلا نزاع وقد استردت القوات الإنجليزية سيدى رزق واحتلت بالحامض بعد مقاومات عنيفة

وفى الساحة الجنوبية الغربية كان الإنجليز يتغلبون تباعاً على مقاومات المحور و يحصلون على انتصارات إقليمية متوالية فى الواجات .

و بعد أن كاد الاتصال بطبرق يبلغ مرحلة يؤمل بعدها التغلب على حصاراتها كرّ الجنرال رومل بهجوم عنيف واندفع بقوة خاطفة فمزق حبال هذا الاتصال ثم خفت حدة هجومه عند ما اشتدت مقاومة البطاريات المضادة للدبابات ومدافع الميدان ثم الدبابات والسيارات المصفحة التى حالت دون إيغاله فعاد للجولات السريعة المتنقلة وقد بلغت حركات الجنرال رومل الموسومة بالجرأة والمهارة غايتها من مضايقة خطوط المواصلات البريطانية و إجهاد القيادة إلا أن هذا العمل كلّفه خسائر ملحوظة فى الدبابات .

وقد كان الموقف فى الصحراء متوقفاً على الدبابات الثقيلة ، وهى سلاح هجومى صرف فالمعركة معركة هجوم شديد وكر شديد والفرصة قليلة فى سبيل التقهقر من الجانبين ولا سلامة فى اتخاذ خطة الدفاع . . وكانت الميزات التى يتمتع بها الإنجليز هى أن خطوط مواصلاتهم أقصر من خطوط المحور وأنه كانت لهم الغلبة فى الجو وكانت فى أيديهم طبرق ولهم السيادة البحرية المطلقة .

أما رومل فلم يهدأ و إنما كان دائم الحركة يشغل الانجليز بهجماته السريعة و يضطرهم للانتقال من ساحة إلى ساحة ولم تنقطع اشتباكاته معهم فشهدت منطقة بير الغبى ومنطقة الجدود ومراكز سيدى عمر

وكابوتز وقمبوت هجمات عنيفة ومناورات محكمة البراعة .

وفى التاسع من ديسمبر اتصلت القوات البريطانية التى خرجت من طبرق بجنود جنوب أفريقيا وجنود الهند الذين جاءوا من الجهة الجنوبية الشرقية ثم رفع الحصار عنها وفتحت خطوط مواصلاتها مع الشرق وذلك بعد ثمانية أشهر مضنية . وكانت الأيام الأخيرة من معركة طبرق من الأيام المشهودة فبعد فترة عصيبة اتصلت فى أثنائها الحامية فعلاً بالجيش الثامن ثم انقطعت هذه الصلة اندفعت القوات الامبراطورية من منطقة بير العبد واتصلت بحاميتها وأكرهت العدو على الانسحاب غربا وكانت حامية طبرق قد شقت طريقاً ضيقاً فى الاستحكامات الخارجية إلى الدودة و بقيت فيها ١٨ يوما صامدة لأشد كرات العدو عنفاً إلى أن استقر الاتصال وتوطد نهائياً فوجدت القوات الألمانية نفسها أمام خطر الانفصال أو العزلة فلم تجد مندوحة من الإسراع فى الانسحاب وتبعتها القوات الإنجليزية التى لم تحل سوء الأحوال الجوية وهطول الأمطار دون تقدمها وتغلبها على كرات المحور وأعماله التعطيلية .

وأخلت قوات المحور منطقة العضم فاحتلتها القوات الإمبراطورية وأخذت فى تطهير طريق البردية — طبرق واحتلت قمبوت وتقدمت بنجاح فى منطقة عكرمة التى احتلت فى ١٢ ديسمبر والتفت بدفاعات الغزالة ثم قامت بتوجيه ضربة شديدة فى الجهة الجنوبية الغربية منها

فأحدثت اضطراباً بين القوات الألمانية والإيطالية المبعثرة التى تتلمس شق طريق لها نحو الشمال و بين وسائل النقل والدبابات .

وهوجمت منطقة « علم حمزة » (١٥ ميلا ج . غ الغزالة) حيث كانت قوات محورية كبيرة ترابط فى دفاعاتها لحماية التقهقر ، و بعد قتال شديد اخترقت المراكز الوسطى على الرغم من كرات قوات المحور وتدخل طائراته المنقضة ، ثم أخذ النجاح يتزايد فى منطقة الغزالة وأخذت أعمال التطهير تسير نحو النهاية بسرعة فى منطقة الحدود .

و بعد قتال عنيف دام خمسة أيام ألقى فيه رومل بأكثر موارده تحطمت جبهته فى كل مكان واشتدت مطاردة قواته فآثر أن ينسحب بسرعة مبدياً الكثير من مهارته فى الرد بكرات عنيفه والقيام بأعمال المؤخرة مع الانسحاب بسرعة كبيرة لتسلم قواته . . وفى مثل هذه الحالة المتحرجة تتبين مقدرة القائد العظيم فى إنقاذ قواته .

احتل الإنجليز درنة والمخيلى بدون مقاومة فى ١٩ ديسمبر وأخذ الزحف فى برقة يستمر بنجاح تؤيده هجمات القوات الجوية بشدة فكان وصول القوات الإمبراطورية إلى درنة بعد ٣٢ يوماً يعد ضرباً للرقم القياسى السابق وقد كان ٥١ يوما .

ولم يكن منتظراً أن يأخذ أى هجوم هذه السرعة التى ظهرت فى هذا التقدم وأن تقع المطاردة بمثل هذه السهولة ولكن الألمان لم يدافعوا عن خط درنة — المخيلى وتركوا مراكزهم غرب الغزالة على الرغم من

قوتها . . وربما كان ذلك لحكمة خافية فلا أحد يستطيع الحكم على نوع الخطة الألمانية وما كان يطرأ عليها من تعديلات تتطلبها تطورات الموقف ، وكل ما يمكن الإدلاء به هو أن القوات الألمانية انسحبت بسرعة فلم تستطع القوات الإنجليزية — رغم كل ما بذلت من محاولات — أن تلحق بها أو تقطع خط رجعتها . فوصلت إلى آخر مرحلة بأقل خسائر وباستعداد وهمّة للقيام بالدفاع وانتهى الأمر إلى أن تتقدم فى غزوة طويلة تاريخية .

ولم يدافع الألمان عن بنغازى وكل ما فعلوه هو ترك قوة فى جنوبها لحماية جناحهم ، وقد سقطت بنغازى يوم ٢٤ ديسمبر بعد ٣٧ يوما من الهجوم البريطانى وبعد معارك ضروس تأججت نيرانها فى الأسابيع الخمسة الرهيبة وخاض الفريقان غمارها بكل عنف وشدة فانتهت لمصلحة الإنجليز بأرباح إقليمية كبيرة وبربح جغرافى ممتاز هو بنغازى ، نقطة التسهيلات البحرية والمطار الجوى الهام .

ومرة أخرى حدث التوقف عند العقيلة حيث ثبّت الألمان أقدامهم ووقفوا صامدين .

وانتهت المطاردة عند هذا الحد .

على الرغم من وصول القوات الانجليزية إلى هذه المرحلة فإنها لم تكن قد أتمت تطهير الصحراء نهائياً إذ بقيت بعض النقط الحصينة (الجيوب) ترفع لواء المقاومة وكان أقوى هذه الجيوب البردية والسلوم وحلفاية

فالبردية أصبحت طبرق ثانية تعيد صورة شوكة الجنب المشهورة ومع أنها استهدفت للضرب بلا شفقة وألقيت عليها عدة أطنان من القنابل فإنها ظلت (بندقة صعبة الكسر) كما وصفتها الأنباء . وقد كانت حاميتها مكونة من لواء كامل وقوة من الدبابات وعدد من مدافع الميدان والمدافع الرشاشة

وقد ظلت البردية تبدى مقاومات شديدة حتى آخر فجر فى سنة ١٩٤١ عند ما قامت القوات الإمبراطورية بهجوم شديد كان المهندسون والخبراء فى المفرقعات والألغام فى طليعته فلما اقتربت من الأسلاك الشائكة المنصوبة حول البلدة ضربتها بالطوربيد ففتحت لنفسها ممراً للتغلب على عقبات أكبر فى مناطق بثت فيها الألغام بكثرة وأخذت فرقة الخبراء فى كسح الألغام فى تطهير ممر واسع يتسنى مرور الدبابات والمشاة منه و بعد ذلك تقدمت الدبابات وأخذت فى تذليل العقبات القائمة على جانبى هذا الممر فى حين بدأت قوات المشاة تتدفق منه

وضُربت البردية من البر والبحر والجو فقد استمرت بطاريات المدافع تقذف الحمم وأعقبتها قذائف الأسطول ثم قنابل الطائرات وفى ليل ١/٢ يناير استولت القوات الإمبراطورية على مراكز المحور الحصينة حول البردية وساهم الأسطول فى ضربها وكان للقوات الجوية كما أسلفنا نصيب لا يقدر فى نجاح العملية فسقطت البردية فى اليوم الثانى من يناير ووقع فى الأسر نحو سبعة آلاف من جنود المحور خمسهم فقط من الألمان

وفى الثانى عشر من يناير جلت القوات الإيطالية عن السلوم ، ولم تنقطع جهود البريطانيين لحظة للاستيلاء على منطقة الحلفاية وكانت قاذفات القنابل تواصل غاراتها ولا يمضى يوم دون أن تهاجمها ولكنها ظلت صامدة بفضل تحصيناتها المنيعة وما وضع فيها من مدافع قوية وما جهزت به من معاقل مخبوءة بمهارة ومحمية بدرجة كبيرة — وكانت طائرات ألمانية تسقط للحامية المؤن والمواد الغذائية مما ساعدها على الصمود

وفى صباح ١٧ يناير سلمت حامية حلفاية بلا قيد ولا شرط وأسر نحو خمسة آلاف وخمسمائة شخص ويرجع السبب فى سقوطها إلى الحرائق التى أضرمتها القنابل وتلف مخازن المؤن ، كذلك قلة المياه والمواد الغذائية

وبذلك تغلبت القوات البريطانية على آخر معقل من معاقل المحور فى ليبيا وبرقة وطهرت الصحراء من جميع قوات المحور الباقية وأمن الجنرال أوكنلك على خطوط مواصلاته فأصبح بعيداً عن المشغوليات الأخرى ولم يعد أمامه سوى عملياته الرئيسية وصار حراً فى توجيه جهوده ووضع خططه — وكان أمامه أحد أمرين إما الاستمرار فى الزحف إلى طرابلس ، أو تعزيز ما ربحه فيترك لخصمه حرية المبادأة . .

ليس الانتصار فى حرب الصحراء شيئاً يمكن الاستدلال عليه بالأرض المكتسبة أو بطول التقدم أو يمكن إدراكه بعدد البلاد

المقهورة أو بمقدار المكاسب الأقليمية . . ولكنه ضرب الخصم وتدمير مركباته و إتلاف موارده وأسر رجاله . . وقد شهدت الصحراء المصرية وأقليم برقة خصمين عنيدين استعدا بكل ما فى الطاقة من مواد وموارد وأسلحة وجنود وخاضا معارك عنيفة كان لكل منهما فيها انتصارات وانكسارات ، وجيئات وروحات وقد ظُنّ فى نهاية كل مرحلة أنها نهاية الحرب الصحراوية ظناً خطأ . فالأراضى الضائعة يمكن استردادها أما الأدوات والمركبات التى تتحطم وآلاف الجنود التى تقتل أو تؤسر فلا يمكن استعادتها أو تعويضها .

وقد وصل تقدم الإنجليز مرة ثانية إلى ما بعد بنغازى نخفت قوة الهجوم وتضاءلت شدته ووجدت قوات المحور الأرض التى تنفعها فى الدفاع بعد أن جرّت أعداءها إلى مقربة من « عقر دارها » ووجد الجنرال روممل الفرصة للوقوف وجمع قواته لمقاومة الزحف فأسرع وقام بعدة مناورات ناجحة واشتبك فى معارك قوية سرعان ما تبدل الموقف بعدها — وقد أشادت جميع مصادر الأخبار بالطريقة التى أدار بها الجنرال روممل دفة القتال ، والمقاومة المثمرة التى قام بها ومقدرته على الإحتفاظ بنسبة كبيرة من قواته .

وقد ثبّت روممل جنوده وقاوم مقاومة عنيفة قضت على الجهود المضنية التى بذلها الانجليز فى هجومهم ، ثم هجر خنادقه التى كان مستقراً فيها فى العقيلة وخرج إلى العراء وجهاً إلى وجه أمام أعدائه ، ولم تعد هناك

حقول ألغام ولا عقبات طبيعية تحمى أحد الفريقين ، ثم بدأ مناوراته المعهودة لإفساد الخطة الانجليزية وتفريق منازليه ، ثم أتبع ذلك بهجوم قوى بدأه من مرسى البريقة يوم ١٧ يناير ٤٢ تحميه قاذفات القنابل فلم يأت المساء حتى انسحبت القوات الانجليزية من أجدابية .

وبدأت معركة بين الدبابات فى المثلث الواقع بين أجدابية وعنتيلاب وساونوا ثم اتسعت العمليات وخاضت غمار القتال من الجانبين قوات مؤلفة من مشاة وسيارات مصفحة وبطاريات من المدافع المضادة للدبابات ، وقام رومل بهجوم عنيف دافعاً بطوابيره السريعة إلى الشمال والشمال الشرقى من مسوس « ٧٠ ميلا ج . ش بنغازى » لقطع الجزء الغربى من برقة وتطويق الانجليز الذين لم يعد أمامهم فرصة للانسحاب إلا عن طريق الأراضى المجدبة التى لا ماء فيها فى منطقتى الغزالة وطبرق

وقطع رومل بحركته الجريئة مرحلة طويلة وأصاب القوات الانجليزية بخسائر فادحة وأدار رحى القتال فى منطقة مترامية الأطراف ، ومعركة مضطربة مشوشة يجيد العمل فيها حيث يكثر الكر والفر والصدمات السريعة مما أدى إلى اضطراب مواصلات الانجليز وتحرج موقفهم .

وتطور القتال إلى معارك صغيرة وتعذر على الانجليز حشد قواتهم وتركيز مجهوداتهم ليتمكنوا من القيام بالتدابير المضادة ، فحال بينهم وبين ذلك تكتيكات الألمان ، ومياعة القتال . .

ووصل الألمان مسوس فى ٢٨ وأقبل الخطر على بنغازى فقد ترك

الألمان قوة مناسبة فى مسوس وحوّلوا هجومهم الرئيسى إلى بنغازى التى احتلتها الجيوش المتحاربة ثلاث مرات من قبل . . وكانت القوات التى أقبلت نحو بنغازى هذه المرة مكونة من فيلقين كبيرين يضم كل منهما دبابات وسيارات مصفحة كانت لها الغلبة فانسحبت القوات الأمبراطورية ، وقالت الأنباء الحربية « إن الخسائر التى حاقت بنا ليست قليلة لأنها حدثت فى منطقة أنشأنا فيها مخازن تموينا . . »

فللمرة الثانية إذن بعد قتال عنيف عادت المطاردة عبر برقة حتى العقيلة ولكن هذا الهجوم أيضاً لم يحطم قوات المحور نهائياً ولم يفسد تقهقرها مما مكنها من الثبات ، كما أن القوات البريطانية كانت قد أجهدت بعد هذه المرحلة العاتية فلم تستطع كما قدمنا أن تشق طريقها بعد العقيلة التى دافع عنها الألمان مستندين إلى مواصلات جيدة وخط تموين قصير مستمدين القوة يوماً بعد يوم من الإمدادات التى كانت تصل إليهم متلاحقة على الرغم من تعرض قوافل الإمدادات هذه إلى الهجمات الجوية والبحرية

وأعد الألمان ما استطاعوا من قوة ثم هجموا هجوماً جارفا اقتلعوا به أساس الدفاعات الانجليزية وأرغموا القوات التى كانت بالأمس مهاجمة أن ترتد متعجلة مضطربة بعد ما خسرت الثمين من جنودها المدربة ومعداتها وأقواتها فى بنغازى فإذا ما وصلت إلى خط الغزالة — بير حكيم تمكنت من الثبات وقاومت بحزم ووقفت قبالتها قوات المحور بين التميمى

والمخيلى وكانت الشقة الحرام تقع بين الخط البريطانى الممتد من الشمال إلى الجنوب وخط المحور الممتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى وهذان الخطان يقترب أحدهما من الآخر من ناحية الشمال أكثر من اقترابهما فى الجنوب. وهناك بقى الجيشان أربعة شهور يختبران أوضاعهما ويجهزان خططهما واستفاد الألمان من مواصلاتهم القريبة من اليونان وإيطاليا فاستعدوا قبل أندادهم .

وطرأ على الموقف الحربى هدوء طويل كان لحالة الجو أثرها فيه فقد كان فصل الرياح الخمسينية اللافحة التى كانت حرباً وحدها والعواصف الرملية الشديدة . . هذا إذا استثنينا النشاط الجوى وأعمال الدوريات ولكن معركة أخرى كانت دائرة بغير سلاح وقائمة بغير أن تلفت انتباه الكثيرين وهى معركة الإمدادات التى كانت فيما بعد الفيصل القاطع فى هذه المعمعة الصحراوية . . على أن معركة أخرى خطيرة الشأن مرتبطة بمعركة الإمدادات كانت أيضاً دائرة الرحى وهى معركة الطائرات فقد كانت على أشد ما تكون شدة ونشاطاً وذلك لإحراز السيادة الجوية وتعطيل المواصلات وتمهيد الطريق للمعارك البرية فكانت طائرات المحور من طراز ستوكا وقاذفات القنابل من طراز يونكرز وعدد غير قليل من طائرات سافويا مستمرة فى غاراتها المتوالية على ميناء طبرق وشن الغارة من وقت إلى آخر على الخط الحديدى فى الصحراء الغربية وضرب المطارات البريطانية أما سلاح الطيران البريطانى

فقد واصلت طائراته حملاتها على مهابط الطائرات والمعسكرات فى درنة والتميمى ومرطوبة وبنغازى وذلك غير مهاجمة سفن الملاحة وقوافل النقل والتموين .

وكان نشاط فصائل الدوريات الإنجليزية مستمراً فى مهاجمة مثلث المحور الأمامى الحصين بين التميمى والمخيلة ودرنة وكانت طوابير المحور تعمل بين طريق التميمى والمخيلي وبين المراكز الإنجليزية جنوبى الغزالة وتناور بمهارة فى معارك صغيرة متنقلة تختبر بها أوضاع العدو وترقب حركاته وتحاول إقامة بعض المراكز الأمامية وزيادة العمق فى الدفاعات — وكان هجوم المحور متوقعاً ومنتظراً من وقت لآخر وكانت طائرات القتال البريطانية تقوم من قواعدها الأمامية لاكتشاف استعدادات المحور والإغارة على وحداته ومناطق حشد مركباته وما يملكه من وسائل النقل . . . وما كادت تأزف ساعة قيام المحور بهجومه حتى امتلأت السماء بقاذفات القنابل وطائرات القتال لتأييد العمليات البرية وقد اشتركت فيها طائرات (سبيت فاير) لأول مرة كما كانت هناك عدة أسراب أمريكية من طراز لتيهوك المطاردة وحاملات القنابل .

وقد ذكرت وكالة النشرة البريطانية الرسميـة أن القوات الألمانية مؤلفة من الفرقتين ١٥ و٢١ من فرق الدبابات والفرقة ٩٠ المصفحة الخفيفة وأن القوات الإيطالية مؤلفة من فرقة أريتى المصفحة وفرق تارنتا وبولونيا وبافيا من المشاة .

وكان أمام روميل خطتان لا ثالث لهما فإما أن يخترق مراكز الحلفاء الأمامية التى تكتنفها الالغام أو يقوم بحركة التفاف من الجنب مع القيام بهجمات خفيفة فى جهات أخرى فاتبع الطريقة الثانية

وفى ٢٧ مايو ٩٤٢ حدث اصطدام كبير بين القوات المدرعة فى جنوب خط الحلفاء ، فكان ذلك إعلانا ببدأ الهجوم فى ليبيا بعد فترة الانتظار الثقيلة ، وقد تجاهل الألمان حرارة الشمس الموقدة فى الصيف ووطأتها على الجنود وخصوصاً جنود الدبابات وتقدمت قوة كبيرة من الطرف الجنوبى فى خط المحور بين روتندا وسكنالى وتنجدر بينما ربطت القوات البريطانية لمقاومتها .

ودفع روميل بالأفواج الأولى من الفرقتين ١٥ ، ٢١ المدرعتين ومن الفرقة التسعين الميكانيكية الخفيفة فدارت حول خط الحلفاء متجنبة حقل الألغام البريطانى الممتد من الغزالة إلى بير حكيم والذى يحمى وراءه من الشرق عدداً من نقط الدفاع البريطانية ، وبعد الدوران حول بير حكيم تفرعت قوات المحور إلى طوابير سريعة وصلت إلى سيدى رزق والدودة والعضم بينما اندفعت القوات الرئيسية فى « صندوق صحراوى واسع الارجاء محاولة فتح الغطاء إلى البحر » فكانت خطة جريئة مملوءة بالمغامرة .

ونشب قتال راعب فى المنطقة الواقعة حول جسر الفرسان «١٢ ميلا جنوب عكرمة » واخترقت ثغرتان فى حقول الألغام الإنجليزية أخذتا فى الاتساع حتى تكونت منهما منطقة كبيرة عرفت باسم « مرجل

الشيطان » واستمر القتال بين القوات المدرعة بجوار جسر الفرسان وغربي عكرمة ووصلت قوات المحور يوم ٢٨ إلى طريق الساحل بينما كانت معركة بين الدبابات مشبوبة حول بير حكيم التي كان يدافع عنها الفرنسيون الأحرار ، ومعركة أخرى بين الساحل وجسر الفرسان .

ويمكن من هذا استقراء الخطة الألمانية بالنسبة إلى اتجاه الهجوم هذا وتطوارته بأن الجنرال رومل عند ما دفع بجيش ألمانيا الإفريقي إلى الهجوم يوم ٢٦ مايو إنما كان يقصد القيام بعمليات حاسمة يصل بها إلى قهر القوات المدرعة والاستيلاء على طبرق — وسبيله إلى ذلك أن يستولى على بير حكيم ويلتف حولها من الجنوب ثم يتقدم بقوات مدرعة للهجوم بشدة على الغزالة وطريق كابتزو .

وقد قام جيش إفريقيا الألماني بنصيبه في الخطة التي وضعت فمر من حول بير حكيم في ليل ٢٦ / ٢٧ مايو واتجه نحو الشمال بسرعة كبيرة عن طريق عكرمة وفي اتجاه ساحات القتال القديمة في الدودة وسيدى رزق وحدثت معارك بين القوات المدرعة خلال هذه التنقلات ووصلت دبابات المحور إلى المنحدر الذي يشرف على الطريق الساحلي شمال عكرمة .

وحاول المحور إنزال بعض القوات عن طريق البحر إستكمالاً لخطته ولكن الأسطول البريطاني وفق في القضاء على هذه المحاولات .

وفى أيام ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ دارت معارك عنيفة مستمرة كثيرة التنقل تسير إلى الأمام تارة وترتد إلى الوراء أخرى فى منطقة شاسعة تمتد من عكرمة فى الشمال إلى بير حكيم على بعد ٤٠ ميلا إلى الجنوب ومن العضم إلى ٣٠ ميلا نحو الغرب ، ونجح الألمان فى توسيع الثغرات التى أحدثوها فى منطقة الألغام ثم دخلت العمليات فى دورها الثالث فقد كان الدور الأول محاولة الوصول إلى طبرق وقد تعطل بفضل المقاومة البريطانية وثبات بير حكيم والدور الثانى كان ثبات الألمان فى منطقة الألغام ، ثم انتقل الضغط فى الدور الثالث فجأة على قوات الفرنسيين الأحرار المرابطة فى الجناح الجنوبى عند خط الغزالة وقد كان لابد للمارشال رومل من أخذ بير حكيم قبل أن يخطو للأمام حتى لا ترهق مدده وتعرقل حركته .

وقد هوجمت بير حكيم من الجنب أما الغزالة فهوجمت بالمواجهة وكان موقع الحلفاء فيها حصيناً بالطبيعة لأن الأرض حول هذه المواقع وخلفها حتى أطراف استحكامات طبرق كانت كثيرة التلال والصخور وتحميها مجموعة من المراكز الكثيرة الحفر والخنادق والنقط الحصينة التى نصبت حولها مدافع الميدان .

وفى هذه المواقع وفى غيرها وقفت القوات المصفحة البريطانية بعد معارك شديدة وخسائر فادحة إلى مقاومة هجمات رومل العجيبة الشكل وقد لعبت قوات المشاة والمدفعية دوراً كبيراً فى هذا النضال حيث حرمت قوات المحور الميكانيكية ميزة السبق وسرعة الحركة وظلت صامدة تعزز مراكزها فى مثلث هرمات — تمار — جسر الفرسان —

رغم كرات الألمان المتكررة لإزالة هذا المركز وفتح الطريق إلى عكرمة والعضم .

وكان ميدان المعركة الفاصلة فى المنطقة الصحراوية التى كانت تحيط بجسر الفرسان حيث تقاتلت الدبابات والمدفعية قتالاً مستمراً ثم شدّد الألمان هجومهم فانتقلت المعركة من خارج استحكامات جسر الفرسان ومنطقة الألغام وتحركت غرباً . . وتراجعت القوات البريطانية أمام مناورات رومل الشاذة وكان عليها أن تسرع حتى لا تقع فى حبائله .

أما فى بير حكيم فقد استمرت الحامية تبدى بسالة فى مقاومتها على الرغم من الضربات الشديدة التى ألحقت بها وأخيراً سقطت بير حكيم ليلة ١٢/١١ يونيو بعد إحدى عشر يوماً صد فيها الجنرال كوينج هجمات واسعة النطاق .

وبدأ الألمان يشقون طريقهم بين طبرق والغزالة ونجح هجومهم على العضم واندفعت قوات المحور صوب عكرمة التى تعد مدخل طبرق الغربى والطريق إلى الشاطىء واستمر زحف الألمان بنجاح كبير وأخذ رومل يسعى لينزل بأعدائه ضربة حاسمة ويعمل لعزل الغزالة وحصر القوات البريطانية فيها ولكن تم التراجع من الغزالة وجسر الفرسان يوم ١٤ يونيو ووصل الألمان إلى الطريق الساحلى فى الجهة الغربية من طبرق وأخذ يسرع فى زحفه ، فلما وضح للإنجليز الخطر الداهم فى هذا الزحف الجامح أسرعوا إلى سحب حامية العضم وسيدى رزق ثم طبرق التى سقطت

يوم ٢١ يونيو فقد كان ضغط الألمان عليها قوياً، فاخترقت دفاعاتها واستسلمت حاميتها وبدأت أزمة خطيرة فى صفوف الإنجليز .

وكانت القيادة الإنجليزية ترمى للاحتفاظ بطبرق والعودة إلى الهجوم من الحدودالمصرية ولكن فى هذه المرة كانت قوات أوكنلك غير كافية أو قادرة على ذلك وقد نقصت ٢٣ ألفاً من خيرة الجنود الذين وقعوا أسرى ، ولا شك أن فقد هذا العدد الكبير من الجنود المدربين يعد نكبة وقد قالت التيمس « لا شك أن قواتنا كانت تواجه قوات متفوقة فى القيادة وأنها نازلت جيشاً مظفراً هزمها هزيمة مروعة الخسائر . . »

وكان الهجوم على طبرق قد وُجه إلى الجزء الجنوبى الشرقى من نطاق الاستحكامات ، واندفعت القوات الألمانية فشقت طريقها وانفصلت إلى قوتين سارت إحداهما فى طريق طبرق وسارت الأخرى فى الطريق الممتد تحت المنحدر حيث اجتاحت مراكز القيادة البريطانية وأحكمت الحلقة عليها فتعذر على حاميتها أن تقاوم ولما تم تطويقها واشتدت الضربات عليها خمدت مقاومتها واستسلمت .

تقرير الجنرال أوكنلك :

« لما قام العدو بمحاولته الأولى لتطويق بير حكيم واصطدمت القوات الأمامية البريطانية بالقوات المصفحة الألمانية فى المنطقة الواقعة بين العضم وجسر الفرسان كانت الحالة تبدو على ما يرام ، وعلى الرغم من الثغرة التى فتحها العدو فى حقول الألغام البريطانية فقد كان يواجه

صعوبات فى وسائل تموينه وكانت كل جهودنا بما فى ذلك الغارات الجوية الشديدة ترمى إلى زيادة هذه الصعوبات .

وقد كانت هذه أدق مرحلة فى المعركة إذ كان العدو فى حالة شديدة من الأعياء تمنعه عن مواصلة القتال — فلو استطعنا انتهاز هذه الفرصة لكنا قلبنا كفة الميزان ولكننا فى الحقيقة كنا فى حالة أعياء مماثلة فلم يكن مقدورنا ذلك .

وكان الهجوم المضاد الذى قام به الجنرال رتشى لطرد العدو من حقول الألغام البريطانية سابقاً لأوانه فقام العدو رداً على ذلك بكرة شديدة أكرهت البريطانيين على الانسحاب — وعلى أثر سقوط بير حكيم واصل العدو هجومه فى منطقة جسر الفرسان والعضم واضطررنا بعدها إلى التخلى عن بعض المواقع فتم بذلك للعدو طريق الزحف إلى الساحل . . . »

وبعد هذه الصدمة تراجعت القوات البريطانية غير قادرة على التماسك أو الثبات ودون أن تجد الفرصة لتنظيم الانسحاب أو القيام بالأعمال التعطيلية فقد كان رومل يتقدم بجسارة وسرعة لاحد لهما وكان يضرب بشدة مما جعل حربه هذه صورة صادقة من البلتز كريج الألمانى — وهى الحرب الخاطفة الرهيبة — وعادت القوات الإنجليزية مرهقة إلى خطوطها الأولى بعد مرحلة طويلة شاقة من السلوم إلى بنغازى . . وبالعكس !

نقطـــة التحول

كانت قوات المحور تقدر بمائة ألف جندى نصفهم من الألمان وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الهجوم على خط الغزالة بير حكيم ، وقد ذكر مستر تشرشل أن القوات الإنجليزية كانت متفوقة فى عدد الدبابات بنسبة سبع دبابات إلى خمس ومتفوقة أيضاً فى المدافع بنسبة ثمانية إلى خمسة وكان بعضها تزن قنبلته ٥٥ رطلاً ومسافته ٢٠ ألف ياردة ، ومتفوقة فى الجو ، وأنه كان فى وسع الحلفاء أن يقوموا بالهجوم فى أوائل شهر يونيو لو أن العدو لم يبدأ ضربته . . .

وكما قدمنا كانت خطة رومل تقضى بالاستيلاء السريع على طبرق ولكن أفسد عليه ذلك ثبات القوات الإنجليزية حيناً من الوقت واستبسال حامية بير حكيم ، ثم حدثت معارك الدبابات وأصيب الفريقان من جرائها بخسائر فادحة ، علماً أن الجنرال رومل نجح فى اختراق خطوط الاستحكامات الإنجليزية واستوطن فيها (مرجل الشيطان) حتى تم ارتداد قوات بير حكيم فكان ذلك نقطة التحول فى المعركة . . فقام رومل وجيشه بهجوم مستمر لا هوادة فيه دام خمسة

أيام حول جسر الفرسان وعكرمة ، وقد كسب المعارك التى حدثت فى ذلك الوقت حتى أنه حطم فى يوم ٢٣ يونيو وحده أكثر من مائتى دبابة إنجليزية دون أن تقع به خسائر مماثلة فاشتد ساعده وقويت شوكته فدهم القوات الإنجليزية فى الغزالة وأخذ يجتاح مقاوماتها على طول الطريق .

وكانت القيادة البريطانية مصممة على بقاء طبرق وجعلها تلعب نفس الدور القديم ، شوكة فى جنب مواصلات المحور ، ثم الانسحاب من خط السلوم — الحلفاية إلى مرسى مطروح واتخاذها مركزاً للدفاع العام ، وكان بين الجيشين مسافة ١٢٥ ميلا وكان متوقعاً لذلك أن تكون هناك فسحة من الوقت لا تقل عن أسبوعين ولكن لم تمضى خمسة أيام حتى لحقت قوات رومل بأعدائها وراحت تضرب بشدة فأسقط فى يد الإنجليز وتعذر عليهم تنفيذ الخطة التى رسمتها القيادة وتحرجت الحالة تحرجاً شديداً .

وهنا أسرع الجنرال أوكنلك فأخذ بنفسه زمام الموقف وتولى قيادة الجيش الثامن بدلاً من الجنرال ريتشى ، ولم تكن هذه أول مرة يحدث فيها تغيير القيادة ولكن أحب أن يلاحظ القارىء شيئاً فى هذا الصدد وهو نهوض مستر تشرشل فى مجلس العموم مدافعاً عن القادة مرتئياً أنه «لابد للحكومة أن تقف كالطود لتدفع عن القواد فى ميادين القتال كل نقد أو لوم ، ولا بد أن تهىء لهم فرصة وأكثر من فرصة لأنكم

لا تجدون قواداً يستهدفون للأخطار ما لم يشعروا بأن من ورائهم حكومة قوية فلا يجدون ما يحملهم على النظر من فوق منا كبهم خوفاً مما يقال عنهم فى أرض الوطن . »

وقد قال الجنرال أوكنلك لجنوده « لقد قاتلتم قتالاً عنيفاً مستمراً دام أكثر من شهر ولقد تحملتم خسائر كبيرة و بذلتم جهوداً صادقة . . والحالة الآن تقتضى بذل أعظم مجهود من جانبنا . »

وكان القتال حينذاك قد وصل الحدود المصرية

وحدثت عدة معارك على خط الحدود لم يكن المقصود منها الدفاع ولكنها كانت بمثابة مناوشات لجأ إليها الجيش الثامن لتأخير زحف الألمان و إعطاء فرصة للقوات الرئيسية لتعيد تنظيمها وتدعم استعدادها ، ولم يكن هيناً أن يدافع الإنجليز فى منطقة الحدود نظراً لعدم انتظام عملياتهم ونظراً لأن خط الحدود مديد و يتطلب عدداً كبيراً من الجنود وتفوقاً على العدو فى القوات المصفحة لمنعه من الالتفاف ، كما كان للفشل الذى منيت به القوات الإنجليزية فى لو بيا وحركة الانسحاب الطويلة التى تلته أثراً مرهقاً يتطلب إعادة جميع القوات وتنظيمها ، وذلك لا يكون متيسراً فى المراكز الأمامية التى تكون عرضة لضربات العدو المباشرة .

وكان فى مقدرة الجنرال أوكنلك أن يدافع فى مرسى مطروح ولكنه آثر أن يتراجع قليلا إلى مراكز أخرى أكثر مناعه وقرر ذلك

بحزم فانسحبت قواته من مرسى مطروح ، والذين يعرفون مرسى مطروح وخصوصاً الرجال العسكريون يذكرون أنها ذات مناعة فى غربيها مسافات طويلة من الرمل الأبيض الناعم ووراءها سلسلة وديان عميقة وينتهى الطريق الخديوى بين مجارى المياه والوديان الصخرية وحواجز من تلال الرمال فتكوّن جميعها حصناً طبيعاً منيعاً يحمى مرسى مطروح ، وفى مثل هذه المنطقة تستطيع القوات المدافعة أن تستفيد من هذه الموانع والعراقيل الطبيعية .

انسحبت القوات الإمبراطورية من مرسى مطروح أيضاً يوم ٢٨ يونيو وتراجعت بسرعة نحو الشرق بينما اتجه زحف المحور الرئيسى على طول الساحل ولم يقع اصطدام فعلى ولم تحتدم معركة ولكن كانت عملية مطاردة سريعة تثير القلق على مصائر الأمور — وقد لعبت الطائرات دوراً عظيما فوق الطلائع الألمانية لتقوم بما كان واجباً على قوات المؤخرة ولتساعد على تعطيل التقدم وضرب قوات المحور الجوية ووحداته الميكانكية وللهجوم على الجنود الزاحفة من مرسى مطروح

واستخدم الألمان جميع وحداتهم السريعة الحركة فاجتمعت الفرق الميكانيكية مع القوات المدرعة وشرعت فى الاندفاع شرقا وقد حدثت عدة اشتباكات كان يكيّفها الجنرال رومل وفق هواه وعلى الطريقة التى يحب . فيصبح القتال عنيفاً ولكن مائعاً مشوشا . وحرباً متنقلة شاقة شديدة التقلب والمرونة . وكانت المعركة في بعض أدوارها قتالا

بين قوات مضادة للدبابات ووحدات من المدفعية ، ولم يرابط الإنجليز فى مراكز دفاعية معينة ولم تعط لهم الفرصة للوقوف فإن القتال لم يكن مستقراً فى ناحية وإنما كان كما وصفته مصادر الأنباء ذا صبغة (مائعة)

وواجهت القوات البريطانية عبء الهجوم الألمانى تاما كاملا وكانت وهى تواجه أخطر ساعاتها فى الشرق الأوسط تقاتل فى كل ساعة فى البر وتضرب من الجو وتهاجم خطوط المواصلات وتقوم بأشد الغارات على موانى التموين فى شمال إفريقية .

وانتقل القتال بعد مطروح إلى فوكه ثم الضبعة وعدة أميال أخرى من الصحراء بين اشتباكات ضئيلة ومقاومات محدودة ومصادمات مشوشة كثيرة التقلبات حتى وصل الأمر نهايته وبلغت الحرب الساحة التى وقع عليها اختيار الجنرال أوكنلك ليقف فى وجه الزحف ، وقد حدث ما أراده فعلا فى هذه المنطقة التى أعدتها الطبيعة بعناية تناسب الموقف مناسبة لا نظير لها . . وهذه المنطقة تقع بين الساحل عند بلدة العلمين وبين منخفض القطاره وهى تضيق إلى ناحية الشرق على شكل يشبه عنق الزجاجة وتحيط بها مرسى مطروح من ناحية الغرب ، وفوكه ومعاطن بغوش من ناحية الشرق ، وفى هـذه الساحة حدث التوقف وتبدلت الأمور ، وبدأت مرحلة التحول . .

وانتقل الحذاء من قدم إلى قدم . . !

عنق الزجاجة

أصبحت القوات الإنجليزية منذ أول يوليو سنة ١٩٤٢ فى موقع يمتد من العلمين إلى الطرف الشرقى من منخفض القطارة

ورجال الجيش وكثيرون من الموظفين المدنيين الذين خدموا على مقربة من العلمين ، والرياضيون الذى كانوا يقومون بالرحلات إليها يعرفونها جيداً دون أن يخطر للكثيرين منهم أن تصبح العلمين يوما ميدان حرب ، وأن تكون نقطة فاصلة فى أمر حملة خطيرة وأن تندفع نحوها هذه الشهرة العالمية والتاريخية .

أما الجنرال أوكنلك فرآها بعين القائد المتيقظ الذى يعرف قيمة الأرض وأثرها فى القتال ويعرف ما تفرضه طبيعة الأراضى على القوات المحاربة وأسلحتها ، فهو عند ما قرر أن يقف فى العلمين كان واثقا من خصائصها الجغرافية وما سيكون لها من أثر كبير فى العملية التى اعتزمها والتى كان مستقبل هذه الحرب منوطاً بنجاحها أو إخفاقها .

وليس للعلمين ذاتها أية أهمية خاصة فهى محطة عادية تقع على طريق السكة الحديدية السائر غربا إلى مرسى مطروح والطريق الساحلى

المرصوف الممتد إلى الحدود الغربية ، وهو الطريق الوحيد الصالح لسير العربات والحملات الحربية ، أما الشط فسهل متموّج مؤلف من تربة حمراء منقطة بالعشب وقد أهالت الريح عليه الرمال وتركتها كثبانا يصعب اجتيازها وخصوصا فى فصل الأمطار .

أما منخفض القطارة الذى أصبح بقعة شهيرة حملت أنباءها الرسالات البرقية إلى جميع أنحاء العالم وصار من الأسماء التاريخية فيقع فى الجزء الشمالى من الصحراء وفى منتصف المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، وتبلغ مساحة ١٩٥٠٠ كم وعمقه نحو ٦٠ متراً وتملؤه الرمال المتهايلة فيصبح السير فيه متعذراً وخصوصاً بالنسبة للمركبات الكبيرة .

وقد اتخذت القوات الانجليزية هذا المكان الممتاز الذى اختارته القيادة لايقاف زحف المحور فى مواجهة أربعين ميلا فقط يحدها البحر من الشمال ومنخفض القطارة — الذى لا يمكن عبوره — من الجنوب فكانت بذلك آخر ساحة يمكن الوقوف فيها وأحسن ميدان يمكن المدافعة عنه ولن يجد العدو حيلة لاستمرار زحفة إلا هجوما بالمواجهة فهنا ينقطع كل أمل فى محاولة التطويق أو المرور من الجنب .

وهذا هوما اتجهت إليه خطة المحوريين فعلا فأخذوا يوجهون ضرباتهم إلى القلب ولم يكن بمقدورهم استخدام البحر لإنزال قوات جديدة خلف خط القتال ، كما كانت مسألة استخدام جنود المظلات أو جنود الطائرات مسألة تحتاج لترتيبات ضخمة واستعدادات لم يكن الموقف الحربى العام ليساعد على إنجازها .

وقد أخذت مظاهر المعارك تتغير شيئاً فشيئاً إزاء المجهودات والمقاومات التى كانت تبـذل بسخاء فاضطر الألمـان إلى تخفيف نشاطهم والالتفات إلى تنظيم قواتهم والاستعداد للوثبة الجديدة فهدأ الموقف الحربى قليلاً وصدت الهجمات المسلطة على العلمين وحدثت عدة التحامات سريعة وغزوات قصيرة لم يكن لها نتيجة فى تغيير الأوضاع التى استقرت منذ ٣٠ يونيو وأخذت المدفعية الانجليزية تطلق نيرانها بغير هوادة وتقيم سداً من النار لا تستطيع قوات المحور أن تنفذ منه وقد وصف الميدان بين البحر والمنخفض بأنه مركز شديد الانزحام ولـكنه ثابت جداً .

وفى ٣٠ يونيو هجمت فرقة دبابات ليتوريو ولـكنها رُدَّت على أعقابها مثقلة بالخسائر التى أحدثتها بها القوات المدرعة ، وفى اليوم التالى هجمت المشاة ولكن لم ينجح الألمان فى الحصول على نتائج فى غمار المعارك الـكثيرة المتتابعة ، وبقيت مراكز الجيش الثامن فى منطقة العلمين سليمة وأصبح رومل يلقى صعوبات جمة من جراء ترامى خطوط مواصلاته بينما كانت القوات البريطانية تتلقى إمدادات جديدة غير منقطعة بفضل قصر خطوط مواصلاتها كما كانت الأسلحة تفد من أمريكا منذ سمع الرئيسان روزفلت وتشرشل بسقوط طبرق وهما مجتمعان فى وشنطون فأرسلت دفعات متلاحقة من دبابات شرمان وعدد من الطائرات ، وكانت المدافع الانجليزية من عيار ٦ رطل المضادة للدبابات تصل بغير

انقطاع وهى المدافع التى خففت من حالة الموقف السيء فى الغزالة من قبل وأخذت المهمات للجيش الثامن تصل تباعاً من المصانع البريطانية . أمّا الإمدادات الجويةفكانت على أوسع نطاق فقد استخدمت نحو ٧٠٠ قاذفة قنابل فى هذا الميدان وتغلبت على طائرات المحور وأحرزت السيادة الجوية .

وبين مايو ونوفمبر ٤٢ توالت الامدادات من كل نوع ومن كل قطر على الشرق الأوسط .

أما ما حدث منذ أول يوليو بعد أن تم استقرار الإنجليز فى العلمين فنلخصه فيما يلى : —

يوم ٧/١ قام الألمان بثلاث هجمات كان آخرها أشدها وقد وصفتها البلاغات الألمانية بأنها عمليات مواصلة مطاردة القوات الإنجليزية نحو وادى النيل .

يوم ٧/٢ قامت قوات المحور بهجوم كبير آخر يتقدمه جنود المشاة بغية تدمير المدافع البريطانية و إفساح الطريق لقواتهم المدرعة وحدث ذلك بتأييد المدفعية ولكن المدافعين قاموا بكرة كبيرة حالت دون تأييد قوات المحور المدرعة للمشاة فأدى ذلك إلى حبوط الهجوم وارتداد القوات التى قامت به .

يوم ٧/٣ استأنف المحور هجومه بالدبابات فى منطقة العلمين فردته القوات البريطانية بعد أن أنزلت به خسارة فى الدبابات واستولت على عدد من المدافع والأسرى .

ويستنتج من ذلك أن المحور كان دائم السعى لاختراق الخطوط الإنجليزية وإن الإنجليز نجحوا دائماً فى صد هذه الثغرات وضيعوا على الألمان فرصتهم العظيمة وحرموا روميل ثمار انتصاره الكبير، وقد جاء فى البلاغات الألمانية أن مناعة المراكز البريطانية قرب العلمين أعجزتهم عن شق الطريق إلى الأمام وأن قوات المحور تقوم بصد السكرات البريطانية . . وحدثت عشرات الأدلة على أن المعركة كانت تتطور وأن الأرطال كانت تضاف يوماً بعد يوم إلى الكفة الإنجليزية فى الوقت الذى كانت فيه خطوط مواصلات المحور قد بعدت ٣٠٠ ميل من طبرق و ٧٠٠ ميل من بنى غازى وأكثر من ألف ميل من طرابلس . . وللمعركة الإمدادات فى مثل هذا الموقف شأن حاسم .

ولم يحدث هدوء حقيقى فى ميدان المعركة فالهجمات كانت تشن فى كل يوم وكانت الخسائر والتضحية الناتجة عنها متوازية تقريبا والمكاسب الإقليمية ضيقة النطاق — وكان أكثرها أهمية احتلال الاستراليين لتل العيصى — وأخذت المعارك بعد ذلك تتنقل بعنف من مكان إلى مكان دون أن يظفر فريق بالآخر ، وكان الشىء الواضح من هذه المحاولات هو أن القوات الإنجليزية قد ثبتت نهائيا فى مواقعها وأن قوات المحور كانت قوية ولا سبيل إلى إخراجها من مراكزها قبل الاستعداد بقوات مضاعفة وأسلحة متزايدة وجهود جهيدة .

والحقيقة التى كانت أكثر وضوحا فى هذا الموقف هى أن الجيش

الثامن بعد أن خاض معارك خطيرة مرة المذاق قد استطاع أن ينتزع زمام السبق فى العمل ففشلت جميع محاولات المحور التى أراد بها شق طريقه إلى الأمام بسبب المدفعية الانجليزية والوحدات المدرعة والطيارات التى لم تتحرك لجيش إفريقيا الألمانى فرصة للراحة ولحرية المناورة ولم تمكنه من حشد قواته لإدارة دفة القتال كما يشتهى .

ولهذا ثبتت القوات المتحاربة فى أمكانها وأخذت تعيد تنظيمها وتقوى دفاعاتها ولم يطرأ أى تبديل على الخط الذى يتقابل فيه الجيشان والذى كان ممتدا إلى الجنوب ثم يتجه غربا متخذا شكل حرف ل وعنده وقف الفريقان موقف الدفاع فحفرت الخنادق ونظمت المواقع الدفاعية وزادت الاستعدادات ليتمكن السابق من الخصمين أن يوجه ضربة ساحقة يحقق بها أغراضه فى القتال .

ولم يكن يحل الموقف إلاّ هجوم قوى بالمواجهة فحركة الالتفاف لا سبيل إليها فى هذه الساحة المحدوده بين البحر فى الشمال ومنخفض القطارة فى الجنوب . . . وطبيعة التربة فى منخفض القطارة تجعل من المستحيل على القوات أن تتقدم فيها وخصوصا إذا كانت هذه القوات مؤلفة من الدبابات والسيارات الكبيرة وما يشابهها من معدات الحرب الثقيلة .

كما كان الأمر يتطلب تفوقاً ساحقاً فى جميع أسلحة القتال وقد كان الجيشان المتحاربان يعتصمان بحقول منيعة من الألغام وأسلاك شائكة

وخطوط قوية من الحفر والخنادق فالهجوم بالمواجهة يتطلب كل ذلك مع الاستعداد سلفاً لتضحيات جسيمة وخسائر لا منقذ منها .

وكانت هناك وسيلة أخرى للتغلب على هذه العقبات ولكنها لم تستخدم وهى إنزال الجنود من البحر خلف المواقع الدفاعية. وهى عملية تتطلب سيطرة بحرية تامة ودفاعا قويا ضد الطائرات وربما كان ذلك أمراً لا يمكن تحقيقه بالنسبة للموقف الحربى العام فى تلك الأيام ، كذلك استخدام جنود المظلات على نطاق واسع ولكن أحد الفريقين لم يلجأ لذلك وظلت المناوشات البرية تأخذ كل وقتهم وأفكارهم وتتراوح شدة وضعفاً .

على أن المعركة الجوية كانت على أشدها وكان للإنجليز التفوق فى الطائرات وقد أحصت البلاغات الرسمية خمسة آلاف غارة على جيش رومل وموانى الإمدادات فى شمال أفريقيا خلال العشرة الأيام الأولى من يوليو وكانت العمليات البحرية أيضاً لا تهدأ وقد استمرت سفن الأسطول البريطانى تواصل ضرب الموانى وخصوصاً مرسى مطروح حتى حولت ذلك الميناء جحيماً وكانت تناهض الغواصات وتطارد سفن المحور وقوافل الإمدادات بغير هوادة .

أما الميدان البرى فى العلمين فقد انقسم إلى ثلاث ساحات الساحة الشمالية والساحة الوسطى والساحة الجنوبية وقد شهدت كل من هذه الساحات الثلاث عمليات كرّ وفرّ متعاقبة وتحطمت عندها مئات من

العربات والمعدات وصرعت فيها قوات عديدة من الطرفين ووقع أسرى كثيرون .

وانقضى النصف الأول من شهر يونيو على وتيرة واحدة : هجمات من جانب الألمان هنا مرة وهناك مرة فتقابلها القوات الإنجليزية بمقاومة فعالة حتى تعيدها إلى خطوطها الأولى قبل انتهاء اليوم حتى إذا جاء يوم ١٤ يوليو كان الجيش الثامن قد أحبط مشروع جيش أفريقيا الألمانى الذى أراد به أن يحدث أكبر ضغط ممكن على خط العلمين فقد زحفت الدبابات الألمانية تؤيدها المشاة فى اللوريات بين كثبان الرمل عند تل العيصى فى أقصى الساحة الشمالية بينما قام الإنجليز بهجوم فى الساحة الوسطى على طول هضبة تعد مفتاح الموقف وكانت نيران مدافع الجيش الثامن تطلق ستاراً من النيران الجهنمية على مراكز الإيطاليين ومشاة الألمان عند منحدر الهضبة وتقيم حولها غلالة مروعة ثم اندفع المشاة للهجوم واشتبكت الدبابات فى منازلات عنيفة و بعد قليل توقفت معركة الدبابات فى الساحة الوسطى واحتفظ الحلفاء بمراكزهم وهجمت قوات المحور على هضبة الرويسات ولم ينل أحد الطرفين كسبا من هذه العمليات وعاد كل إلى قواعده بعد مالحقه من الخسائر والأضرار نصيب كبير .

وفى النصف الثانى من شهر يونيو حدثت معارك الهضاب فى سبيل السيطرة على الهضاب الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربى من العلمين وقد اشتدت فيها معارك الدبابات والمشاة ، أما الهضاب التى كان القتال

دائراً بسببها فهى تل العيصى والمخاض والمتربة وهى تقع فى الساحة الشمالية على مقربة من الساحل ، ثم الطرف الغربى من هضبة الرويسات وهضبة دير الشين المتصلة بها أو المتممة لها ، وهضبة الطاقة وهى هضبة مرتفعة مسطحة تقع على حافة منخفض القطارة وتعد الحد الجنوبى لجبهة القتال . . وقد ظلت المعارك سجالاً يشتد فيها القتال بالدبابات تارة وبالمشاة أخرى وتتخذ نفس الصورة التى تميزت بها حرب الصحراء وهى صورة الكرّ والفرّ والقتال المتنقل بين مكان ومكان . وقد استخدم الألمان دباباتهم فى هذه الفترة إستخداماً جديداً فقد وضعت وحدات منها فى دشم وخنادق واستخدمت فى مساعدتها بطاريات المدفعية والحقيقة أن تسليح الدبابات قد تطور تطوراً كبيراً والذين شهدوا فلم انتصار الصحراء قد لاحظوا بغير شك ضخامة الدبابات وقوة دروعها ولكن ذلك لم يثر دهشة الفنيين منهم بقدر ما أثارتها أنواع المدافع التى كانت تتسلح بها هذه الدبابات .

ونعود إلى ميدان القتال فى شهر أغسطس فنجد أنه لم يحدث فى ذلك الشهر من العمليات الحربية ما يستحق الذكر وأنه لم يطرأ تعديل على الحالة فانحصر النشاط فى أعمال الطائرات التى كانت قوية الجناح شديدة الخطر على الموقف عامة كذلك كانت القوات البحرية دائمة العمل تجاه السواحل المصرية واللوبية لمطاردة سفن المحور ومقاتلة

غواصاته وشل حركة التموين عن طريق البحر فالسيطرة الجوية والتفوق البحرى قطعا فى أمر معركة الإمدادات .

على أنه فى الليلة الأخيرة من شهر أغسطس قامت القوات الألمانية المدرعة بهجمتين قويتين فى الساحة الشمالية وقد انتهت تلك العمليات بغير نتيجة وعادت قوات المحور إلى مراكزها بعد قتال شديد نتجت عنه خسائر ذات شأن

وحدث هجوم آخر لقوات المحور فى ساحة الاستحكامات الخفيفة فى الجنوب بين الرويسات والحميات فضربت الطرف الجنوبى من هذه الساحة ودارت للشمال متجهة من خلف خطوط القتال نحو الشاطئ لتستدرج القوات المدرعة ولكن ردّت عليها نيران المدفعية وقنابل الطائرات وفى اليوم التالى قفلت راجعة إلى مراكزها بغير نتيجة .

ولم يحدث بعد ذلك قتال يستحق الذكر غير مناوشات ضئيلة بين الدوريات وعلى نطاق ضيق فقد اختبر كل خصم خصمه وامتحن ثباته واستعداداته ولم يكن أحدهما قد وصل بعد إلى الحالة التى يستطيع عندها دفع الآخر نهائياً فتأجلت الموقعة الفاصلة ومضى شهر سبتمبر فيما يمكن وصفه بالهدوء كذلك مضى الشطر الأكبر من شهر اكتوبر ثم جاء الوقت المناسب الموعود و بلغت الحالة أقصاها ونضجت الثمرة نضوجاً كاملا وأشارت إلى صاحبها فكان عليه أن يعجّل فيقوم بضربته ويحظى بأمنيته .

إضرب بشدة ، إضرب أولا ، واضرب دائما . .

فى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٤٢ تحدث مستر تشرشل عن الموقف الحربى فى العلمين فقال :

« هناك أمر أحب أن أجلوه الجلاء كله ذلك أننا معتزمون أن نقاوم إغارة العدو عن مصر وعلى وادى النيل وأن نصده عنهما بنفس القوة والعزم اللذين نقاوم بهما إغارته على أرض انجلترا ذاتها ونصده عنها ، وسيجلب إلى هنا كل شىء يمكن جلبه فى السفن أو عن طريق الجو لطرد العدو إلى الوراء على صورة تذهب بمقدرته على البقاء ، ونحن معتزمون أن نعمل كل شىء تصل إليه قوتنا لتحقيق هذه الغاية »

قال ذلك فى الوقت الذى كان يغمر الصحراء المصرية جو من الترقب والانتظار وبوادر تنم عن احتمال استئناف الهجوم بعد فترة السكون التى سادت الشهرين الماضيين .

وقد استعد الفريقان فالفرق الألمانية المصفحة قد عُززت بنجدات وأصابت قسطاً من الراحة بعد مرحلة الإجهاد العاتية التى مرت بها ومع

هذا فلا يمكن القول بأنها كانت فى مركز يتيسر لها فيه القيام بهجوم كامل النطاق ، وكانت الهجمات التى قامت بها القوات البريطانية فى القطاع الشمالى خلال بضعة أيام ماضية قد أقنعت المحور بأن أية محاولة تحاولها قواته لاختراق هذه الساحة لن تكون شاقة فحسب ولكنها تكلف غالياً من الأرواح والعتاد فى وقت يقتضى الأخذ بأشد الاقتصاد فى هاتين الناحيتين معاً .

وفى ذلك الوقت الذى يستجمع فيه كل فريق أقصى ما يستطيع من المعدات وصل مستر تشرشل إلى الميدان . . ولم تكن زيارة لتفقد الخطوط ومراجعة الخطط فحسب ولكنه ذهب ومعه بشرى الإمدادات السخية التى أرسلت من انجلترا و بقية أجزاء الإمبراطورية وذهب أيضاً ومعه قيادة جديدة وتصميمات تم البحث والبت فى شأنها .

فقد أعلنت وزارة الحربية البريطانية تعيين الجنرال السير هارولد الكسندر قائداً عاماً للشرق الأوسط خلفاً للجنرال السير كلود أوكنلك ، والقائد العام الجديد اشتهر بأنه كان آخر رجل ترك دنكرك وكان القائد البارع الذى حارب ببسالة فى بورما . . وتعيين اللفتنانت جنرال برنارد مونتجمرى قائداً للجيش الثامن خلفاً للجنرال رتشى .

وجاء شهر أكتوبر يحمل فى طياته أحداثاً كبرى وكان الحدث المنتظر لا يعنى تقرير معركة فحسب ولكنه سيكون الحدث الفاصل فى أمر حملة تاريخية كبيرة فإما أن تهزم القوات الانجليزية وتتحطم

قوتها فتفتح الأبواب لجنود المحور فتندفع نحو غايات خطيرة تغيّر من وجه الموقف الحربى العام وتكون ذات أثر حاسم فى مجرى الحرب و إما أن تنتصر فتوقع بخصومها الهزيمة وتدفع بهم إلى انكسار أخير وتجليهم عن الصحراء المصرية فينفسح الطريق أمامها إلى برقة ثم طرابلس وتحقق ما عجزت عنه من قبل فتواصل انتصاراتها فى تونس حتى تقضى قضاءا نهائياً على قوات المحور فى شمال إفريقيا . . ويكون لهذه النتيجة بعد ذلك ما يكون من تغيير فى الموقف الحربي العام و بدأ النهاية فى هذا الصراع العالمى الكبير .

ولو أننا ألقينا نظرة فاحصة على الموقف الحربى فى ذلك الحين أى فى شهر اكتوبر لاستدللنا على النتيجة سلفاً وذلك بمراجعة عوامل النصر عند تقدير موقف الطرفين المتحاربين .

(١) ميدان القتال البرى : يقف الجيشان المتحاربان فى خطين متقابلين وتستند القوات الإنجليزية إلى قواعد حليفتها فى وادى النيل ومن خلفها خطوط مواصلات جيدة تأتى من مختلف أجزاء الإمبراطورية وتحمل الإمدادات من الجنود والمهمات والأسلحة ، وتشعر القيادة الإنجليزية والحكومة بخطورة الموقف وتجدّان لإمداد قواتهما بكل ما فى الطوق لكسب هذه الموقعة الفريدة ، وقد تعدلت القيادة وولى أمرها قادة أكفاء تثق الحكومة بكفايتهم وتعتمد عليهم فى تحقيق هذا الغرض الكبير الذى يعد فاتحة أغراض الحرب النهائية .

وفى الخط الثانى تقف قوات المحور ونصفها من الألمان وهم رجال حرب ذوو كفاية ومقدرة ومعداتهم من النوع الممتاز ولكن تحطمت أعداد منها أو فقدت ولم تسعفهم مواصلاتهم الطويلة المهددة من استكمال عدتهم وإحضار ما يحتاجه الموقف من أدوات وأسلحة تعطى التفوق الساحق الذى تحتاجه عملية كبرى فاصلة .

٢ — المدفعية : كانت المدافع أكثر الأسلحة تدفقا على الجيش الثامن وكان الموقف يتطلب حشداً كبيراً من مدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات والطائرات حتى يتمكن أحد الفريقين من تدمير دفاعات الآخر ووحداته المدرعة وكانت كفة المدفعية الإنجليزية راجحة رجحاناً ملحوظاً وحاسماً .

٣ — الوحدات المدرعة : حدثت عدة معارك قبل أن تصل القوات المتحاربة إلى خطوطها فى العلمين وكانت هذه المعارك من نصيب الدبابات الألمانية التى أحدثت الهزيمة للإنجليز ودباباتهم ودفعتهم فى غياهب الهزيمة الصحراوية المروعة ، ولكن هذا لا يغفل عن ذكر الخسائر التى تعرضت لها الدبابات الألمانية ، كما أن المعارك التى حدثت فى ساحة العلمين قد زادت من هذه الخسائر ، وقد ذكرنا قبلا أن شحنات من الدبابات قد وصلت إلى الألمان وأنهم تمكنوا فى فترة الراحة من إصلاح بعض دباباتهم ، وفى الناحية الثانية نجد أن الإنجليز قد بدأوا عملياتهم فى العلمين بقوة متواضعة من الدبابات ثم انهالت عليهم

فى سيل الإمدادات أنواع جديدة أمريكية متفوقة فأصبح لهم تفوق ملحوظ فى عدد القوات المدرعة .

٤ — السيادة البحرية : لم تستطع سفن المحور وهى سفن الأسطول الإيطالى بمساعدة القوات البرية مساعدة كافية ، وقد تعرضت للبحرية الإنجليزية فى أكثر من مرة فهزمت أمامها وقلّ أثرها فى الموقف ، وقد استطاعت دول المحور أن تستخدم المياه الإقليمية الفرنسية فى تونس ولكن ذلك لم يعفها من الخسائر ، كما أن خط المواصلات المديد من تونس إلى مصر كان يضعف من شأن هذه الإمدادات .

٥ — خطوط المواصلات : وقد جاء ذكر موضوع المواصلات أكثر من مرة فى سياق الحدث عن عمليات الصحراء والحقيقة أنه الموضوع الأساسى فى هذه الساحات ، وفى كل مرة كانت القواعد تبعد وخطوط المواصلات تمتد ، كنا نرى القوات تأخذ فى فقد السيطرة التامة التى لها على الموقف فإذا ما صُدمت صدمة قوية عادت أدراجها بسرعة كبيرة حتى تصل إلى قواعدها وتقصر خطوط مواصلاتها إلى أقصى ما تستطيع حتى يمكن أن تتمالك أمرها وتنظم صفوفها وتستعيد تفوقها .

وفى هذا الموقف كانت قوات المحور بعيدة عن قواعدها بنحو ٧٠٠ ميل من بنغازى وكانت خطوط موصلاتها هذه المديدة معرضة لهجمات جوية مستمرة كما كانت القواعد ذاتها تحت خطر الضرب من البحر والجو .

وقد ذكرنا عدة عناصر من عناصر الحرب التى تقرر أمرها دون أن

نذكر القوة العددية التى كانت من قبل أولى هذه العناصر ، ولكن العدد قد تحلل فى هذه الحرب الحديثة إلى عدد الدبابات وأنواعها وأحمالها وأسلحتها وإلى عدد الطائرات وطروزها ونيرانها . . الخ وإلى قيمة الجنود وكفايتهم فى القتال وما تنطوى عليه صدورهم من روح معنوية ورغبة فى دحر أعدائهم . . ولكن يجب أن نذكر المحاولات التى بذلتها الحكومة الإنجليزية فى تقوية صفوف جندها وعنايتها الشديدة بإمدادهم بكل ما يحتاجه الجندى فى مثل هذه المرحلة من دوافع لبذل أقصى المجهود ، ولا شك أن تغيير القيادة وإسنادها إلى شخصيات عالية موثوق بها قد أوجد فى الموقف روحاً جديداً من الاطمئنان والثقة والتفاؤل والتصميم الحاسم .

وكان الموقف سيقرر فى جانب الطرف الذى يحرز مدفعية كبيرة شديدة النيران لتدمير الدفاعات وتشتيت القوات المتمسكة بها والذى يملك قوة هجومية ساحقة تستطيع أن تخترق الخطوط المقابلة اختراقا بالمواجهه وهذان العاملان مرتبطان بمعركة الإمدادات التى كانت تقررها حالة المواصلات ووسائل الدفاع عنها ومرتبطان قبل ذلك بالموقف الحربى العام ومقدار التأثر بالحالة الحربية فى الساحات الأخرى .

ولهذا ملكت بريطانيا زمام الموقف فى صحراء مصر وصارت لها السيادة التى تمكنها من العمل ليس لكسب المعركة وحدها ولكن لتطويح قوات المحور وإخلاء الصحراء وبرقة نهائياً منها ثم التحول بعد ذلك إلى غزو طرابلس وربما تونس وإنهاء آخر سيادة للمحور فى أفريقيا .

معركة العلمين التاريخية

فى خطين متوازيين تقريبا يبلغ كل منهما نحو أربعين ميلا من ساحل البحر الأبيض عند بلدة العلمين إلى مشارف منخفض القطارة الذى لايعبر وقف الجيشان المتحاربان وقفة طويلة تعددت خلالها المحاولات من الطرفين لشق الطريق إلى الأمام ، ولم تترك لأحدهما فرصة للنيل من الآخر والسعى لتحطيم قواته وذلك بسبب الطائرات التى لم تهدأ يوما والدوريات التى كانت دائبة السعى موفورة النشاط . ولم يكن الموقف عادياً ولكنه كان موقف دقيق سيكون للغالب فيه فرصة لا مثيل لها تحمل نتائج خطيرة وتأثيرات فى مجرى الحرب بعيدة المدى .

وقد بسط مستر هربرت موريسون وزير داخلية انجلترا الهدف الذى يرمى إليه كل من الفريقين المتقاتلين من خوض غمار المعركة فقال « إن قتال المحور فى الميدان المصرى جزء من سعى يبذله للاتصال باليابان عبر المحيط الهندى وفتح باب جديد لمهاجمة روسيا أما نحن فإن أملنا هو إلقاء رومل خارج إفريقيا ولا ريب فى أن إعادة فتح البحر المتوسط ستكون الخطوة الكبيرة الأولى فى سبيل استخدام السرعة والمرونة وحرية العمل فى البحار على نطاق واسع » .

وإذن فهى معركة ذات أثر حاسم فى نظر الحلفاء ودول المحور وقد كانت خطوط الحلفاء والمحور تشتمل على نطاقات من الألغام بينها نقط قوية ومواقع للرشاشات والأسلحة المضادة للدبابات ، ويرابط كل من الجيشين فى جبهة ذات استحكامات دفاعية متينة يستند جناحاها على نقطتين لا يمكن الالتفاف حولهما وهى حالة تكره المهاجم على استخدام المدافع الثقيلة وأستار النيران وقنابل الطائرات لتدمير الدفاعات قبل أن يبدأ الاختراق بالمواجهة .

والشىء الذى جد على استحكامات الميدان فى هذه الساحة هو استخدام الألغام البرية استخداما سريعا واسع النطاق وقد سبق أن تعطل الألمان أمام حقول الألغام البريطانية عند بير حكيم فكانت طريقة رومل هى تطهير مسالك فى وسطها بضربها بنيران المدافع وقنابل الطائرات ثم يقوم المهندسون بتوسيع هذه الممرات لتتمكن المشاة والدبابات من التقدم . . وكان الجيش الثامن قد حارب إلى نهاية أطول خط تموين وصلت إليه قوة محاربة فى العالم وقد صادف فى هذه المرحلة كثيراً من الأحداث فأحرز النصر أو دارت عليه الهزيمة وفى كلتا الحالتين استفاد خبرة وازداد تدريباً ووضحت أمامه أساليب الحرب الجديدة وواجه فى متعدد المراكز أنواعا من الجنود وأدوات القتال والأسلحة مما جعله قادراً على مواجهتها فيما بعد بثقة وعزيمة . فلما انتهى به الأمر إلى خط العلمين وقف طيلة أربعة شهور أو تزيد

يقوى مراكزه ويدعم دفاعاته ويختبر أعداءه ويعجم عودهم بينما كان تدريبه متواصلا ومحاولاته وخططه تبحث وتدرس وقواته تزيد وأسلحته تشتد بما أحضر من إمدادات وافرة إلى الشرق الأوسط .

وفى الناحية المواجهة وقف المارشال رومل على رأس جنوده من الألمان وحلفائهم من الإيطاليين وقد قادهم مرحلة طويلة كسر بها قوات الحلفاء وأخذ يتعقبها وينزل بها الخسائر وكاد أن يوقعها فى كارثة نهائية لولا أن تماسكت فى خط العلمين ودافعت بيسالة وصدت السيل الجارف وصمدت للحرب الخاطفة ، ولا شك أن هذه الحملة النازية لم تكن فى أحسن حالاتها بعد المرحلة الطويلة الشاقة عبر الصحراء وبعيدا عن قواعد التموين وأمام خط مواصلات مديد تهاجمه الطائرات وتهدده القوات البحرية المتفوقة ومع ذلك فإن رومل لم ينقطع عن مهاجمة الحلفاء وترقب الفرص ليقوم بضربته وقد أمكنه الحصول على إمداد لقواته من الدبابات والأسلحة وكان يشعر فى بعض فترات بأن دفة الأمور فى يده وأن فى استطاعته أن يعمل .

أما توزيع القوات فكان على صورة يلاحظ فيها أن الجيش الثامن كان أقل انتشاراً من قوات المحور التى قسمها رومل إلى قوة مدرعة فى الشمال وأخرى فى الجنوب مدعمتين ببعض الألمان وفى الوسط مشاة إيطاليون .

وقبل أن تنشب المعركة الرئيسية كانت القوات الانجليزية موزعة على النحو الآتى :

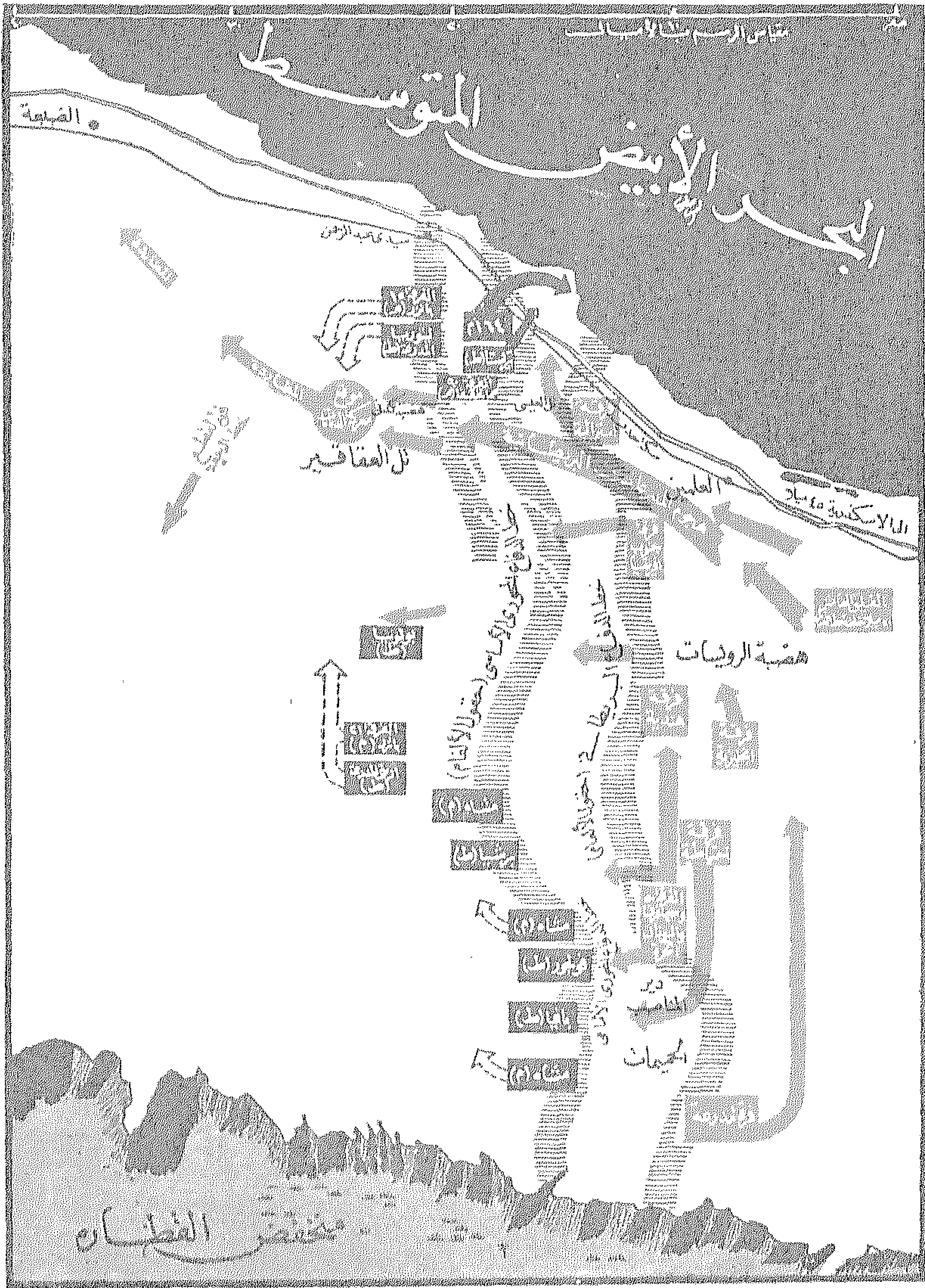
الفرقة الاسترالية فى الشمال تواجه تل العيصى ومنهـا إلى الجنوب قليلا فرقة جنود جنوب أفريقيا وفى الساحة الوسطى الفرقة الهندية وفى الخلف قوات احتياطية ثم الفرقة ٥٠ ومعها الفرنسيون واليونانيون الأحرار عند دير المنسى وفى الجنوب الفرقة الانجليزية تواجه الحميمات ، وكانت هناك قوة كبيرة سيجىء عنها الحديث عند ذكر دورها .

أما قوات المحور فكانت بالترتيب الآتى من الشمال إلى الجنوب :

فرقة البنزار ١٥ والفرقتان ١٦٤ ، ٩٠ الألمانيتين وفرقتا تريستا وليتوريو الايطاليتين — وفى الساحة الوسطى فرقة بولونيا وفرقة أرتريا المدرعة الإيطالية — وفى الجنوب فرقة البنزار ٢١ ومشاة ألمان وفرق برشيا وفولجور وبافيا الإيطالية .

ونلاحظ أيضاً أن رومل كان يرمى من هـذا التوزيع أن يترك المنطقة الوسطى من خطوطه ضعيفة متوقعاً أن يقع الجيش الثامن فى خطأ مهاجمتها ومحاولة شق طريقه خلالها فيقع حينئذ بين فرق البانزر من الشمال والجنوب . . ! ولكن قيادة الجيش الثامن لم تقع فى هذا الشرك وكانت تضع من ناحيتها خطة تنطوى على الحكمة والدراية وتحمل على المفاجأة أيضاً .

فقد كان على الجيش أن يخترق خطوط العـدو فى أى ساحة إلى



معركة العلمين الكبرى

مسافة ٦٠٠٠ ياردة تقريباً فى الضربة الأولى ليجتاز حقول الألغام أو الخنادق ثم الاستفادة من هذه الثغرة إلى أقصى حد ولذلك أُنشئت وحدة جديدة باسم الفليق العاشر مكوّناً من نحو ٥٠٠٠٠ رجل و به أحسن أنواع الدبابات وقد سُحبت هذه القوة من ميدان القتال على أثر صد قوات رومل فى خط العلمين ووقفت جهودها على التدريب والتمرين والاستعداد خلف الخطوط بخمسين ميلا وفى الساعة المناسبة كان هذا الفليق هو الصاعقة التى انقضّت من خلال الثغرة وقضت على جيش رومل وقد نفذت هذه الخطة البارعة فى الصحراء تحت ستار باهر من التخفى ولم يكن هناك شك فى أن رومل متوقع هجوماً كبيراً بل كان يعرف ذلك جيداً وقد كانت كل الدلائل تنطق بذلك . . ولكن أين يقع هذا الهجوم ومتى كيف يقع فكل هذه الأشياء كانت خافية ، وقد كانت طائرات الاستكشاف الألمانية ترصد أعمال الفليق العاشر وتنقلها إلى القيادة التى كانت تتوقع أن لا يحدث الهجوم المنتظر قبل أن يترك هذا الفيلق مكانه و يشترك فى العمل . . ولكن ما حدث كان مفاجأة حقاً فقد تحرك الفيلق العاشر ليلاً تاركاً خلفه المعسكرات خالية من الجنود ولكن مليئة بالدمى والأجسام الهيكلية التى كانت تمثل الدبابات والعربات والجنود فى صورة متقنة فلما حدث الهجوم فعلاً كان مفاجأة تامة فالجيش الثامن هجم فى وقت غير متوقع ولم يهاجم النقطة الضعيفة كما كان منتظراً ولكن هاجم أقوى ساحة فى الميدان

وكانت الخطة تبدأ بوابل قوى من قنابل الطائرات وعاصفة راعدة من نيران المدفعية لتحطيم الدفاعات ثم هجوم المشاة ومعها المهندسون لتنظيف الطريق وأخيراً تكون الجولة النهائية للمدرعات وبذا كان كل شىء فى ذلك الهجوم مفاجأة لقيادة المحور فى الوقت والطريقة والجهة والقوة المنقطعة النظير

وبدأت المعركة فى الساعة التاسعة والنصف تماماً من صباح الجمعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ فعلى طول المواجهة كانت المدافع الانجليزية مبثوثة بحساب مدفع كل ٢٣ ياردة وكانت العمليات قد بدأت فى الليل واختيرت ليلة قمرية ساطعة الضوء وفى الدقيقة المحددة انطلقت أفواه المدافع مرة واحدة وهى تقذف قنابلها المدمرة كالوابل محدثة ستاراً شديداً عنيفاً من النيران ، واستمر الوابل على أشده عشرين دقيقة وأخذ يتكرر من وقت لآخر وفتحت قوات الحلفاء ثغرة فى حقول ألغام المحور ، وقد وصف الميدان بأنه شعلة من نار القنابل المتفجرة والأنوار الكاشفة والأغراض المشتعلة بالنيران من ساحل البحر إلى منخفض القطارة .. وفى الصباح حمل البرق إلى أنحاء العالم البلاغ الذى أصدرته قيادة الشرق الأوسط عن الهجوم وقد جاء فيه « هجم الجيش الثامن تؤيده قوة جوية كبيرة فنشب قتال عنيف اشتركت فيه مقاتلات قسم الصحراء التابع لجيش الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. وقامت فى الوقت نفسه قوات الحلفاء البحرية بغارة على مراكز المحور الساحلية عند مرسى مطروح »

وفى الساعة العاشرة من صباح ٢٣ أكتوبر تقدمت المشاة فى الساحة الشمالية وفى فجر اليوم التالى بدأ الاختراق فى حقول الألغام لشق الطريق للقوات المدرعة واستمر العمل هادئاً وفى حماية المدفعية ، فلما كانت ليلة ١/٢ نوفمبر انتهت المرحلة الأولى وبدأت العمليات .

وكان تعاون الجيش والقوة الجوية وثيقاً جداً فى المعركة . . لم تكن هناك قيادتان ؛ أو كما قال الجنرال مونتجمرى :

« سيكون الجيش الثامن والقوات الجوية التى تشد أزره كتلة واحدة فكلاهما يعمل لتنفيذ خطة واحدة لا خطتان إحداهما للبر والأخرى للجو . . . . . هذا مصدر قوتنا العظيمة »

فعلى طول الرقعة وعمقها ابتداء من سبتمبر حتى ابتداء الهجوم كانت القوة الجوية تدق مواقع المحور الخلفية وخطوط مواصلاته ونقط التموين والمطارات ثم أخذت تحمل على العدو عند ابتداء المعركة وسجلت رقماً قياسياً فى عدد عملياتها التى اشتركت فيها قاذفات القنابل الخفيفة والمتوسطة وطائرات القتال فأصابت عربات الذخيرة ونسفت مستودعات الأسلحة وسجلت إصابات فى مدافع الميدان وسيارات النقل وشبت الحرائق وسكّنت بعض مراكز الدفاع ، ووجهت الطائرات من قاذفات القنابل همها إلى الأهداف المجاورة للثغرات التى فتحت فى حقول الألغام لمساعدة القوات البرية على شق طريقها .

وكانت الغواصات تعمل بنشاط كبير على طول الشاطىء لإعاقة

ومنع الإمدادات من البحر حتى ان ⅘ المراكب التى خرجت من الموانى الإيطالية أو اليونانية أغرقت أو ارتدت وفى أثناء المعركة البرية قام الأسطول باغارات متواصلة على المراكز الساحلية بواسطة سفن الجيب وهى زوارق طور بيد سريعة صنعت حديثاً فى المصانع الأمريكية .

وكان نشاط المحور الجوى ضيق النطاق ، وكان دفاعياً ، فقد انهزمت طائراته ولم يعد لها نفوذ فى سماء المعركة ، ومنذ يوم ٢٣ اكتوبر أحرز السلاح الجوى البريطانى سيطرة تامة فقام بحملات عنيفة وهجوم ساحق على مطارات المحور وخطوط مواصلاته ومواقع المدفعية ونقط تجمع القوات المدرعة وجنود المشاة .

انتهت المرحلة الأولى من معركة مصر كما قدمنا بتقدم جنود المشاة ثم تبعها المهندسون — فإن الأرض التى تكتسحها المشاة يجب أن تنظف من الألغام قبل أن تصير آمنة لمرور المدرعات . . . فالألغام للدبابات كالأسلاك للمشاة ، وقد كانت تدفن تحت سطح الرمل بمجموعات وفواصل مختلفة وكانت تكتشف بآلات كهربائية تشبه المكانس ذات الأيدى و بأجهزة مشابهة .

وقد عمل مهندسو الجيش الثامن فى الليل مدة أسبوعين ، وفى الأسبوع الأول من المعركة كانوا يعملون تحت الخطر و بين المقذوفات والويلات وقد كانت مهمتهم عسيرة ، فإن فن وضع الألغام قد وصل إلى تقدم كبير وكانت العملية تتطلب إحتراساً وافراً و بحثاً دقيقاً ، ولكن المهندسين

نجحوا وفرغوا من مهمتهم بسرعة وأزاحوا الموانع والمصائد وفتحوا الطريق للقوات المدرعة .

وفى ٢ نوفمبر فرغ المهندسون من أعمالهم وانتهت المرحلة الأولى من مراحل المعركة وتقدمت الدبابات للاتصال بدبابات المحور : وبالمناسبة نذكر أن الجيش الثامن كان يحس نقصاً وضعفاً فى دباباته وأنواعها حتى شهر يوليو ولكن فى أكتوبر لم يعد هناك فارق فقد وصلت دبابات الكروسدور من بريطانيا ودبابات جرانت وشرمان من أمريكا وهذان النوعان يساويان أحسن الدبابات الألمانية الثقيلة كما ظهر فى المعركة .

فى الأسبوع الأول من الهجوم ألقت قاذفات القنابل ما يقرب من ٨٠٠طن من القنابل على قوات المحور فى منطقة القتال ومطاراته الأمامية ولذا كان لسلاح الجو أثر خطير فى المعركة . . وقد لوحظت حقيقتان فى هجوم الجيش الثامن أولهما أن قواته المدرعة ندر أن هوجمت من الجو والثانية أن ٥٥٠ طائرة معادية أسقطت أو اضطرت للهبوط كما ذكرت البلاغات الرسمية . . وقد لعبت الطائرات دوراً هاماً فى إحباط الهجمات المضادة أيضاً .

ومضى أسبوع على ابتداء المعركة وفيه أخذت القوات البريطانية فى توسيع المرفى المنطقة التى احتلتها وحدثت معارك صغيرة فى أمكنة مختلفة من الساحة الشمالية اشتركت فيها وحدات مدرعة من قوات الفريقين ولكن القوات الإنجليزية احتفظت بالمنطقة التى استولت عليها فى

بداية الهجوم وأخذ الجيش الثامن فى تطهير حقول الألغام ببطء ، وتوسيع الثغرات التى أحدثت فى الاستحكامات والاقتراب شيئاً فشيئاً من الخط الذى يمكن عنده للقوات المدرعة أن تعمل وفى أثناء ذلك كانت قوات المحور تقوم بكرات متوالية اشتركت فى مواجهتها و إحباطها القوات الجوية التى كانت تواصل ضغطها الرهيب وتضرب بشدة .

وفى ليل ٣١/٣٠ أكتوبر بدأ زحف البريطانيين وهجومهم الكبير ، وقد بدأ ذلك بالستار المعهود من نيران المدفعية ، وتم الزحف على مقربة من الساحل بنجاح لم يكن السبب فيه براعة الخطط التى وضعت ونفذت بدقة فحسب ، ولكن جاء أيضاً بسبب المفاجأة التكتيكية فالفيلق العاشر المكون من فرقتين مدرعتين وفرقة مشاة نيوزلندية كان يتدرب خلف خطوط القتال وقبل نشوبه بمراحل ، فجاء إلى الميدان فى الساعة المناسبة موفورة العدة كامل التأهب .

وفى فجر ٢ نوفمبر تقدمت قوة إنجليزية مدرعة خلف الخطوط الألمانية بينما كانت قوات مدرعة أخرى تضغط فى الناحية الغربية وبدأت معركة الدبابات فى تل العقاقير وكانت نقطة البداية والتحرك . . وقد عمد الألمان إلى توجيه هجمات مضادة وفى نقط مختلفة دون أن تنجح واحدة منها ، وكان المشاة الانجليز مستمرين على شق طريقهم بين حقول الألغام والمراكز الحصينة والفخاخ وغيرها من العقبات والعراقيل وكان جنود المشاة فى هجومهم مؤيدين بستار هائل من النيران ومتى

تم فتح بعض الطرق أو الثغرات تدفقت فيها الدبابات والوحدات الميكانيكية لمقابلة وحدات العدو السريعة وقواته المدرعة .

وقد تقررت المعركة فى الساحة الشمالية حيث أعقب معركة الدبابات الإختراق وفى الساحتين الوسطى والجنوبية كان القتال ثانوياً وتابعاً للعمليات فى الساحة الشمالية وقد أحدثت الضربة الأولى توزيع قوات المحور فى ناحيتين ولم يمكن الاتصال بينهما ثانية .

وقد قاتل روميل بشدة لرد الجيش الثامن من الطرف الغربى للثغرة التى فتحها المشاة جنوبى المنطقة الساحلية وكان يؤيد قواته المصفحة بستار من النيران المضادة للدبابات ولكن قوات الحلفاء تغلبت على مقاومته وأسرت عدداً كبيراً من الجنود وقد قال بعض الأسرى أنهم كانوا فى حالة ذهول من قنابل الطائرات والمدافع التى كانت تصب عليهم باستمرار أثناء الليل والنهار .

فالحدث الأول الفاصل فى معركة العلمين كان اختراق المشاة والحدث الثانى كان معركة الدبابات فى العقاقير وقد مهد الحدث الأول للثانى وكان الثانى معززاً للفوز الأول وقد حدثت معركة الدبابات هذه يوم ٢ نوفمبر وفى ذلك اليوم دفع الألمان كل قواتهم المدرعة حيث كانت القوة الانجليزية قد أحدثت الاختراق وثبتت فى المنطقة مشهورة وتقدمت الدبابات الانجليزية فدار قتال شاق عنيف وحدثت خسائر فادحة فى الناحيتين وهزمت الدبابات الألمانية وانتهت المعركة فى ساعات

وفضّل رومل أن يسرع بالعودة وأن ينقذ قواته ويخرج بها من براثن الفناء أو الأسر وكانت هذه المهمة من أشق المهام العسكرية وخصوصاً فى حالة فقد السيطرة الجوية . . . وقد وصفت ساحة العقاقير فى رسائل المراسلين الحربيين بأنها « مقابر الدبابات » أو معرض المركبات المحطمة ، وفى ليل ٢/٣ نوفمبر احتل الإنجليز العقاقير وقالت الأنباء أن ٢٦٠ دبابة للمحور قد وقعت فى أيدينا مأسورة أو محطمة .

وبذلك حطمت معركة ٢ نوفمبر قوات المحور وفى ذلك اليوم ظهرت علائم انسحابها على طول الخط . وفى يوم ٣ نوفمبر بدا ذلك حقيقة واضحة ، وفى الجنوب لم تستطع القوات الايطاليـة أن تتراجع كثيراً وخصوصاً جنود المشاة الذين جردوا من المركبات فأخذت منهم أفواج الأسرى ، كذلك توقفت الفرقة ١٦٤ الألمانية ولم تستطع أن تتراجع ، وتراجعت بقية القوات الألمانية تاركة خلفها نحو ثمانية آلاف أسير بين القتلى والجرحى وقد قتل الجنرال فون ستوبى نائب رومل وأسر ريترفون توما قائد جيش أفريقيا الألمـانى وأسر أيضاً قائدى فرقتى برشيا وترنتو الايطاليتين وقد قدرت التقارير الرسميـة للقيادة البريطانية خسارة المحور بـ ٧٥ ألف رجل وأكثر من ٥٠٠ دبابة و ١٠٠٠ مدفع على الأقل

وبعد كسب معركة الدبابات بدأت المطاردة وفى ٤ نوفمبر أذاعت قيادة الشرق الأوسط بلاغاً جاء فيه « تتقهقر قوات المحور فى الصحراء

الغربية بصفة نهائية بعد هجمات قواتنا البرية والجوية المتواصلة مدة اثنى عشر يوما وليلة ، وتهاجم قواتنا البرية وقوات الحلفاء ليلا ونهاراً، وفى غير رحمة طوابير العدو التى سادها الاضطراب وعدم النظام »

« وقد دمرنا حتى الآن أكثر من ٢٦٠ دبابة ألمانية و إيطالية وغنمنا أوحطمنا ما لا يقل عن ٢٧٠ مدفعاً ومن المتعذر فى المرحلة الحالية من القتال إحصاء الغنائم إحصاء تاماً »

« وفى أثناء هذه الأعمال الحربية دمرت قواتنا الجوية التى تحملت خسارة طفيفة وأعطبت أكثر من ٣٠٠ طائرة فى معارك جوية وحطمت أو عطلت مثل هذا العدد على الأرض »

« وفى البحر أغرقت قواتنا البحرية والجوية ما حمولته خمسون ألف طن من السفن وأتلفت مثل هذه الحمولة من السفن التى تحمل الإمدادات إلى شمال افريقيا »

« ولا يزال الجيش الثامن يواصل زحفه إلى الأمام ... »

وقال البلاغ الايطالى :

« إن معركة دامية عنيفة دارت فى المنطقة الصحراوية الواقعة بين العلمين وفوكة بين دباباتنا ومشاتنا و بين الوحدات التى تماثلها من قوات العدو و بعد مقاومات عنيفة غير عادية انسحبت الجيوش الايطالية والألمانية غرباً وكانت خسائرنا فادحة »

ووجه الجنرال مونتجمرى إلى قواته رسالة جاء فيها :

« لقد استغرقت المعركة الحالية ١٢ يوماً حتى الآن قاتلت فيها

قواتنا قتالاً عنيفاً رائعاً أنهك العدو ، إن العدو الآن فى قبضة أيدينا وهو على وشك الدمار و إنى أهيب بجميع القوات أن تواصل ضغطها على العـدو وألاّ تتراخى فى ذلك لحظة ، لقد أضحى النصر النهائى قريب المنال . . »

وكان موقف رومل حرجاً ومن المواقف التاريخية العنيفة التى واجهها قادة عظماء فقد هزمت قواته بعد أن أُخرجت من مراكزها الحصينة وفقد مراكز تموينه الأمامية مع استهداف مواصلاته باستمرار لنيران الطائرات والمدفعية ، وحدث ذلك فى نهاية خط تموينه المديد فكاد موقفه أن ينقلب كارثة نهائية ، وقد حاول تدمير كل ما يستطيع تدميره فى الصحراء وكان يصنع كل عراقيل يجيدها لسد الطريق ، وأبدى فى فوكه مقاومات ناجحة ريثما اجتمع شمل قواته و بدأ خطة الانسحاب، ثم تخلى عن فوكه يوم ٦ نوفمبر واندفع غرباً وأعطته الأحوال الجوية التى أعاقت التقدم — فرصة مناسبة لتنظيم قواته وفى ٨ نوفمبر استمر الزحف و بلغ مرسى مطروح واستولى الإنجليز على بقبق يوم ١٠ وفى اليوم التالى سقطت حلفاية والسلوم . . وهكذا كانت الحوادث تتطور بسرعة عاجلة ، وارتدت قوات المحور إلى حدود مصر ، وفى يوم ١٢ تم تنظيف الحدود المصرية وأسر آلاف من الإيطاليين ، ووجد الجيش الثامن الطرق مملوءة باللوريات والمهمات التى دمرتها الطائرات .

أما الفرق الإيطالية فى الجنوب وقد كانت تتألف من ٦ فرق معظمها من المشاة فقد كانت مطوقة فلما وصل الجيش الثامن إلى الضبعة

وفوكة وقطع مراكز تموينها وخطوط مواصلاتها سلّمت جميعاً ، كذلك تم تنظيف « الجيوب » وأخمدت جميع المقاومات فى صحراء مصر قبل أن ينتصف شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢

وانتهت الحرب فى مصر

وبدأ القتال فى برقة

وقد كان لهذا الانتصار دوى عظيم فى العالم وعُدّ انتصاراً تاريخياً حاسماً فاحتفلت به الإمبراطورية البريطانية ودقت الأجراس فى جميع أراضيها صباح ١٢ نوفمبر تحية لهذا الحدث العظيم

وقال مستر تشرشل

« لقد قال السيد فنزيلوس أن انجلترا فى جميع حروبها تربح معركة واحدة وهى المعركة الأخيرة ، ويلوح لى أننا بدأنا هذه المرة مبكرين !. فقد نال الجنرال الكسندر ومعه قائده ومعاونه العظيم الجنرال مونتجمرى انتصاراً باهراً حاسماً فيما ينبغى أن نسميه « معركة مصر » فلقد هزم جيش رومل وأصابه الاندحار وحل به التلف إلى حد كبير كقوة مقاتلة

ونحن لم نخض هذه المعركة لنربح فيها مواقع أو مساحات واسعة من الأراضى الصحراوية ولكن لنحقق فكرة واحدة وهى تحطيم قوة العدو المسلحة

إن النصر الذى أحرزناه قد بعث الأمل الكبير فى نفوسنا بأنه سيكون نصراً حاسماً نهائياً فيما يتعلق بالدفاع عن مصر، على أن هذه ليست النهاية ، ولا هى بداية النهاية ولكن ربما تكون نهاية البداية ! »



ويڤل



اوكنلك



جرزياني



الكسندر



مونتجمري



رومل

قادة حرب الصحرا

انتصار الصحراء

إن النصر فى الحرب لا ينزل هبة ولا عطاء ولكنه ثمرة مجهود عنيف ونتاج التعب والسهد والدم والعرق المتصبب ، إنه الجائزة التى تظفر بها الأمم بفضل جهادها وكدها وتضحياتها ، وغصن الغار الذى يظفر به الجيش الذى يواجه الظروف القاسية بعزيمة وجلد وإغفال عن التضحية واندفاع نحو الهدف بغير ما خوف ولا ارتياع ، أنه الغاية التى من أجلها يعمل كل مواطن ويلاقى فى سبيلها الحرمان والمشقة ... وما كان النصر فى وقت من الأوقات وقفاً على قوم دون قوم مع ما لصفات الجنود التقليدية من أثر يدفعها إليه ، فالحرب سجال بين خصمين يبذل كل منهما جهده ويقدم خير ما عنده لكسب المعركة وتحقيق الغرض . . فعند ما يبحث رجل الحرب موقف خصمين على هذه الشاكلة فعليه أن يتغافل عن الناحية العاطفية ويأخذ فى بحث المواد والموارد والأسلحة والمواصلات وأنواع الاستعداد التى يبذلها كل فريق ، ويتصفح عناصر الحرب عند كل منهما ليكون حكمه عن المعركة عادلاً صحيحاً .

ومعركة كهذه التى حدثت بين الانجليز وجيوش المحور من الألمان

والايطاليين كانت تستوجب منا الاحتياط عند تقدير نتيجتها فلا شأن لهذا البحث بالأجناس التى تشتبك فى القتال ولا فى المبادىء السياسية وألوان الحكم ولا فى الغايات الحربية نفسها . فلهذه مجالات أخرى ، ولكن لنا فقط عوامل الحرب وما يملكه منها كل فريق فنضع فى كفتى الميزان ما لصاحب الكفة من موازينه فإذا انتهينا من ذلك وجدنا كفة ترجح كفة دون أن يكون لأهوائنا تأثير على ذلك الميزان .

وقد قارنا بين الاثنين ووضعنا لكل نصيبه فى كفته ، عاملا فعاملا ، وأخذ الميزان يتأرجح يمنة ويسرة حتى استقر نهائياً ، فقلنا هذه الكفة راجحة وسيكون لصاحبها انتصار الصحراء .

وفى سردنا لعوامل الحرب ونصيب كل فريق منها حاولنا دائماً أن نجمع الأدلة والبراهين التى تحقق نزاهة البحث ولم ننس ملاحظة الموقف الحربى العام وتأثيره على الموقف الخاص فى ليبيا فليس فى هذه الحرب العالمية عملية يمكن القول بأنها مستقلة عن غيرها أو قائمة بشأنها وحدها وانما الجهد الحربى واحد ، والإدارة التى تسيطر على مختلف الساحات واحدة تعطى وتوزع وتشير وتسحب وتعدل فيها جميعاً بما توحيه الخطة العامة . . .

فانشغال ألمانيا بحربها مع روسيا جعلت الحرب الافريقية ذات قيمة ثانوية وغرض فرعى بينما كانت انجلترا تعدها العملية الرئيسية ومفتاح التحول ، فقررت أن تعنى بها عنايتها بحرب فى انجلترا ذاتها ،

ولهذا أولتها كل جهد مستطاع و بذلت فيها مجمل نشاطها .

على أن الباحث فى هذا الموضوع يصطدم بلاشك مع عقبة لا يستطيع أن يحولها عن طريقه التحويل التام ، وهى وجهة النظر الثانية ! . . فى الخطة الرئيسية على الأقل ثم ما ألزمها بالتحويل أو اتخاذ صورة أخرى إذا حدث ذلك . . وقد يقول قائل أن المعرفة بالنظريات الحربية ودراسة أحوال الجنود والأسلحة والموارد . . الخ ، والبحث الصائب فى الموقف العام وتفرعاته ، كل هذا قد يمكّن من استقراء ما خفى من الخطط واستيضاح ما حجب من التصميات . ! ومع هذا كله فستبقى من البحث أجزاء غير واضحة الوضوح كله قبل أن يتكشف نقاب الحرب التى تحجب سحبها كثيراً من الحقائق والرغبات .

وقد شاهدنا كيف تطور الموقف فى معركه مصر ، وكيف كانت جميع الدلائل تشير بأن الكسب سيكون للقوات الإنجليزية التى كان لها الاستعداد الأوفر فاستطاعت بذلك أن تقوم بعمل تاريخى سيكون له مكانه بين فواصل الحرب . فقد كان انتصارها حاسما وضربتها قاضية لم يتمكن المحور بعدها من الصمود وأصبح موقفه ومستقبله معروفين سلفا فى ميدان أفريقيا الأخير .

وقد ذكر رئيس وزراء بريطانيا عقب تصفية الموقف أن الغرض من المعركة قد تحقق وهو القضاء على قوات المحور قضاء لا يجعل منها قوة مقاتلة فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة . كما ذكر أن القتال كان عنيفاً إلى

أقصى حد بين البريطانيين والألمان وكان النضال دامياً رهيباً « وتجرع منه الألمان تلك الكأس من النار والفولاذ التى طالما أكرهوا غيرهم على تجرعها »

حدث ذلك كله فى وقت سمع فيه العالم نبأ خطيراً ومفاجأة منقطعة النظير فقد أعلن فى الثامن من نوفمبر بأن قوات برية وبحرية وجوية أمريكية نزلت تحت ستار التخفى فى عدة أماكن من ساحل أفريقية الشمالية الفرنسية « وكانت هذه الأعمال قد أصبحت ضرورية بسبب تهديد المحور المتزايد لهذه الأراضى »

حدث هذا بعد أن حلت الهزيمة بقوات المحور فى العلمين فكان عملاً ينطوى على تصميم حاسم .

وقد جاء فى التصريح البريطانى الأمريكى المشترك أن الهدف هو تحطيم القوات الألمانية والإيطالية فى أفريقيا .

وإذن فقد كان بدء الهجوم البريطانى على قوات المحور المرابطة فى منطقة العلمين الشرارة الأولى العنيفة من التيار الذى اندلعت نيرانه ليقضى قضاء نهائياً على المحور فى أفريقيا . وكان هذا إذن سبب هذا الاشتداد العظيم وحشد الجيوش والعتاد بصورة ليس لها مثيل فى صحراء مصر فالغرض الذى كانت تتوخاه القوات المتحالفة لا يقتصر على صد قوات وجنود المحور وردهم عن وادى النيل بل كان أبعد مدى لأنه يرمى إلى تغيير اتجاه القتال وتحويل سير الحرب ونقل ميادينها ولم تلبث

الحوادث أن جاءت بما يحقق ما كان يترقبه الكثيرون من وراء الإنتصار فى العلمين ومطاردة قوات المحور مع تحميلها الخسائر فى رجالها وسلاحها براً وبحراً وجواً ، فلما كان اليوم الخامس عشر من تاريخ بدء المعركة حملت موجات الإذاعة وأسلاك البرق إلى جميع أنحاء العالم ذلك النبأ الذى أشرنا إليه سابقاً وهو نزول نحو مائة وأربعين ألف جندى تحت قيادة الجنرال دوايت إيزنهاور فى شمال أفريقيا .

وقد نزلت هذه القوات فى أكثر من موقع على ساحل البحر الأبيض وفى المغرب الأقصى على ساحل الأقيانوس .

فإذا كان انتصار الصحراء بداية مرحلة جديدة فى ميدان الحرب الأفريقى فإن إنزال قوات الحلفاء فى الجزائر والمغرب تجعلها بحق كما وصفها رئيس وزراء بريطانيا بداية النهاية . . .

واشتد الموقف على روميل عنفاً وقسوة

وقيل أنه بين شقى الرحى ، إن عاجلا أو آجلا

وكان الجيش الثامن يتقدم بسرعة ويواصل مطاردته له .

وللمرة الأولى فى هذه الحرب حدثت هزيمة كاملة لقوة ألمانية كاملة.

وحاول روميل أن يفعل شيئاً فى خلال هذه المرحلة العنيفة بظروفها النكداء فأخذ يتراجع بأقصى سرعة ويعيق المطاردة بكل ما يستطيع، ومن ذلك نهوضه بمشاغلات قصيرة وهجمات مضادة سريعة وبث الألغام وتدمير الطرق من خلفه ، ومهما قيل من أنه متجه إلى الطرف الآخر

من قوسى الخطر فقد كان يعمل كجندى كبير إلى آخر طلقة وآخر رجل .

ووصل الجيش الثامن من العلمين إلى طبرق فى أسبوع وقطع اربعمائة ميل وهى مهمة شاقة فى مطاردة غير هينة وطرق مليئة بالألغام والمصائد وفى يوم ٢٢ نوفمبر احتل بنغازى .

وكان هناك ثمة أمل فى أن يتمكن رومل أو يحاول الثبات فى العقيلة كما حدث ذات مرة ، فالأراضى بين العقيلة وسرت صالحة للدفاع وهى آخر خط يمكن الالتجاء إليه ، ولكن بدا أمام قيادة المحور أن تقرر أحد أمرين : فإما أن تحتمى فى خط العقيلة وتبدأ فى المقاومة و إما أن تسرع إلى تونس للاشتراك فى مقاتلة الخصم الجديد ، وقد انتهى القرار فى ١٤ نوفمبر وتم الجلاء عن العقيلة واستمر رومل فى ذهابه غرباً حتى دخل طرابلس ثم تونس .

وهناك حدث آخر فصول الحرب فى أفريقيا .

فلما كان اليوم الثالث عشر من شهر مايو ١٩٤٣ تم وقف كل مقاومة للمحور فى جميع أنحاء تونس وطهرت القارة الأفريقية من الجنود المعادين إلا من استسلم وألقى سلاحه .

ولا شك أن هذه الحملة التى انتهت هذه النهاية ودمرت جيشاً قوياً تدميراً كاملاً ستبرز فى صفحات التاريخ مثلاً رائعاً لأعمال حربية مجيدة فاصلة حققها انتصار الصحراء .

نهاية المطاف

بدأت حرب الصحراء المصرية فى اليوم الثالث عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٠ بزحف القوات الايطالية بقيادة المارشال جرازيانى على مصر، وقد احتلت سيدى برانى مساء ١٦ سبتمبر و بقيت زهاء ثلاثة أشهر داخل الحدود المصرية .

وفى السابع من ديسمبر بدأت الجولة الثانية من حرب الصحراء بهجوم القوات الإنجليزية بقيادة الجنرال سير أرشبيلد ويفل الذى استطاع فى عشرة أيام أن ينزل الهزيمة بالايطاليين ويقصيهم عن حدود مصر، واستمر فى زحفه غرباً، فاستولى على البردية يوم ٥ يناير ١٩٤١ وطبرق فى ٢٤ ودرنة فى ٣٠، ثم حدث اشتباك كبير فى معركه بدافوم كانت نتيجته هزيمة ساحقة للقوات الايطالية، وأخيراً تم للإنجليز إخضاع ولاية برقة .

و بدأت الجولة الثالثة فى شهر أبريل من نفس السنة بزحف قوات المحور تحت قيادة الجنرال روملى القائد الألمانى الذى خلف المارشال جرازيانى فى القيادة العامة، وكان زحفاً ناجحاً بلغ جدود مصر فى

السابع عشر من أبريل ، ولكن بقيت طبرق صامدة ولم تفلح قوات المحور فى الاستيلاء عليها .

وبدأت الجولة الرابعة فى الثامن عشر من نوفمبر ١٩٤١ عندما شرعت القوات الإنجليزية فى الزحف بقيادة الجنرال كننجهام وتحت إشراف الجنرال أوكنلك الذى خلف المارشال ويڤل فى القيادة العامة ، وبلغ ذلك الزحف مشارف البردية وطبرق وهناك دار القتال فى ميادين صحراوية متعددة الساحات كثيرة التنقل دون أن تحدث معركة حاسمة ثم حدث تغيير فى قيادة الجيش الثامن فتولاها الجنرال ريتشى فى الرابع والعشرين من نوفمبر ، فبدأت مرحلة جديدة نجحت فيها الزحوف الإنجليزية ، ففى التاسع من ديسمبر رُفع الحصار عن طبرق ، وتقدم الزحف بسرعة فى ولاية برقة حتى بلغت القوات المنتصرة بنغازى بعد ٣٧ يوما من بدء الهجوم ، وانتهت المطاردة فى العقيلة حيث تمكن الألمان من الثبات .

وبدأت الجولة الرابعة فى السادس والعشرين من مايو سنة ١٩٤٢ بهجوم قوى لقوات المحور تحت قيادة المارشال رومل ، ونجح هذا الزحف نجاحا بعيد المدى ، وكان أقوى زحوف المحور وأشدها إضراراً بالقوات الإنجليزية وأكثرها خطراً على عمليات الصحراء ، وقد سقطت بير حكيم فى ١١ يونيو والغزالة يوم ١٤ وسقطت طبرق يوم ٢١ ووصلت قوات المحور إلى الحدود المصرية وتوغلت فيها فبلغت مرسى مطروح

يوم ٢٨ يونيو ، وانتقل القتال بعد ذلك إلى فوكه ثم الضبعة وعدة أميال أخرى حتى وصل إلى العلمين . وهناك فى مواجهة أربعين ميلا بين البحر الأبيض ومنخفض القطارة الذى لايمكن عبوره توقف الزحف وصمدت القوات الإنجليزية وبدأ الموقف يتحول بعد ذلك .

وأخيراً دق ناقوس الجولة الخامسة فى الثالث والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٤٢ فهجمت القوات الإنجليزية تحت إشراف الجنرال الكسندر وبقيادة الجنرال مونتجمرى قائد الجيش الثامن فكسب الإنجليز المعركة التاريخية وأبعدوا قوات المحور عن مصر نهائياً وأخمدت جميع المقاومات فى مناطق الحدود قبل أن ينتصف شهر نوفمبر .

وأسدل الستار نهائياً على مشهد حرب الصحراء المصرية

وابتدأت مرحلة جديدة فاصلة .

ففى هذا الوقت الذى منيت فيه قوات المحور بهزيمة خطيرة فى صحراء مصر نزلت قوات أميريكية وإنجليزية على ساحل أفريقيا الشمالية الفرنسية تحت قيادة الجنرال إيزنهاور القائد الأمريكى ، وكان الغرض من هذه الحملة « تحطيم القوات الألمانية والإيطالية فى أفريقيا »

وواصل الجيش الثامن تقدمه فى برقة ، وفى الثانى والعشرين من نوفمبر احتل بنغازى ، وأخذت قوات المحور فى الارتداد بكل سرعة وعجلت بالجلاء عن لوبيا ثم دخلت تونس بعد أن سبقتها إليها قوات محورية أخرى نزلت فى تونس وبنزرت

وأصبحت تونس ميدان الحرب الرئيسى فى أفريقيا ، ودار القتال فيها زهاء ستة شهور ، وحدثت معارك كبيرة بين قوات المحور وقوات الحلفاء التى كانت تضم الإمريكيين والإنجليز والفرنسيين والمحار بين الأحرار ، وقد انتهت هذه الجولة فى الثالث عشر من مايو سنة ١٩٤٣ بضربة قاضية تم التسليم بعدها فكانت الحولة الأخيرة .

. وفى ميدان تونس وحده خسر المحور ٥٠ ألف قتيل و ٢٤٨ ألف أسير فكانت ضربة قاصمة ، أما خسائر الإنجليز فقد ذكر مستر تشرشل فى بيانه الذى ألقاه بمجلس العموم يوم ٨ يونيو أن مجموع خسائر الإنجليز فى ميدان تونس كان ٣٥ ألف رجل بين قتيل وجريح ومفقود منهم ١١٥٠٠ من الجيش الثامن و ٢٣٥٠٠ من الجيش الأول .

وقد انهارت مقاومات المحور فى تونس نختم بذلك الفصل الإفريقى من فصول الحرب العالمية بعد عامين ونصف فى قتال مرير بدأ فى الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٤٠ فى صحراء مصر وانتهى فى الثالث عشر من مايو سنة ١٩٤٣ فى تونس .

وقد حدثت فى هذه الحرب خمس زحوف كبرى فى ساحات تعد من أطول وأعصى ما عرف فى تاريخ الحملات ، وكان مسرحها من أقوى ساحات الحرب أهمية واعتباراً ، وهى ساحة شمال أفريقيا التى تشرف على البحر المتوسط ويرتكن جناحاها على قنال السويس وجبل طارق وهما من النقط الفاصلة والمراكز الرئيسية فى خريطة الحرب العامة

وانتهى الأمر فى هذا الميـدان بضربة قاضية على قوات المحور وخسارة عسكرية كبيرة لألمانيا و إيطاليا فقد بلغ عدد الذين أسروا أو قتلوا فى هذا الميدان أكثر من ربع مليون بما كان لديهم من أسلحة وطائرات ودبابات وموارد حربيه ضخمة ، وضاع مجهود عامين ونصف فى ميدان فاصل أرسلت إليـه قوات كبيرة وأسلحة ومعدات يعد ضياعها كارثة كبرى . وقد انتصرت انجلترا وحلفاؤها فكان لذلك دوى فى العالم أجمع يشدد من عزمها و يقوى من ثقة حلفائها وآمالهم فى النصر ، بينما كان ذلك يعني صدمة معنوية شديدة الوقع على دول المحور ، الذى انتهى آخر معقل لها فى أفريقيا .

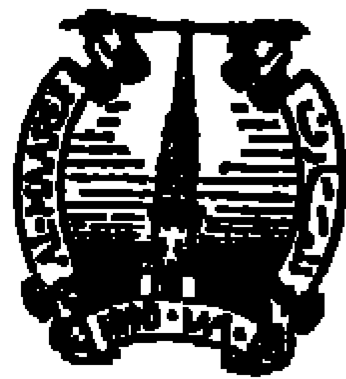
فاذا قال قائل أن انتصار الصحراء كان عملا عسكرياً كبير الشأن كان القول ما قال ، بل سيقول التاريخ كلمته فيذكر أن حرب الصحراء كانت من الحروب الكبرى التى ستتدارسها أجيال متعاقبة . . وأنها كانت من العمليات الفاصلة فى الحرب العالمية الثانية .

فهرس

١٩٤٣/٨/١/١١٤٧

السيد فرج

الهجوم على أوروبا



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

من كتب المؤلف

هذه هى الحرب

◆ كتاب شائق جداً كتبه رجل أخصائى "La Bourse"

◆ فصول ممتعة تشيع فيها روح الاقدام والبطولة وتدل على علم غزير وإلمام تام بمسائل الحرب «المقطم»

حرب الصحراء المصرية

◆ كتاب يجمع إلى دقة البحث واستقامة التفكير وبراعة العرض وأناقة التعبير «الفريق ابراهيم عطاالله باشا»

◆ وصح أن يقال أن مؤلفه الفاضل قد قام بما يسميه الفقهاء «فرض كفاية» من الكتاب العسكريين فى مصر «الأستاذ عباس محمود العقاد»

◆ قلما يجد القارىء كما فى «حرب الصحراء» مثل هذه الدراية العسكرية والفنية فهو وثيقة لا غنى عنها "Le Progrès"

فى شمال أفريقيا

◆ وإن المؤلف ليهنأ بهذا التوفيق الذى يصاحب قلمه فى جولاته بين ميادين الحرب «البارون دى بنوا»

◆ وقد وفق المؤلف فى اختيار موضوعه وتقصى أسانيده فجاء كتابه سجلا صادقا لهذه المرحلة المهمة من مراحل الحرب «الأهرام»

الاهــداء

إلى المتطوّعات والمتطوعين
النّساء الكريمات والرّجال البواسل

الذين يجاهدون ويحاربون ، من غير أجر
ويخاطرون ويجودون بالوقت والمال والروح . .
يريدون أن تنتصر شعوبهم وتحيا مبادئهم
وتتحقق مثلهم العليا فى حياة حرة كريمة .

السيد فرج

المراجـــع

Thoughts On War	Liddell Hart
The Eighth Army	Official Record (B.M.I.)
Men of Alamein	Delholm Young
Over to Tunis	Howard Marshal
Cisily	Official Record (U.S.A)
The Conquest Of Italy	Lord Strabolgi
How The Invasion was Planned	Series Of Reports

تقـــديم

لحضرة صاحب السعادة الفريق عمر فتحى باشا

كبير ياوران حضرة صاحب الجلالة الملك



تصفحت عدداً من المؤلفات التى كتبها حضرة الملازم أول السيد فرج أفندى فى مواضيع متصلة بالحرب الحاضرة فبعث الغبطة فى نفسى أن أرى بين شباب العسكريين من يعنى بتقريب مسائل الحرب الى الأذهان .

والكتاب الحالى هو واحد من تلك السلسلة القيمة ، وقد تعرض لموضوع هام هو موضوع غزو أوربا الذى كان مجالا لظهور أحدث الخطط والنظريات الحربية ، وكان بما صاحبه

من جيش عظيم لقوى الآلات والبشر أعظم عمل حربي عرف منذ الأبد.

فاذا كان هذا الكتاب قد عنى ببحث هذا الموضوع عناية طيبة وتناوله بالشرح المستفيض فقد حقق بذلك عملاً عظيماً وأتى على ناحية يحتاج الرجل العسكري والرجل المدني الى ادراك شئونها وفهم دقائقها.

وفق الله الشباب الى خدمة بلادهم في ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، القائد الأعلى.

ديوان كبير الياوران

٤ / ١٢ / ١٩٤٤

(توقيع)

نظرات فى الحرب

لو أن الذين يطالعون اليوم فى الصفحات الأخيرة من كتاب الحرب العالمية الثانية يعودون إلى الصفحات الأولى لمراجعة أنبائها واستعادة ذكرياتها لأخذ منهم العجب كل مأخذ وراعتهم هذه السلسلة العجيبة من الأحداث والوقائع التى غيرت صور الحرب وبدلت كفتى الميزان ونقلت المقاود من يد إلى يد .

ويمكن القول بأن كثيرين لم يتوقعوا أن يطالعوا فى هـذه الأيام ما يطالعون من أنباء الحرب ، وما كانوا يصدقون لو قيل لهم قبل عامين ان الموقف الحربى فى سنة ١٩٤٤ سيكون على هـذه الصورة التى نراه بها .. فقد كان كل شىء فى دائرة الحرب ، طيلة ثلاث سنوات ، يشير إلى ناحية معينة ونهاية لا مفر منها ، ولو استمرت الحالة على سيرتها واجتاحت القوات الألمانية ستالينجراد فى صيف ١٩٤٢ فطوقت عنق الاتحاد السوفييتى . . بينما دفعت بقوات الحلفـــاء من ساحة العلمين فطوقت عنق الأمبراطورية البريطانية، وأتمت اتصالها بالقوات اليابانية.. لو تم هذا — ولم يكن فى الظاهر ما يمنع تمامه — لقضى الأمر، وأصبحنا فى دنيا أخرى !

ولكن فى مثل هذا الصراع العالمى الكبير لا يجوز الحكم على نتيجة الحرب بما يحدث من تطورات بين وقت وآخر ، إذ لا يمكن أن يكون للانتصارات أو الهزائم المؤقتة أهميــة حاسمة بالنسبة إلى حرب لها هذا المجال العالمى الشاسع ، كما أن النصر لا يتوقف على الأعمال الحربيــة وحدها لأن تطور السياسة الدولية يؤثر فى النتيجة النهائية ، ولأن مسائل الوقت والانتاج وأثر القوى المعنوية تلعب دوراً لا يستهان به .

وفى الحرب تجىء الانتصارات أو تحل الهزائم وتغزى البلدان أو تفقد فلا يكون ذلك مدعاة للإمعان فى التفاؤل أو الإيغال فى التشاؤم لأن الغرض الرئيسى من الحرب هو تدمير قوة الخصم وتعجيزه عن الاستمرار فى القتال ، كما أن ميزان الحرب كثير التقلب ، وخصوصا وهو يعبر عن الحالة فى عدة ميادين عالميــة وجبهات تمتد عدة أميال وقوات موزعة فى أكثر من قارة . . . ولذلك يخطىء الذين يتتبعون أنباء الحرب من ناحية نتائج المعارك وإحصائيات القتلى والأسرى دون أن يفطنوا إلى العوامل الحقيقية التى تدير دولاب الحرب كالقدرة على تجهيز الجيوش وانتاج الأسلحة واختراع المستحدثات ومواجهة الخطط العسكرية بخطط أفضل منها ، كذلك مسـائل التموين والمواصلات والروح المعنوية والنشاط السياسى ، واجتذاب الرأى العام العالمى

وكثيراً ما دارت الدائرة — فى هذه الحرب وغيرها — على جيش من الجيوش فاضطربت شئونه وحاقت به الهزيمة دون أن يكون ذلك سبباً فى إلقاء السلاح أو التخلى عن الميدان ، لأنه ما دام للجندى ثقة فى أهداف الحرب واطمئنان إلى حكومته التى تقوم بإدارة القتال وسد ثغراته ، وإيمان بشعبه الذى يقف خلفه كالطود فان الحرب لا تنتهى واليد لا تنفض عنها السلاح ، والنفس لا تحدث بالفرار أو التسليم

وإذن ، فالجيش والحكومة والأمة إنما هى عناصر مجموعة واحدة تعمل فى الحرب ، فإذا هى وهنت أو تفرقت انتهى كل أمل فى دفع الكارثة ورفع البلاء

وقد حفلت الحروب العظمى دائما بالأحداث الجسام وانتهت بدروس قيمة ، ولعل الحرب الحاضرة قد فاقت بأحداثها ودروسها جميع ما سلف من الحروب . . .

فهى حرب عالمية تشعر بأن العالم مرتبط بعضه بالبعض كما تشد العربات إلى القاطرة ، فلا تستطيع واحدة من أممه أن تكون بمنأى عن الأحداث والمآسى والتحولات التى تطرأ فى الطريق ، وقد ظهر بوضوح مبلغ اتساع نطاق الحرب وشموله ، فلم تستطع أمريكا أن تلتزم عزلتها ، ولم ينجح المحايدون فى إنقاذ بلادهم من ويلات الحرب، تسليما بطبيعة الحرب الحديثة بين الدول وشمولها للعالم أجمع

وهى حرب صعبة المراس طويلة الأمد متعددة الأحداث مادامت نتائجها تقرر مصير العالم عشرات السنين ، ولذلك حشدت الملايين وعبئت القوى وانتشرت ساحات القتال ، وشرعت كل أمة فى بذل جميع ما تملك كى تنتصر وتعيش ! ولم يعد الأمر منوطا بمجهود الجند وحدهم بل اشترك المدنيون فى القتال ، وقد حدث فى أكثر من وقعة أن هزمت الجيوش فأقامتها الشعوب ، وأصبح للقوة المعنوية أثر حاسم . . فقوة الجيش تتوقف على روحه المعنوية ، كذلك ترتكز صلابة الأمة على شعور أبنائها .

ولا تنتهى السياسة حين تبدأ الحرب — كما كانوا يقولون — فقد أصبحت الدبلوماسية الحيوية حرباً أخرى ذات شأن ، فعقدت الاتفاقات السرية ، وجرت المباحثات فى البلدان المحايدة وقدمت العروض — حتى فى أشد أدوار القتال — ولعبت الدعاية دورها فى إذاعة الرغبات السامية من هنا وهناك ، لاجتذاب الرأى العام ونشر الأفكار والأمانى المختلفة خلف خطوط القتال لتقضى على روح الاصرار والمقاومة وتدفع إلى التراخى والتسليم .

والحرب الحاضرة هى قبل كل شىء معركة الإخصائيين الذين تحشدهم الدولة فى كل فرع من فروع الحرب ، فى التنظيم القومى

والدعاية والإنتاج والاختراع ووضع الخطط وقيادة الجيوش وغير ذلك من الفنون التى تتطلب قيادة رجال من ذوى الحصافة والصفات الفنية العالية .

وتعتمد أداة الحرب على الموارد والصناعات ، ولذلك يكون تفوق أحد الفريقين فى الإنتاج الحربى بشيراً له بالفوز ، وهكذا لا يكون الفصل فى القتال من شأن المحار بين وحدهم ، لأن هناك جيشاً آخر عظيم الخطر مرهوب الجانب يعمل خلف الخطوط . . فالنصر فى النهاية للمصنع الذى يستمر ، أو لآخر دبابة وطائرة ، واختراع جديد !

ولم يعد ميدان المعركة هو مجال الحرب الوحيد لأن الطائرات قد غيرت صور القتال ، فالسيادة على أرض المعركة مرهونة بالسيادة على جوها ، وقد لاحظنا أن ألمانيا بدأت الحرب بقوة مخيفة ، وكان تفوقها العددى فى الطائرات من قاذفات القنابل وطائرات القتال هو السبب الرئيسى فى خوف البلاد الأخرى وفزعها من الحرب وقبولها للتسويات المجحفة التى تمت ، ومن أمثلة ذلك مؤتمر ميونخ ، فلما دارت عجلة الحرب عدة دورات واستطاع انتاج أمريكا أن يكسب المباراة . . انعكست الآية و بدأت ألمانيا تحار فى دفع خطر الطائرات ، ولذلك أخفقت فى الدفاع عن قلعة أوربا ، التى قال عنها روزفلت إنها « غير مسقوفة » !

فالأمة التى لا تملك الكفاية من القوة الجوية لا تستطيع أن تتحمل طويلا الضغط إذا سلطته دولة متفوقة فى الطائرات ، وقد ثبت أن الدفاع السلبي مهما كانت أسلحته لا يستطيع أن يقضى على خطر الإغارات الجوية ، وقد استخدمت مناطيد الوقاية الجوفاء والمدافع المضادة للطائرات فلم يكن لها تأثير ذو شأن ، ولم تستطع بريطانيا أن تصد عن شعبها الإغارات الألمانية الاكتساحية وتقضى على الخطر المتسلط عليها من الجو قبل أن تفوز طائراتها وينتصر طياروها فى معركة الهواء ، وهكذا برهنت أحداث كثيرة فى هذه الحرب على أن الطائرات لا تهزمها إلا الطائرات .

أما الأسطول البحرى فلم يتضاءل أثره على حد ما كان يتوقع بعض المراقبين ، وكان يشجعهم على رأيهم أن الطائرات قد أخذت مكانه ، مع ميزة التفوق فى السرعة ، ولكن السيطرة على المواصلات البحرية ، التى كسبت الحرب العظمى الماضية ، والتى كسبت الحروب السابقة جميعاً ، بقيت لها أهميتها الخاصة ، ولوحصلت المانيا على التفوق البحرى لغزت بريطانيا ، ولو لم تسيطر بريطانيا على البحار لما تمكنت من تعزيز جيوشها وضمان تعاون أجزاء أمبراطوريتها والدول المتحالفة معها ، وفى هذا قال مستر تشرشل « لكى يكسب هتلر الحرب يجب

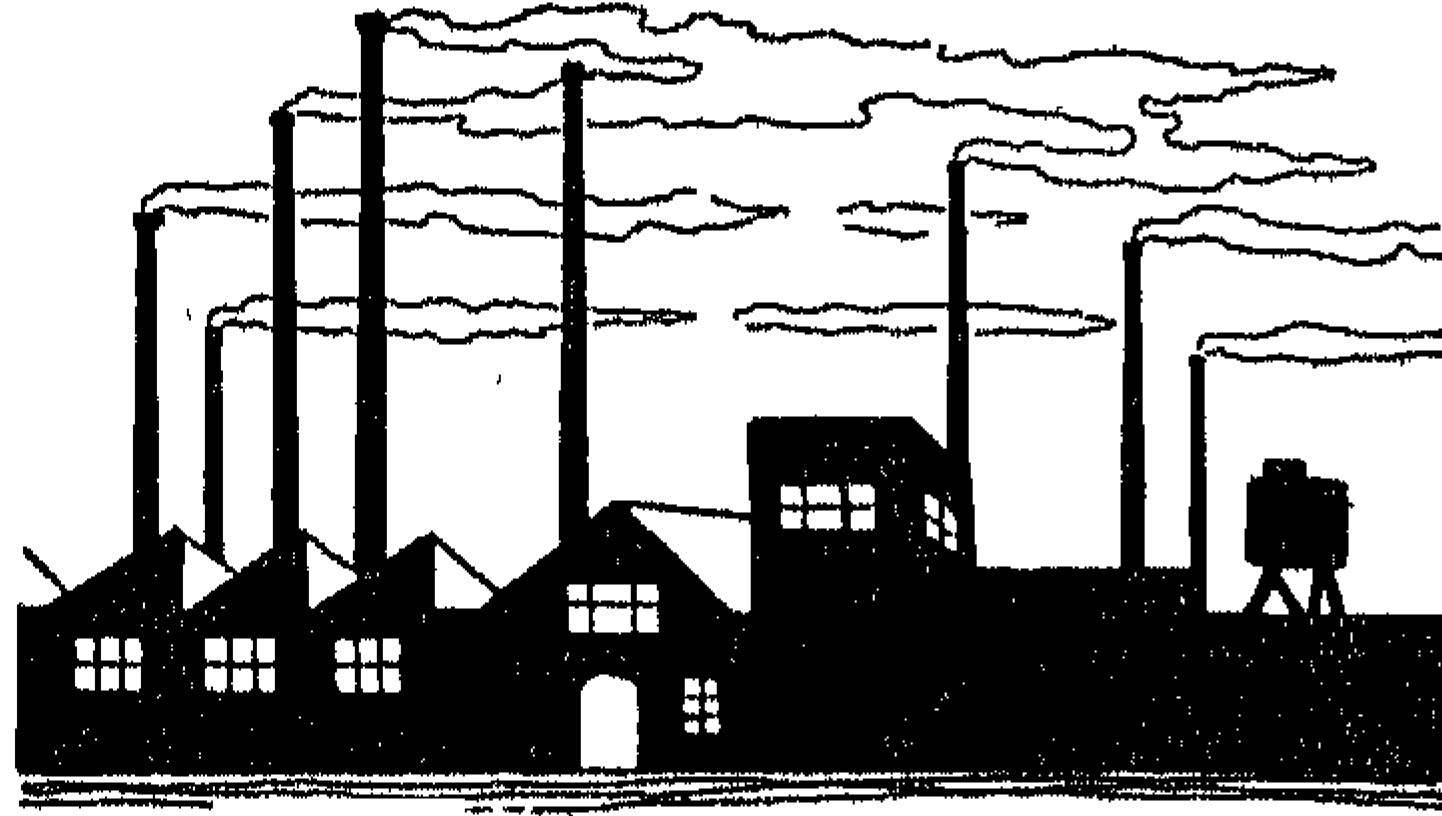
عليه أن يقهر هذه الجزيرة بالغزو ، وأن يقطع علينا المحيط ، وهو وريد الحياة التى تربطنا بالولايات المتحدة »

وقد أثبتت الأساطيل المتحالفة أهميتها العظمى ودورها الهام فى نقل الجنود إلى شواطىء الغزو ، كما أن الأسطول البريطانى قد خفف من وقع مأساة دنكرك عند ما أنقذ الحملة البريطانية وعدداً كبيراً من جنود فرنسا .

ومن الأسلحة التى نجح استخدامها فى الحرب الحاضرة الدعاية والطابور الخامس ، وهما اللذان أعدا دول أوربا لقبول الهزيمة فى بداية الحرب ، وكسبا معركة فرنسا قبل أن تبدأ ، وأثارا الانقلابات الخفية ، فالإذاعات والمنشورات والمخاطبات السرية كانت من أقوى الأسلحة التى استخدمها الطرفان فى تحقيق أهدافهما فى الحرب .

وأخيراً عند ما تنتهي هذه الحرب وتراجع أقوال المؤرخين فى أسباب النصر ودواعى الإخفاق فإن الشىء الكثير سيذكر عن أسلحة هذه الحرب ومعداتها ، ما ظهر منها وما بطن، ولا غرو فى ذلك فهي حرب عالمية إجمالية ، حرب الفنيين والمخترعين ، حرب الدبابات والأساطيل ، والطائرات والمظلات ، والروح المعنوية والتفكير الصائب . . .

ولهذا كان يجب أن نبحث هذه النواحى جميعاً قبل أن نصدر حكمنا فى مصير الحرب ، ولا ننسى حين نقدم الدبابيس الملونة على الخرائط ونؤخرها أن نذكر العوامل الأخرى التى سبق سردها ، وكثير منها لايوجد فى الخرائط ولا يظهر أثناء القتال .



فصل العمليات الهجومية

بدأ فصل العمليات الهجومية للحلفاء فى ظروف لم يكن فيها مجال للتفاؤل .

فإذا نحن استرجعنا ذكريات تلك الأيام التى سبقت شهر اكتوبر سنة ١٩٤٢ ، ثم ما حدث فى خلال سنة واحدة لوجدنا انقلاباً كاملا وتغييراً شاملا فى جميع ساحات القتال .

ولكن سنة الحرب الرابعة كانت سنة حافلة بالأحداث الضخمة والملاحم العنيفة والمعارك الفاصلة ، وهى سنة ستذكر فى التاريخ كفترة عظيمة الخطر للجنس البشرى ولمستقبل العالم .

فنى هذه السنة التى ندر فى تواريخ الحروب مثلها حدث انتقال الحلفاء من هوة الانكسار إلى قمة الانتصار ، ومن حالة الخوف والجزع إلى حالة الثقة والتفاؤل ، ومن الانسحاب والدفاع إلى الإقدام والهجوم ، وبذلك تغيرت وجوه الحرب ، وانعكست الآية ، وانتقل الحذاء من قدم إلى قدم .

وقد عُرف كيف نال المحور فى صيف سنة ١٩٤٢ أعظم انتصار أحرزته قواته فى شمال أفريقيا ، وكيف كسب روميل معركة مجيدة اندفع

بعدها إلى داخل الأراضى المصرية حتى صار على مسافة ساعات من قنال السويس . . وفجأة حدث التوقف — عند العلمين — و بعد ثلاثة أشهر كانت قوات المحور تفر من مصر ما وسعتها الطاقة فتلاحقها قوات الحلفاء وتجد فى إثرها، وفى ثمانين يوماً كان رومبل قد قطع ١٤٠٠ ميل تاركا وراءه ألف مدفع وألف طائرة محطمة وخمسمائة دبابة وآلافا من القتلى والأسرى .

وفى الميدان الروسى كانت القوات الألمانية تعمل على اتمام الحلقة الرهيبة من الحديد والنار التى تطوق بها ستالينجراد — عنق الاتحاد السوفيتى — لتنفذ حكم الاعدام فى روسيا ، وتدمرها تدميراً . . . ولكن لم تمض أشهر قليلة حتى كسر فون باولوس ومنى بهزيمة ساحقة وسددت القوات الروسية ضربة قاصمة إلى غزاة أراضيها فبدأ الارتداد ولاح شبح الهزيمة بصورة واضحة .

وفى الشرق الأقصى ، حيث اتسعت مطامع اليابان، أخذت جيوشها تطوف بالفلبين وهاواى وهونج كونج و بقية الجزر ، وفى أثرها المذابح والدمار ، ثم تغيرت تلك الصورة المفجعة ، وتحولت عجلة الشر ، واستعادت الولايات المتحدة أزمة الموقف ، وبدأت القيادة المشتركة فى الشرق الأقصى تقوم بعمليات هجومية موفقة ، بعد أن انتقل إليها ميزان القوة الجوية والبحرية والبرية . .

وكانت انجلترا مهددة بخطر الغزو ، ومال رأى عام كبير إلى أن

المانيا ستضطر بدافع الاعتبارات السياسية إلى غزو انجلترا ، فكان ذلك نذيراً خطيراً ، ولكن هزيمة الألمان فى روسيا واستكمال بريطانيا استعداداتها ، أضاعا ذلك الأمل ، ولم تجرؤ المانيا بعد ما أصاب قواتها الجوية من انهزام ساحق أن تحاول هذا الغزو .

وكان البحر الأبيض مغلقاً لاسبيل إلى السيطرة عليه أو الملاحة فى أرجائه ، بسبب وجود القواعد الألمانية ووقوف الأسطول الايطالى ونشاط طائرات المحور ، فكانت سفن الحلفاء تقطع طريقها إلى الهند بعد مرحلة طويلة تبلغ نصف الرحلة حول العالم ... ثم تغيرت الحالة فى البحر المتوسط بعد كسب معركة شمال أفريقيا وتم تطهيره من الأسطول الايطالى ، واختفت بعض قواعد المحور وخمد النشاط الجوى وعاد فتح البحر للملاحة فانتظمت المواصلات ونقصت مدة السفر إلى النصف وبدأت الحملات الحربية على الجزر التى تحتلها جنود المحور والتى كانت بمثابة مفاتيح الشواطىء الجنوبية .

وكانت ألمانيا قد بدأت الحرب وهى مستعدة استعداداً عظيما ما بلغته بلد أخرى، براً وجواً ، فتقدمت حشودها الحاشدة من الطائرات والدبابات فاقتلعت جميع المقاومات واجتاحت نصف أوربا وأحرزت انتصارات باهرة ، بينما كانت بريطانيا تعد عدتها وتضاعف انتاجها حتى تقدمت الولايات المتحدة لمعاونتها ، وقد رأينا كيف انجز قانون الإعارة والتأجير وعده السخى فى إمداد الحلفاء بحاجتهم من

القواعد والأسلحة والمعدات ، وكيف كان للانتاج الأمريكى الهائل أثره فى ايقاف زحوف المحور فى كل ميدان ، ويكفى أن نذكر بلغة الأرقام ما بلغته قيمة المساعدات التى بذلتها أمريكا لحليفتها طبقاً لبرنامج الإعارة والتأجير ، وهو ٢٨٢٧٠ مليون دولار ، و بلغ عدد ما أرسلته الولايات المتحدة إلى حلفائها ٣٩٠٠٠ طائرة و ٢٦٩٠٠ دبابة و ٦٣٧٣٠٠ سيارة عسكرية من مختلف الأنواع .

وقد هزمت ألمانيا فى ميدان الانتاج فلم تعد — بعد سنة ١٩٤٢ — قادرة على مواصلة انتاج الطائرات والمعدات التى تكفى امداد قواتها وحماية جيشها ومدنها ، وسبب ذلك واضح لا خفاء فيه إذا عرفنا مابلغه تطور الصناعة عند الحلفاء وتجنيدها مائة فى المائة للانتاج الحربى ، و إذا عرفنا أن أوربا بأجمعها ليس فيها الكثير من المواد الأولية اللازمة للصناعات الحربية ، وأن انتاج امريكا فى الطائرات هو ٧٣٠٠ طائرة فى الشهر وهو رقم هائل يضاف إليه أيضاً ما تخرجه مصانع الأمبراطورية البريطانية مما يكفى لتسديد هجمات جوية مرعبة إلى قلب ألمانيا حتى تحطم قوتها وتوهن نشاطها وتوقع الفزع والفوضى فى مدنها وقراها ...

أما فى الميادين الجوية فقد كان للطائرات الألمانية بادىء ذى بدء سيطرة كاملة فى جميع ساحات القتال ، وكان تفوق المانيا فى انتاج الطائرات من الأسباب القوية التى ساعدتها فى فاتحة الحرب ، ويكفى أن نذكر أن انتاج المانيا فى سنة ١٩٣٧ كان ألف طائرة فى الشهر بينما

كانت فرنسا تنتج ٣٧ طائرة في الشهر وكان غيرها من البلدان ينتج رقما أكثر تواضعاً .. ولذلك كانت ألمانيا تلوّح بالغارات الجوية وتهدد بتدمير المدن فى ساعات ، وعند ما فتحت باب الحرب انطلقت منه طائراتها كالصقور الجائعة فعصفت بكل شيء تصدى لها ، وكانت طلائع موكب النصر فى ثلاثة أعوام متوالية إذ كانت الطائرات والدبابات هى دعائم الحرب الخاطفة ، كما أن الطائرات الالمانية قد ابتدعت نوعاً جديداً من النشاط الخطير باعتدائها على المدن محاولة بذلك قهر الشعوب وتدمير القوى المعنوية ، فوقفت انجلترا بمفردها طيلة عامين تدافع عن نفسها ضد أكبر هجوم جوى عرفه العالم حتى ذلك الوقت ، وكان الموت والدمار يتساقطان من السماء ليل نهار ولكن أهل بريطانيا استطاعوا أن يصمدوا لهذا الهجوم الرهيب حتى ضعفت قوته وانعكست آيته فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤١ عندما بلغت معركة بريطانيا ذروتها ووصلت إلى أقصى شدتها ، وغلب المهاجمون على أمرهم وردُّوا عن أهدافهم خاسرين ، وعندئذ أخذت قيادة المقاتلات فى أعمالها الهجومية ضد الألمان فى فرنسا المحتلة ، وأصابت الطائرات البريطانية أهدافها وأعطت الألمان جرعات قوية من نفس الكأس التى ذاقت بريطانيا مرارتها

وعندما هاجمت المانيا بلاد السوفييت إضطرت إلى تعزيز قواتها الجوية فى الغرب فقامت الطائرات البريطانية بإغارات عظيمة على مطارات الألمان فى فرنسا وكانت تحلق فوق مليونى ميل وتلقى قنابلها

على الأهداف العسكرية والصناعية ، وتجهز على الطائرات المعادية وتغير على السفن والأحواض والمصانع البحرية ومحاط توليد الكهرباء والخطوط الحديدية .

ثم وصلت إلى بريطانيا أسراب السلاح الجوى التابع لجيش الولايات المتحدة فبدأت تساهم فى الغارات النهارية البعيدة المدى التى امتدت حتى أعمق جزء فى قلب ألمانيا ، وهكذ غدا سلاح المانيا الجوى عاجزاً عن القتال فى خمس جبهات فى وقت واحد فتسربت من قبضته مقاليد الأمور وصار التفوق الجوى بغير منازع فى أيدى الحلفاء .

وعندما يذكر المؤرخون فى المستقبل أسباب هزيمة الألمان فى الحرب العالمية الثانية سيذكرون بكثير من الاسهاب والعناية ، الدور الذى لعبته قوات الحلفاء الجوية ، التى أحرزت انتصاراً كاملا فى معركة الطائرات وعاونت بنصيب كبير جيوش البر وأساطيل البحر ، وقامت بمجهود مشهور فى ضرب المواصلات وشل حركة التموين وتدمير الأهداف العسكرية والصناعية ، والقاء الفزع والرعب فى قلوب الذين سلطت عليهم قنابلها ورشاشاتها وجعلت حياتهم جحيما لا يطاق . .

وإذا كان الحلفاء قد ملكوا بطياراتهم مقاليد الجو فقد استلمت أساطيلهم العتيدة زمام البحر ، ولا ينسى متتبعو أخبار الحرب كيف كانت معركة الأطلنطى قد وصلت إلى حالة خطيرة بسبب فعال الغواصات الألمانية التى كانت تسعى إلى قطع المحيط ، وهو وريد الحياة

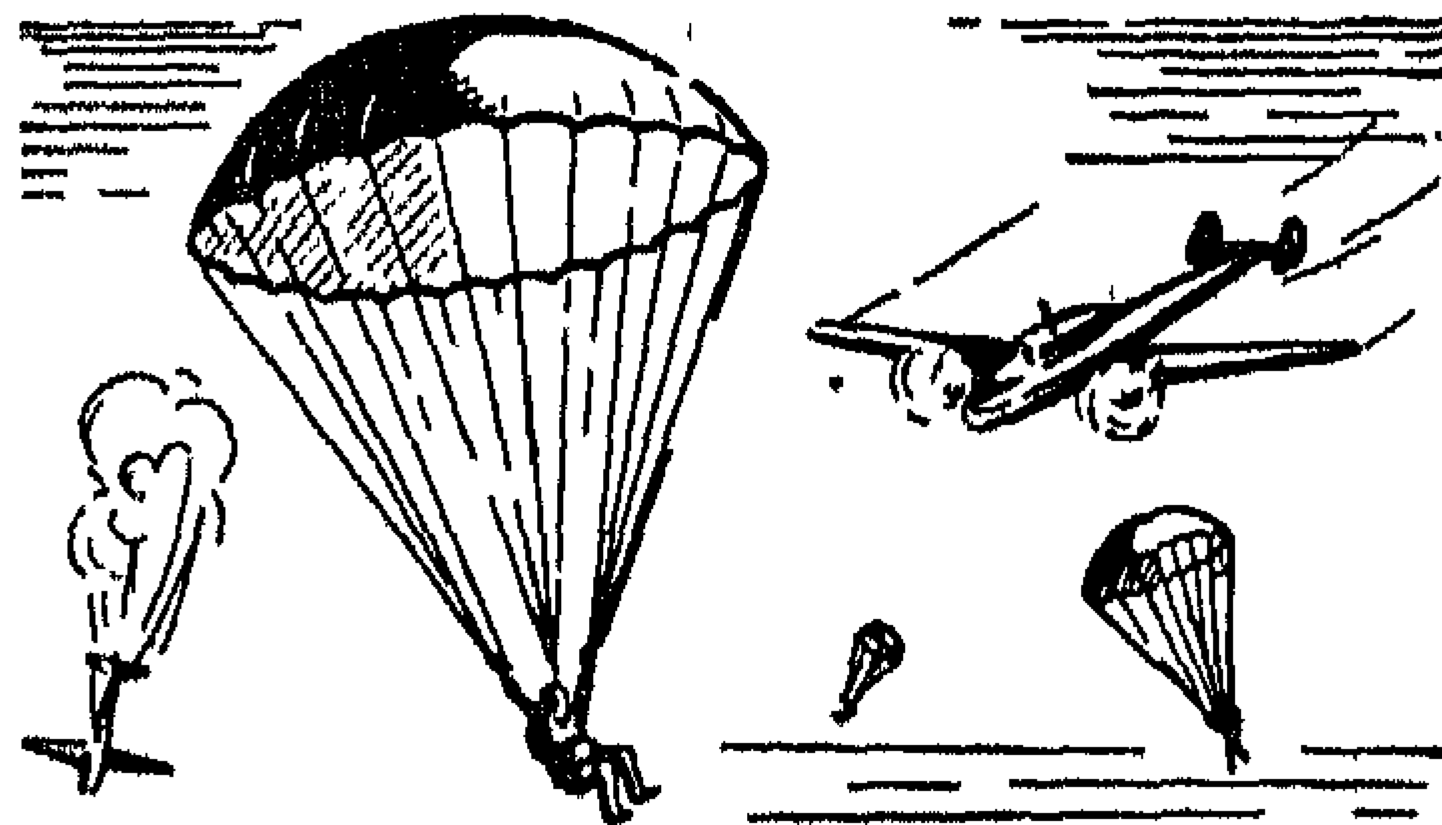
الذى يربط بريطانيا بحليفتها الـكبرى . . وقد كانت السيطرة على البحار — منذ أقدم العصور — هى أساس الفوز فى الحروب ، الأمر الذى تعرفه بريطانيا أكثر من أى بلد آخر ، ولهذا لم تغفل عن ذلك الخطر الذى كان يتهددها فى البحار وشرعت — بالتعاون مع الولايات المتحدة — فى إعداد خطة للقضاء على الغواصات ، حتى إذا انتهت الاستعدادات اللازمة للمشروع قامت سفن الحلفاء بمهاجمة غواصات المحور وسجلت انتصارات عظيمة ، وساعد على ذلك ازدياد عدد حاملات الطائرات المرافقة للقوافل ونشاط الدوريات البحرية التى كانت تقطع مئات الأميال ، وبذلك أخفق سلاح الغواصات، الذى كانت المانيا تعتز به ، اخفاقا ذريعا . .

وهكذا تم فى اثنى عشر شهراً — ابتدأت فى سبتمبر ١٩٤٢ — قطع شوط كبير فى الحرب ، وانهاء فصل حافل من أقوى فصولها، ونقل أزمّة الموقف من جانب المحور إلى جانب الحلفاء ، الذين توّجت جهودهم بعدة انتصارات من الطراز الأول ، فى العلمين وستالينجراد وتونس وصقلية . . فابتدأ عهد المعارك الهجومية والانتصارات الحافلة ، وحيازة قصب السبق فى الجو والبحر وفى جميع ميادين الحرب

ومن الضرورى أن تنطبع فى الأذهان قصة هذه السلسلة العجيبة من الأحداث التى غيرت اتجاه الحرب وأن تذكر الأسباب الحقيقية

لهذا التحول ، لأن الفعال العسكرية ليست كل شيء فى الحرب ، وقد رأينا فى السطور السابقة كيف أثرت معركة الانتاج فى ذلك الانقلاب ثم ما كان من أثر التفوق فى الجو والسيطرة فى البحر وكسب السباق فى ساحة التموين وفى ميدان السياسة وفى وضع الخطط والمشروعات .

ولا بد للذين يريدون استنتاجات صحيحة وينشدون الحقائق فى مسائل هذه الحرب أن يدعوا جانباً الناحيــة العاطفية ، ويأخذوا الأمور بطريق الدراسة المنزّهة والبحث العادل ، فتنكشف لهم الستائر عن كثير من الدروس الفنية والمادية والمعنوية ، والمشاهدات والصور القمينة بالدرس فى خطط الحرب الحديثة وفنونها المنوعة .



عمليات غزو الشواطىء

ظاهرة من ظاهرات هذه الحرب ، بل وجه من وجوهها الهامة ذلك التعاون الذى أحكمت أواصره بين قوات البر والبحر والجو ، والتعاون ليس جديداً فى الفن العسكرى ولكنه مبدأ من مبادىء الحرب المعروفة . غير أن اتساع نطاق الحرب وشدة ارتباط العمليات المختلفة ، وتداخل الواجبات فى الميادين المتعددة قد جعل هذا التعاون ضربا من الاندماج ، فلم تعد هناك قوة تعمل فى الجو وأخرى فى البر أو البحر وإنما أصبح الجميع قوة واحدة تعمل على تنفيذ خطة واحدة . . ولعل هذا التعاون أو الاندماج يظهر فى أقوى مظاهره وأوضح صوره فى عمليات غزو الشواطىء وهى أهم عمليات الحرب الحاضرة وأشدها على الاطلاق ، وأوسعها مدى .

وقد حدثت الإغارات على الشواطىء فى مراحل متعددة و بدرجات متباينة ، بدأت بعمليات الفدائيين التى كانت تهدف إلى الاستخبار أو الإتلاف ، وهى تتلخص فى قيام عدد من الجنود البواسل بمحاولة جريئة تبدأ بانتقالهم فى قارب بخارى أو نحو ذلك إلى سواحل العدو ، ومعهم آلات التصوير والرسم والنظارات المعظمة وأدوات التسجيل والكتابة لعمل الرسوم والتقارير عن حالة الشاطىء وأنواع

الاستحكامات والتدابير الدفاعية ، وقد يكون من مهام هذه الجماعات أن تقوم بأعمال التدمير والنسف فيأخذ المختصون فى هذه الشئون فى بث الألغام و إلقاء المتفجرات التى تصوب إلى المرافق الحيوية أو عقد المواصلات لتخريبها ، كما يكون على هذه الجماعات أن تظفر بالمعلومات عن حالة العدو ونوع الفرق المعدة للدفاع وأسلحتها ، ولذلك ينبث بعضهم فى خطوط العدو للحصول على أسرى أو علامات مميزة ، ثم يسرعون بالعودة إلى الشاطىء بعد الفراغ من مهمتهم ، فإذا قدرت لهم النجاة قدموا لرياساتهم ما لديهم من المعلومات والرسوم والبيانات

وقد استفادت قيادة الحلفاء من تجارب الفدائيين الذين انجلت محاولاتهم عن معلومات مكنت من وضع خطط أكثر دقة وشمولا ، فشجع ذلك على القيام بعمليات أوسع نطاقا وأقرب إلى صور القتال ، وكان من هذه العمليات الغارة على دييپ وسان نازير ، وقد اشتركت فيها الدبابات والمدفعية ووحدات من المشاة وقوات استطلاع جوية ، فكانت صورة مصغرة لحملة حربية كاملة

وكانت الحاجة إلى غزو الشواطىء — وهى العمليات الحاسمة فى الحرب — تفرض على قيادة الحلفاء وضع أبحاث دقيقة وخطط تفصيلية مبنية على التجارب العملية وقد تم ذلك بنجاح وحصلت الرياسات المختصة على المعلومات القيمة التى مكنت من وضع خطط كاملة ، كانت ثمرتها الأولى نجاح الحملة الأمريكية الانجليزية فى شمال أفريقيا ، فى نوفمبر سنة ١٩٤٢

وأعقب ذلك غزو صقلية ثم إيطاليا ، وأخيراً جاءت ساعة الفعال الحاسمة فى مصير هذه الحرب واستعد الحلفاء لفتح الميدان الثانى ، بعد أن أصبحت فى أيديهم جميع الخطط والقوات والمعدات اللازمة لأكبر حملة فى الوجود وأنضج مشروع حربى فى جميع العصور

وإذا كانت أكثر فنون الحرب وأعظم أسلحة القتال قد تمثلت فى عمليات غزو الشواطىء ، وخصوصاً فى فتح الميدان الثانى ، فان القسم الأكبر من النجاح إنما يرجع إلى تعاون قوات البر والبحر والجو ، ذلك التعاون الذى وصفناه بالاندماج ، فلم تعد هناك سوى أداة واحدة للحرب وخطة واحدة للقتال

وقد مرت بالقارىء أخبار الحرب وفيها ما فيها من أهوال المعارك وويلات القتال ، وتعددت عليه الصور والأحداث دون أن يلتفت بالاً — فى كثير من الأحيان — إلى مئات من الأعمال اليسيرة والتفاصيل الغريبة التى تتكون منها عناصر هذه الفعال الحربية الباهرة ، والتى لا يمكن إذا أخفق بعضها أن تتحقق الغايات على الوجه المطلوب ، أما الموضوعات التى تشتمل عليها عمليات الغزو عبر البحار فهى : —

(١) وضع الخطة العامة التى تشمل واجبات الوحدات البرية والبحرية والجوية

(٢) تدريب الجنود على اختلاف وحداتهم على العمليات المنتظرة

(٣) الأسلحة والمهمات والنقل والتموين

(٤) نقل القوات من مراكز إقامتها إلى نقط الابحار
(٥) مهمة الأسطول فى التعدية .
(٦) إقامة رؤوس الكبارى وبدء العمليات الحربية

أما عن الخطة الاستراتيجية العامة لأى عملية حربية فتطرأ بفكر أحد من القادة أو الرؤساء المدنيين وتعرض على وزارة الحرب بعد أن تضع رياسة هيئة أركان حرب الجيش رأيها مع بعض التفاصيل، ثم يعرض المشروع على هيئة يكون من أعضائها القواد الذين يقع عليهم الاختيار للتنفيذ وقيادة العمليات فى البر والبحر والجو، فيشرع كل منهم فى بحث التفاصيل الخاصة بمهمته ثم يتشاور الجميع فى نصيب كل فريق من العمل وحاجته من المعونة حتى يتم اتفاقهم على خطة شاملة، ويعود الرؤساء المدنيون والعسكريون إلى مراجعة هذه الخطط ثم التصديق عليها، ويجىء بعد ذلك دور التجهيز والاستعداد لحشد جميع ما تتطلبه الحملة من رجال وعتاد وأسلحة ومواد ومؤن .

ونظراً لأن العمليات التى قام بها الحلفاء منذ سنة ١٩٤١ كانت عمليات مشتركة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى فان ثمة أمرين يثبان إلى محيط العمل، أولهما تنظيم بريطانيا لمواردها بالاتفاق مع بقية أجزاء امبراطوريتها، وثانيهما وجود هيئة أركان حرب مشتركة أعضاؤها من البريطانيين والأمريكيين، وإلى هذه الهيئة تقدم جميع المقترحات

ومنها تصدر جميع القرارات ، وقد اقتضت بعض العمليات اشتراك الصين وروسيا فى المباحثات ، كما أن الخطة الخاصة بمحاربة المانيا إلى النهاية قد تم الاتفاق عليها ، بجميع التفاصيل ، بين الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا ، وهى اتفاقات لا تتم قبل مجهودات عظيمة ومباحثات جسيمة ومراجعات دقيقة ، حيث أنها تضم جهوداً متعددة وأسلحة ومعدات من نواح شتى ، وحيث أنها تتعلق بأخطر أدوار الحرب ، وتحمل قرارات على جانب عظيم من الخطر فى شئون القتال بل فى مستقبل العالم بعد الحرب .

والصعوبة ظاهرة بين السطور فلا بد من بحوث دقيقة تقوم بها الدولة فى جميع نواحى انتاجها وتفكيرها وأهدافها وهى تراجع أنصبة العمل ونتائجه المنتظرة وتحاول تدبير مصالحها القريبة ، ولهذا لا يتم الاتفاق قبل كثير من الأخذ والرد والمراجعة والبحث والموازنة وملاحظة المصالح والتبعات وتوزيع القوات والواجبات واختيار القادة والأهداف وتنسيق الأوضاع والمجهودات ، وهى مسائل تستوجب يقظة وتدقيقا وكفاية فى التقدير والاقدام .

ويأتى بعد ذلك موضوع اختيار القادة لتولى الحملات ، فيقدم كل جانب رأيه فى التعيين ثم يبحث الأمر بواسطة اللجنة المشتركة فتضع رأيها وقد لاحظنا دلائل التعاون الوثيق بين القادة الأمريكيين والبريطانيين، إذ أنه كلما كان قائد أحد الأسلحة أمريكياً كان مساعده بريطانياً وبالعكس ، فالجنرال إيزنهاور الذى أعطى قيادة أعظم حملة

عرفت حتى الآن نائبه مارشال الجو الأعلى السير أرثر تيدر ، والجنرال ويلسون الذى أنيطت به حملة جنوب فرنسا نائبه الجنرال جاكوب ديفرز . . وهكذا .

وبعد أن تتم الاتفاقات على الخطة العامة وعلى قواد الحملة يأخذ هؤلاء القواد ، في القيادات البرية والبحرية والجوية ، فى مباحثات فنية ، فيعد كل منهم مشروعاً عن مهمته وأهدافها ويقدم البيانات اللازمة عن الجنود والأسلحة والمعدات التى يتطلبها أداء هـذه المهمة وتحقيق تلك الأهداف ، ثم يبدأ التشاور فى المساعدات المطلوبة لكل فريق ، أى إدماج الخطط الثلاث لتصبح خطة واحدة تشمل جميع العمليات البرية والبحرية والجوية .

وقد كان من الخطأ الشائع الظن بأن الجنود لا تتدرب إلا فى فترات السلم ، وأن هذا التدريب هو غذاؤها الوحيد ، فلا مجال لها بعد ذلك إذا شبت الحرب ، ولكن الحرب الحديثة قد كشفت عن ذلك الظن الخاطىء فإذا بالجنود تتدرب خلال المعارك ، وإذا بساحة الحرب تصبح ساحة تدريب وتجربة وإعداد كلما فترت حدة القتال وحلت فرصة مناسبة ، وقد لاحظنا ذلك بوضوح عند ما ولى الجنرال الكسندر « ومعاونه » مونتجمرى قيادة قوات الصحراء ، فكان من رأى الكسندر العناية بتقوية الجنود وصحة الجيش ، وخطا مونتجمرى خطوة أخرى بسحب قوة كبيرة تحت اسم « الفيلق العاشر » الذى أبعد عن

ساحة العلمين ليتدرب خلف خطوط القتال ، وقد كان هذا التدريب شاملا لجميع فنون الحرب الحديثة وأساليب العمل للمشاة والدبابات على أساس التجارب السابقة ومقتضيات الأسلحة الجديدة ، فتَدَرّب الجنود على جميع أنواع الأرض من مرتفعات ورمال وأتقنوا العمليات المختلفة فى الليل وفى النهار ، وفهموا كيف يكون التعامل مع خصم قوى على أرض مكشوفة وفى جو حار وظروف مضنية .

كان هذا فى عمليات برية بحتة فانتهى بنجاح عسكرى لامع خُتمت به الحرب الأفريقية التى كان من أهم دورسها أهمية التدريب على أنواع مختلفة من الأرض وأنواع متعددة من حالات القتال وخطط متغيرة دائما . وأصبح لا مندوحة من انتهاز كل فرصة ممكنة لتدريب الجنود وزيادة معلوماتهم وكفايتهم على ضوء ما يعرف من خطط العدو وفنونه ، فإذا اتسعت العمليات الحربية وأصبح الأمر يتعلق بمشروعات كبيرة وأحداث عسكرية هائلة يراد بها ختم الحرب كغزو إيطاليا أو فتح الميدان الثانى كان من الضرورى أن تزاد فترات التدريب هذه وتشتد الحاجة إلى المزيد من التجربة والمران ، ولاشك أن توجيه قوات عظيمة برية وبحرية وجوية إلى شواطىء القارة إنما هو عمل كبير الخطر ينطوى على أعباء جسيمة ومهام حيوية يجب أن تعد لها العدة ويعنى فيها بالتحضير ، وذلك بالتدريب الجيد لكل هيئة وكل مجموعة وكل جندى مقاتل .

ويكون ذلك التدريب عملياً ، بل يكون صورة صحيحة كلما أمكن بإجرائه بنفس التشكيلات والأوضاع والأسلحة والنيران الحقيقية وجعله على أنموذج بذات المقياس لقطاع الساحل الذى سيكون هدف الهجوم ، فلا يكتفى بتدريب جنود المشاة أو الدبابات وحدهم وإنما تتدرب تشكيلات كاملة ، ويُدعى الأفراد البحريون فى الأسطول وفى سفن وقوارب إنزال الجنود لمشاهدة هذه التمرينات والاشتراك فيها — فى مراكز التدريب — ليمكن الحصول على الإنسجام التام والفهم الدقيق للواجبات المختلفة ، وبهذا يمكن تنسيق العمليات البرية والبحرية .

وتتطور مشروعات التدريب من المحاضرات والقواعد المكتوبة إلى بيان عملى ثم إلى مشروع كامل ، وبين هذه المراحل تظهر الملاحظات القمينة بالدرس والأخطاء الجديرة بالاستبعاد ، وبذلك أمكن الفصل فى عدة أمور كانت موضع خلاف ، فمثلا هل الأفضل انزال لوريات البنزين إلى الساحل فارغة ثم نقل الوقود إلى البر على أن يصير ملء اللوريات على الساحل ؟ أم نقل اللوريات إلى الساحل مملوءة بالبنزين وإبقاء بعض السفن متأهبة لإعادة الفارغ إلى انجلترا ليعاد ملؤه . . ؟ وفى أى مرحلة يكون من الأفضل انزال المستشفيات العامة إلى الساحل وإيقاف إعادة الجرحى إلى بلدهم ؟ وكيف يمكن إدارة النيران المساعدة التى تقدمها مدفعية الأسطول ، هل بجعل السفن مشرفة على الموقف كله

أو بواسطة اشارات من الساحل . ؟ وغير ذلك من الأمور التى تحسن فيها التجربة وتفضل فيها البيانات العملية .

ولا تغفل فى التدريب مسألة التموين فإنها من المسائل الحيوية التى تتسع مشتملاتها فى عملية غزو الشواطىء فتصبح أكثر تعقيداً وجهداً ، فان مشكلة حمل الجنود والمهمات والأغذية وإنزالها إلى الشاطىء طبقاً لدرجة الأسبقية الصحيحة قد جاء نتيجة التجربة والملاحظة فى مشروعات التدريب من ناحية وفى ضوء الغارات العملية من ناحية أخرى ، كما أمكن الاستفادة بكل درس عرف على مسارح الحرب ، وليس أدل على تشعب هذه العملية — عملية الإمداد والتموين — واتساع نطاقها ودقة ترتيباتها من أن عدد الرجال اللازمين لتمكين الجيش من العمل يكون أكبر من عدد هذا الجيش ذاته .

لذلك لا بد من أن تكون الخطط جاهزة بأدق تفاصيلها حتى فيما يتعلق بالعمليات الهجومية على السواحل ، وفى هذه يلاحظ أن الموجة الأولى للهجوم تنزل فى شكل قوة مقاتلة تعتمد على أسلحتها ولا تنتظر أي نيران مساعدة من التى ينتفع بها عادة فى عمليات الاقتحام ، وبذلك يكون وصول الجنود إلى مواقع العدو فى تشكيلات تكتيكية متزاحمة وغير عادية ، تضطرهم إليها ارغاماً سفن النقل التى تحملهم إلى الشاطىء .

فاذا أتم الجندى تدريبه ووقف كل فرد على المهام التى عهد إليه بها

يبدأ الانتقال من معسكرات التدريب إلى مراكز الحشد ، ومنها إلى مناطق الترحيل ، وأخيراً إلى نقط الابحار

ويقطع الجندى يومين تقريباً فى الانتقال من معسكرات التدريب إلى مراكز الحشد التى ينقل إليها إما فى عربات الحملة أو فى قطارات خاصة ، فاذا كان الانتقال بالسيارات اضطرت القوات إلى المبيت ليلة أو ليلتين فى معسكرات الطريق ، وعند وصول الجنود إلى مراكز الحشد تبقى تحت ظروف متغيرة مدة أسابيع للتجهيز والاستعداد ، وتكون هذه الفترة فترة عمل جهيد لرجال مراكز الرياسة الذين يقومون بالتتميم على مهمات الجنود وحاجياتهم المتعددة

وفى مراكز الحشد تأخذ التشكيلات المختلفة تموينها وتعييناتها بالطريقة المألوفة ، غير أن مهمة المسئولين تكون أكثر مشقة وتشعباً وهم يقومون بتموين وتغذية أعداد كبيرة من الجنود وملاحظة جميع الترتيبات الخاصة بالأسلحة والمهمات والذخيرة والعربات والحملة اللازمة للانتقال من مراكز الحشد إلى مناطق الترحيل

أما خطة النقل فتستدعى عمل ترتيبات خاصة يعدها القادة بوجود مندوبين عن البوليس ومصلحة السكة الحديد وهيئات الدفاع المدنى ، ويلاحظ فى ذلك كفاية الحملة وترتيبات الوقاية الجوية والاسعافات وغير ذلك من عشرات المسائل الدقيقة

أما موضوع المهمات فيكفى للدلالة على تشعب فروعه وتعقد مسائله أن تعرف أن مهمات الجنود الموجودة فى المخازن الانجليزية تتكون من نصف مليون نوع ، وهو رقم فيه الدلالة على ضخامة موضوع الامداد ، أما مسألة التغذية — وهى التى تحتاج عناية خاصة ومجهوداً بالغاً يعرفه رجال العسكرية أثناء التدريب والمناورات — فإنها تعد من المشكلات المحتاجة إلى حرص ويقظة ومجهودات كبيرة ، فان أى خطأ يترتب عليه تأخير الغذاء أو إضاعته فى الطريق يوقع القوات فى حالة مربكة ، وخصوصاً فى عمليات كبيرة ، تختلف سلسلة التموين فيها عدة مرات بين معسكرات التدريب ومراكز الحشد ومناطق الترخيل ونقط الإبحار ومراكب التعدية وشاطىء الغزو

وكل من هذه المناطق يتطلب نظاماً خاصاً وأنواعاً معينة من الأغذية والمؤن

ومن البيانات الجديرة بالذكر أن معسكرا واحداً ، يتسع لإيواء ٢٥٠٠ رجل فى وقت واحد ، يحتاج إلى هيئة مكونة من اثنى عشر ضابطاً و ٤٠٠ من الرتب الأخرى منهم ٦٠ طباخاً ...

ويقيم الجنود عادة فى مراكز الحشد نحو ثلاثة أسابيع ينقلون بعدها إلى مناطق الترحيل حيث توزع الأفراد على أقسام مختلفة وتُنظَّم حسب تشكيلات القتال المنتظرة ، وتُجهَّز مناطق الترحيل فى القرى الساحلية ويشغل المعسكر نحو ٣٠٠ ميل مربع توضع فيها الخيام وتنشأ

فيها هيئة خاصة لإرشاد الجنود إلى أماكن تناول الطعام وطرق إرسال البريد وكل ما يحتاج الجندى معرفته قبل الإبحار .

وعند ما يصل الجندى إلى معسكر الترحيل تقدم إليه وجبة من الطعام ، وفى هذا المعسكر توجد المطابخ والمخازن التى تشتمل على جميع أنواع الأطعمة والمهمات والملبوسات ، كما أن خدمات الكانتين (N.A.A.F.I.) تؤدى للجنود ما بقى من حاجة لهم .

ويوجد مكان للندوة تتوافر فيه جميع ميزات الأندية وتقدم فيه بعض العروض السينمائية والمشاهد المسرحية .

ويقضى الجندى فى معسكرات الترحيل مدة تتراوح بين اثنتى عشرة ساعة وثلاثة أيام ثم ينتقل إلى نقط الإبحار ومعه تعيينه اللازم مع حافظة بها قطع من الشكولاته والبسكويت والسجاير ، وبذلك يبدأ الجندى مرحلة العمل (Fed up) مكتمل الحاجة من التدريب والملابس والأغذية .. والمسليات !

وآخر هذه الميزات وجبة ساخنة قبل الرحيل بساعة .

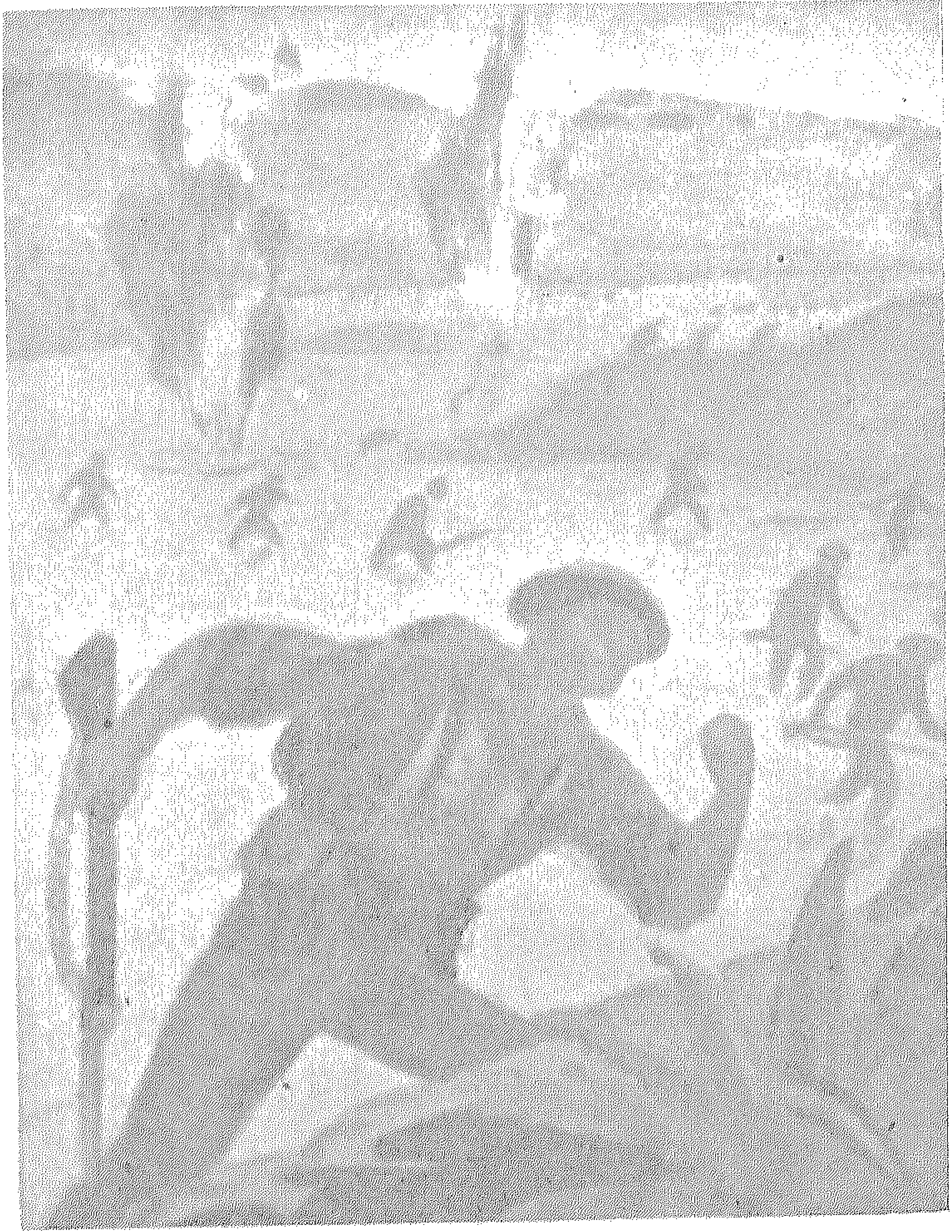
وفى اللحظة المحددة تبدأ التحركات ، فتسير القافلة بجنودها ومعداتها ، وهى تبتعد شيئاً فشيئاً عن قلب الوطن ، متجهة نحو الشاطىء ويظهر البحر . الذى يشبه الغد فى رهبته وأسراره ، وتظهر قوارب النقل والمراكب المعدة للتحميل ، كفرسان القدر ، تنتظر زهرة الشباب

لتحملهم عبر مياه رهيبة إلى ساحة الصراع والألم والمشقة ، ولكن . . إلى العمل الذى لا بد من أدائه ، و إلى الواجب الذى ترخص له النفوس وتبذل الأرواح .

وتشق هذه الناقلات — أفراس البحر — طريقها كالعرائس ، تتقدمها كاسحات الألغام لتطهر لها الماء وتباركه ، وتحف بها الطرادات والمدمرات لتحرسها من الشر ، وتظللها سحابة من الطائرات . . تمنع عنها العين !

يا له من موكب حافل ، عظيم فى تكوينه ورهبته ، خطير فى أحماله ومهمته ، لم يسبق له مثيل فيما اجتمع له من عقليات عسكرية ساطعة ونظريات حربية لامعة ، هى خلاصة فنون الحرب جميعا ، فى البر والبحر والهواء .

ويا له من موكب صادق الوعد ، فقد جاء فى الوقت المحدد ، إلى حيث تنتظره الأحداث الكبرى ، وتشير إليه يد القدر ، فيخطو إلى الهيجاء رجالها البواسل ، أقوياء التصميم موفورى العزم ، لخوض معركة هائلة تسيل فيها الدماء أنهاراً فى سبيل حياة الأوطان وحريتها وحقوق الانسان وكرامته ، ومستقبل العالم وسلامته .



والآن .. إلى العمل !

غزو جزيرة صقلية

انتهت معركة افريقيا ، وبدأت معركة أوربا

وقد كان من أهم قرارات مؤتمر « الدار البيضاء » أن الهجوم على أوربا سيبدأ فى ذلك العام — أى عام ١٩٤٣ — وقد استعرض المؤتمرون جميع ميادين الحرب وبحثوا المسائل الكبيرة التى كانت تشغل الأذهان ، وأعدوا العدة لتنفيذ الخطط فى البر والبحر والجو ، وقد وصل الرئيسان روزفلت وتشرشل ورجال هيئتى أركان حربهما إلى اتفاق تام على الخطط والمشروعات العسكرية التى تنفذ أثناء حملة سنة ١٩٤٣

واتخذت هذه القرارات فى شهر يناير أى فى الوقت الذى بدأ نجاح عمليات الحلفاء فى شمال افريقيا يظهر بوضوح ، فنشطت الآمال وتضاعفت الثقة بمستقبل الخطط الحربية واقتراب الأيام العظيمة التى تأتى بالقتال إلى أوربا للفصل فى هذه الحرب التى طال مداها .

وفى الثالث عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٣ انهارت مقاومة المحور فى تونس ، وانتهى الفصل الافريقى من فصول الحرب العالمية الثانية .

وكان سلاح الجو البريطانى قد شرع فى اغاراته الرهيبة على سواحل إيطاليا ومدنها ، وأخذ فى تدمير الموانى ومهاجمة جزر بنتلاريا ولامبيدوزا وصقلية .

وبدأ الحديث والنقاش حول غزو أوربا ، وأين تقع الضربة المنتظرة .

وانقسم المتحدثون إلى عدة فرق ، فريق يرى أن هولندا ستكون ميدان الغزو ، وفريق يرى اليونان ، أو النرويج ، وإيطاليا ، وفرنسا . . الخ .

وفى يوم ١١ يونيو هاجم الحلفاء جزيرة بنتلاريا ، وقد كانت هدفا لطائرات الحلفاء مدة ثمانية عشر يوما

وجزيرة بنتلاريا من الجزر الإيطالية ، بين تونس وصقلية ، وهى على مسافة ٦٢ ميلا ج . غ صقلية و٤٤ ميلا من رأس بون ، ومساحتها ٣٢ ميلا مربعا ، وقد حصنها الإيطاليون ليتمكنوا من استخدامها فى إغلاق مضيق صقلية فى وجه سفن الحلفاء ، وتهديد مالطة . وقد استخدمت كمركز لمراقبة قوافل الحلفاء البحرية فى أثناء حصار مالطة ، واستخدمت كمحطة لتموين قوافل المحور والغواصات ، فأقيمت بها مراكز الدفاع الساحلى وحظائر الطائرات

وقد اشتركت سفن الأسطول البريطانى فى مهاجمة الجزيرة ست مرات إلا أن سلاح الطيران كان له فضل تحقيق الغزو ، فقد ألقت الطائرات المغيرة — فى مدى ثلاثة عشر يوما — كمية تبلغ ١٧ مليون رطل من القنابل ، فتحطمت روح المقاومة وكسبت الطائرات المعركة

وتحولت الجزيرة إلى أنقاض وأطلال ، ودمر كل مبنى فيها وساءت حال حاميتها وسكانها ، وفى الساعة ١١و٤٠ صباح ١١ يونيو رفعت حامية بنتلاريا علما كبيراً أبيض إشارة بالتسليم وعلامة على

الكف عن المقاومة و إلقاء السلاح . . وكانت الخطة تقضى بمهاجمة الجزيرة جواً وبحراً و براً ، فكفت العمليات الجوية شر القتال

ونزل الجنود إلى البر بغير مقاومة ولم تقع خسارة فى الأرواح ، ولم يبذل سلاح الجو الألمانى إلا مجهوداً ضئيلا لصد الغزو ، ولكن المقاتلات البريطانية والأمريكية كانت تسيطر على الجو سيطرة تامة ، وسارت خطط الغزو بدقة ونظام ، ولم يأت مساء ذلك اليوم حتى كانت الجزيرة فى أيدى الحلفاء ، وبذلك حدث أول انتقال من أفريقيا إلى أوربا

ومما هو جدير بالتسجيل أن فتح بنتلاريا من الجو يعد حدثا بارزا بين أحداث الحرب الجوية فان أية قوة لا تستطيع أن تصمد تحت ضرب مُركّز طويل الأمد على أهداف مختارة

أما الحملة البرية التى تقدمت لغزو الجزيرة — وهى الفرقة البريطانية الأولى— فلم تشترك فى قتال ، وقد جاءت البوارج والمدمرات والطرادات إلى مسافة ميلين من غربى الجزيرة فصبت قنابل مدافعها من جميع الجهات ، هذا بينما بدأت عمليات انزال الجنود إلى البر بعد أن ألقت الحامية سلاحها وأعربت عن رغبتها فى التسليم

وقد أسر البريطانيون فى هذه العملية أكثر من عشرة آلاف جندى وكسبوا مركزا هاماً يمنحهم السيطرة على المنطقة الوسطى من مضيق صقلية

وكانت هناك عدة جزر أخرى غير بنتلاريا لامندوحة من احتلالها حتى يتم تطهير البحر تطهيراً تاماً ، ولذلك هوجمت جزيرة لامبيدوزا التى احتلتها قوات الحلفاء يوم ١٢ يونيو بعد أن واصلت ضربها من البحر والجو مدة ٢٤ ساعة ، فكانت بذلك المعقل الأمامى الثانى الذى فقدته إيطاليا ، وقد كان يطلق عليها اسم « حاملة الطائرات التى لا تغرق » !

وجزيرة لامبيدوزا تبلغ سبعة أميال طولا فى ميلين عرضاً وهى تقع على بعد ١٥٠ ميلا من صقلية و ١٠٠ ميل ج . غ . مالطة و ٨٠ ميلا ش . تونس ، وكانت مركزا هاماً فى أثناء القتال البحرى فى مضيق صقلية كما كانت تستخدم قاعدة لتموين روميل

وقد بدأت الحملة على هذه الجزيرة بالغارات الجوية التى كانت تشنها طائرات سلاح الجو الملكى من قواعدها فى مالطة ، وظلت تضربها بقنابلها الفتاكة المتواصلة حتى دُمرت فرفعت فى المساء راية التسليم

وأسر الحلفاء فى هذه العملية ثلاثة آلاف أسير ، وتمت لهم السيطرة على ثلاث جزر مهمة وسط البحر وهى مالطة و بنتلاريا ولامبيدوزا

ولم يمض على تسليم الجزيرة الأخيرة عدة ساعات حتى سارعت جزيرة لينوزا إلى التسليم خشية أن تصب عليها طائرات الحلفاء جام غضبها ، وقد تحولت قوة بريطانية فدخلت الجزيرة وأسرت ١٤٠ جنديا و بحاراً

و بذلك تم الاستيلاء على ثالثة جزر مضيق صقلية ، وجاء فقدان

هذه الجزر الثلاث فى ثلاثة أيام متوالية، وكان سقوطها — كما قدمنا — بواسطة الطائرات وحدها

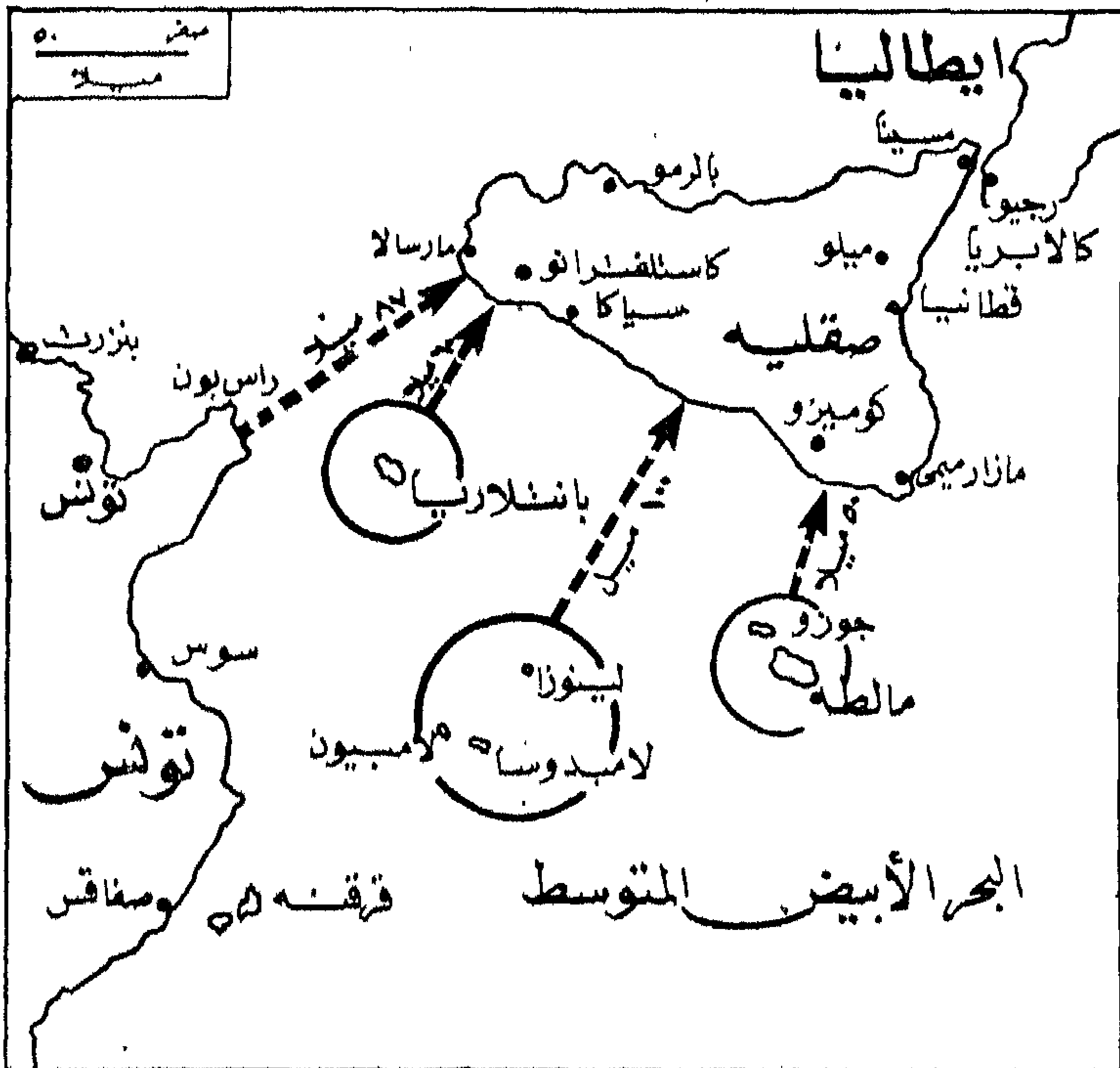
وبينما كانت هذه العمليات على أشدها اختلف متتبعو الأخبار فيما يقصده الحلفاء من غزو هذه الجزر ، فراح فريق يرى أنها عمليات يقصد بها شغل المحور عن الموضع الذى اختير لفتح الميدان الأوربى ، ورأى فريق أنها عمليات أصلية يراد بها تحطيم أبواب إيطاليا . . وكثرت الافتراضات وتعددت الاحتمالات حتى قام الحلفاء بتوجيه طائراتهم وسفنهم نحو صقلية ، وصرح الجنرال إيزنهاور بأن غزو أوربا على وشك الوقوع ، وأن مهمة الحلفاء ستكون صعبة وشاقة !

ويمكن القول بأن مشروع غزو صقلية بدأ منذ أن انتهت العمليات الحربية فى شمال أفريقيا ، فقد كانت طائرات الحلفاء دائبة على ضرب مطارات الجزيرة ومنشآتها ضربا شديداً ومحكماً ، وقد تعرضت لها الطائرات الألمانية والإيطالية وحدثت بين الطرفين معارك جوية عنيفة كانت تنتهى دائماً بانتصار طائرات الحلفاء وتفوقها . . وقد أرسل الألمان نجداتهم عبر مضيق مسينا لتعزيز مقاومة الإيطاليين حين بدت لهم خطورة الموقف واعتبروا ذلك العمل مقدمة للغزو المنتظر

وكانت عدة ظروف عسكرية استراتيجية تقضى بالاستيلاء على صقلية ، ولذلك لم يخف على عدد من المراقبين الحربيين أن خطة الحلفاء ستتجه إلى غزو الجزيرة ، وأن ذلك العمل الكبير ليس إلا حلقة من سلسلة الأعمال الحربية التى نظمها الحلفاء

وقد أذاع مركز قيادة الحلفاء فى شمال أفريقيا بلاغا جاء فيه: —

« بدأت قوات الحلفاء بقيادة الجنرال إيزنهاور عملية إنزال الجنود إلى البر فى صقلية فى ساعة مبكرة من صباح اليوم — ١٠ يوليو — ومُهد لهذه العملية بهجمات جوية قامت بها طائرات الحلفاء ، وكانت وحدات الحلفاء البحرية تحمى القوات المهاجمة وتضرب بمدافعها الاستحكامات الدفاعية على الساحل أثناء الهجوم . . »



غزو جزيرة صقلية

وجزيرة صقلية تعد أعظم وأغنى جزر البحر المتوسط ، وتبلغ مساحتها ٩٩٣٥ ميلا مربعاً وطول ساحلها الشرقى ١٩٠ ميلا وطولها من الجنوب ١٤٥ ميلا ومن الشمال ٢١٥ ميلا ، وأرضها صخرية بركانية غنية بالثروات المعدنية ، وهى صالحة للأعمال الدفاعية ولذلك هاجمتها الطائرات هجوماً شديداً لتدمير دفاعاتها وتخريب مطاراتها .

وقد قدّرت قوات المحور فى صقلية بما لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل هم جنود الجيش السادس الايطالى الذى يقوده الجنرال جوزونى وقد انضم إليه عشرة آلاف من الألمان وعدد من الدبابات والمدافع .

وعند ما بدأت عمليات إنزال الجنود أذاع راديو روما أن القرار الحاسم فيما يتعلق بحياة إيطاليا أو استعبادها وفيما يتعلق بالحرب كلها سيتخذ على سواحل صقلية ، والايطاليون جميعاً واثقون بأنه فى وقت قصير سيقع آخر جندى للعدو قتيلا على سواحل إيطاليا ! .

وقد سبق نزول الحلفاء فى صقلية قيام عدد من جنود المظلات الأمريكيين والبريطانيين بالهبوط إليها مع عدد من جنود الطائرات الشراعية ، لشل قواعد المحور وتحطيم كل هجوم جوى مضاد ، وقد تمت هذه العمليات بنجاح تام فلم تصادف الطائرات الشراعية وطائرات نقل الجنود أية مقاومة من الجو ، ولو أنها استهدفت لنيران ضعيفة من المدافع المضادة للطائرات . . وقد أعلن أن إنزال جنود المظلات والجنود الذين تقلهم الطائرات فى صقلية يُعد من أكبر الأعمال التى تمت من نوعها بعد عملية كريت .

وبعد ساعات نزلت قوات الحلفاء إلى الشاطىء تحت ستار عاصفة شديدة من نيران الأسطول ، وقد استخدم الجنرال إيزنهاور ألف طائرة للقيام بالهجوم الجوى ولتأييد العمليات البحرية والبرية ، وأشرك فى غزو صقلية وحدات من الجيش الثامن مع وحدات من الجيش الخامس الأمريكى ، وهى قوات مدربة تركت وراءها ذكريات حربية مجيدة فى شمال أفريقيا .

وقد تحرك أسطول الغزو من مالطة وأفريقيا الشمالية ، وتم إنزال الجنود فى نقط متعددة على جانبى طرف الجزيرة الجنوبى الشرقى ، فزحف البريطانيون شمالاً بقصد الاستيلاء على سيراكوز وقطانيا وبقية الجزء الشمالى الشرقى ، وزحف الأمريكيون والكنديون على الساحل الجنوبى شطر اجريجنتو قاصدين التقدم نحو الشمال الشرقى للاستيلاء على باليرمو ومسينا ، على أن يلتقى الجمعان ويباشرا احتلال الجزيرة وتحريرها .

وكان نشاط سلاح الجو الملكى والطائرات المتحالفة بالغاً حده فى كسب المعركه الجوية وحماية أسطول الغزو ومعاونة الأعمال الحربية المختلفة ،وقد بدأ دور الطائرات ضد صقلية منذ سقوط تونس، فكانت القاذفات الجبارة تلقى أحمالها الفتاكة على الأهداف العسكرية الجوية نهاراً وليلاً فمزقت خطوط المواصلات فى الجزيرة شر ممزق ، ولم يقتصر الضرب من الجو على صقلية وحدها بل شمل إيطاليا الجنوبية أيضا ،

فدمرت السكك الحديدية والمرافىء والموانى ومستودعات الذخائر ومخازن البترول ، وبذلك تداعى النظام الدفاعى الايطالى عن صقلية وعجز جنود المحور عن الحصول على المؤن والنجدات الكافية .

أما الأسطول فقام بأعمال مجيدة لم يكن من الممكن أن تتم الحملة بدونها ، ليس فى نقل الجنود والأسلحة فحسب — وقد اشترك فيها ثلاثة آلاف سفينة — بل كان على القوات البحرية أن تضمن سلامة العبور لنحو مائتى ألف رجل ، فاذا تم إنزالهم إلى الشاطىء بدأ الأسطول معركة جديدة ضد الاستحكامات الساحلية ، مساعدة للحملة وحماية لظهرها .

وبهذا لم يكن غزو صقلية من العمليات المتواضعة ، وإنما كان حادثا تاريخياً حافلاً ، ومشروعاً ضخماً تضافرت فيه القوى الجوية والبحرية والبرية بأسلوب ممتاز .

وكان أول الأوامر التى صدرت للقوات هو أن تستولى عنوة على الشواطىء فاندفعت الدبابات من صنادل الغزو وقضت على المقاومات الساحلية وكسبت معركة الشاطىء ، ثم بدأت المهمة الجسيمة فى انزال المعدات الحربية ، فى حين كانت المعركة الجويه على أشدها ، وكانت أوكار المدفعيات التى عززت تمتد على طول التلال قبالة الشاطىء ، فشرعت دبابات الحلفاء فى الهجوم وحاولت قوات المحور مراراً لا تحصى أن توقف زحفها ، وأخذ الخط يتراجع إلى الوراء وقتاً بعد وقت حتى

تم عبور الخطوط الدفاعية الأولى ، وانتقل القتال إلى العراء . . .

ومزقت الرعود الصادرة من مدافع الحلفاء ستار السكينة المسدل وانهالت أطنان من الفولاذ على مراكز الدفاع فى المدن التى شرعت قوات الحلفاء فى احتلالها مدينة بعد مدينة على قاعدة التسليم بلا قيد ولا شرط .

وكانت قيادة المحور تدرك أهمية المعارك الدائرة فى صقلية وتعرف الصعوبات العظيمة التى تقوم أمامها فى كل مكان فى أوربا إذا أخفقت فى المعارك الأولى ، وكان الرؤساء يؤكدون أن قلعة أوربا لا يمكن أن تمس بسوء ، وأن الجيوش التى تنزل إلى البر سترقد عنده إلى الأبد ! ولهذا نشبت المعارك العنيفة وحدث تراشق وحشى وقتال فاجع وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب يمكن أن توصف بأنها بداية النهاية .

وكأنما كانت الضربة الأولى التى سددتها قوات الحلفاء بمثابة الضربة القاصمة لخطط الفاشست فاضطربت شئون الدفاع ووهنت قوى المدافعين ، وأخذ خط الحلفاء يتحرك إلى الأمام بسرعة حتى بلغ ثلاثين ميلا فى منتصف يوليو — وهى مساحة تبلغ عشر الجزيرة — واستسلمت عدة مدن هامة منها سيراكوز و بالاتسونو وراجوزا واوغستا وفلوريديا وبلغ عدد الأسرى ١٢ ألفاً معظمهم من الايطاليين ، وغنم الحلفاء كمية كبيرة من الأسلحة والمعدات الحربية .

وفى السابع عشر من شهر يوليو صدر بلاغ الحلفاء وفيه خبر

استيلاء الجيش السابع على أجريجنتو ، وبذلك أصبح فى أيدى الحلفاء ميناء جديد لإنزال الأسلحة والمعدات ، وقاعدة للأعمال الحربية فى غرب الجزيرة .. هذا بينما كانت دبابات الجيش الثامن تدخل ضواحي مدينة قطانيا من ثلاث جهات ، وكانت قنابل البريطانيين تدك الطريق الساحلى بين قطانيا ومسينا لقطع خط الرجعة على القوات المدافعة ، ومضت بارجة بريطانية إلى خليج قطانيا فأطلقت بطارياتها على الشاطىء بقصد تدمير استحكامات المحور ومراكزه الساحلية .. وبذلك كان الضغط يشتد على قطانيا براً وبحراً حتى بلغ حده الأقصى ، وكان الحلفاء بوصولهم إلى هذا الخط بين أجريجنتو وقطانيا قد وضعوا أيديهم على ثلث مساحة الجزيرة

وقد واجهت جيوش الحلفاء مقاومة عنيفة وخصوصاً من فرقة هيرمان جورنج التى كانت تعمل فى ساحة الجيش الثامن ، ولذلك كان القتال الرهيب يتقدم إلى الأمام ببطء شديد وبتكاليف باهظة، واستطاع مونتجمرى بمشقة أن يأخذ طريقه إلى قلب المدينة بينما كان الأسطول يعاونه بمواصلة قذف قنابله على الطريق الساحلى ويسدد نيرانه على المراكز المنيعة فى جبال اثنا ، وكانت قاذفات القنابل المسيطرة على سماء المعركة تهاجم المطارات وتدك الأهداف الحربية وتساعد العمليات البرية أينما كانت.

وكان التعاون الوثيق المنتظم الذى عرفنا أثره فى معارك أفريقيا

الشمالية مصدر قوة الحلفاء ومبعث الخطر الشديد على خصومهم ، فأخذ الأمل فى إنقاذ صقلية من براثن الغزو يتلاشى شيئاً فشيئاً و بدت الحقائق الخطيرة تظهر بوضوح ، ولم تكن المراكز الدفاعية هى التى تتداعى وحدها و إنما روح الدفاع أيضا كانت تتداعى ، و بدأ فصل الملل والوساوس فى نفوس المحوريين ، محاربين ومدنيين ، إن لم نقل إنه بدأ فى شمال أفريقيا ، وأخذت مظاهر الغضب على أولى الأمر تظهر بجلاء ، و بات واضحاً أن انقلابات خطيرة واحداثاً عظمى توشك أن تحدث ، وأن البناء الشامخ إذا لم يكن له أساس قوى لا يلبث حتى يهوى .

ولسنا بسبيل الخوض فى موضوعات سياسية مادمنا نعنى بالمسائل الحربية وحدها ، ولكن الشىء الجدير بالذكر والتنبيه هو أنه من الضرورى أن يكون للجندى هدف فى الحرب .. أما أن يساق إلى قتال لا يفهم أغراضه ولا يحس قدسيته فهو أمر ينتهى دائما بالإخفاق التام ، وهذا موضوع ليس للهزيمة العسكرية فيه كل الشأن ، وما لم تكن لدى الجنود والمدنيين روح معنوية قوية وثقة معقولة بأهداف الحرب واطمئنان إلى القادة والحكام فان القتال يفشل والكارثة تحل ..

ولهذا لم يستخف متتبعو الأخبار حين صارحهم المراقبون الحربيون بخطورة الحالة فى إيطاليا ، وحين تحدث إليهم رجل معروف بالحصافة و بعد الرأى كالمارشال سمطس بأن سقوط إيطاليا ليس ببعيد ، وقد بنى هؤلاء آراءهم على الحقائق الملموسة والظواهر المادية ، فقد كان

ملحوظا بجلاء أن الاستعدادات الإيطالية لم تكن معدة لحرب طويلة الأمد ، وأن حالة التسليح كانت رديئة لا تتناسب مع الأنواع الممتازة ولا تتطاول إلى الأرقام الهائلة التى سجلتها أسلحة الحلفاء ، كما أن الهزائم المريرة التى تعرضت لها القوات الإيطالية فى اليونان والحبشة وشمال أفريقيا قد دفعت بالبقية الباقية من الأمل فى صدور الإيطاليين، وأخيراً ختمت هذه السلسلة من المآسى بالاندحارات النهائية فى صقلية

وقد بلغ عدد الأسرى من الإيطاليين فى معركة صقلية أربعين ألفا ومن الملاحظات التي سجلها المراقبون الحربيون أن الأسرى الإيطاليين كانوا فى حالة فزع شديد وإقلال من ناحيــة الأسلحة والمعدات وأنهم كانوا يشكون من القيادة الألمـانية التى دأبت على احتجاز الأماكن المناسبة والمعدات والمواصلات للالمان ، هذا بينما كان الأسرى الألمان يشكون من « هؤلاء الذين لا يفهموننا . . فهم دائما يخذلوننا ، ولا يقاتلون معنا بعزيمة دفاعاً عن بلادهم . . »

وهذه كانت أبرز علامات النهاية ! فالروح المعنوية هى آخر ما يبقى للجندى من أسلحة الحرب ، ولهذا لم تمض عشرة أيام على بدء حملة صقلية حتى كان الحلفاء قد أتموا احتلال أكثر من ثلثى الجزيرة ، ودخلت القوات الأمريكية « بالرمو » العاصمة يوم ٢٣ يوليو ولم يبق من صقلية فى يد المحور سوى الركن القريب من ايطاليا

وبالاستيلاء على العاصمة ، وهى المركز الثقافى والسياسى فى

الجزيرة والميناء الرئيسى تغير الموقف الاستراتيجى بأسره ، وأصبح الايطاليون وحلفاؤهم محصورين فى الركن الشمالى الشرقى ، ولم يعد للمحور سوى ميناء مسينا ، الذى كان الخطر يتهدده من الجو .. وأصبح واضحاً أن سقوط بالرمو هو بمثابة فقدان الجزيرة ولم يبق سوى عملية تطهير أخيرة .

وفى اليوم التالى لسقوط العاصمة وقع الحدث المنتظر ..

فقد انهار صرح الفاشية وسقط موسلينى وتولى ملك ايطاليا بنفسه قيادة جميع القوات المسلحة ، فتحدث إلى شعبه عن « الجروح الخطيرة التى مزقت أرض الوطن » وأعلن أنه أعفى موسلينى من واجباته كرئيس للحكومة ورئيس للوزارة ووزير للدولة وعين خلفاً له المارشال بادوليو .. فبدأت إيطاليا عهداً جديداً .

ويكفى أن نقول عن ذلك الحادث السياسى التاريخى أنه جاء إيذاناً بانهيار ايطاليا من الناحية الحربية وتغيير اتجاهها السياسى . وقد حدث هذا الانقلاب فى كيان الدولة الايطالية فى الوقت الذى كانت معركة صقلية فى نهايتها ، وكانت قوات المحور الباقية تدافع فى جبل اثنا ، فى محاولة أخيرة ، وهى محاصرة فى خمس الجزيرة ، وكان خط دفاعها يمتد من سان ستفانو (على الساحل الشمالى الشرقى) إلى جنوب قطانيا ، وفى هذا الخط كان الألمان يدافعون على طول المنطقة الجنوبية والايطاليون يدافعون عن مضيق مسينا و يعتمدون فى أعمالهم

الدفاعية على جبل اثنا ونهر ديتانيو ، الذى أقاموا خنادقهم ودفاعاتهم على ضفافه الشمالية

وكانت الامدادات لاتزال تصل إلى الألمان ، الذين كانت قوتهم تتألف من فرقة الدبابات الخامسة عشرة والفرقة ٢٩ وفرقة هرمان جورنج ، ولكن هذه القوات كانت فيما يشبه المصيدة التى يتقدم نحوها جنود الحلفاء من جميع ساحات القتال ، وخصوصاً القوات الأمريكية التى تتقدم إلى مسينا

.. وقال مونتجمرى :

« إن صقلية ضاقت ذرعا بالفاشست والنازى ، والنهاية جاءت »

وكان ذلك فى ١٦ أغسطس حين وصلت الفرقة الثالثة الأمريكية إلى أطراف مدينــة مسينا ، وحين وصل الجيش الثامن إلى سان تريزا دى ريڤا ، بينما قام الفدائيون بحركة جريئة فنزلوا إلى البر جنوب مسينا ، وزحف الجيش الأمريكى السابع إلى أبوابها .. وكانت مسينا هى آخر معقل للمحور فطوق الزحف عنقها من جميع الجهات فاستسلمت فى صباح ١٧ أغسطس .

وهكذا تم غزو صقلية ، قلعة أوربا الأمامية

وانتهت هذه المرحــلة من مراحل القتال العنيف بعد أن استمرت زهاء ستة أسابيع فى البر والبحر والجو ، وكان قتــالا فذاً ذا نتائج خطيرة

هلموا إلى ايطاليا . . !

الهجوم على إيطاليا

بدأ بناء إيطاليا الحربى يتصدع منذ أصيبت قواتها فى الحبشة واليونان ولوبيا بأضرار جسيمة عميقة ، وأنزلت بها الضربات المدمرة والهزائم الماحقة ، فقد دحر الجيش وتوارى الأسطول وتلاشت سمعة إيطاليا كدولة فى الصف الأول . ثم انهار النظام الفاشستى وطويت صفحة من تاريخ إيطاليا ، وتغير الاتجاه السياسى واختلفت الأهداف الحربية ، وبدأت إيطاليا تتحرك فى طريق جديد ، ولم يكن ذلك التحول الخطير بسبب ثورة بسيطة من بعض الأفراد الذين يجيدون تدبير المؤامرات أو بسبب فتنة من الجماعات الثورية التى تسعى لقلب نظام الحكم ، وإنما كان موجة استياء وعصيان طغت على القسم الأكبر من طبقات الأمة والجيش واستحوذت عليهما .

وبدأ بناء المحور الحربى يتصدع حين تخاذلت إيطاليا وأعيت الحيلة رجال الحكم عن الاستمرار فى الحرب وأضعفت الأحداث روح المقاومة فأشاحت الأمة الإيطالية بوجهها عن الطريق الدموى الرهيب والتمست المحافظة على كيانها وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح والمنشآت بعد أن فقدت الأمل فى حرب قصيرة وفهمت أن حليفتها لاتستطيع كسب

الحرب بعد ماوقع من أحداث قلبت ظهر المجن ، وكانت الهزائم المتوالية فى الميدان الروسى وفى شمال أفريقيا قد أضعفت هيبة ألمانيا فى نظر الإيطاليين ، ومال الرأى العام إلى أن الخطر الماحق يحيط بقوات المحور و ببلاد المحور فى جميع ميادين القتال .

ولذلك ما أن وثبت قوات الحلفاء وثبتها المظفرة إلى صقلية ووقفت بأبواب إيطاليا حتى زادت ثقة المراقبين الحربيين فى انهيار المحور فإن إيطاليا لم تعد قادرة على تحمل نكبات جديدة ، ولهذا أخذ الحلفاء يعملون بهمة وسرعة وأصبحت إيطاليا هدفهم الذى تعبأ له القوى وتحشد الحشود وكان ذلك إيذاناً باقتراب النهاية .

وليس يعنينا من هذه الأنباء نواحيها السياسية الخطيرة بل يعنينا ناحية اتصالها بالمجهود الحربى ، فإن مرحلة جديدة قد بدأت و بدأ معها تحول وانقلاب فأصبحت أمنية الشعب الإيطالى تختلف عما عرف من قبل ، واتجهت رغبة إيطاليا إلى التخلص من شركة المحور والنجاة من كوارث الحرب والتخلص من ذلك الطريق أملا فى سلوك طريق آخر يكون أكثر أمناً وأكثر تهيؤاً لإصلاح ما طرأ من الخلل فى حالة البلاد ، والتأهب للسير فى موكب النصر مع المنتصرين أملا فى أخذ مكان أفضل فى أوربا الجديدة .

و بدأت الجهود السياسية التى تدعمها الانتصارات الحربية فى صقلية والغارات الجوية العنيفة على إيطاليا تمهد الطريق فأذاع الحلفاء

نداءات إلى الشعب الإيطالى بالدعوة إلى الاستسلام مع عرض شروط معقولة للهدنة و إعادة مئات الألوف من الأسرى الإيطاليين .

وكان سقوط الفاشية قد أوجد استعداداً نفسياً وجواً ملائماً لوقف القتال ، ولهذا لم يكد بادوليو يتولى الحكم و يمضى فى إدارة شئونه عدة أيام حتى ظهرت أهمية هذا الانقلاب وأهدافه فقد وضع الرئيس الجديد حداً للقتال وسعى إلى طلب شروط الهدنة ، وذكرت وكالة الأنباء الإيطالية برقية له جاء فيها : «إن استسلام إيطاليا يرجع إلى انهيار الدفاع الإيطالى ، و إلى تقدم زحف الحلفاء الذى لم يمكن صده و إلى شل حركة الصناعة ونفاد الموارد وتدمير السكك الحديدية و إغراق سفن النقل..»

وعلى أثر استسلام إيطاليا واتفاق حكومتها الجديدة على شروط الهدنة مع الحلفاء شرع الأسطول الإيطالى يتجه إلى المراكز التى أشير إليها فى اتفاقات الهدنة ، فنى صباح ١٦ سبتمبر وصلت إلى الاسكندرية عشر سفن حربيـة قادمة من شرق البحر المتوسط وهى تشمل بارجتين وأربع طرادات وأربع مدمرات تحت قيادة الرير أميرال أوليفيا ، كما أعلن أن ثمانى وثلاثين وحدة من الأسطول الإيطالى وصلت إلى مالطة وهى مؤلفة من أربع بوارج وسبع طرادات وثلاث عشرة مدمرة وأربعة عشر غواصة .

وكانت الخطوة الثانية فى استكمال الانقلاب الإيطالى هى إعلان إيطاليا الحرب على المانيا فى الثالث عشر من سبتمبر ، وعلى أثر ذلك

اعترفت بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا، فى بيان مشترك، بأن إيطاليا « دولة زميلة محاربة » .

وقد أذاع بادوليو قرار إعلان الحرب الذى جاء فيه : « لن يكون فى إيطاليا سلام مادام فى أرض الوطن المانى واحد، فيجب أن نسير جنباً إلى جنب مع أصدقائنا من رجال الولايات المتحدة و بريطانيا العظمى وجميع الأمم الحرة . . أيها الإيطاليون : أبلغكم أن صاحب الجلالة الملك قد عهد إلىّ أن أعلن اليوم الحرب ضد المانيا . . »

وكان ذلك نتيجة طبيعية للحوادث التى توالت على إيطاليا منذ سقطت الفاشية واختفى زعماؤها عن مسرح الحكم . ولم يكن هناك بد من إعلان الحرب لعدة أسباب داخلية ودولية ، تتلخص الأولى فى «سوء معاملة الألمان للايطاليين بعد خروجهم على موسولينى» وترمى الثانية « إلى تخفيف وقع النكبة ووطأة نتائجها على إيطاليا ومحاولة الوصول إلى شروط صلح تفيد منها إيطاليا فتعطى مكاناً مناسباً فى المستقبل وتصبح إلى جانب الشعوب الحرة كرغبة الشعب وشعوره الحقيقى » .

وقد جاء الحدث الفاصل فى مصير إيطاليا حين خطت جيوش بريطانيا وأمريكا إلى الأراضى الإيطالية . . . وكانت لحظات تاريخية ذات شأن خطير فى مجرى الحرب وفى مستقبل العالم ، ووضع الحلفاء أقدامهم على أرض أوربا لأول مرة منذ جلائهم عن دنكرك .

وفى اليوم الرابع من شهر سبتمبر ١٩٤٣ صدر البلاغ الرسمى عن نزول الحلفاء فى إيطاليا وقد جاء فيه : « استأنفت قوات الحلفاء هجومها بقيادة الجنرال إيزنهاور فقامت قوات الجيش الثامن البريطانية والكندية تؤيدها قوات الحلفاء البحرية والجوية بهجوم عبر مضيق مسينا ونزلت فى إيطاليا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم (٤ سبتمبر) ومهدت مدافع الجيش الثامن الضخمة السبيل لقوات الغزو بستار هائل من النيران ، وقبل أن تنزل القوات ضرب الأسطول البريطانى الشاطىء الإيطالى مدة طويلة » .

وقد مهد للغزو الأول لساحل أوربا بغارات جوية عنيفة ثم تحرك أسطول ضخم لنقل الجنود إلى الشاطىء وتمت عملية انزال الجنود بدقة عجيبة ، وكانت طائرات المحور تحاول عرقلة هذه العمليات ولكنها استهدفت لاعتداء مروع من طائرات الحلفاء التى سرعان ما أخذت بزمام الموقف وسيطرت على جو المعركة .

ومن الملاحظ أن كثيرين من متتبعى أخبار الحرب لا يعنون بشىء قدر عنايتهم بأخبار المعارك البرية وقلما يلقون بالهم إلى عدة عناصر أخرى ذات أثر خطير فى سير القتال، وقليلا ما يلتفتون لدراسة العمليات البحرية أو أثر الطيران فى المعركة المحتدمة ، فالنجاح فى عمليات الحرب الحاضرة لم يكن من السهل احرازه بغير ذلك التعاون الوثيق الذى يضم جهود قوات البر والبحر والجو ، ولا ريب أن الدور الذى يقوم به

الأسطول هو دور أساسى متعدد وجوه الأهمية ، فالسفن الناقلة للمصفحات وحاملات الجنود وكاسحات الألغام والطرادات والمدمرات وزوارق التعدية ومناطيد الوقاية وغيرها من الأسلحة والمعدات التى يشتمل عليها الأسطول إنما تقوم بعمليات هامة جداً فى التمهيد للغزو وفي معاونة القوات البرية .

فنقل الجنود والمعدات من شاطئ لآخر عمل كبير يحتاج إلى تدابير دقيقة ، وترتيبات ومعدات ، ووقاية مستمرة من الجو ومن البحر ، ولذلك تبدأ كاسحات الألغام بتطهير المياة واخلائها من الفخاخ والألغام ، وتأخذ الطرادات والمدمرات فى التجول وتدمير ما تصادفه من الأسلحه البحرية ، وتجول الزوارق المسلحة بين المراكب كبوليس المرور للارشاد عن أماكن الرسو ، وتقف المناطيد الجوفاء الواقية على ارتفاع شاهق ساهرة على سلامة الحملة ، ويعمل رجال المدفعية المضادة للطائرات بنشاط ويقاضون طائرات المحور الحساب ، كما تحتاج عملية انزال الجنود إلى البر واجبات أخرى كحماية القوات واطلاق النيران على المراكز الساحية ، ومناهضة طائرات العدو ، ويتبع ذلك انزال المعدات إلى البر وتمهيـد الساحل ، ويجرى أثناء ذلك التراشق بالمدفعية بينما تقام رءوس الـكبارى ، ويحدث الأخذ والرد ، وتدور رحى القتال .

ولا ينتهى دور الأسطول عند انزال قوات الغزو ولـكنه يستمر

فى النهوض بأعباء أخرى منها إحضار النجدات والإمدادات والمؤن على اختلاف أنواعها وتأمين مياه الشاطئ والقيام بالأعمال المساعدة للقوات البرية بواسطة مدافعه القوية .

ومما هو جدير بالملاحظة والتسجيل أن الأعمال الحربية التى بدأت فى إيطاليا قد قوبلت بتسليم مطبق بفعل القدر ، وكان الإيمان ضعيفا فى صـد الهجوم ، كما كانت المقاومة على الشاطئ ضعيفة فاكتسحت وتراجعت إلى الداخل بنيران شديدة من المدافع التى كانت تطلق عبر ممر مسينا .

ولم تستخدم دبابات أو سيارات مدرعة لصد الهجوم واكتفى بوضع مدفعية قوية غير أنها لم تصمد أمام نيران الحلفاء ، وقد كان منتظرا أن يقابل الحلفاء بمقاومات شديدة فان أرض النزول — فى كلابريا — ذات جبال عالية شديدة الانحدار ، وتتخللها الآجام والغابات ، فهى أرض صالحة للدفاع و إيقاف الزحف .

وقد حدث نزول الحلفاء فى ثلاثة أماكن من الشاطئ الإيطالى ، واتجهت القوات الرئيسية إلى ناحيتين : جيوفانى وريجيو ، وتم الاستيلاء على عدة مدن وأسر عدد كبير من جنود المحور أغلبهم من الايطاليين ، وقد كانت المقاومة « إيطالية » ولو أن ست عشرة فرقة المانية يبلغ عدد أفرادها ٣٠٠ الف مقاتل كانت فى الطريق — على حد ما قالت الأنباء الألمانية — للدفاع عن إيطاليا .

وبعد يومين على بدء العمليات كانت أربعون ميلا من الأراضى الإيطالية — من بانيارا إلى مليتو — قد أصبحت فى قبضة الحلفاء الذين كانوا يتقدمون بسرعة، تقدما بغير معارك، حتى تم إخلاء القسم الجنوبى من كلابريا ووقع فى الأسر ثلاثة آلاف جندى، وأسلحة ومهمات شتى.

وكانت قوات الحلفاء تتضمن الجيشين الثامن والخامس، والجيش الثامن هو مجموعة القوات التى حنكتها التجارب فى ميادين القتال الصحراوية والذى دمر قوات المحور فى شمال افريقيا، وقد رزقه الله قائداً ممتازاً له مقدرة مشهورة فى الحرب، وهو الجنرال مونتجمرى. أما الجيش الخامس الأمريكى فقد اشترك فى عمليات تونس، وهو تحت إمرة الجنرال مارك كلارك، من القادة المتسمين بالجرأة والحصافة.

وكان الجيش الثامن يعمل فى جبهة تارنتو ويواصل زحفه شمالا بينما أخذ الجيش الخامس يعمل فى جبهة ساليرنو، وقد قضى أربعة أيام منذ نزوله إلى الشاطئ فى عمليات دفاعية صد فيها كرات الألمان حتى جاءته نجدات قوية عززت نقطة ارتكازه، وكانت معركة ساليرنو هى المعركة الافتتاحية الكبيرة فى حملة إيطاليا، وقد حلت بالطرفين فى أثنائها خسائر كبيرة حيث كانت القوة العددية متكافئة تقريباً، وكان الألمان وحلفاؤهم يتمتعون بميزة الخطوط الداخلية وميزة النجدات السريعة مما زاد فى شدة المقاومة فمالت المعركة بقسوة على الأمريكيين الذين كان

المارشال كسلرنج — القائد الألمانى العام فى ميدان ايطاليا — يدفع نحوهم ست فرق ألمانية .

وقد اشترك أسطول الحلفاء فى مؤازرة العمليات الحربية فى ساليرنو بتصويب مدافعه على مواقع العدو ومراكز المقاومة ومحتشدات النقل وكل شىء يقع داخل مرمى مدافعه ، و يدفع بقنابله أفواج الدبابات الألمانية إلى الوراء كلما حاولت شق طريقها إلى نقطة الارتكاز ، وهكذا برهنت هذه العمليات الناجحة على أهمية التعاون بين الأسلحة .

ونجحت الجهود الجبارة التى بذلها رجال الجيش الخامس لزحزحة الألمان إلى الوراء و إرجاعهم إلى خط خلفى ، وتم استيلاؤهم على باتيباليا والفاقيلا ، والأولى مفتاح نقط المواصلات الحديدية ، والثانية مركز حربى هام ، وفى هذه الأثناء كان الجنرال مونتجمرى يقوم بزحف سريع فجائى لاختراق الجبال الواقعة شرقى ساليرنو رامياً بذلك إلى طى جناح الألمان مما اضطر كسلرنج إلى التراجع بجناحه الجنوبى ، فتبعه الجيش الثامن بمطاردة سريعة لا تترك مجالاً للتدمير أو لعمليات التعطيل ، واستولى أثناء تقدمه على مدينة بوكنزا ، بينما كان الجيش الخامس قد استعاد أوضاعه لمعاودة التقدم ، وأخذ الجيشان يستعدان لمعركة نابولى .

واستطاع الجيش الخامس — بعد تحركات شاقة وقتال عنيف — أن يدخل مدينة فوجيا — وهى ملتقى طرق عديدة وقاعدة جوية هامة

تقع على بعد ٨٠ ميلا شمال شرقى نابولى — وذلك يوم ٢٨ سبتمبر . وقد كلفت المعركة من أجل « فوجيا » الطرفين خسائر فادحة . أما السبب فى هزيمة الألمان وجلائهم عن المدينة فكان قلة عدد القوات المدافعة نسبياً ، والتلف الكبير الذى أصاب وسائل النقل من جراء الغارات الجوية العنيفة .

وأخيراً ، وبعد قتال فاجع ، دخلت قوات الحلفاء نابولى يوم أول أكتوبر ، وكانت هذه المدينة التاريخية الشهيرة قد دمرت عن آخرها وأصبحت أطلالاً ، وأخذ الجيش الخامس يتبع القوات المرتدة شمالى نابولى ، والجيش الثامن يواصل تقدمه غربى سان سيفيرنو ، وأصبحت قوات كيسلرنج محصورة بين زحف الجيشين ، وهى تقاوم مقاومة عنفية لصد الزحف عن روما ، التى أقبلت ساعتها !

وفى الطريق إلى روما حدثت عدة وقفات طويلة تخللتها المعارك العنيفة ، كمعركة فولتورنو التى وقعت حين خفت قوات الجيش الخامس لعبور النهر ، فحشد الفريقان قواتهما على الضفتين وتأهبا لخوض معركة حاسمة استطاع الجيش الخامس أن يجنى ثمراتها ويتم عبور النهر عند نقطة تبعد ٢٠ ميلاً شمالى نابولى ، هذا بينما استطاع الجيش الثامن أن يرد فلول الفرقة الألمانية المصفحة ويستمر فى زحفه شمالا فى طريق الساحل الشرقى ويحتل مدينة بعد أخرى .

وبذلك كانت أربع قوات تتقدم نحو العاصمة الإيطالية وهى :

الجيش الثامن على طريق فوجيا — روما ، وقوة بريطانية تزحف من ترمولى ، والجيش الخامس الذى انتصر فى فولتورنو وقوات أخرى تعد بمثابة جناح أيمن للجيش الخامس تزحف فى وديان جبال الأبنين ، وكانت ثقة الحلفاء بالفوز كبيرة على الرغم من الصعوبات التى كانت تكتنف طرق الزحف ؛ واستطاع الجنرال مونتجمرى أن يصرح فى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر بأنه « إذا كان هناك شىء مؤكد فى هذه الحياة فهو أننا سنكسب الحرب ، أن النهاية قريبة والمراحل النهائية قد تكون صعبة عصية ولكنها مؤكدة النجاح . . »

وقد قدر الجنرال سير هارولد الكسندر — الذى ألقيت فى يده مقاليد القيادة العامة للحلفاء فى ميدان إيطاليا — قوة الجيش الألمانى المواجه له بأربعين فرقة ، وبذلك لم يكن غريباً أن تكون المقاومة على أشدها وأن تكون الطرق إلى روما محفوفة بالمكاره ، وعلى الرغم من أن العمليات الحربية كانت تتقدم إلى الشمال شيئاً فشيئاً إلا أن المعارك كانت تصب على الطرفين ويلاتها ، وكان كسلرنج يسعى ما وسعه الجهد لإيقاف الزحف ليتسنى له الاحتفاظ بروما وليعطى بقية قواته فرصة الاستعداد و إعادة التنظيم .

ومنذ أن استولت قوات الحلفاء على نابولى فى شهر أكتوبر بدا أن الزحف قد خفت سرعته وأن المقاومة قد أخذت فى الاشتداد ، وكان سبب ذلك أمرين : سوء الأحوال الجوية فى هذه الفترة — على



المارشال الكسندر



مارك كلارك
قائد الجيش الخامس الأمريكي



اوليفر ليز
قائد الجيش الثامن البريطاني

قواد الحملة الايطالية

خلاف المعتاد ، وهو مصادفة غريبة حقاً — ولأن الألمان اجتذبوا إلى إيطاليا نجدات قوية وقرروا بذل أقصى جهد للاحتفاظ بروما ، وشرعوا منذ شهر اكتوبر يرسلون عدداً من فرقهم إلى جنوب وادى نهر البو وأنشأوا خطاً شتوياً جنوب روما لمواجهة وعرقلة زحف الجيش الخامس والثامن اللذين كان يحركهما الجنرال الكسندر فى مواجهة أرض وعرة كثيرة الجبال تعطى للمدافعين مزية السبق .

وإزاء هذه الحالة اتخذ الجنرال الكسندر قراراً جريئاً وذلك بإنزال قوة كبيرة فى انزيو حيث أقام نقطة ارتكاز ساحلية ، وكان العمل دقيقاً يفصح عن دقة الترتيبات الإدارية وحصافة الفكرة الاستراتيجية فهبط انزيو جيش كبير مجهز بعدد من المدافع والدبابات وبألوف عديدة من المركبات ، دون أن تقع مقاومات لأن العمل كان من أعمال المفاجأة والجرأة ، فلما تقدم الزحف فى تلك الساحة تطورت الحوادث وأرسل القائد الألمانى سبع فرق إضافية كى تصد ذلك الزحف وتدمر نقطة الارتكاز الساحلية وتلقى بجنود الحلفاء إلى البحر .

وكان هذا الإجراء المضاد الذى أسرع إلى الأخذ به الفيلد مارشال البرت فون كسلرنج من الإجراآت السريعة الموفقة فاستطاع أن يوقف الزحف فى جبهة انزيو وأن يقبض على زمام الموقف رغم محاولات الحلفاء الصادقة ، ولذلك يمكن القول بأن الدرس الذى استفاده الحلفاء من انزيو هو أن إنزال الجنود إلى البر لا يمكن أن

تُجنى ثماره قبل أن تمهد لقوات الغزو طرقها وأن تضمن إمدادها من الرجال والعتاد بسرعة وبأعداد كبيرة ، وعلى الرغم من تحرج الحالة فى جبهة انزيو فقد استطاع الجنرال الكسندر أن يواجه مشاكل الميدانين وأن يسد الثغرات حتى أتيح له أخيراً أن يكفل لقوات انزيو ما يسهل لها مهمتها ويحقق انتصارها .

فكانت هذه أعنف مرحلة من مراحل الحرب الإيطالية ، ففى ساحتى الجيشين الثامن والخامس كان القتال شاقاً مر المذاق كثير التكاليف ، وشهدت الساحات الثلاث معارك مفنية ، حيث كان للألمان ثمانية عشر فرقة ، أى قرابة نصف مليون مقاتل ، وكان للحلفاء نحو ذلك .

وقد انقضت فترة الخطر الذى كان محدقاً بالقوات المتحالفة فى ساحة انزيو وانتهت الكرات الألمانية الشديدة ، وأخذ كل من الفريقين يعجم عود الآخر حتى تمكن الحلفاء من تثبيت أقدامهم ، أما فى كاسينو فكان الحلفاء يبذلون جهداً عظيما للاستيلاء على المدينة ولتحطيم خط « جوستاف » ، وقد وصف القتال فى هذه الساحة بأنه أشد قتال عرف فى حرب البحر المتوسط من حيث القوات التى اشتبكت فيه ، وكان الألمان خلال هذه المعارك العنيفة يمتازون دائماً بمراكزهم فى المرتفعات التى كانت تيسر لهم الأشراف على حركات الجنود والدبابات ، وظلت

مدافعهم مصوبة إلى رءوس مشاة الحلفاء الهاجمين من أسفل ، من الأرض المكشوفة ، تحت المراقبة .

والمعروف أن مبادىء القتال تحتم أن تكون القوات المهاجمة متفوقة فى النيران على القوات المدافعة ، وكثيرون من رجال العسكرية يوافقون على فكرة أن أى قوة مهاجمة يجب أن تكون ثلاثة أضعاف القوة المدافعة حتى تستطيع أن تحصل على انتصار كامل .

وقد كان ثلاث أرباع كاسينو مطوقا غير أن القوات الأمريكية ، التى انتصرت فى معارك تسترعى الأنظار خلال الشهور الماضية ، ظلت عاجزة مدة شهرين عن تحطيم الخط الذى أعده الألمان بالحصون وأوكار الرشاشات فى مواقع جبلية منيعة ، ولذلك أصيب الأمريكيون بخسائر فادحة فى حملة كاسينو ، وكان القتال فى مواجهة المراكز الجبلية من أسباب استفحال الخطر الذى ألمّ بهم ، كما أن القتال فى شوارع المدينة أخذ صورة وحشية رهيبة ، وكانت انزيو أيضاً ساحة ملتهبة تدور فيها المعارك الفاجعة وتهيج فيها الحرب هيجاناً شديداً .

ومن الهجمات الصادقة التى شنها الألمان فى تلك الساحة هجمة عنيفة بدأت فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٩٤٤ تحت ستار نيران رهيبة ، وتقدمت دبابات ألمانية كبيرة خلف المشاة لتختبر خط الحلفاء وتبحث عن ثغرة للنفاذ منها ، وحدثت فى سبيل ذلك معارك عنيفة اشتبكت فيها مئات من طائرات الحلفاء وقاذفات القنابل المقاتلة ،

ووصف هجوم الألمان بالتهور والجنون لما كان يقوم به الجنود من هجمات فدائية جريئة ، باسلة ولو أنها لم تنجح فى ثلم خط الحلفاء .

وعلى الرغم من هذا الموقف الذى لم يسيطر عليه الحلفاء بعد ، يمكن القول بأن عدة أهداف عسكرية قد تحققت من الجملة وهى : —

١ — تثبيت قوات ألمانية كبيرة فى الميدان الإيطالى .

٢ — تخفيف الضغط عن روسيا .

٣ — فتح البحر المتوسط وتأمين الملاحة فيه .

٤ — إخراج إيطاليا من شركة المحور .

٥ — سيطرة الحلفاء على بحر الأدرياتيك ، وإنشاء قواعد حربية وجوية فى إيطاليا يمكن منها شن الهجوم على ألمانيا .

وقد بلغت المأساة ذروتها فى معركة إيطاليا حين واجه كيسلرنج قوات الحلفاء بسبعة عشر فرقة فى مواجهة الجيشين الثامن والخامس وخمس فرق فى نقطة الارتكاز الساحلية — فى انزيو — وألقى بهذه القوات — التى لم يسبق استخدامها بهذه الكثرة — فى محاولة أخيرة لانقاذ روما . . .

وكان القتال قد بلغ خط « أدولف هتلر » ولم يبق بين الحلفاء ومدينة روما سوى ٥١ ميلا أمام القوات الأمريكية و٢٣ ميلا من نقطة الارتكاز الساحلية ، وكانت قوات الجيش الخامس قد وصلت تراشينا — المرسى الجنوبى لخط الدفاع الألمانى — وهناك تكبد الألمان

خسائر فادحة إلى جانب خسارة ستة آلاف أسير وكانت خسائر الحلفاء بالغة أيضاً ولـكنها كانت تتناسب مع النتائج ، والحرب دائماً تسد نفقات الحرب !

وقد استطاعت قوات الحلفاء ، وهى تهاجم خط « هتلر » بعنف وشدة أن تفتح الثغرة المنشودة ، فى الوقت الذى كانت القوات الأمريكية فى تراشينا ، والبولنـدية فى بيومونتى ، والفرنسية فى مونتى لوتشيو تسيطر على الموقف فى جميع هذه الساحات .

ولم يأت شهر يونيو سنة ١٩٤٤ حتى كان خط « أدولف هتلر » قد تمزق ، وتحركت ساحة القتال إلى الشمال ، حيث انتقل الدفاع إلى خط فالمونتونى — فيلليترى ، وبدأت المعركة من أجل العاصمة تأخذ فى الاشتداد ، فقد أمر كيسلرنج قواته بالمقاومة إلى النهاية وكان الخط منيعاً فلم تكن مهمة الهجوم عليه هينة .

ولكن القوات الأمريكية تمكنت من إحراز نصر آخر ، من سلسلة الانتصارات التى صادفتها فى ميدان إيطاليا ، وذلك باختراق خط قوى التحصين قبل روما ، فقد قامت هذه القوات فى أول يونيو، تؤيدها قوات هائلة من الطيارات والدبابات ونيران المدفعية بهجوم مفاجىء على تلال « البان » من الناحيتين الشمالية والغربية من فيلليترى ، فاقتحمت البـاب ، وكانت عملية مضنية تقتضى تسلق مرتفعات يبلغ ارتفاع بعضها ٢٥٠٠ قدم وتدافع عنها قوات صلبة ، أما

الزحف فى الساحة الساحلية ، غرب طريق انزيو — روما فقد قوبل أيضاً بمقاومات عنيفة ، ولكن وضح أن الألمان قد عجزوا عن الاحتفاظ بالمناطق التى أتموا تحصينها ووضعوا فيها أحدث الأسلحة وأشهر القوات

وفى ٣ يونيو أعلن رسميا من مركز قيادة الحلفاء أن خط المارشال كسلرنج الأخير للدفاع عن روما قد حطم بعد توغل قوات الجيش الخامس مسافات كبيرة فى مراكزه وهى تواصل الزحف من قمة إلى قمة حتى لم يبق أمامها إلا الإنحدار على سفوح التلال المواجهة لروما ، لدخول العاصمة ، فلم تعد هناك عوائق جبلية بعد أن انهار خط الروابى ، ولذلك انسحب الألمان من المرتفعات

وقد تم اتصال الجيشين الثامن والخامس ، ودخل القتال — من أجل الاستيلاء على روما — فى دوره الأخير . . وخطب البابا داعيا أن تترك روما مفتوحة « فإن الذى يجترىء فيرفع يده على روما ، إنما يقترف جريمة قتل أمه على مشهد من العالم »

وكانت معركة روما على السلمة الأخيرة ، والكسندر يدق الباب..

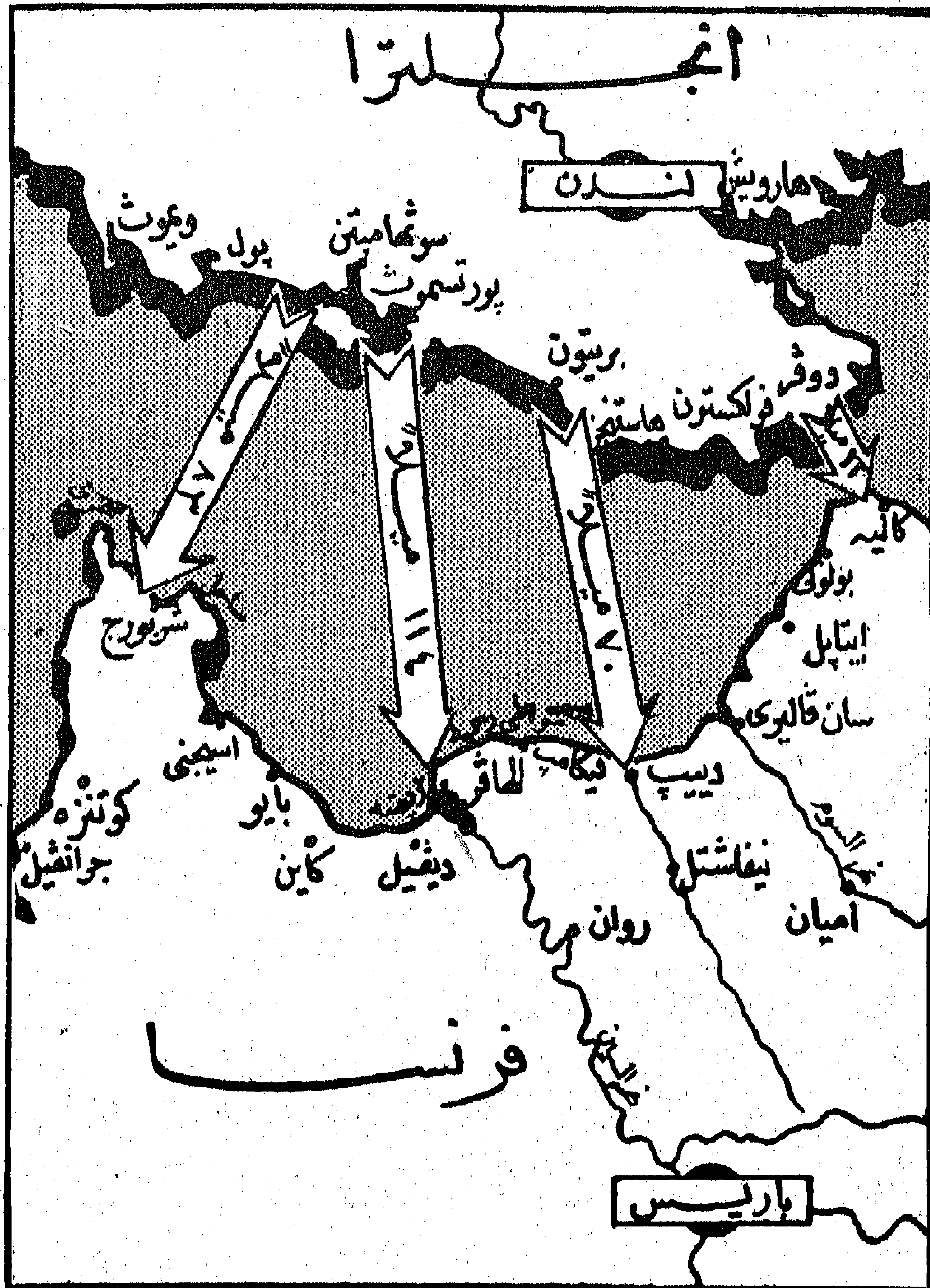
وكانت القوات الألمانية قد واجهت الطمات الحلفاء المتتابعة ، فحل بها الإعياء والألم الذى لا يتصوره العقل ، واستهدفت بصورة مستمرة لوابل من نيران البطاريات وقنابل الطائرات ليلا ونهاراً .. و بلغ الجهد حده الأقصى وأخذت هذه القوات تتراجع تدريجيا وهى تدافع دفاعا عنيفاً عن كل شبر من الأرض ، فحدث قتال مرير جداً فى ضواحى

روما ، وكانت الضربة التى وجهها الألمان وهم فى النزع الأخير ضربة ألمانية عنيفة ، كما هى العادة ، فقد ظلوا طيلة اليوم يقومون بمناورات بمدافعهم التى تنقلها الدبابات ويقيمون بها حاجزاً ناريا على طول الطريق

وفى ساعة متأخرة من يوم ٤ يونيو ١٩٤٤ حدث تراشق وحشى بالمدافع اندفعت على أثره الوحدات المدرعة فى طريقها إلى مؤخرة الألمان ثم دخلت قوات الجيش الخامس مدينة روما بعد وثبة موفقة ، وتم الاستيلاء على المدينة الخالدة ، وانتهت العاصمة الإيطالية إلى أيدى الحلفاء فكان ذلك كسباً عظيما وانتصاراً مجيداً من الناحيتين السياسية والعسكرية

وهكذا سقطت روما بعد قتال عنيف دار خلال خمسة أشهر فى إيطاليا ، وتم تحريرها بواسطة جيوش الحلفاء تحت إمرة الجنرال الكسندر والجنرال كلارك قائد الجيش الخامس الأمريكى والجنرال أوليفر ليز قائد الجيش الثامن

وعلى الرغم مما ينطوى عليه سقوط روما من فوائد ومزايا أدبية وسياسية ونفسية فإن ذلك لم يكن نهاية هدف الحلفاء ولذلك واصلت القوات المظفرة زحفها شمالا ، مطاردة العدو بلا هوادة ، وهى تهدف إلى سحق جيوش المحور وتدميرها حتى يتم تحرير إيطاليا بأجمعها



غزو الشاطئ الفرنسي

فتح الميدان الثانى

فى الأيام الأولى من شهر يونيو سنة ١٩٤٠ دارت الدائرة على جيوش الحلفاء فى فرنسا و بلغت المأساة ذروتها وانتهى الأمر بجلاء الحملة الانجليزية وعدد من الوحدات الفرنسية عند دنكرك . . .

ومن ذلك التاريخ بدأ التفكير فى العودة إلى فرنسا .

ولم يكن فى بريطانيا العظمى حينذاك غير فرقة انجليزية واحدة كاملة الاستعداد ، ولم يكن من المنطق فى شىء أن تجازف بريطانيا بإرسال حملة جديدة إلى فرنسا بينما كانت الجزر البريطانية مهددة بخطر الغزو .

وفى العام التالى — أى عام ١٩٤١ — بدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب ، وذلك على أثر حادثين خطيرين : أولهما نشوب الحرب الألمانية الروسية ، وثانيهما دخول الولايات المتحدة الحرب .

وهنا كلفت الحكومة البريطانية رجالها المختصين بوضع الخطط أن يعدوا مشروعا حربياً لفتح ميدان جديد فى أوربا ، و بذلك تقع القوات النازية فى خطأ القتال فى ساحتين ، وهو الأمر الذى اعترف الثقات الألمان بأنه إذا حدث فإن ألمانيا تخسر الحرب .

ولهذا أخذت هيئة معينة تضع خطط ذلك المشروع الكبير ، وكان رؤساء هذه الهيئة الجنرال سير برنارد باجت رئيس قوات الدفاع الأهلى ، والإر مارشال سير شولتو دوجلاس رئيس القوات الجوية ، والأميرالِ اللورد لويس مونتباتن رئيس العمليات المشتركة ، وغيرهم من الرجال الفنيين فى أعمال البر والبحر والجو .

ومن ذلك الوقت أخذ اسم « الميـدان الثانى » يتردد على الأفواه فى جميع أنحاء العالم .

ولم يستطع الحلفاء فتح الميدان الثانى فى سنة ١٩٤٢ وذلك لأن الرئيسين روزفلت وتشرشل اتفقا على عدم الشروع فى غزو أوربا قبل أن تنتهى معركه البحر المتوسط ، واستقر رأيهما على امداد قوات الصحراء بما يلزمها من رجال وعتاد لدحر قوات المحور ، ولذلك أخذ فى إعداد ذلك المشروع العظيم الخاص بالحملة الأمريكية فى شمال افريقيا ، والذى انتهى بانتصار تاريخى لامع .

ويمكن القول بأن الحملة الأمريكية الانجليزية كانت مقدمة للحملة على أوربا .

وأنها كانت اعتذاراً منطقياً للذين كانوا ينادون بضرورة الاسراع فى فتح الميدان الثانى .

وقد سبق حملة شمال افريقيا عدة محاولات تجريبية لعمليات إنزال القوات إلى البر فكان لهذه المحاولات فائدتها فى الكشف عن كثير من

الدروس والمبادىء والنظريات التي ساعدت هيئة أركان الحرب المشتركة على وضع الخطط وملاحظة أدق التفاصيل ، ومن هذه العمليات المشتركة عملة سان نازير ، في مارس ١٩٤٢ ، وديبب في أغسطس ١٩٤٢

وكان هجوم الكومندو (الفدائيين) على الساحل الفرنسى هو أهم هذه العمليات وأقربها إلى الواقع ، وكانت عملية جريئة حقاً خصوصاً وقد تمت في أثناء النهار ، واشتركت فيها قوات برية وبحرية وجوية متعاونة

وقد وقع هذا الهجوم على منطقة دييب — في فرنسا المحتلة - في الساعات الأولى من صباح ١٩ أغسطس وانتهت العمليات في المساء

وكانت القوات المشتركة في الهجوم تتألف من جنود كنديين ومعهم جنود بريطانيين وفصيلة من جنود الولايات المتحدة وأخرى من الفرنسيين المحاربين

وقد نقلت وحدات من الأسطول الملكى هذه القوة وتولت حراستها وقامت الطائرات من قاذفات القنابل وطائرات القتال بتعزيز هذه القوة وحمايتها وكانت تحلق فوق الجنود كالمظلات الواقية

ونزل الجنود إلى البر في جميع النقط التى وقع عليها الاختيار فلقوا مقاومة عنيفة في بعض الأماكن ، واستخدمت الدبابات في الهجوم ، وعادت معظم القوات التي اشتركت في الهجوم إلى سفنها بعد مرور تسع ساعات على ابتداء النزول إلى البر ، وأسفرت المعركة عن فقد ٩٥

طائرة مقابل ٨٢ طائرة معادية دمرت ، وأكثر من مائة طائرة عطلت ، وتدمير محطة لاسلكية و بطارية مدفعية ومستودعات للذخيرة

وكانت هذه العمليات نموذجا لما يجب أن تكون عليه القوات البرية والبحرية والجوية فى خلال العمليات المشتركة

وقد استفاد الحلفاء من هذه التجربة وأمثالها ، فتحصلت هيئة أركان الحرب المشتركة على الأفكار المثلى والتفاصيل الدقيقة والخطط الكاملة لفتح ميادين جديدة ، ولهذا كان نجاح الحملة الأمريكية الانجليزية فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ نجاحا من الطراز الأول

وعند ما اجتمع مستر تشرشل بالرئيس روزفلت فى كازابلانكا — ١٤ يناير ١٩٤٣ — اتفقا على فتح الميدان الثانى فى سنة ١٩٤٤

ولم تكن روسيا وحدها هى التى تلح فى ضرورة الإسراع فى فتح الميدان الثانى ولكن الحلفاء أنفسهم كانوا ينتظرون الوقت المناسب لتوجيه ضربتهم والاشتباك فى المعركة الأخيرة

وقد اجتمعت هيئة من الرجال المختصين الذين اختارتهم الحكومة الانجليزية والاتحاد السوفيتى لوضع الخطط للعمليات الأوربية فى مختلف الساحات ، وقد تم الاتفاق عليها وراجعها المختصون فى هيئة أركان الحرب المشتركة واعتمدها الرئيسان روزفلت وتشرشل فى مؤتمر كوبيك (أغسطس ٤٣)

و بعد ذلك أخذ الرؤساء المختصون فى إعداد معداتهم لأعمال

الغزو ، كل فيما يخصه ، وكان العمل يجرى بنشاط و يقظة ودقة متناهية لتجهيز أعظم حملة عرفها التاريخ

وقد تم فى اجتماع طهران بين روزفلت وتشرشل وستالين الاتفاق التام على خطط الحرب ومشاكل السلم ، وصدر تصريح مشترك للأقطاب الثلاثة فى أول ديسمبر ١٩٤٣ جاء فيه :

« ونحن نعرب عن تصميمنا على أن نعمل معا فى الحرب وفى السلم الذى يليها ، أما فيما يتعلق بالحرب فقد اشترك رجال هيئات اركان حربنا فى المباحثات التى دارت بيننا فى مؤتمر دائرة مستديرة ووضعنا خططنا للقضاء على القوات الألمانية واتفقنا اتفاقا تاماً على مدى وزمن الأعمال الحربية التى سنقوم بها من الشرق والغرب والجنوب

- « وإن التفاهم المشترك الذى وصلنا إليه ليضمن أن يكون النصر لنا »

« وليست هناك قوة على الأرض تستطيع أن تحول دون قضائنا على الجيوش الألمانية فى البر وعلى الغواصات فى البحر وعلى مصانعها الحربية من الجو »

« وسيكون هجومنا لا رحمة فيه ولا شفقة وسيزداد قوة وعنفاً على مر الأيام ! ؟ . »

وهكذا كانت ساعة الميدان الثانى آتية لا ريب فيها ، وتهيأت النفوس لانتظار مجيئها ، فإن الحرب قد طالت حتى سئمها الناس ولم يعد

بد من القيام بمحاولة كبيرة لإنهائها وتخليص العالم من شرورها ، وانتظر الجميع سنة ١٩٤٤ بفارغ الصبر فقد تعلقت بها الآمال وأشارت إليها الشواهد ودل منطق الحوادث بأنها ستكون سنة الكفاح الختامى وقد ذكر مستر تشرشل في خطاب له — فى نوفمبر ١٩٤٣ — « هذه الفترة أعظم فترات الأمل والتحفز للعمل ، فإذا لم نرتكب خطأ فى خططنا الحربية فإن سنة ١٩٤٤ سترى نهاية الحرب الأوربية »

وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٣ طلع على العالم بلاغ أحدث هزة فى كل قطر وساحة لما كان يتضمنه من إشارات بعيدة المغزى وقرارات تعد بمثابة تمهيد لمشروع الغزو ، فقد أعلنت الحكومة البريطانية التعيينات التالية ، نتيجة للمحادثات التى دارت بين رئيس جمهورية الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية ، وهى : —

عين الجنرال إيزنهاور قائداً أعلى لقوات الغزو البريطانية والأمريكية التى يتم تنظيمها فى المملكة المتحدة لتحرير أوربا

وعين الجنرال السير هنرى ميتلاند ويلسون قائداً أعلى فى ميدان الحرب فى البحر المتوسط .

وعين الجنرال السير هارولد الكسندر قائداً عاما لجيوش الحلفاء فى إيطاليا .

وعين الجنرال السير برنارد مونتجمرى قائداً عاماً لمجموعة الجيوش البريطانية .

وعين الجنرال سباتز قائداً لقاذفات القنابل الأمريكية التى تعمل ضد ألمانيا ومهمتها ضرب خطوط تموين العدو ومواصلاته فى المؤخرة .

وعلى ضوء هذا القرار وأمثاله كانت الدلائل تظهر وتنبىء باقتراب موعد الغزو ، ويظفر المتتبعون للأخبار بالمزيد من المعلومات عن ذلك المشروع الخطير الذى تركزت فيه الظنون والآمال ، واعتبر خاتمة قتال الحلفاء والحدث الفاصل فى الحرب الحاضرة وفى مصير هذا الجيل

أما الاستعدادات التى تمت والترتيبات الهائلة التى أعدها الطرفان فيكفى للدلالة عليها إدراك ما يترتب على النجاح أو الإخفاق فى معركة أوربا من نتائج خطيرة ، سياسية وحربية ونفسية .

وقد استقر رأى الحلفاء على أن تكون قلعة أوربا هدفهم الذى تعد له أعظم عدد من الرجال المحاربين وأكبر كمية من الأسلحة والذخائر عرفها العالم حتى هذه الأيام كى تحصل على تفوق ساحق لا قبل للعدو بمجاراته ، وتمضى بالحرب إلى خاتمتها العاجلة بنجاح تام ونصر عظيم .

وأخذت الحقائق تزداد وضوحاً على مر الأيام ، ولم يمنع الناس من التصديق بفكرة الميدان الثانى غير ما يتصورونه فى هذا العمل الجرىء من مغامرات رهيبة وإحداث فاجعة وتضحيات جسيمة وقتال هائل ودماء وآلام ومشقة لم يسبق لها مثيل . . غير أن لكل أمل أن يتحقق ما وجدت الأسباب لتحقيقه ، وكل هدف موصول ما دامت

السهام قد أعدت بعناية ، أما الآلام والتضحيات فلابد منها فى الحرب وخصوصا فى العمليات الجاسمة ، وقد أخذ الحلفاء بهذه المبادىء وأعدوا للأمر عدته ، ولم تفارقهم صغيرة ولم تغب عنهم ملاحظة بفضل التجارب السابقة حتى أصبحت الخطط الخاصة بالغزو جاهزة تنتظر التاريخ الذى حدد لها .

وقد تحدث الرؤساء فأفصح كل منهم عن رأيه فيما يختص بعمليات الميدان الثانى وما سيجره من مشقة وعناء وويلات ، ولا عجب إذا كان ذلك فى سبيل تدمير قوات كبيرة ووضع حد لهذه الحرب الهائلة . فتوقع الرئيس روزفلت « معارك عظيمة جداً وكبيرة الخسائر » ، ورأى مستر تشرشل « أن معارك سنة ١٩٤٤ ستكون هائلة وخطيرة النتائج » وقال الجنرال مونتجمرى نائب القائد العام لقوات الغزو إنه لا يبدأ فى العمل قبل أن يستعد استعداداً تاماً ودون أن يدع نقطة يشك فى نتيجتها ، وقال « لقد مضى وقت طويل على الحرب حتى سئمتها وبدأت أرى أن الوقت قد أزف لإنهائها »

وكان مما يزيد الثقة فى خطورة مشروع الغزو أن ألمانيا كانت تعد له عدتها فى مدى أربع سنوات ، حتى إذا تحدث متحدث عن الميدان الثانى أخذت الإذاعة الألمانية وصحف المحور تفند أقواله وتعلن عن ثقتها بمناعة سور الاطلنطى ، وإعجاز قلعة أوربا . . .

ولكن الوقت الذى زادت فيه الأنباء عن الغزو جاء مناسباً من

جميع نواحيه للبدء فى التنفيذ ، فقد كانت القوات الألمانية تواجه كارثة عسكرية فى الميدان الروسى ، وخسائر جسيمة فى الميدان الإيطالى ، ونكبات جلى من قنابل طائرات الحلفاء التى كانت دائبة على ضرب الأهداف العسكرية ومناطق الصناعة فى ألمانيا والبلاد المحتلة ، وكان متوقعاً أنه إذا نجحت عمليات إنزال الجنود وكسب الحلفاء معركة الشاطىء فإن الطريق سيكون سهلا ، حيث تفضل ألمانيا أن تعنى بالميدان الشرقى ، وهو أشد الخطرين فيما ترى !

ومع أن الأمور الاستراتيجية لمعركة أوربا لا سابق لها إلا أن نجاح عمليات الحلفاء فى شمال أفريقيا وفى صقلية و إيطاليا كان مما يشجع على فتح الميدان الجديد بثقة وتفاؤل ، وكان يشجع عليه أيضاً أن ألمانيا تواجه فى الميدان الشرقى خطاً يبلغ ١٥٠٠ ميل كما كان عليها أن تدافع عن ٥٠٠٠ ميل من الشواطىء فى الغرب والجنوب . وبذلك تكون قد فقدت كل مزايا التركيز والخط الداخلى ، وهى المزايا التى حظيت بها أثناء الحرب العظمى الماضية .



ايزنهاور
القائد العام للحملة



مونتجومري
قائد القوات البريطانية



تيدر
نائب قائد الغزو

قواد الميدان الثاني

عود على بدء

انتهت فترة الانتظار الطويلة ، ودقت الساعة إيذانا بفتح الميدان الثانى ، واستمع النـاس بين مصدق ومكذب ومطمئن ومشفق للنبأ القائل بابتداء غزو أوربا ، ولا عجب فقد كان النبأ يتعلق بأكبر حدث عسكرى فى التاريخ وأعظم مشروع من مشروعات الحرب الحاضرة وأشد خطة حربية عرفت حتى الآن تعقيداً وصعوبة .

ولم يكن قد مضى سوى يومين على نبأ احتلال الحلفاء لروما وبذلك يكون الاسبوع الأول من شهر يونيو سنة ١٩٤٤ من الفترات التاريخية التى حفلت بالأعمال العظيمة والأحداث الفاصلة .

ومما لا ريب فيه أن غزو الحلفاء لقلعة أوربا هو أكبر مغامرة قاموا بهـا فى هذه الحرب ، وأمرّ عمل عدائى وجه إلى خصم عنيف وعبر بحر لا تهدأ أمواجه، إلى معارك شديدة الهول والخطر حيث تلتقى أقوى أسلحة الحرب وأبرع خطط القتال . . وينتهى الأمر بأحد اثنين : النصر أو الهزيمة ، والويل للمغلوب !

أما عملية انزال الجنود وحدها ، رغم السوابق الناجحة ، فقد كانت محفوفة بالمكاره والأخطار ، فهى تقتضى تنسيق أعمال القوات

البرية والبحرية والجوية بأدق التفاصيل ، وتقدير أوضاع غير معروفة ، وعلم بالطقس والمد والجزر والرياح والأمواج والرؤية في البحر والجو .

وقد عهدت الولايات المتحدة الأمريكية ومملكة بريطانيا العظمى بمهمة الغزو لعدد من أعظم القادة المدربين الذين أبدوا كفايتهم الممتازة ومقدرتهم العملية فى الفعال الحربية المتقدمة ولمعت نجومهم فى المعارك والأحداث العظمى فى متعدد الميادين ، وأثبتوا عن جدارة واستحقاق أنهم خير من تلقى فى أيديهم مقاليد أمور ذلك المشروع الحربى الخطير الذى يقتضى من القائمين به خبرة واسعة واطلاعا كبيراً فى فنون الحرب الحديثة .

وكان الجنرال إيزنهاور ملتقى أنظار الرؤساء كما كان مرشح الجماهير لقيادة الحملة ، وهو القائد النابه الذى تولى رياسة الحملة الأمريكية الانجليزية فى شمال أفريقيا وأدار بخططه الحكيمة دفة الحرب فى إيطاليا حتى مال ميزان المعركة إلى جانب الحلفاء ، وقد عرف عن إيزنهاور أن شعاره فى الحرب هو « ضع الخطط بكل تفاصيلها ودقائقها، ثم اضرب بشدة » .

أما نائبه ومعاونه ، مارشال الجو الأعلى السير أرثر تيدر فقد ولى أعلى منصب جوى ، وهو الذى قاد سلاح الجو البريطانى فى الشرق الأوسط سنة ١٩٣٩ وأدار العمليات الجوية فى البحر المتوسط بعد ذلك

واختير للقيادة العليا لجيوش الغزو البريطانية الجنرال السير برنارد

منتجومری ، العسکری الباسل الذی طوی الصحراء خلف رومیل وقام بغزوة طويلة من الغزوات التاريخية اللامعة ، من العلمين إلى إيطاليا .

وعين الأميرال السير بيرترام رامسی قائداً أعلى لأساطيل الحلفاء البحرية ، وكان عليه بذلك أن ينقل ويحافظ على سلامة جيوش عظمى إلى أسوار القلعة الأوزبية .

وعين اللفتنانت جنرال أومر برادلی قائداً أعلى لجميع القوات الأمريكية فی الغزو ، ومارشال الجو الأعلى السير ترافورد لی مالوری قائداً لقوات الحلفاء الجوية .

وقد بدأ العمل الأول من أعمال الحملة فی أثناء الليل والساعات الأولى من صباح يوم ٦ يونيو ، متأخراً يوما كاملا عن الوقت الذی سبق تحديده وذلك بسبب سوء الأحوال الجوية ، ثم اجتاز بحر المانش أسطول هائل قوامه ٦٠٠ بارجة و ٤٠٠٠ سفينة غير آلاف من السفن الصغيرة والقوارب ، وبدأ انزال الجنود إلى شواطیء شمال فرنسا فی منطقة نورمانديا فی عدة نقط ، وتمت المفاجأة التكتيكية ، وحانت ساعة العمل الحاسم ، وهی أعصب الساعات التی مرت بجيوش الخصمين.

وظهر أن العراقيل والعوائق التی اقيمت فی البحر غير عسيرة ، كما كان متوقعاً ، وكانت مائتا سفينة من كاسحات الألغام تعمل أمام أسطول الغزو لتطهير بحر المانش ، فتم العبور بخسائر قليلة .

واشتركت أكثر من ١٣٠٠ طائرة متحالفة فی ضرب البطاريات



الأميرال رامسى
قائد الأساطيل البحرية



الجنرال برادلى
قائد القوات الأمريكية



الجنرال باتون
قائد الجيش الثالث الأمريكى

من قواد الغزو

الألمانية الضخمة ومدافع الهاوتزر المنصوبة على الساحل الفرنسى فكان ذلك أعظم هجوم جوى ألقى خلاله أكثر من خمسة آلاف طن من القنابل ، وكانت القاذفات وطائرات القتال تحمى حركة نقل الجنود إلى السواحل ثم تواصل طيرانها لضرب الأهداف الحربية ، وكان لدى القوات الانجليزية والأمريكية ١١٠٠٠ طائرة من طائرات الخط الأول التى تعمل فى أى مهمة تتطلبها ظروف القتال وتطورات الحرب .

واستخدم أكثر من ٦٤٠ مدفعا من مدافع الأسطول لضرب السواحل وتأييد العمليات البحرية مما ساعد على إيهان مقاومة بطاريات السواحل وتقليل أثرها فى معركة الشاطىء

ونزلت أربع فرق من جنود المظلات والجنود التى تحملها الطائرات الذين هبطوا فى المناطق التى حددت لهم دون أن يتكبدوا سوى خسائر قليلة ، كما ألقت قيادة الحلفاء عدداً من الدمى والأشكال الهيكلية التى تمثل الجنود والأسلحة ، وذلك لتضليل قوات الدفاع الألمانية وصرفها عن المناطق التى نزلت فيها الجنود من الجو .

وهكذا تم غزو الخط الساحلى فى أربع مراحل منفصلة وهى :—

(١) الهجمات الجوية الواسعة النطاق ، التى قامت بها طائرات الحلفاء على سواحل الغزو .

(٢) تطهير مياه بحر المانش من الألغام .

(٣) ضرب السواحل من البحر ، وقد اشتركت فى ذلك أكثر

من ستمائة سفينة حربية متحالفة من البوارج والطرادات والمدمرات .

(٤) إنزال جنود المظلات والجنود الذين تحملهم الطائرات خلف خطوط العدو .

وقد نجحت هذه العمليات جميعا ، وجاء دور القتال الفاصل فى معركة فرنسا . . !

وقال الچنرال مونتجمرى : « إننى واثق تمام الوثوق فى نتيجة المعركة ، فلدى قواتنا جميع ما يؤهلها لكسب المباراة . . »

وكانت قوات الحلفاء قد ثبتت أقدامها فى عدة نقط على الشاطىء فى منطقتى كان وشربورج ، ودارت معارك عنيفة ، وأخذت قوات الغزو تسيطر على مراكزها وتسرع فى التوغل إلى داخل الأراضى الفرنسية أمام مقاومة آخذة فى الزيادة ، فى حين كانت الإمدادات تتدفق على نقط الارتكاز الساحلية بواسطة الطائرات المخصصة لنقل الجنود التى كانت تجىء فى أفواج متتابعة .

وبينما كانت قطارات الحلفاء الجوية تنقل الإمداد إلى شمال فرنسا كانت ستة آلاف سفينة من الطرادات وأنواع سفن الغزو ترابط تجاه شربورج وتتبادل مدافعها إطلاق النيران مع البطاريات الساحلية ، ومما يجدر ذكره لبيان ضخامة أسطول الغزو أن بلاغاً رسمياً أحصى عدد رجال البحرية بأكثر من ١٣٣ الف ضابط وبحار .

وكان تفوق الحلفاء الجوى هو الفيصل القاطع فى مصير الحملة ،

فقد كانت الطائرات هى قوة الضرب المروعة التى مهدت للغزو، والستارة المظللة للقوات أثناء إبحارها، والسلاح القاهر الذى خرّب دفاعات الألمان ودمّر خطوط المواصلات وفرّق حشود الجند وأحدث الوهن بقوة العدو فى جميع صورها وأحوالها .

وكانت نسبة تفوق الحلفاء فى الجو على سلاح الطيران الألمانى ٢٠٠ : ١ وهى نسبة خطيرة وفاصلة، ولذلك باءت جميع محاولات النسر الألمانى بالاخفاق نخلى الجو لطائرات الحلفاء التى قامت بفعال عجيبة فكانت تحرس السفن وتحمى العمليات الحربية وتهاجم وحدات العدو المختلفة وقوافل التموين، وتنازل بطاريات المدفعية وتدق الاستحكامات والكبارى والطرق والسكك الحديدية وتواصل ضرب الشواطىء والأهداف العسكرية والصناعية، فسجلت نجاحا كبيرا فى إتلاف المواصلات ولا سيما الجسور والكبارى الحيوية اللازمة لمرور الدبابات والسيارات وغيرها من معدات الحرب .

أما فى ميدان القتال فقد تم للحلفاء تطهير جميع السواحل فى المنطقة التى جرت فيها العمليات الأولى، وصد جميع الهجمات المضادة التى قامت بها قوات الاحتلال الألمانية، وكانت المقاومات تشتد كلما دخلت قوات جديدة إلى حومة القتال .

وقد قام الألمان بهجوم مضاد فى منطقة كان استخدمت فيه الدبابات فحدثت أول وقعة حقيقية وبذلك استطاع فون رونشتد أن

يلتقي بقواته الاحتياطة في أتون المعركة قبل أن يشق الحلفاء طريقهم إلى مسافة كبيرة .

وجاء دور المعارك الكبيرة عند ما قام الحلفاء بهجمات قوية بالغة العنف في المنطقة الواقعة بين « كان » و « بايو » لشق الطريق إلى الداخل ، ودار قتال طاحن شنّت فيه القوات الاحتياطية الألمانية عدة كرات شديدة ، بينما توالى وصول الإمداد إلى الفريقين ، وكانت المعركة غير مستقرة ، شديدة التقلب .

وكان إمداد الحلفاء يصل بواسطة الطائرات والسفن إلى البرشمال كارنتان عند عنق شبه جزيرة شربورج وفي خليج سان مارتان في الجنوب الغربي .

وقدرت قوات الحلفاء بثماني فرق وقوات الألمان بعشرة فرق وذلك في الأيام الأولى . . وهي أرقام لم يمكن الوثوق بصحتها في وقت توالى النجدات على الفريقين حتى يتم حشد القوات بالصورة التي التي يتطلبها الموقف وحسب التصميمات والخطط التي وضعها كل فريق

فالمرحلة الأولى من العمليات في نورماندي كانت الاستيلاء على « موضع للاقدام » وإخماد المقاومات على الشاطىء ريثما تأخذ الجنود مراكزها ، والمرحلة الثانية كانت لتثبيت الأقدام ودفع احتياطي الألمان المحلي ، أي المجلوب من المنطقة الواقعة وراء نقطة نزول الجنود مباشرة .

وقد تمت هذه المراحل على نحو ما بيّنا ثم بدأت المرحلة الثالثة وهى مرحلة الاشتباك مع الاحتياطى الاستراتيجى الذى أُعِدّ فى مناطق متوسطة ليستطيع نجدة أى ساحة تغزى ، وخوض القتال قبل مرور أسبوع . . .

وكان المارشال روميل قد جاء إلى الميدان على رأس جيشين كبيرين وأسرع إلى مواجهة قوات الحلفاء بعد توغلها عدة أميال فى الداخل واتجه إلى شطر قوات الحلفاء بين « كان » و« بايو » ، ومعاودة السيطرة على طريق كان — بايو

فاتجهت الفرقة الألمانية الثانية عشرة وفرقة البانزر ٢١ وعدة فصائل قوية من المشاة إلى منطقة كان ، ودارت بين هذه الوحدات و بين وحدات الحلفاء فى تلك المنطقة حرب هائلة فى سبيل الاستيلاء على « كان » ، التى قررت القيادة الألمانية الدفاع عنها إلى النهاية .

وقد استطاعت قوات الحلفاء البريطانية والكندية أن تستولى على مدينة بايو ، وترغم الألمان على الارتداد ، ثم استولت على مدينة سان كروا ، هذا فى القطاعين الشرقى والأوسط ، بينما استولت القوات الأمريكية التى يقودها الجنرال أومر برادلى على « ايزينى » ثم اتجهت إلى « كارنتان » المعقل الألمانى الهام فى نورماندى ، كما زحف الجناح الأيمن صوب شربورج .

واستخدم الألمان فى الدفاع عن كارنتان أعظم جنودهم تعصباً

وأشدهم حرارة ، كما استخدموا مقادير كبيرة من الأسلحة منها مدافع الهاون وسهام نارية سريعة الانطلاق ، ولكن القوات الأمريكية حملت حملة صادقة حتى كسبت الموقعة وتم تطويق المدينة يوم ١١ يونيو، ورفض الألمان التسليم ، فدكت المدفعية جميع المراكز واحتلت المدينة ، فكانت كسباً عظيما للقوات الأمريكية .

ثم احتل الحلفاء عدة مراكز على طول خط القتال الذى كان يتراجع وقتاً ويثبت وقتاً ، واتخذت المعارك صفة الميوعة فكثر التنقل وتبودلت المواقع عدة مرات كما حدث فى تيلى ، وتمكن الحلفاء خلال ذلك من أسر عشرة آلاف جندى فى الأسبوع الأول من الغزو .

وقد ذكرت المصادر المسئولة أن الألمان ألقوا بأربع عشرة فرقة — وهو ما يعادل ربع مجموع قواتهم فى أوربا الغربية — فى محاولة عنيفة لإنقاذ شربورج ، ومجموع هذه الفرق يبلغ ٢٥٠ ألف جندى ، كما يؤخذ من البيانات التى أذيعت أن ٥٠٠ ألف جندى للحلفاء أنزلوا إلى الشاطى فأصبحت القوات العاملة فى فرنسا ٧٥٠ ألف جندى يحاربون فى خط طوله ٨٠ ميلاً .

وبدأ قتال عنيف من أجل شربورج

فقد نجحت فرقة المشاة الأمريكية التاسعة فى عزل ٣٠ ألف ألمانى فى شربورج ، فدخلت مدينتى بارنفيل وسان كارترين وبذلك تم شطر شبه الجزيرة بين معارك حامية ومقاومة بالغة العنف فى

كل بقعة ، وأسفرت العمليات عن عزل الميناء فكان ذلك عملاً باهراً وإجراء سديداً ، ولم يعد أمام جنود الحامية سوى التسليم أو الفناء بعد أن أخفقت جميع المحاولات لاختراق الحصار المضروب حول عنق شبه الجزيرة ، وتحولت هذه المحاولات إلى مأساة مروعة بسبب ما وقع فيها من خسائر وضحايا .

وقد ظهر أن الألمان أمروا بالقتال إلى النهاية رغم تفوق الحلفاء الساحق فى الرجال والعتاد ، ثم أخذت هذه القوات المحصورة ترتد ارتداداً عاماً نحو ميناء شربورج ، بينما واصلت القوات الأمريكية زحفها فاحتلت سان مارتان ، وأخذت تهاجم استحكامات المدينة الخارجية التى تحيط بقلب الميناء فى شكل نصف دائرة طولها خمسة أميال ، وقد تراجع الألمان بسرعة محاولين تركيز قواتهم داخل الميناء ، وأخذوا يواصلون أعمال التدمير والنسف ، هذا بينما كانت قوات الحلفاء تضرب مراكز الألمان وتدكها من البر والبحر والجو ، فالقوات البرية المؤيدة بالدبابات كانت مستمرة فى الضغط ، والبوارج تضرب الميناء بقنابل مدافعها الثقيلة ، والقلاع الطائرة تلقى مئات القنابل الضخمة على حشود الألمان ومراكز دفاعهم .

وأخذت هذه المجهودات جميعاً تضيق الخناق على الألمان المحصورين ، وأرسلت القيادة العليا لقوات الغزو المتحالفة إنذاراً للحامية الألمانية المطوقة بالاستسلام بدل الموت فلم تتلق رداً ، ودافع

الألمان بروح تقاليدهم العسكرية التى تأبى التسليم وتستمر فى القتال إلى آخر عسكرى وآخر رصاصة .

وجاء دور التطهير فأطبقت قوات الحلفاء على استحكامات الميناء من الجهات الجنوبية والجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية ، واستخدم الألمان كل إنسان فى شربورج للدفاع عنها ، وجرى القتال فى الشوارع التى كانت تدافع فيها أربع فرق ألمانية وهى : ٩١ و ٧٧ و ٢٤٣ و ٧٠٩ ، ثم دخلت الدبابات شربورج ، وتسربت وراءها بقية قوات الحلفاء الفاتحة واحتلت الميناء يوم ١٥ يونيو ، وبذلك انتهت المعركة الأولى الكبيرة فى الميدان الفرنسى ، وتم أسر ٣٤٠٠ جندى فى يوم واحد ، فيكون بذلك مجموع الأسرى فى شهر واحد ٢٠ ألف أسير .

وهكذا استطاع الحلفاء إحراز نصر حربى لامع ، وتمكن الجنرال أومر براذلى من كسب موقعة عنيفة فى مدى أسبوعين من بدء عملياته أمام خصم قوى واستعدادات كبيرة وفى ميدان حيوى ومكان ممتاز .

فميناء شربورج كان فى مقدمة الأهداف التى أرادها الحلفاء ، وبالاستيلاء عليها أصبح فى أيديهم قاعدة لمواصلة الزحف وميناء هام يمكن إصلاحه واستخدامه لجلب الأمداد والمؤن ، ومركز لمكافحة الغواصات ، ومطار كبير .

وقد جاء فى بيان الحلفاء ، رقم ٤٣ ، الخاص بالاستيلاء على شربورج ما يأتى :— «بعد انقضاء عشرين يوماً على الهجوم الأول انتهت

قوات الحلفاء من إقامة نقطة ارتكاز قوية تشمل معظم شبه جزيرة كوتنتان (شربورج) وميناء كبيراً ، وقد تم تحرير شربورج بعد معارك عنيفة دارت رحاها فى اليوم الأخير من الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وفقد العدو الجزء الأكبر من أربع فرق مشاة ووحدات برية عديدة وبحارة من حملة البنادق وقوات من خطوط المواصلات »

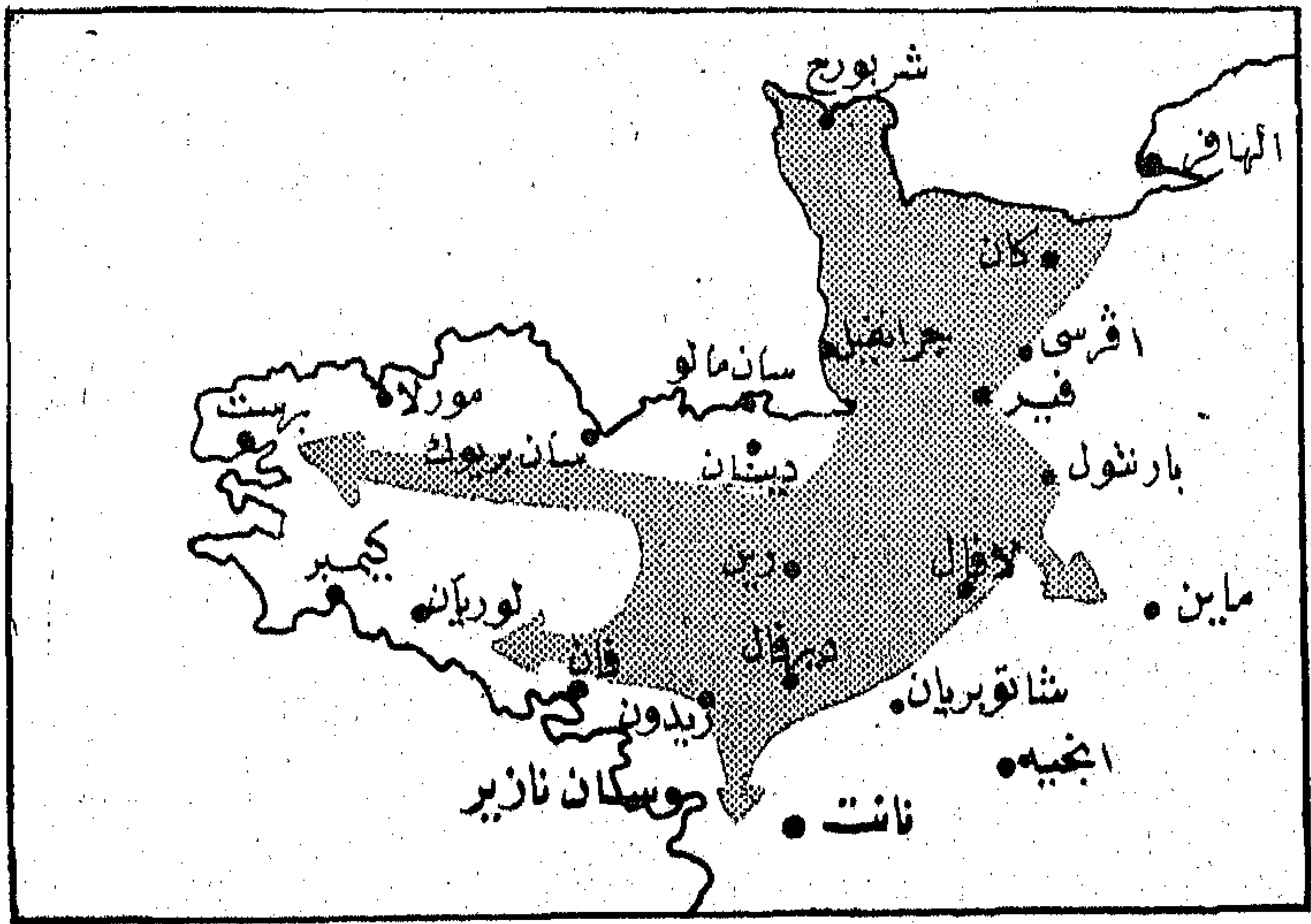
« وأسر اللفتانت جنرال كارل ويلهام فون شليبن قائد حامية شربورج والكونتر أميرال هينكى قائد خطوط الدفاع البحرية فى نورماندى » .

وقد عُدّ استيلاء الحلفاء على شربورج أهم عمل تم فى المراحل الأولى للغزو ، فأصبحت قواتهم بعد انقضاء أربعة أسابيع على بدء العمليات مسيطرة سيطرة تامة على رأس كوبرى تبلغ مساحته ١٠٠ و١ ميل مربع يمتد ١٢٥ ميلا على طول الخط الساحلى فى نورماندى و١٠٠ ميل على طول جبهة ملتوية متعرجة ، و٢٢ ميلا إلى الداخل فى أعظم عمق

وأخذ الحلفاء خلال القتال الذى دارت رحاه منذ وطأت أقدامهم أرض أوربا حتى تم استيلاؤهم على شربورج أكثر من ٤٠ ألف أسير ودمروا ٣٠٠ دبابة ألمانية وحطموا من الطائرات بمعدل ٣٠ طائرة فى اليوم .

وكان لهذه الانتصارات آثار خطيرة ، وقد جاءت فى وقت توالت

فيه الأحداث على المانيا وأحدقت بها المكاره ، فكانت الحرب الجوية المستعرة فى سماء الرايخ تشعر بخطورة جسيمة على المناطق الصناعية ومراكز المواصلات وقواعد التموين ومواقع حشد الجنود والعتاد ، وكانت تهاجم الروح المعنوية وتقاضى سلاح الجو الألمانى حسابه القديم وترده اليه مع الربح المركب



معركة فرنسا الثانية
« يونيو ١٩٤٤ »

وفى الميدان الشرقى كانت الجيوش الحمراء قد أتمت تحرير أراضيها من ربقة الاحتلال الألمانى ، وردت لقوات المحور الصاع صاعين ، وتعدت الحدود إلى بولندا وبلاد البلطيق وأخذت تهدد الأسوار

الشرقية لقلعة أوربا ، وبدأت علامات اتجاهها نحو الشرق لغزو البلقان وبذلك كانت المانيا تواجه الخطر الداهم من الجبهتين

وقد قضت الظروف الحربية بعزل القائد الألمانى العام الجنرال فون رونشتد من قيادته العامة فى فرنسا ، وقد رأت دوائر الحلفاء فى ذلك العزل أنه يرجع إلى شك المانيا فى موقف رونشتد واحتمال قيامه بذلك الدور الذى قام به المارشال بادوليو فى ايطاليا !..

أما سير القتال فى فرنسا فقد كانت مقاليده بايدى الحلفاء الذين واصلوا تقوية مراكزهم فى رأس الكوبرى — فى الجناح الشرقى من ميدان نورماندى — بينما كانت القيادة الألمانية ماضية فى سياسة الإسراف والتبذير — وهو الوصف الذى يناسب الهجمات المضادة المتقطعة — وقد ساعد ذلك على مضايقة أعمال الحلفاء وتأخير فتوحهم غير أنها كانت تنطوى على خسائر فادحة فى الجنود والدبابات ، فاطالة التشبث بمدينة « كان » ولو أنه أمر مشروع من الناحية الحربية الصرفة إلا أنه كان إسرافاً فى التضحية والتمسك بمركز مشكوك فيه لا يستحق كل هذه الخسائر

ولم تستطع هذه الهجمات الصغيرة المتقطعة — التى أزعج بها رومل قيادة الحلفاء وأخر حركاتهم — أن تؤثر فى اصابة خط البريطانيين أو تغيّر الخطط الموضوعة ، بل أنها كلفته غالياً وعرضت قواته للخسائر والاضمحلال ، وساعد على ذلك ما عملته البحرية البريطانية ، فى

رأس كوبرى نهر أودون ، فقد أخذت تطلق قذائفها التى تبلغ الواحدة منها طناً وسط الحشود الألمانية ، وعلى الكبارى ، وحول « كان » ، وذلك من مسافة ١٧ ميلا ، فكلفت الألمان خسائر فادحة حتى وهنت قوتهم وساء موقفهم ، وقد وصف مراسل روتر الحالة بأنها تشبه « مباراة فى الملاكمة طرفها ملاكم ضئيل من وزن الذبابة ضد چولويس ، بطل العالم فى وزن الثقيل »

ولكن لا يمكن اغفال ذلك المجهود الباسل الذى قام به ذلك « الملاكم الضئيل من وزن الذبابة » فقد ظل يعمل بنشاط وفن على الرغم من سوء الموقف وبقى صامداً حتى شهر يوليو ، وأخيراً شرع الحلفاء فى هجوم جديد من جانبى طريق «بايو — كان» وتقدمت القوات البريطانية والكندية لتضييق القوس المضروب حول « كان » عبر الطريق والسكة الحديدية اللذين يمتدان من شربورج إلى باريس ، وتمكنت أثناء ذلك من الاستيلاء على عدة قرى منها « فونتين »

وبينما كانت هذه العمليات تسير سيرها المعتدل كانت القوات الأمريكية تواصل زحفها — الذى بدأته فى فجر ٣ يوليو — فى شبه جزيرة شربورج صوب الجنوب فى جبهة طولها ٤٠ ميلا وكان زحفها فى شعبتين ترميان إلى الالتقاء فى « لاهاى دبوى » ، وهى مركز مهم للمواصلات ، وبذلك كانت العمليتان الرئيسيتان فى ساحتى كان وشربورج بمثابة ضربتين متفقتين لتدمير الخطة الدفاعية العامة وغزو

خطوط الدفاع الصلبة التى يمتد عمقها ستة آلاف ياردة وتخفى خلفها خطوط دفاع ثانوية تسد الطرق التى توصل إلى باريس ، قلب فرنسا

وفى يوم ٢٥ يوليو أعلن مركز قيادة الجنرل مونتجمرى استئناف الهجوم فى الجناح الشرقى على طريق فاليز فى اتجاه الجنوب ، وفاليز نقطة تقاطع مهمة وملتقى للسكك الحديدية على بعد ٢١ ميلا ج . ش . كان ، هذا فى الوقت الذى أعلن فيه بدء القوات الأمريكية فى العمل بحالة تتناسق مع هجوم البريطانيين والكنديين ، وقد مهد للعمليتين بهجمات جوية عنيفة ، ففى الساحة الأولى عمدت قاذفات القنابل المتوسطة ، قبل أن تندفع قوات مونتجمرى إلى الأمام ، إلى ضرب محتشدات الألمان فى غابة لاهوج (ج . ش . كان) وفى الساحة الغربية استخدمت أكبر قوة من القاذفات الثقيلة لتأييد هجوم الجيش الأمريكى الأول فى نورماندى ، فاشتركت ثلاثة آلاف طائرة ، بينها ألف وخمسمائة قاذفة أمريكية ثقيلة ، وألقت عددا ضخما من القنابل المتفجرة للقضاء على مقاومة الألمان التى كانت تبدو فى أعنف أطوارها

وفى يوم ٦ أغسطس أعلن أن القوات الأمريكية قد وصلت إلى نهر اللوار وعزلت جميع مقاطعة بريتانى ، وبذلك أتمت عزل الموانىء الثلاثة الكبرى : بريست ، ولوريان ، وسان نازير ، ويعد هذا العمل من الانتصارات العظيمة فى الميدان الفرنسى

هذا بينما وثبت القوات البريطانية والكندية — المؤيدة بهجوم

جوى عظيم — مسافة أربعة أميال داخل قلب الخط الألمانى فى جنوب كان ، فى عملية تعرضية باهرة ، فأصبحت على مسافة مائة ميل من باريس ، واستولت على عدة قرى جنوب شرقى كان ، وهكذا ابتدأ نجم الحلفاء يلمع في هذه الساحة المعتمة ، واستمر التقدم فى خطى الدفاع الألمانيين الأول والثانى. كما كان تقدم الكنديين يسير بسرعة فى أرض مليئة بالعراقيل والمعاقل الألمانية ، فكان فى كل قرية قلعة صغيرة وفى كل حقل مدفع أو دبابة تصب نيرانها ، و بذلك كان للألمان غطاء نارى فى ساحات صغيرة على طول الخط

وقد اقتحم الكنديون آخر خطوط الدفاع الثابتة فى أسفل « كان » وتقدموا صوب مدينة « فاليز » التى كان روميل يضع مدافعه وجنوده لحمايتها ومنع الحلفاء من الوصول إليها

وكان اسم روميل يظهر فى البلاغات الرسمية وقتاً ويختفى وقتاً ولكن لم يكن مؤكداً أنه يتولى جميع العمليات فى فرنسا ، كما كثرت الإشاعات عن مرضه أو إصابته أو إعطائه قيادة أخرى ، ولا غرو أن يكون هذا القائد النابه موضع اهتمام وعناية ، فقد أجمعت الآراء على وصفه بالحصافة والجرأة ، وكانت خططه فى الصحراء الغربية موضع إعجاب حتى من خصومه ، ومن الغريب أن اسمه لم يذكر فى أخبار الميدان الغربى إلا فى مواقف رجحت فيها كفة الألمان

ولا يغيب عن البال أن روميل كان يواجه بالمثل قائداً من الطراز

الأول وهو الجنرال مونتجمرى و بذلك تقابلت أعظم عبقر يتين حر بيتين، وسواء جاء النصر فى هذا الجانب أو ذاك فإنه لا يعبر عن أقوى الخصمين فإن للمعركة ظروفاً أخرى غير القائد وحنكته و كفايته . . .

وقد خطت قوات الحلفاء خطوة جديدة فبينما كان الجنرال مونتجمرى يذكر لقواته المسرعة فى تقدمها أن « النصر أمامهم » كان الأمر يكيون شارعين فى زحف جديد ، متوغلين فى خطوط الدفاع الألمانية المحطمة، مندفعين نحو « السين » حتى أصبحوا على مسيرة ٤٦ ميلا من العاصمة الفرنسية

وهكذا أصبحت باريس هى الغرض ، الذى تتجه نحوه قوات الحلفاء من عدة جهات وهى :

(١) القوات البريطانية التى بلغت فيمون (١١٠ ميل من باريس)

(٢) القوات الكندية فى طريق فاليز — درو (١١٥ ميل)

(٣) القوات الأمريكية الزاحفة شرقى ماين

(٤) القوات الأمريكية الزاحفة شرقى لومان فى طريق شارتر

وأخذت قوات الحلفاء البرية والجوية تدمر معاقل الألمان وتدفعهم إلى الوراء وترد على ضرباتهم القديمة ، التى لم تنقطع فى طول طريق ارتداد البريطانيين ، أيام دنكرك ، فى آخر مايو ١٩٤٠

وكان الجنرال فون كلوج ، الذى خلف روندشتد فى القيادة الألمانية فى فرنسا ، قد اضطر إلى تعديل خططه ، فلم يستمر على سياسة سلفه

«المقاومة إلى النهاية» بل أخذ يحاول انقاذ جنوده من ورطة مخيفة حين أصبحت بين فكى الكماشة ، وضاقت الثغرة وصبت فيها قوات الجو قنابلها المروعة فحولتها إلى أتون للموت والدمار، واستهدف الجيشان السابع والسادس لخطر رهيب فكان على فون كلوج أن يتلافى بحنكته هذه النكبة الفاجعة وذلك بسحب قوته فى اتجاه الغرب مع الاكتفاء بالأعمال التعطيلية ، ولا ننس أن ألمانيا كانت تواجه الخطر فى الجبهتين الشرقية والغربية وكانت تأمل أن تخفق عمليات الميدان الثانى ، فلما نجحت هذه العمليات ، كان على ألمانيا أن تقبل أهون الشرين ، فوجهت أقصى قوتها لوقف الجيش الأحمر عند حدودها ، وفى أراضى بولندا .

وفى يوم ١٥ أغسطس أذيع بلاغ رسمى بفتح ميدان جديد فى جنوب فرنسا .

فقد كان الموقف يحتم ضرورة الإسراع فى العمل والقيام بإجراءات حاسمة حتى تنتهى الأعمال فى فرنسا بأسرع ما فى الطاقة اغتناماً لفرصة الإعياء الذى حل بألمانيا والموقف السيء الذى كانت تواجهه فى الميدانين كما كانت هناك دواع حربية وسياسية تتعلق بأحوال أوربا تقتضى هذا الإجراء .

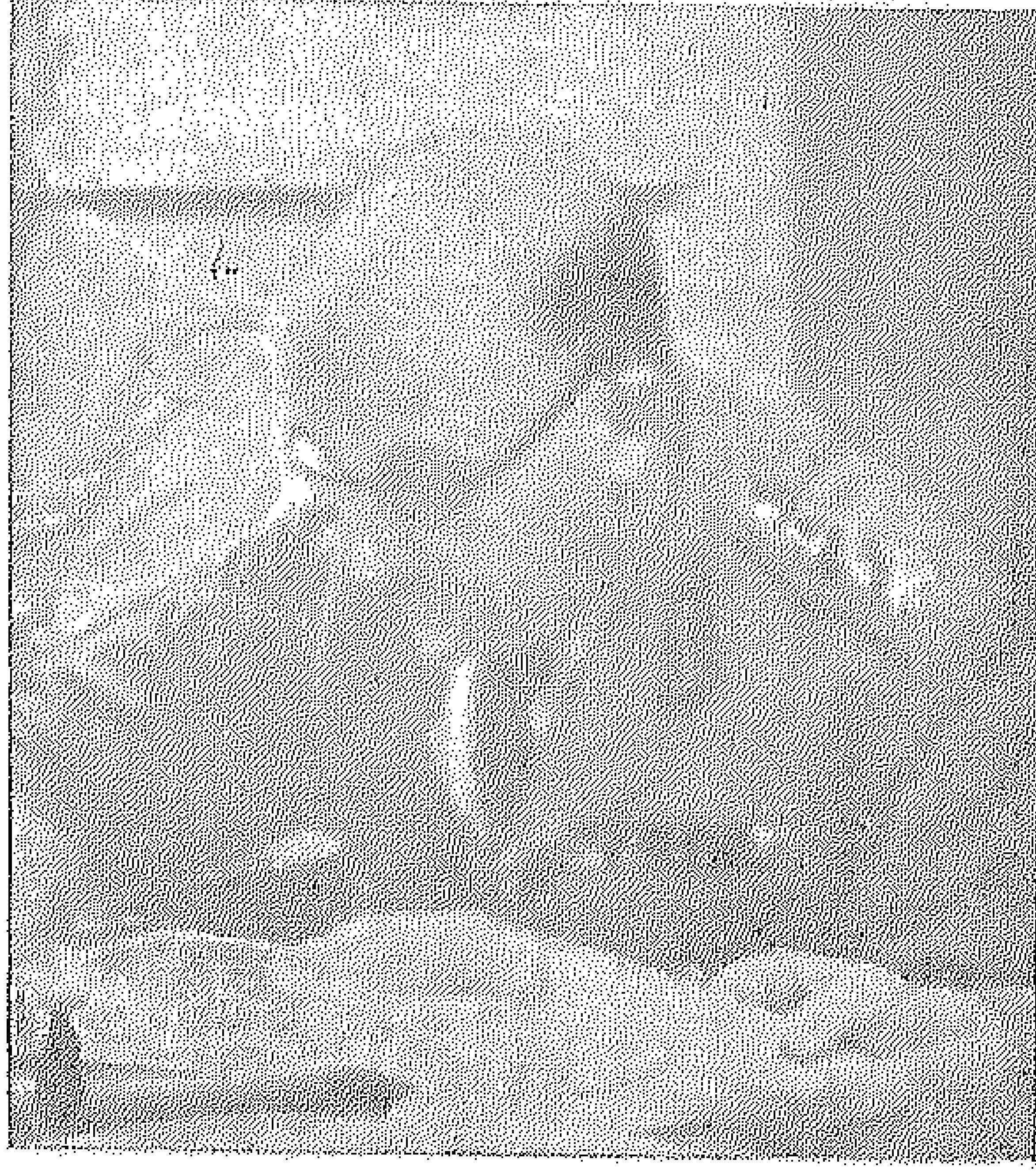
وفى الميدان الجديد نزلت القوات البريطانية والأمريكية والفرنسية، مؤيدة بقوات جوية كبيرة ، إلى البر على ساحل فرنسا الجنوبى ، وكانت تقلها سفن بريطانية وأمريكية وفرنسية وهولندية ويونانية

وبولونية وكندية وبلچيكية بلغ عددها أكثر من ثمانمائة سفينة من مختلف الأحجام والأنواع

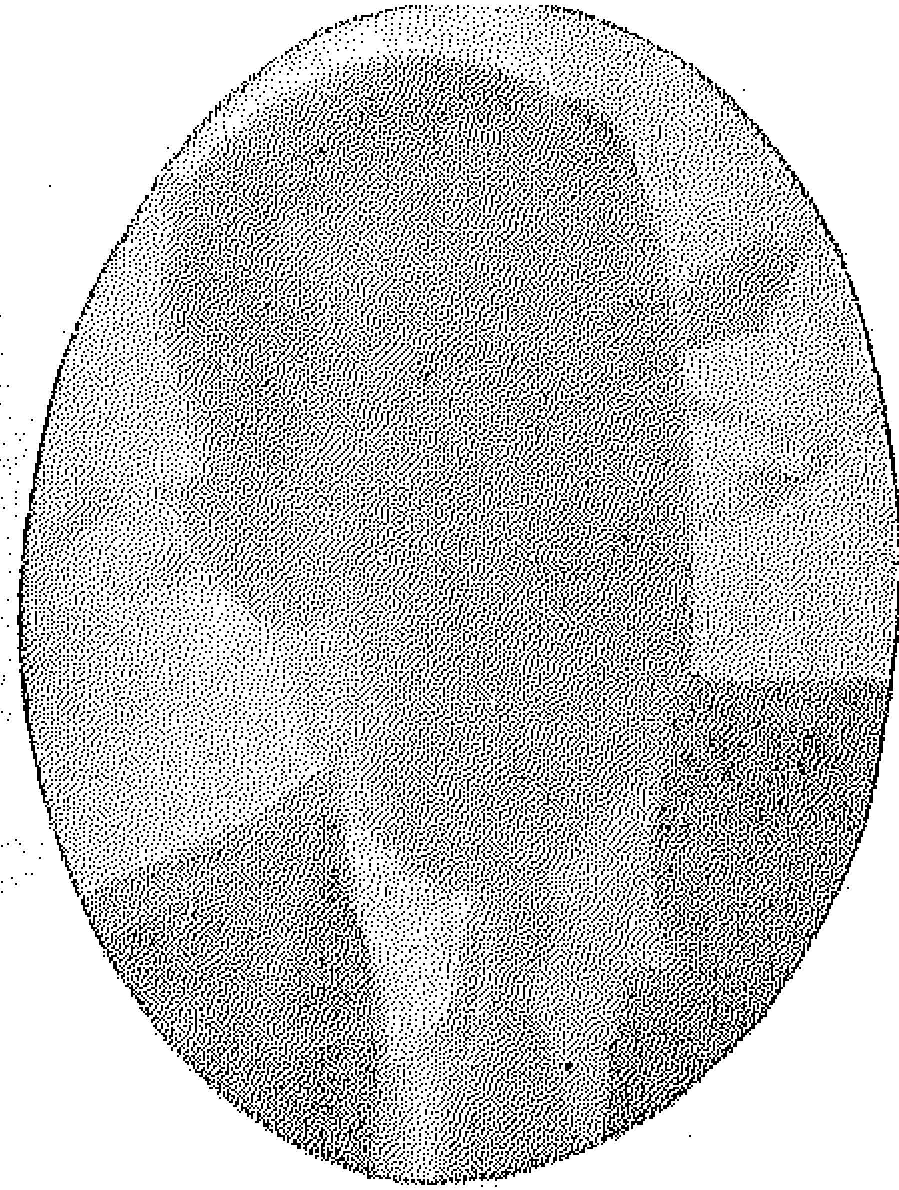
وقد أبحرت هذه السفن من مياه إيطاليا وكورسكا وساردينيا وصقلية وشمال افريقيا وتم إنزال الجنود ومعدات القتال إلى البر فى الوقت المحدد تماماً تحت ستار رهيب من قنابل الطائرات والبوارج الحربية بينما قامت كاسحات الألغام والغواصات وسفن القتال بواجباتها

وقد أعلن أن أعمال إنزال الجنود إلى البرقد امتدت حتى شملت القسم الأكبر من الساحل بين نيس ومرسيليا، وأنه قد أنزلت إلى البر فى أقل من ساعتين سبعة أفواج من الجنود يتألف كل منها من ألفى مقاتل ، وقد سبق هذه العمليات هبوط جنود المظلات والجنود الذين تقلهم الطائرات قبل الفجر إلى مسافة ميلين من الساحل وراء الاستحكامات الألمانية ، وقد كان عدد جنود المظلات رقماً قياسياً هو ١٤ ألف جندى ، أى ما يعادل فرقة .

وهكذا تم للحلفاء فتح ميدان جديد بنجاح تام فى الوقت الذى تقدمت فيه العمليات فى شمال فرنسا مؤيدة بتوفيق عظيم ، أما أهداف الهجوم الجديد فى جنوب فرنسا فهو الإسراع فى إنهاء المهمة الخاصة بتحرير فرنسا والقضاء على القوات الألمانية فى الساحة الجنوبية، والاتصال بجيوش الحلفاء الزاحفة من نورماندى ، فالحملتان فى شمال وجنوب فرنسا كانتا تعملان فى خطة استراتيجية واحدة لتحرير فرنسا



الچنرال ويلسون
القائد العام للحملة



الچنرال لكلير
قائد القوات الفرنسية

الچنرال ديفرز
قائد القوات الأمريكية

قواد الميدان الجنوبى

وقد عُدّ نزول جنود الحلفاء إلى البر فى جنوب فرنسا تابعاً لقيادة الحلفاء فى البحر المتوسط ، تحت القيادة العامة للچنرال السير هنرى ميتلاند ويلسون ، وقد عين اللفتنانت چنرال جاكوب ديفرز (أمريكى) نائباً للقائد الأعلى والچنرال ايكر (أمريكى) قائداً عاماً لسلاح الحلفاء الجوى ، والارمارشال سليسور (بريطانى) نائباً له ، والأميرال السير جون كاننجهام (بريطانيا) قائداً عاماً للقوات البحرية

وحين بدأ الغزو أذاع الچنرال ويلسون القائد العام للحلفاء فى منطقة البحر المتوسط نداء جاء فيه .

« نزلت جيوش الأمم المتحدة فى جنوب فرنسا وغرضها طرد الألمانيين والانضمام إلى جيوش الحلفاء الزاحفة من نورمانديا ، وتشترك القوات الفرنسية فى هذه الأعمال فعاد جيش فرنسا إلى الوجود مرة أخرى مقاتلاً على أرضها لتحريرها » .

« اذكروا سنة ١٩١٨ » .

« دعونا ننهى هذا الصراع فى أقرب وقت حتى تستأنف فرنسا مرة أخرى حياتها الحرة وحتى تعود إلينا ظروف السلم والأمن » .

« إن النصر مؤكد » .

كذلك أذاع الچنرال ليكلير قائد الفرقة الثانية الفرنسية المصفحة رسالة جاء فيها « أننا نريد قبل كل شيء أن ننزل ضربتنا بالألمان ثم

نلتقى بالفرنسيين الأخيار الذين ظلوا يواصلون الكفاح فى داخل بلادنا كما واصلناه نحن فى الخارج . . »

وقد استطاعت القوات المتحالفة أن توطد أقدامها فى جنوب فرنسا وتستولى على جميع أهدافها الأولية ، ثم أخذت نقطة الارتكاز الساحلية تزداد سعة وعمقاً بينما كانت فرق المظلات تقوم بواجباتها وتسد الطريق فى وجه النجدات الألمانية دون أن تصادف مقاومة جدية سواء من البر أو الجو وكانت مقاومات الألمان فى الميدان الجنوبى عامة متقطعة ولم تبد أى مقاومة من الجو

وتأميناً للساحل الجنوبى ومياهه استولت قوات الحلفاء على جزر راس كرو وجزيرة ليڤان فى خليج يار وشبه جزيرة نجرو ، وذلك فى فجر يوم ١٦ أغسطس

وواصلت القوات الأمريكية والفرنسية زحفها السريع فى الداخل فاستولت على عدد من المدن والقرى وأصبحت القوات فى جميع نقط الارتكاز متصلة فتألفت منها جبهة متماسكة على شكل قوس يتزايد اتساعاً إلى الغرب و إلى الشمال كلما مر الوقت ، وقد اتصلت نقط الارتكاز هذه بجنود المظلات و بدأ الزحف بنجاح لم يسبق له مثيل فى أى عملية من عمليات الغزو السابقة حتى تمكنت هذه القوات من التقدم فى شكل مروحة خمسين ميلا فى ثلاثة أيام وأسر قائدين ألمانيين على رأس عشرة آلاف أسير ، وكانت القوات الألمانية التى تقاوم فى جنوب فرنسا ثلاث فرق

وفى الطريق إلى طولون ومرسيليا سقطت مدينة هيير واكس وبروفانس ، وغيرها وأخيراً طُوقت المدينتين منذ الثالث والعشرين من من شهر أغسطس بعد زحف سريع موفق

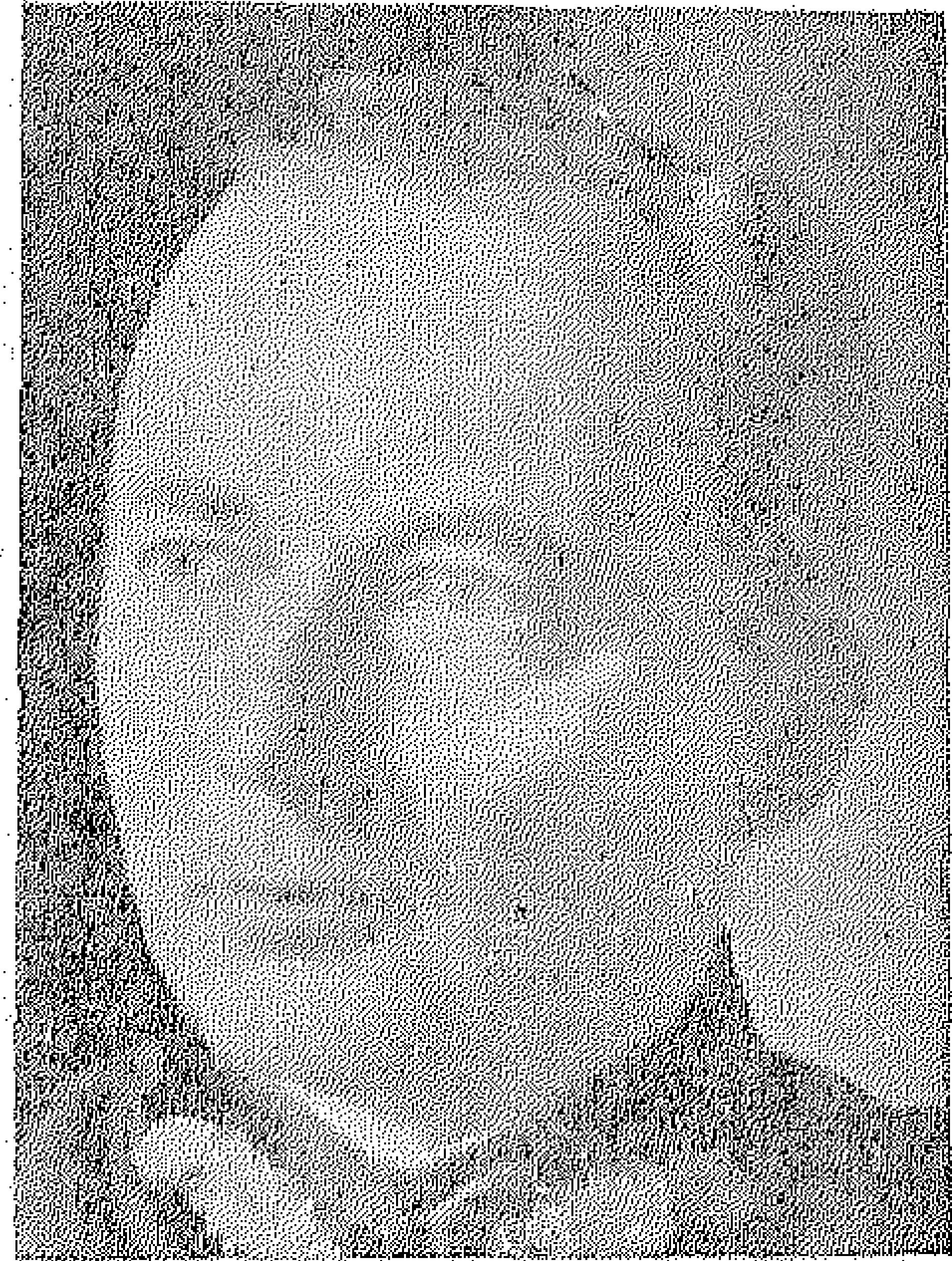
هذا فى الوقت الذى احتل فيه الأمريكيون الزاحفون شمالاً مدينتي جرينوبل وموردوا واقتربوا من ليون ، فكانت هذه الفعال معبرة عن النشاط والمقدرة ودقة الترتيبات

أما فى الميدان الشمالى فكانت العمليات الحربية تجرى فى ساحتين : ساحة فاليز وساحة بريتانى ، وكان النجاح ملازماً خطط الحلفاء فيهما معاً ، ففي فاليز كان الجيب الذى حوصرت فيه القوات الألمانية يضيق باستمرار تحت الضغط الرهيب المسلط عليه من الكنديين فى الشمال والأمريكين فى الجنوب محاولين اقتحام الطريق إلى فاليز على جبهة واسعة ، وقد دافع الألمان ببسالة صادقة دون أن يتطرق الوهن أو اليأس إلى قلوبهم على الرغم من الخسائر الفادحة التى تعرضت لها جنودهم وسياراتهم ومعداتهم الحربية ، وكانوا فى أثناء تراجعهم يقومون بقتال الساقة ويكثرون من الهجمات المضادة ، ويبثون الألغام ويبدون من ضروب الحذق والفن الحربى فى ساعات الشدائد ما مكن لهم من تفادى نكبة عسكرية وانقاذ ما أمكن انقاذه

وقد اشتدت مقاومة الألمان عند سانت ارنو وابرتون ودرو، والأولى على مسافة ٢٣ ميلا من باريس على طريق يجتاز ليمور ويدخل



المارشال رومل
(المرحوم)



الجنرال فون كلوج



المارشال كيسلرنج

قواد الجيوش الألمانية

باريس من الجنوب، والثانية على مسيرة ٣٠ ميلا إلى جنوب غربى باريس على الطريق المتسع رقم (١٠) الممتد من شارتر، والثالثة على أربعين ميلا من العاصمة الفرنسية

وفى يوم ١٦ أغسطس اقتحم الجنود الكنديون طريقهم إلى شوارع فاليز بينما زحفت القوات الأمريكية للقضاء على القوات التى تمكنت — من جيش فون كلوج — من الافلات خلال معركة ثغرة فاليز، وقد احتلت شارتر وهى مركز كبير للطرق يقع على بعد ٤٣ ميلا ميلا جنوب غربى باريس واحتلت، درو وشاتودان وسان كاليه وأورليان . .

وأخذت الحوادث تتوالى بسرعة فدخل الأمريكيون الزاحفون من درو — تحت قيادة الجنرال باتون — مدينة فرساى (٤ أميال من باريس) وانطلقت الدبابات نحو السين فأبعدت الجيش الألمانى السابع الذى أخذ فى الانسحاب تحت وابل من قنابل الحلفاء أفقده القدرة على المقاومة المنظمة، وخصوصاً وقد فقد ميزتين كبيرتين : المواصلات والاستطلاع الجوى، وتعرض للويلات التى صبتها القوة الجوية التى كانت تنقض بلا انقطاع وتلقى أطناناً من القنابل والسهام النارية، وتهاجم الجنود برشاشاتها حتى حولت الميدان إلى مذبحة هائلة، وقد أحصت المصادر الرسمية تدميراً أكثر من ألفى سيارة ومائتى دبابة كما أعلنت عن فقد أربعمائة ألف جندى ألمانى فى عمليات

نورماندى بين قتيل وجريح وأسير ، وذلك حتى يوم ١٧ أغسطس .

وفى الوقت الذى أحدقت فيه قوات الحلفاء بباريس وانهزمت القوات الألمانية هزيمة كاملة أمامها ، وحصل الحلفاء فى الساحتين الشمالية والجنوبية على انتصارات هامة تعد مقدمة الفصل فى معركة فرنسا . . فى هذا الوقت شبت الثورة فى باريس وفى المدن الكبرى ، وحمل الأهالى السلاح ضد سلطات الاحتلال ، وتمكنوا من الاعتصام بالمبانى والدور ، ناقضين الهدنة مستأنفين القتال ، وبذلك تكون باريس قد غزيت من الداخل قبل أن تأتيها جيوش الإنقاذ ، وكان ذلك فى التاسع عشر من شهر أغسطس .

وقد أذاع الجنرال كوينج قائد قوات التحرير الفرنسية بلاغاً رسمياً يتضمن التفاصيل الموثوق بها للحوادث التى أدت إلى تحرير باريس ، وفيه « كان يوم السبت ١٩ أغسطس يوماً حاسماً فى معركة باريس ، فقد عم الاضطراب واشتدت المصادمات الدامية فى جميع أنحاء العاصمة » .

أما الغزو الحربى للعاصمة الكبرى فقد نفذت خطته بدقة على الرغم من اشتداد مقاومة الألمان شرقى السين وهم يحاولون محاولة أخيرة إيقاف القوات الأمريكية التى عبرت النهر ، غير أن هذه المقاومات لم تنجح إلا فى تعطيل مؤقت ، ولم يساعدها فى بلوغ أهدافها سوء حالة المواصلات الألمانية وانقطاع الإمداد ، وهكذا تكرر الدرس الذى

حدث في شمال أفريقيا ، فجاءت هزيمة فون كلوج على النحو الذى حدثت به هزيمة روميل وفون أرنيم حين تصدعت خطوط مواصلاتهما وامتنع وصول الوقود والمؤن ، وانقطع النشاط الجوى ، فلم تقم للطائرات الألمانية قائمة ، ووجدت الدبابات بدون بترول ، وتقدم الألمان للتسليم بجموع كبيرة .

وقد احتدمت المعارك فى باريس وحولها ، وكانت الطرق مليئة بالألغام وأوكار الرشاشات ، غير أن ما بذل من المحاولات لم يعطل تقدم القوات الأمريكية التى يقودها الجنرال أومر برادلى والقوات الفرنسية التى يقودها لكلير ، فخطت هذه وتلك خطوة أخيرة إلى داخل باريس .

وفى يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٤ ، وهو يوم سيذكر فى قائمة الأيام المجيدة ، سلمت الحامية الألمانية فى باريس ، بعد مقاومة شديدة فى الشوارع والمنحنيات والميادين ، ودخلت قوات الحلفاء إلى مدينة النور ، وعادت عاصمة فرنسا إلى الفرنسيين .

وتحررت باريس بعد أربع سنوات ، وتقرر أن يكون يوم ٢٥ أغسطس عيداً فرنسياً ترفع فيه الأعلام احتفاء بتحرير باريس من ربقة النازى ، وهو عمل فذ وحدث تاريخى من أحداث الدنيا التى ستخلد على مر الأيام .

وكانت مرحلة جديدة من مراحل الحرب قد بدأت منذ نزلت

قوات الحلفاء فى جنوب فرنسا بنجاح تام ، فأصبحت ألمانيا تواجه خطر الحرب فى أربع جبهات وهى : —

(١) القوات المنضوية تحت لواء الجنرال إيزنهاور تزحف شمالاً وشرقاً وغايتها تحرير بلجيكا وهولندا ولكسمبورج ثم مهاجمة ألمانيا .

(٢) قوات الجنرال ويلسون تزحف شمالا للاتصال بقوات الشمال ، كما تعمل على تهديد حدود ألمانيا وإيطاليا وتقطع الطريق على القوات الألمانية المنهزمة .

(٣) الجيوش الروسية التى استطاعت تخليص بلادها من الاحتلال الألمانى ، تعمل بنجاح على تخليص البلاد المجاورة من الجيوش الألمانية ، فدخلت بولندا ورومانيا وبلغاريا ثم يغوسلافيا ، وأوجدت حالة جديدة تحتم على فنلندا وبلغاريا والمجر والبلقان باتخاذ قرارات جديدة والانتقال إلى معسكر الحلفاء ضد ألمانيا .

(٤) القوة الجوية التى كانت دائبة النشاط متجددة السعى فى تدمير المرافق الصناعية والحيوية فى ألمانيا ، فى وقت ضعف فيه نشاط الألمان الجوى وخسرت طائراتهم معركة الهواء .

ولا شك بأن هذه المرحلة من الحرب قد حفلت بالأحداث السياسية والانقلابات وكان أولها وأهمها تغيير رومانيا لاتجاهها السياسى والحربى بعد أن كانت فى مقدمة بلدان أوربا معاونة للنازى ضد روسيا ، وحدث هذا الانقلاب عندما أحدقت قوات الجيش الأحمر برومانيا واجتازت

حدودها فأعلنت رومانيا قبولها للهدنة التى عرضتها عليها روسيا ووافقت عليها بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، فأوقفت القتال ضد جيوش السوفيت وأنهت حالة الحرب مع بريطانيا وأمريكا ، وأعلنت عن ذلك فى نداء أذاعه الملك ميشيل وقد جاء فيه :

« قررت لانقاذ أراضى أجدادنا وقف القتال حالاً ضد الأمم المتحالفة ودعوت حكومة قومية لتحقيق إرادة الشعب الصادقة فى عقد الصلح مع الأمم المتحدة . . وإنى آمر الجيش والأمة بأسرها أن تقاتل العدو بجميع الوسائل ، لقد انتهى عهد الدكتاتورية ، وانتهى معه الاضطهاد ، ويسجل مجىء الحكومة الجديدة عهد جديد تضمن وتحترم فيه حقوق جميع مواطنى بلادنا وحرياتهم . . »

وفى الخامس والعشرين من شهر أغسطس ١٩٤٤ أعلنت حكومة رومانيا الحرب على المانيا وأصبحت فى صف دول الحلفاء .

أما فى ساحات القتال فكانت الأعمال الحربية تتطور بسرعة فى جانب الحلفاء ، ففى الميدان الجنوبى تم احتلال طولون يوم ٢٧ أغسطس وأخذت القوات الأمريكية الزاحفة شمالاً تنزل ضرباتها بفلول الجيش الألمانى التاسع عشر التى كانت تحاول الإفلات شمالاً من طريق وادى الرون ، وفى يوم ٢٨ سقطت مرسيليا وأصبحت قوات الحلفاء منتشرة فى قوس كبير على طول خط الشاطىء الفرنسى من الحدود الأسبانية إلى الحدود الإيطالية ، وأخذ هذا القوس ينبعج إلى الداخل ، وانهارت

المقاومة الألمانية فلم تعد هناك جبهة ولا خط قتال وإنما قوات مرتدة تتلمس سلامة الانسحاب ، وتتراجع تفادياً للاشتراك فى قتال يزيدها ضعفاً أو يوقع بها هزيمة نهائية ، وقد بلغ عدد الأسرى فى هذا الميدان وحده خمسين ألفاً ، وذلك حتى آخر شهر أغسطس ، أى فى مدى ستة عشر يوماً .

وفى الثالث من شهر سبتمبر عبرت القوات الأمريكية نهر الرون شمال شرقى ليون وأتمت احتلال المدينة ، وبينما كان الألمان يبتعدون عن ساحات القتال فى جميع أنحاء الميدان كانت جيوش الجنرال ويلسون تسرع لتطهير المنطقة خلفهم ولإتمام الاتصال بجيوش الشمال حتى يتم للجيشين الانضواء تحت لواء واحد ، عند ما يحين وقت الهجوم على ألمانيا .

(١) وقد تم اتصال جبهة الحلفاء بين المانش والبحر المتوسط إذ أتمت القوات الزاحفة من جنوب فرنسا يوم ١١ سبتمبر اتصالها بقوات الغزو التى تتقدم فى شمال فرنسا وشرقها فأصبح خط الحلفاء القوى يمتد مسافة ألف كيلومتر بين البحرين وأصبحت ثلاثة جيوش أمريكية مجهزة تجهيزاً عظيما تزحف مكتسحة طريقها إلى حدود ألمانيا بينما تواصل الجيوش البريطانية والكندية تطهير بقية الأراضى الفرنسية والبلچيكية ، أى مليون جندى كانوا يشتركون فى العمليات الحربية فى فرنسا و بلجيكا لتدمير قوات ألمانيا وغزو أراضيها . .

وكانت قوات الحلفاء قد أطبقت على نهر السين واستولت عليه من المنبع إلى المصب دون أن يصدها مركز دفاعى واحد وكانت مئات الطائرات تهاجم بقسوة القوات المرتدة من الضفة الغربية .

واندفعت دبابات الجيش الثالث وقواته المصفحة عبر المارن وانطلقت فى اتجاه سواسون فى حركة توغل ناجحة ختمت بها معركة المارن الثالثة و بذلك كان الألمان يقومون بحركة ارتداد عام على طول جبهة تبلغ ٢٠٠ ميل من تروا إلى مصب السين ، وذلك تحت ضغط الغارات الجوية الرهيبة ، التى اجتثت صفوفهم ودمرت خطوط تموينهم، وتحت ضغط الظروف الحربية التى أوجبت سحب جميع القوات الألمانية إلى داخل ألمانيا ، استعداداً للدفاع عن أراضى الرايخ ذاتها .

وفى اليوم الأخير من شهر أغسطس سقطت مدينة رانس وهى عصب المواصلات لفرنسا الشمالية الشرقية ، وبذلك فتح الطريق إلى بلجيكا ولكسمبورج وأخذت قوات الحلفاء تواصل زحفها الاكتساحى ، الذى انقلبت به معركة فرنسا إلى هزيمة كاملة للألمان ، وقد حق لأحد المراسلين الحربيين أن يصف الموقف بأنه استعراض وليس معركة ، فقد كانت خطة الألمان ترمى إلى تجنب الاشتباك و إلى السرعة فى الانسحاب ، ولذلك أصبحت خطة الحلفاء الإسراع فى كسب السباق وتدمير القوات المتراجعة ، فأخذت تطوى وراءها الأميال الباقية .

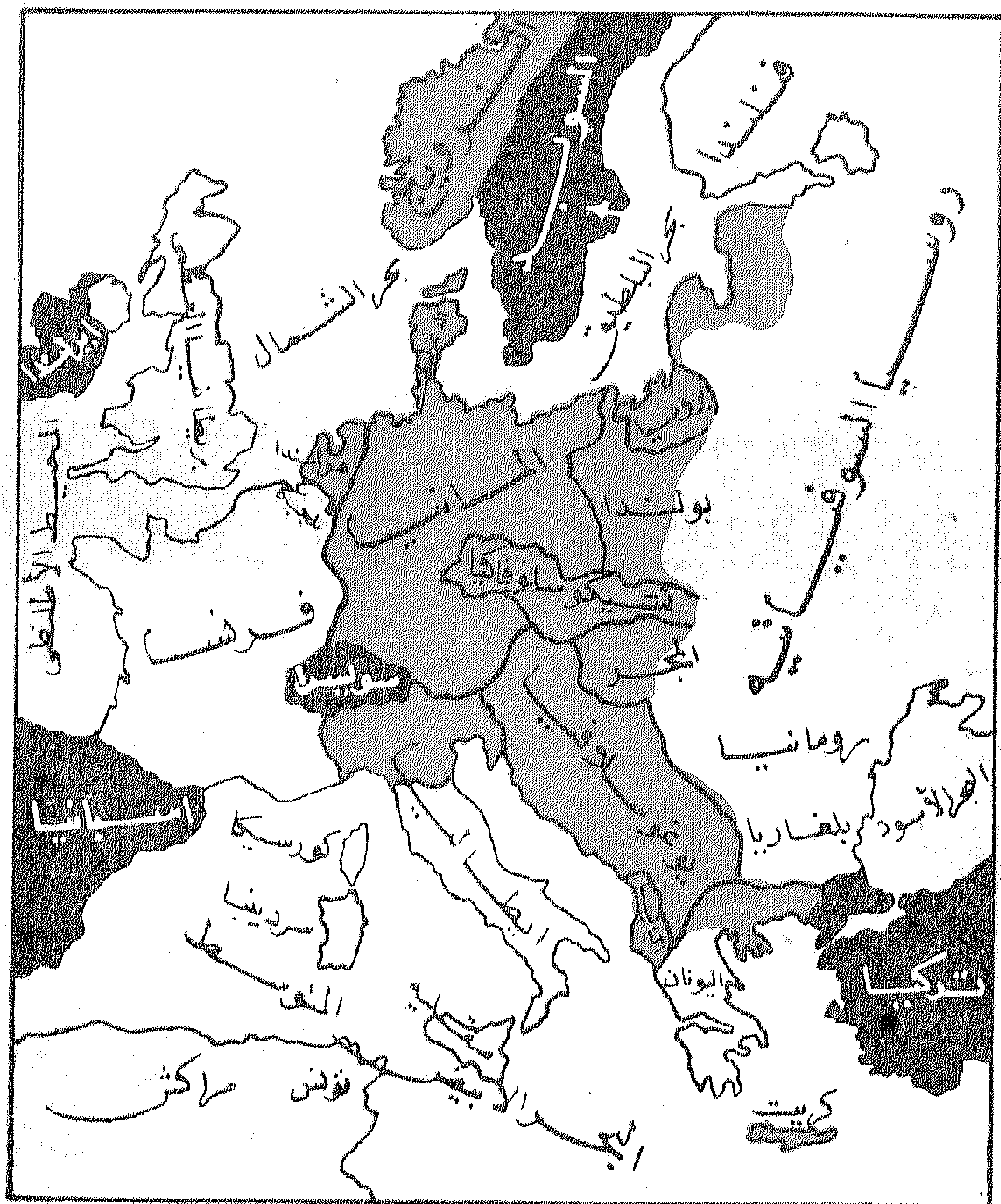
وفى يوم ٣ سبتمبر دخلت قوات الجيش الأمريكى الأول بقيادة الچنرال هدجس أراضى بلچيكا ، و يمكن القول بأن معركه فرنسا كانت قد انتهت ، و بدأت معركه بلچيكا ، أو على الأصح معركه ألمانيا .

ودخل الحلفاء بروكسل يوم ٣ سبتمبر واستعاد البلچيكيون عاصمتهم ، وضاع زمام الموقف من الألمان الذين شرعوا فى إخلاء المدن المهددة بخطر الغزو مثل نامور وكاليه و إيفيل ونامور وأنفرس وموتز وشارلروا .

وإلى جانب معركه بلچيكا بدأت معركه الموانى على المانش وقد انتهت بنجاح تام ولم يبق فى أراضى فرنسا سوى جيوب تقاوم مقاومة يائسة .

و بدأت النهاية تتضح ، فقد أخذت القوات الألمانية تعمل على ترك أراضى فرنسا وتلتجىء إلى داخل أسوار ألمانيا بينما كانت جيوش الحلفاء تتبعها فى سرعة وتجدّ خلفها نحو الحدود ، وقد تم اتصال الجيش الثالث بالجيش السابع ، كما شق الجيش الأول طريقة إلى ما وراء الموزل والموز إلى خط سجفريد ، وبذلك تم حشد ثلاث جيوش للهجوم على ألمانيا .

و إذا كانت معركة فرنسا — الثانية فى الحرب الحاضرة —



الضغط على ألمانيا

قد كسبها الحلفاء بسرعة ونجاح فلا بد لنا أن نذكر عاملين خطيرين كان لهما الأثر الكبير فى ذلك النجاح ، وهما : سلاح الطيران وخدمات التموين ، وقد عرف أثر ما فعلته الطائرات بمهاجمتها قوافل الجنود وضرب طرق المواصلات وتدمير المواقع وتحويل الهزيمة إلى نكبة. أما خدمات التموين فكانت المعجزة التى كفلت للقوات سرعة التقدم وسلامته ، فالنجاح الذى بلغه الحلفاء إنما يرجع حقاً إلى دقة الترتيبات الإدارية ، والهزيمة التى حلت بألمانيا إنما ترجع إلى قوة الجو المتحالفة .

وهكذا دخلت الحرب عامها السادس بصورة جديدة ، ترى فيها ألمانيا وقد خسرت معركة أوربا وتقدمت منها قوات الحلفاء فى الميدانين الشرقى والغربى وتألبت عليها دول أوربا وأخذت الطائرات فى مهاجمة الميدان الداخلى وأصبحت معركة ألمانيا على الأبواب .

وهكذا الحرب ، سلسلة من الأحداث والوقائع ، تميل مع هذا الجانب مرة ومع ذاك مرة حتى تستقر كفتها ويتحدد مصيرها وقد طالت هذه الحرب وتعددت مآسيها وظهرت آخر فنونها فلم يعد سوى الاندفاع فى طريق جنونى تستخدم فيه الغازات أو غيرها من الأسلحة غير المشروعة ، وهو أمر لا يعنى سوى زيادة الكوارث والنكبات وضياع أرواح لا عداد لها .

ولا شك أن العالم أجمع يتمنى الخلاص من هذه المآسى والويلات والوصول إلى تسوية كريمة يحتفظ فيها بالشرف والكرامة وتتخذ فيها القرارات والإجراءات التى تمنع انهيار السلام ، حتى تطمئن الشعوب إلى أنها ستنجو من التهديد والعدوان ، فيكون ذلك بشيراً بعالم جديد تحترم فيه الحقوق والحريات ، ويسود فيه العدل . . فإن السلم الذى يقوم على العدل هو الذى يدوم . .

١٩٤٤/١٢/١/١٣٩٦

فهرس

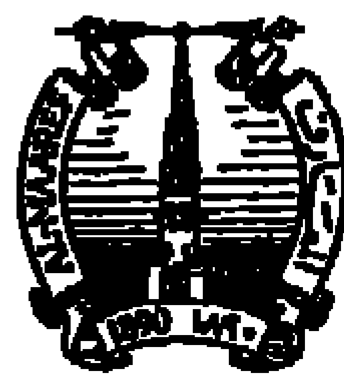
السيد فرج

في شمال أفريقيا

الحملة الإنجليزية الأمريكية

والقتال الكبير في برقه وطرابلس وتونس

أكتوبر ١٩٤٢ — مايو ١٩٤٣



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

كتب المؤلف :

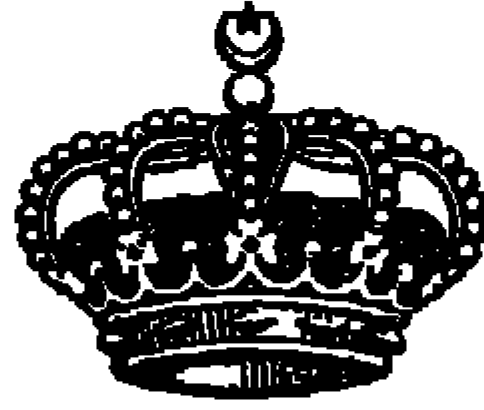
في شمال أفريقيا

حرب الصحراء المصرية

أحاديث في الحرب

هذه هي الحرب

الرياضة في بلادنا



مولاى حضرة صاحب الجلالة

اهتداء بنورك واقتداء بمثلك يأخذ رجال جيشك سمتهم نحو ما تعده لهم من مجد وما تعدهم له من علاء .

ومن لهم يا مولاى أن يكونوا السباقين إلى المجد الطامحين إلى العلاء فقد شرفت قدرهم بالقيادة العالية وأعليت شأنهم بالمثل العظيم .

وإنى أتشرف بأن أرفع إلى سدتكم العلية كتابى « فى شمال أفريقيا » وهو يتضمن دراسة عسكرية عصرية ، وتسجيلا لعمليات حربية فاصلة .

أما رائدى فهو الرسالة الملكية السامية إلى شباب مصر : « أنتم حملة المشاعل وكثيرون ينتظرون الضوء الذى تحملونه ليهتدوا به فى طريق الحياة ، فلا تطيلوا انتظارهم وادفعوا بعملكم وانفعوا . ولنؤمن جميعاً بمصر فإنها كنانة الله ، ولنعمل لها ، وسيرعى الله أعمالنا ويباركها »

عاشت مصر وحفظ الله الملك

الجندى المخلص والخادم الأمين
ملازم أول السيد فرج

غرة صفر ١٣٦٣
٢٧ يناير ١٩٤٤


حرية القول والرأى
حرية العبادة
حرية التحرر من العوز والفقر
حرية التحرر من الخوف

للأستاذ الكبير محمود أبو الفتح

عضو مجلس الشيوخ وصاحب جريدة المصرى

هذا كتاب جديد فى الحرب وضعه الأديب النابه الملازم أول السيد فرج . ويتصل موضوعه بمصر لأنه يتحدث عن حرب الصحراء والحملة الانجليزية الأمريكية التى فوجئ العالم بها فى شمال افريقيا ، وما كان من أمر قوات المحور وهزائمها النكراء ، وارتدادها على أعقابها بعد أن كانت تمنى النفس بأمانى الغزاة الفاتحين

فى هذه الفترة الدقيقة الحاسمة ولد للإنسانية تاريخ جديد . . تاريخ حافل بأعذب الأمانى وأطيب الآمال فى أن تتغلب قوات الخير على قوات الشر ، وأن تمضى الأيام فى بشريات متصلة تطالعنا بأنباء تهز النفوس وتنعش الآمال

وحتى أولئك الذين لحقهم اليأس ، وظنوا أنهم أضاعوا إيمانهم بالحق فى محيط القلق والخوف ، ازدهرت أمانيهم وأيقنوا أن أسطورة « الجيش الذى لا يغلب » قد تناثرت ذرات فى رمال الصحراء

ولقد أعان المؤلف الفاضل على نجاح قصده أن جمع بين ميزتين يحتاج إليهما موضوعه أشد الاحتياج : ثقافته الحربية ، وأسلوبه الأدبى ،

وإلى جانب ذلك جهده الواضح فى الإلمام بدقائق موضوعه ، واستقراء حقائقه ، وتقصى أسانيده . . فاستطاع من كل أولئك أن يقدم بحوثاً موفقة وآراء صائبة

أما موضوعات الكتاب : العام الرابع ، مع الجيش الثامن ، الحملة الانجليزية الأمريكية ، فرنسا المحاربة تعمل ، الحرب فى تونس . . وغيرها . فهى موضوعات شائقة أجاد المؤلف تناولها — ولا نقول استوعب كل ما يقال فيها — ولكنه وضع أمام القارئ بيانات وافية ، وأعانه على معرفة أمور تحتم خطورتها ضرورة معرفتها ، والوقوف على الكثير من أسرارها وتطوراتها

وليس شك فى أن جهد المؤلف النابه خليق بالتقدير والإعجاب . ومن بواعث السرور والاغتباط أن يحاول الشبان العسكريون عندنا معالجة هذه الموضوعات ذات الصلة بأمتهم ، وأن يقربوا ما فيها من دقائق الفن العسكرى إلى أذهان القراء

لذلك أعتقد مخلصاً أن هذا المؤلف القيم سيلقى إعجاب القراء وثناءهم ، وهو خليق بهذا الإعجاب وذلك الثناء .

محمود العزازى

العـــام الرابع

حين دخلت الحرب عامها الرابع — فى سبتمبر ١٩٤٢ — توقع الكثيرون من رجال العسكرية والسياسة ، والمراقبون لهذين ، أن تقع أحداث كبرى وعمليات فاصلة تؤثر فى سير الحرب ، بل تقلب اتجاهها ، وتأخذ بأزمّة الموقف من يد إلى يد

والأعوام الثلاثة التى انقضت إنما كانت — بالنسبة لبريطانيا أعوام دفاع عن النفس وسد الثغرات التى فتحتها الحرب وتفادى الضربات الهائلة التى ضمّنها العدو غاية قوته

وإذا كانت الحرب اختباراً عاماً لمقدرة الأمة وكفايتها فى نواحى الإنتاج والعسكرية والتفكير ونوع الرجال فانها أيضاً امتحان للعزائم والقوى المعنوية والصبر على الكوارث التى لا مندوحة عن لقائها فى الطريق إلى النصر . . ولذا يجب ألا ننسى « عامل الوقت » الذى هو حليف قوى لبعض الأمم ، وعدوّ مروع للبعض الآخر

وقد مرت بريطانيا بمحن وكوارث جلى وتجرعت كأس الحرب المريرة إلى نهايتها ولكن ذلك لم يفت فى عضدها فمضت فى سبيلها بين

دهشة المراقبين ، فنجت من كارثة دنكرك ، وصمدت للحملات الجوية العاتية فى عام ١٩٤٠ ، ثم بدأت الأمور تتغير لصالحها ، فإذا الولايات المتحدة تشد أزرها ثم تدخل الحرب فى صفها ، وإذا بها توثق علاقاتها بروسيا والصين ، فأصبحت أربع قوى عظمى تقاتل لغاية واحدة — مع معاونة بلاد أخرى — قتال الواثق المطمئن إلى نتيجة هذا الصراع العام .

ولا نعنى ببيان ذلك أن هناك قوما موعودون بالنصر ، وآخرين بالهزيمة ، ولكن فى مثل هذه الحرب العالمية الجامعة لا يكون الأمر وقفاً على قتال الجنود فحسب أو كسب معركة هنا أو هناك ، ولكن النصر فى هذه الحرب هدف شاق تتشعب وسائله وتتعدد عوامله وتحشد من أجله قوى مختلفة مادية وسياسية وفنية ومعنوية يجهد كل فريق فى إعداد نفسه بها ، ودور المراقب الحربى هنا أن يلاحظ كفتى الميزان ، وأن يستمر على هذه المراجعة ولايتسرع فى الحكم أو يجنح إلى الاهواء لأن مفاجآت الحرب كثيرة ، وقد حفلت سِيَر الحروب بحادثات لم تخطر ببال ، قلبت سير الأمور وغيرت مصائر الأحوال

وهذه روسيا خير ما يمثل به فى هذا الشأن ، فقد نزلت بها الهزائم الماحقة دون أن تفقد حيويتها أو يضعف تصميمها ومضت فى صراعها الجبار ، والناس يتوقعون نهايتها أسبوعا بعد أسبوع ثم شهراً بعد شهر . . حتى وقفت وقفتها المشهورة فى «ستالينجراد» ، وغيرت «معركة خاسرة»

وجه الحرب الألمانية الروسية ، بل كانت تلك المعركة حدثاً فاصلا فى الحرب العالمية ، وكانت أخطر ضربة منى بها الجيش الألمانى بعد أن وصلت جهوده أقصاها و بلغت قوته منتهاها

و يلاحظ المتتبعون لهذه الحرب أن الجهود السياسية لم تنته بحال ، ففى أشد أدوار الحرب لم تنكمش السياسة أو يفتر نشاطها ، بل ثبت أن المساعى السياسية قد فعلت فعل الانتصارات الحربية ، ومهدت طرقا وأزالت عقبات ، ولعبت دورها فى تغيير الأوضاع ، فوجدنا التحول فى الرأى والانقلابات الخفية وانتظار الساعات الملائمة للانتقال من يمين إلى يسار ، فالشكل السياسى الذى عرف به العالم قبل أعوام كان يتغير عاماً بعد عام

وقد لاحظ الخبراء أن هـذه الحرب حرب صناعات وموارد فتتبعوا خطط الإنتاج عند كل فريق ، فإذا ما دخلت أمريكا الحرب أدركوا سلفاً ما سيكون من شأن مواردها وصناعاتها ، فلم يمض عامان حتى أصبح التفوق فى الإنتاج الحربى ملحوظا بجلاء ، وأهم ما يلفت النظر فيه ذلك التفوق المتزايد فى الطائرات الذى أدى إلى سيادة جوية مطلقة . وقد وضعت أمريكا سياسة واسعة النطاق لإنتاج الأسلحة الحديثة ، ليس لحاجة جيشها فحسب ولكن لمد حلفائها بكل ما يحتاجونه من أسلحة ومعدات ، كما كانت هذه السياسة موضوعة أيضاً لفكرة

السرعة فى إنهاء الحرب والتخلص من مقاومات العدو فى أقل وقت مستطاع .

وقل مثل هذا فيما أعدته لإنتاج أنواع الدبابات والسيارات والسفن وغيرها من معدات الحرب مما لا يقل صناعة ومضاء عما يملكه الأعداء ، وكان لهذا التفوق فى التسليح أثره فى موضوع النشاط البحرى وأخطار الغواصات ، وشد أزر الجيوش البرية ، ومساعدة الحلفاء ، وتنشيط الحركات الثورية فى البلاد المحتلة وتشجيع البلاد المحايدة وغير المحاربة على إعادة النظر فى مواقفها . .

وقد حدث تحسن فعلى فى موقف الحلفاء من الناحيتين السياسية والحربية فكثر التحدث عن الجبهة الثانية ومشروعات الهجوم ، بل كثر التفكير وعقد الاجتماعات لبحث ما أسموه « مشاكل ما بعد الحرب » فأصبح التفاؤل سائداً فى دوائر الحلفاء الذين شدد من عزمهم أن الوقت كان يكسبهم حيناً بعد حين مكاسب غير هينة .

وإلى هذه الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها لم تكن القوات الإنجليزية قد هزمت بصفة نهائية فى مصر ، بل كانت قد استعادت الأمور ، وعلى الرغم مما كانت قد تعرضت له فى بعض الجولات من ضربات صائبة فإنها بقيت صامدة ، تتقدم حين تبدو الأمور فى صالحها ، وتتراجع حين تلتوى هذه الأمور ، وتكابد فى هذه المراحل أهوال القوات العسكرية

العاتية وحملات العوامل الطبيعية القاسية دون أن تنتهى حيويتها أو تفارقها الثقة فى أمر النتيجة الأخيرة

ولذلك لم يكن المراقبون الحربيون يدّعون الغيب حين قدروا ما ينتظر سير الحرب من انقلاب وما سيحمله العام الرابع من أسباب التوفيق وعوامل التأييد لخطط الحلفاء مما ينتهى بزمام الأمور إلى أيديهم

وكان الميدان الأفريقى متجه الأنظار بعد أن وصل زحف المحور إلى مرحلة خطيرة داخل الأراضى المصرية ، ولكن هذا الزحف أوقف عند العلمين حيث أخذ الموقف يتطور لصالح الإنجليز ، وتمكن المدافعون من أن يصبحوا مهاجمين

ولا يغيب عن البال أن السيطرة على البحر المتوسط كانت ذات أهمية كبرى للفريقين المتحاربين ، فلم يكن عجيباً أن يجمع كل فريق غاية ما يستطيع من قوة حتى وصلت الاستعدادات إلى أقصاها ، وبدت حالة توتر عنيفة توشك على الانفجار والتطور إلى فعال واسعة النطاق

وقد جاء الحدث المنتظر فى الثالث والعشرين من أكتوبر حين بدأ الإنجليز هجومهم الكبير ومعهم المحاربون الأحرار وقوات الجو الأمريكيـة فحطم ذلك الهجوم قوات المحور وأنزل بها هزيمة كاملة فارتدت ارتداداً مضطرباً عاثراً وغادرت الحدود المصرية *

---

* تفصيل ذلك فى كتاب « حرب الصحراء المصرية » للمؤلف ، وفيه تاريخ ما حدث فى صحراء مصر من البداية إلى النهاية

وكسب الجنرال مونتجمرى معركة من المعارك الفاصلة فى الحرب ولم يمض اثنا عشر يوماً من بدء القتال حتى صرح بأن « العدو الآن فى قبضة يدنا . . وهو على وشك الدمار ، وقد أتيحت لنا الفرصة للقضاء على القوات المدرعة ولا بد أن نفعل ذلك ، لقد أضحى النصر النهائى قريب المنال . .

ثم قال : « إن المعركة التى ربحناها ليست إلا بداية المهمة الملقاة على عاتقنا وهى طرد المحور من شمال أفريقيا . . »

ولم تلبث الحوادث أن جاءت محققة ما كان يتوقعه الكثيرون من وراء هذه الاستعدادات المتزايدة والمقابلات بين زعماء الحلفاء فى وشنطن وموسكو والمحادثات العسكرية بين الرؤساء العسكريين، فكان حشد الجنود والعتاد فى صحراء مصر بصورة لم يسبق لها مثيل ثم الهجوم الباهر فى العلمين من الأدلة المحدثة بما تتوخاه القوات المتحالفة من فعال فاصلة

أما ماحدث من الانتصار فى هذه المدة فلم يكن سبب التحول لأن مثله قد حدث من قبل ، وتبادل الفريقان حبال الموقف فى غير مرة ، ولكن الجديد فى هذا الصراع هو ما حدث فى السابع من شهر ديسمبر ٤٢ وعد من الفعال الحاسمة فى الحرب

ففى هذا التاريخ الذى لن تخلو كتب الحرب العالمية الثانية من الإشادة بنتائجه نزلت قوات أمريكية وإنجليزية ضخمة العتاد فائقة

الاستعداد نزولها الموفق فى ساحل أفريقيا ، فبدأت بشائر التحول وبوادر الانقلاب

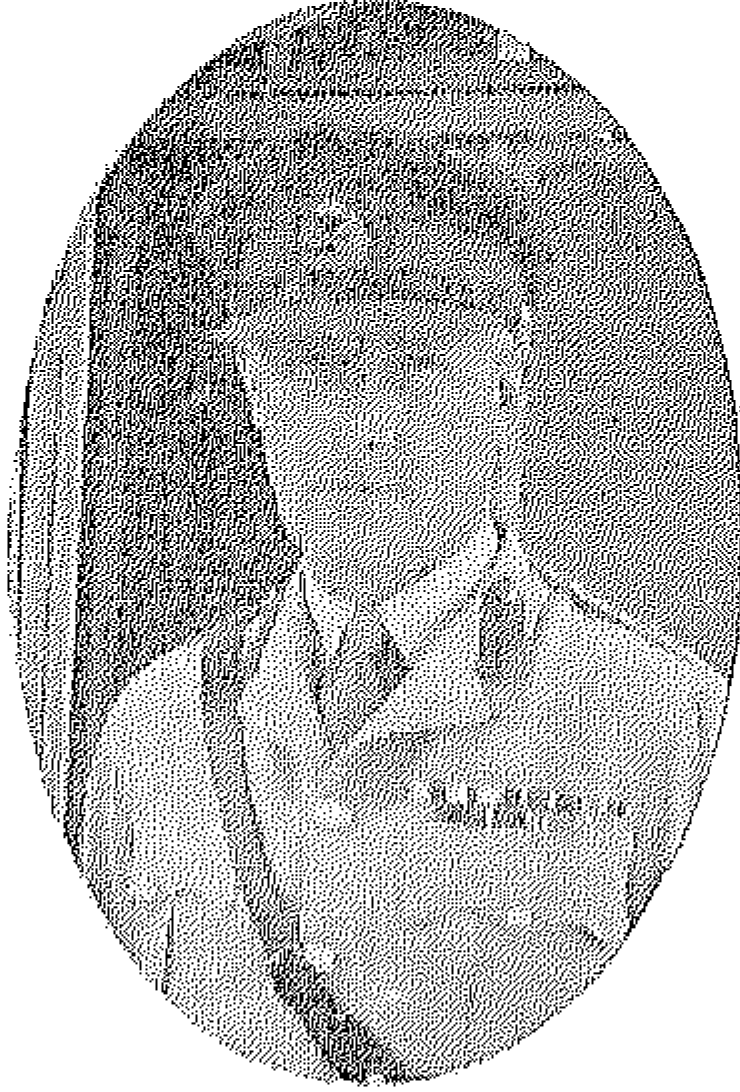
وقد كان المستر ويندل ويلكى — الرجل الثانى فى أمريكا — من الأقطاب الذين أشاروا بتصريحات إلى خطط المستقبل فكان مما قاله : « إن الهدف الذى يرمى إليه الحلفاء هو تحرير ساحل أفريقيا الشمالية من قبضة المحور ثم القيام بهجوم ما فى ناحية من أوربا . . »

فلما وصلت القوات الأمريكية إلى الشاطىء الأفريقى قال :

لقد بدأنا العمل حقاً



ايزنهاور
القائد العام للحملة



اندرســون
قائد الجيش الأول
الأنجليزى



مارك كلارك
قائد الجيش الخامس
الأمريكى

قادة الحملة الأنجليزية الأمريكية

الحملة الإنجليزية الأمريكية

في يونيو سنة ١٩٤٢ طرأت على أذهاننا سانحة كانت بداية لتلك السلسلة من بنات الفكر التي انتهت إلى حادث تاريخي ، وهو نزول القوات الأمريكية والبريطانية في شمال أفريقيا

وسوف يثبت التاريخ أن هذا المشروع العظيم خير مثل يحتذيه من يريد أن يشهر حربا على عدو له . .

ونستون تشرشل

كان قد تم إعداد المسرح لفصل الهجوم

ودق ناقوس الافتتاح في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٩٤٢ يوم بدأ الهجوم الكبير في ساحة العلمين

ثم رفع الستار في الثامن من نوفمبر عن أقوى مشاهد الحرب الأفريقية وآخر فصولها

وسمع العالم صوتاً عالياً مؤمناً بالحرية والإخاء والمساواة يعلن أن قوة أمريكية كبيرة مدججة بأمضى أنواع الأسلحة الحديثة نزلت على سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي على طول المستعمرات الفرنسية

وهـذا العمل قد نظم مع الحملة البريطانية فى صحراء مصر لمنع جيوش المحور من احتلال أى جز من شمال أو غرب أفريقيا « وكانت هذه الأعمال قد أصبحت ضرورية بسبب تهديد المحور المتزايد لهذه الأراضى . . »

وأقبلت عبر الأطلنطى أكبر حملة اجتازت البحار وأعظم قافلة عرفها تاريخ الحرب فقطعت ألوف الأميال ووصلت فى اللحظة المحددة على الرغم من مجراها المحفوف بخطر الطائرات والغواصات ، وتم إنزال مائة وأربعين ألفاً أو تزيد فى أماكن عديدة وفى أوقاتها المقدرة

وكانت هذه الحملة التاريخية مكونة من قوات برية وبحرية وجوية أمريكية تشتمل على جنود الهجوم ووحدات من القوات التى تحملها الطائرات وزهرة وحدات الطيران الأمريكى ، وكان القائد العام لهذه الحملة الچنرال الأمريكى ، دوايت إيزنهاور ، ويعاونه الچنرال مارك كلارك قائد القوات البرية

ويعد هذا المشروع الذى أعده الحلفاء بعناية أقوى الأعمال الحربية التى نهضوا بها فى هذا الصراع الكبير ، فقد جاءت مئات السفن من الشاطىء الآخر للأطلنطى ، ذلك الخضم الرهيب ، ومن المياه الإنجليزية ، وهى تعج بخيرة جنود الهجوم والمحاربين الفدائيين الذين ذكرت الأنباء أنهم كانوا يجهلون وجهة إبحارهم

وقطعت بعض هذه البواخر والسفن ثلاثة آلاف ميل فى رحلة

مخيفة لم يكن لها سابق ، ودون أن ترتكن إلى قواعد متوسطة ، ثم انتهت بهذا التوفيق الذى يدعو إلى الإعجاب بسلامة الخطة ودقة النظام ووفرة الاستعداد

وكانت صنادل الهجوم تنقل هذه القوات العظيمة فى حراسة الطائرات والطرادات والمدمرات ، وكان الأسطول الانجليزى يحمى نزول القوات فأقام حلقة خارج الجزائر وغيرها من مواضع الهبوط فى الموانى المكشوفة بينما راحت الزوارق تنقل الجنود إلى الشاطىء

واشتركت فى الحملة قوات انجليزية كبيرة وعدد من جنود المظلات وكان يتولى قيادة الجيش الأول الجنرال اندرسون ، والأعمال الجوية الإرمارشال وليام ولسن وكان الأسطول وجميع العمليات البحرية تحت قيادة الأميرال كننجهام

وهبطت قوات كبيرة من رجال المظلات فى أماكن مختلفة من أفريقيا الفرنسية حملتهم إليها طائرات النقل الأمريكية فى حراسة طائرات مقاتلة ، وكان عليهم القيام بعدة استكشافات هامة واحتلال المطارات ونقط المواصلات الرئيسية ، ومعاونة وتنظيم الجهود الفرنسية ، وتمهيد الطريق للأعمال المقبلة

وتوزعت الحملة الأمريكية فى ثلاث قيادات رئيسية اتجهت الأولى إلى المغرب الأقصى واتخذت الدار البيضاء « كازا بلانكا » مركزاً لها

واتجهت القوتان الباقيتان إلى بلاد الجزائر واتخذتا مينائى الجزائر ووهران مراكز أعمالهما

وكانت مواضع نزول القوات فى صافى ومراكش و بورنيقة ووهران ومدينة الجزائر وموجادور وفضالة وميناء ليوتى وكازا بلانكا وفيلبقيل

أما أغراض الحملة الأمريكية الانجليزية فنوردها فيما يلى :

(١) عدم تمكين المحور من استخدام المياه الاقليمية الفرنسية فى تونس لتوصيل الإمدادات إلى قواته فى الصحراء

(٢) احتلال تونس قبل أن يحتلها الألمان ، وهذا جزء من الخطة العامة لحصر قوات المحور والقضاء عليها فى شمال أفريقيا ، والعمليتان الهجوميتان فى شرق وغرب أفريقيا هما شطرا فكرة واحدة استراتيجية وسياسية جهزتا لبلوغ غرض حربى كبير

(٣) التعاون مع قوات فرنسا وضمها إلى الحلفاء كقوة محاربة ، وقد جاء فى بيان الجنرال إيزنهاور أن هذه العملية « عملية حربية موجهة ضد قوات المحور ، وغرضنا الوحيد هو إهلاك عدونا المشترك وتحرير فرنسا » .

(٤) فتح البحر المتوسط أمام قوات الحلفاء الجوية والبحرية

(٥) تهديد المحور وتشتيت أفكاره وقواه فيما يختص بموضع الجبهة الثانية

(٦) تسهيل مشروع الهجوم على أوربا بعد إتمام احتلال

الساحل الإفريقى وتأمين المواصلات البحرية ، ويؤيد ذلك قول مستر تشرشل « لقد جئنا إلى افريقيا الشمالية جنباً إلى جنب مع أصدقائنا وحلفائنا الأمريكيين لغرض واحد فقط هو الحصول على أرض نفتح منها ميداناً جديداً »

(٧) تخفيف الضغط الذى كان الروس يلاقونه فى ذلك الوقت من أشد هجوم ألمانى على جيوشهم وذلك بجعل الألمان يضطرون إلى إرسال قوات إلى أفريقيا وأخرى إلى السواحل المحتلة لتأمينها ضد الأعمال الهجومية المنتظرة

(٨) منع المحور من الحصول على معادن شمال أفريقيا والمواد الغذائية التى يمد بها قواته وأداته الحربية

وقد اتخذت الترتيبات لتوضيح وجهة النظر الأمريكية الإنجليزية للفرنسيين وأهالى تونس ، ففى أثناء بدء الأعمال وفى اليوم الذى أعقب نزول القوات إلى البر كانت الطائرات تقذف المنشورات ، وكان بعضها يتضمن نداءات الرئيس روزفلت و بيانات القائد العام ، وأجدرها بالذكر البيان الذى أذاعه الرئيس الأمريكى إلى الشعب الفرنسى والفرنسيين فى شمال افريقيا وقد جاء فيه « لقد جئنا إليكم لنسحق أعداءكم ونقضى عليهم لا لشىء آخر ، فقدموا إلينا معونتكم بقدر مايمكنكم . . وسنشهد جميعاً عودة اليوم المجيد الذى تسود فيه حرية

العالم . . » وأعلن أن السيادة الفرنسية على هذه الأراضى لن تمس إطلاقاً .

وقد أذاعت وزارة الخارجية البريطانية تعقيباً على ذلك أن حكومة صاحب الجلالة « تؤيد كل التأييد ما ينطوى عايه بيان الرئيس من سياسة وما تضمن من مبادىء سامية ، وليس لحكومة جلالته سوى رغبة واحدة فى علاقاتها بفرنسا وهى التعجيل باليوم الذى ينضم فيه جميع الفرنسيين فى كل مكان ويتحدون لإعادة استقلال فرنسا وعظمتها . . »

ورغماً من كل هذه التأكيدات والتمنيات أصدر المارشال بيتان أمره إلى القوات الفرنسية فى شمال أفريقيا بقيادة الأميرال دارلان والجنرال جوان بأن تقاوم نزول الحلفاء إلى البر

وحدثت مقاومات فى البداية كان أشدها فى ساحل الأطلنطى من جانب الوحدات البحرية الفرنسية وبطاريات السواحل ، وحدثت عدة مصادمات لا يمكن أن توصف بأنها معارك بين القوات الفرنسية وقوات الحلفاء التى لم تكن تتوقف بل كانت فى بعض الأنحاء تمضى فى سرعة كبيرة

وقد حدث فى فرنسا حدث جديد فإن القوات الألمانية أتمت احتلال فرنسا وقيل إن هذا الاجراء يرمى إلى الأغراض الآتية : —

(١) السيطرة التامة على فرنسا والاستيلاء على الأسطول

(٢) تحسين المواصلات مع إيطاليا إذا هوجمت

(٣) الاستيلاء على قواعد فى غرب البحر المتوسط

(٤) تقوية الشاطىء الجنوبى لأوربا

ومهما يكن من أمر هذا الإجراء فإنه أحدث تأثيراً سيئاً فى أفريقيا الفرنسية ، ويوما بعد يوم كانت الأحوال تتغير فى صفوف الفرنسيين فقويت حركة الجنرال ديجول وبدأ أنصاره ينضمون لقوات الحلفاء بمعنى أن تنتظم قواتهم فى وحدات فرنسية مشتركة فى الأعمال الحربية إلى جانب الحلفاء ، ثم قدم الأميرال دارلان الذى خالف وجهة نظر المارشال بيتان وطلب إلى قوات الاحتلال أن تنضم إلى الحلفاء ، وظهر الجنرال جيرو الذى فرّ فى الوقت المناسب من معتقله فى نيس بفرنسا وقدم إلى شمال أفريقيا وقت بدء الحملة وسارع بإعداد جيش كبير بعد أن قلده دارلان قيادة الفرنسيين

وآزرت الولايات المتحدة حركة الفرنسيين المحاربين وأمدتهم بالسلاح والذخيرة والملابس، وأصبحت فرنسا ممثلة بقدر كاف فى نضال الأمم المتحدة

ولم يمض أسبوع على بدء الحملة حتى توقف القتال فى كل مكان بين القوات المتحالفة والقوات الفرنسية التى صدر لها أمر بذلك من الأميرال دارلان ، وقد أعلنت الهدنة فى مراكش وأمضى الاتفاق بين القائد العام فى شمال أفريقيا وقائد الجنود الأمريكين ، وانقلبت

مقاومات الفرنسيين إلى وجه قوات المحور التى كانت تصل إلى تونس بوحدات كبيرة

. واستقر الأمر للحلفاء فى المغرب ومراكش ، والجزائر واتجه الزحف إلى تونس

وكان الرئيس روزفلت قد أبلغ السلطات الفرنسية والباى بأن قوات الحلفاء تنوى اجتياز تونس لتدمير مقاومات المحور فى شمال أفريقيا ، « وقد تناهى إلىَّ أن الألمان والطليان كانوا يطمعون فى احتلال تونس والسيطرة عليها ، فأرسلت تلك القوات العظيمة لتتعاون مع قوات فرنسا ومعكم للدفاع عن بلادكم ، وليس لهذه القوات من غاية سوى تحطيم أعدائنا المشتركين فى أقرب فرصة . . وفى حولى أن أثق برجاحة إدراك الجنرال ستيفا — المقيم الفرنسى العام — وفهمه الحق صداقة أمريكا الخالدة لفرنسا ، وقد عقدت العزم على شد أزر مقاومة الفرنسيين وأهل تونس . . »

والتقت أغراض الفريقين عند تونس التى أصبحت حلبة السباق وسيكون للفائز فيها مركز خطير حقاً

وكانت قوات ألمانية متنوعة قد نزلت فى تونس و بنزرت و بعض القواعد الأخرى ، وأخذت هذه القوات تشد أزرها الغواصات والطائرات تسعى لعرقلة وتعطيل زحف الحلفاء ، بينما كانت تتلقى الإمدادات ، وجمع كل من الفريقين غاية جهده استعداداً لخوض صراع

كبير من أجل تونس ، مفتاح المنطقة الوسطى من البحر المتوسط ، وقاعدة الألمان الممتازة التي يرى الحلفاء ضرورة السيطرة عليها لكي يصبح بقاء قوات المحور في افريقيا مستحيلا

وعززت قوات المحور بإمدادات وافية ، وطائرات وغواصات بذلت جهداً كبيراً في مضايقة أعمال الحلفاء ، وكسب الألمان الشوط الأول في عمليات تونس وأرسو قاعدة أعمالهم التي تولاها الجنرال نهرينج ، من مشاهير القواد الألمان والقائد الشديد البأس الذي عرف في الميدان الروسي باسم « جزار موسكو »

... فقد كان لايريد أسرى ولكن قتلى

استعد كل من الفريقين لعمليات كبرى محتملة الوقوع بسبب تونس وفي يوم ١٨ نوفمبر أصدرت قيادة الحلفاء في شمال افريقيا بلاغاً جاء فيه أن وحدات الجيش الأول البريطاني بقيادة الجنرال اندرسون ومعها جنود من فرق المظلات الأمريكية والإنجليزية والقوات الفرنسية دخلت منطقة تونس من عدة نقط والتحمت مع وحدات العدو الاستكشافية ، وقدّر عدد الجنود التي نفذت إلى تونس في ذلك التاريخ بثلاثمائة ألف مقاتل مسبوقة بجنود فوق المظلات ، وقد اشترك في هذا الزحف نحو ثلاثين ألف فرنسي تحت إمرة الجنرال جيرو

وكانت خطة الحلفاء ترمي إلى « تقطيع أوصال تونس » بالزحف عليها زحفاً مثلث الشعب ، يضغط على قوات المحور من الغرب والجنوب

الغربى والجنوب الشرقى . أما الأهداف المباشرة فكانت طبرقة (على الساحل) وسوق العرب (جنوبها) ومدينتى تونس وبنزرت وهما أهم القواعد .

كما كانت تفكر فى أمر رجعة روميل وتضع الخطة لدق أسفين يفصل قوات الجنرال نهرينج عن قوات روميل بعد وصولها .

و بدأ الصدام فى الأراضى التونسية . وكانت المعارك الجوية متأججة النيران ، واشتركت فيها أحدث الطائرات الأمريكية وأقوى الأنواع الألمانية ، وقوة عظيمة من القلاع الطائرة من طراز « بوينج » التى طغت على قوة المحور الجوية

وكللت الأعمال البرية بنجاح فاق ما كان منتظراً — على حد ما وصفه الرؤساء والقادة — وانتهت المرحلة الاستراتيجية ، و بدأ فصل العمليات التكتيكية الفاصلة فى أمر تونس ومصير الحرب الأفريقية

فرنسا الحرة تعمل

قضى الأمر ، وحلت المحنة وكفت فرنسا عن مقاومتها بعد الهزيمة الفاجعة ، وطلب المارشال بيتان إلى الحكومة الألمانية شروطها لعقد الهدنة .

وكانت انجلترا قد اقترحت على زعماء فرنسا إنشاء «دولة انجليزية فرنسية متحدة» ولكن الخطر كان أسرع مما يتوقعه الجميع ، فسقطت وزارة رينو وشكل المارشال بيتان الوزارة وأمضى الهدنة مع ألمانيا فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤٠

وقسمت فرنسا إلى قسمين : فرنسا المحتلة ومركز إدارتها باريس ، وفرنسا المستقلة (أو غير المحتلة) وعاصمتها فيشى ، ثم تولى فيليب بيتان جميع السلطات وأصبح رئيس الدولة فألغى الدستور الجمهورى وجعل دستور فرنسا الجديد « العمل والأسرة والأخوة » وسعى إلى الاتفاق مع ألمانيا

وقد رأى مستر تشرشل أن هذه الهدنة مجحفة ظالمة « فهى تضع فرنسا تحت رحمة المحور وسلطانه ، وتمكنه — بموافقة حكومة

بوردو — من استخدام الموارد والأراضى الفرنسية فى مهاجمة الحلفاء »

ورأى هذا الرأى بعض الفرنسيين وعارضوا الهدنة ودعوا لمقاومة المحور فى المستعمرات الفرنسية ، وتزعم هذه الحركة الچنرال ديجول ، القائد الفرنسى الحصيف ، فقد جاهر بمعارضته لسياسة بيتان وأخذ فى تنظيم قوات فرنسية حرة فى انجلترا والمستعمرات الفرنسية للدفاع عن استقلال فرنسا والاشتراك مع الحلفاء ضد المحور

وقد وصل إلى اتفاق مع الحكومة الانجليزية فى ٣ يوليو سنة ١٩٤٠ ، فاعتُرف به زعيما لحركة الفرنسيين الأحرار ، وأذاع بياناً على « الجنود الفرنسيين — أينما كانوا — أن يقفوا بثبات وأن لا يلقوا السلاح لأن هـذه الفعلة أكبر جرم فى حق الوطن الكبير » وراح يناقش بيتان أسباب النكبة الفرنسية ويسأله « غلطة من كانت هذه يا سيدى المارشال ؟ ... إن المجرمين فى حق فرنسا هم الذين أخروا وحطّوا من استعداداتها الحربية ... هؤلاء الذين كانوا وزراء الحربية وقواد الجيش ... » ثم أهاب بجميع الأحرار أن يتبعوه ، وبالمعتقلين أن ينتظروه لأن العدالة ستحل عند ما يأتى النصر . .

ولقيت حركة ديجول أنصاراً عديدين فى كثير من المستعمرات الفرنسية التى انضمت إليه وفى البلاد المحايدة ، وعارضت فيشى هذه الحركة ووقفت فى وجه انجلترا فى سوريا ، ولم تخل العلاقات بين فيشى وأفريقيا الشمالية الفرنسية من الأزمات ووجوه الخلاف

وقد اشتركت قوات فرنسا الحرة فى حرب الصحراء، فكانت إلى جانب الجيش الثامن فى جولاته، واشتهرت هذه القوات بدفاعها عن بير حكيم فى يونيو سنة ١٩٤٢ تحت قيادة الچنرال كوينج . . وعند ابتداء معركة العلمين كانت فرنسا ممثلة بنصيب مشهور فى نضال الأمم المتحدة فاشتركت فى تلك المعركة أكبر قوات للفرنسيين الأحرار بقيادة الچنرال د لارمينا

ولما حدثت حملة أفريقيا دعا الرئيسان روزفلت وتشرشل الفرنسيين لتأييدها وتوحيد الصفوف لخوض القتال إلى جانب الحلفاء . وقد جاء فى إذاعة رئيس الحكومة الانجليزية أنه يجب أن يقف الفرنسيون وقفة رجل واحد فيضموا صفوفهم ويتحدوا عملا وروحاً : « وها هى الساعة التى يجب فيها على كل فرنسى أن ينسى أحقاده وأن يفكر فى تحرير الوطن . . كما فكر الچنرال ديجول »

وقد أذاع الچنرال ديجول دعوة لجميع الفرنسيين الأحرار يقول فيها «لقد تعهد الحلفاء بإدخال شمال أفريقيا الفرنسية فى حرب التحرير، وقد وفقوا كل التوفيق فى اختيار وقت العمل ، وها هى اللحظة قد أتت وعلينا أن نبذل كل ما نستطيع . . »

وكان المارشال بيتان ، رئيس الدولة ، قد أصدر أمره — كما قدمنا — بمقاومة أعمال الحلفاء ، وعين الچنرال نوجس فى ١٠ نوفمبر مندوباً عنه فى أفريقيا فلما وصل إلى الجزائر وجد الأميرال دارلان قد

وصلها فتفاهما على الموقف — وكان الأميرال دارلان فى جولة تفتيشية قبل وصول الحملة الأمريكية واحتلال بقية فرنسا — وسلم نوجس إلى الأميرال سلطانه ووضع نفسه تحت أوامره ، فتقلّد دارلان تبعة المحافظة على المصالح الفرنسية فى أفريقيا وصادقت على ذلك السلطات الأمريكية التى اعتزم العمل معها ، وقد أصدر الچنرال كلارك نشرة بذلك جاء فيها إن الچنرال إيزنهاور سيعمل بالتعاون مع الأميرال دارلان على الدفاع عن شمال أفريقيا

وقد يلوح من هذا الإجراء أن حركة الفرنسيين الأحرار قد أصبحت بين فريقين يتجاذبان أزمّة الأمور ، فهناك الچنرال ديجول الذى يعمل مع انجلترا ، وهناك الأميرال دارلان تؤيده السلطات الأمريكية ، ومهما يكن من الأمر فان الحركة ذات الشعبتين كانت تعمل فى غاية واحدة

وقد ظهر الچنرال چيرو أيضاً فى أفريقيا ، وهو القائد الفرنسى الباسل الذى بُعث به فى وقت الأخطار الماحقة ليصلح غلطة « كوراب » ويمنع تدفق الغزاة الألمان من الثغرة المشئومة فى الاستحكامات الفرنسية ، ولكنه بعد قليل وقع فى أيديهم ، وقد استطاع الفكاك من الأسر بأعجوبة لم يكتشف سرها بعد ، فاختفى من معتقله فى نيس ثم جاء إلى شمال أفريقيا وأذاع بياناً قال فيه : « هذه فرصتنا للعودة إلى الحياة فلا يسعنا أن نهملها ، ليس لنا سوى أمنية واحدة هى فرنسا ، وليس لنا سوى هدف واحد هو النصر »

ورأى الأميرال دارلان أن « من مصلحة فرنسا وحرصاً على الصالح العام فى شمال أفريقيا أن يعين الجنرال جيرو — ذلك القائد العظيم — قائداً عاماً فى أفريقيا وهو الذى خدم فرنسا بشرف دائماً »

فأذاع چيرو على جنوده : « إننى ، بعد أن عينى الأميرال قوميسيراً عاماً فى أفريقيا ، تسلمت مقاليد القيادة العامة لقوات فرنسا البرية والجوية ، وليس لنا سوى عدو واحد هو الذى احتل وطننا، فيجب علينا أولا أن نطرده من أفريقيا ثم من فرنسا ، وستكون مهمتنا شاقة لأن عدونا شجاع وكامل السلاح ، ولكنكم بفعالكم المجيدة قد أظهرتم ما أنتم جديرون به »

ولم تر اللجنة الفرنسية لتحرير الوطن — برئاسة الچنرال ديجول أن تشترك « بأى شكل من الأشكال فى المفاوضات الدائرة فى أفريقيا الفرنسية مع ممثلى فيشى » وتنصلت من هذه المفاوضات ، إلا أن ذلك لم يمنع — كما قدمنا — من استمرار الأعمال فى الطريق المطلوب السير فيها بغير إضرار بالمصلحة العامة

وشرع الجنرال چيرو فى مهمته و بدأ العمل بوقف ما كان قائماً من المقاومة الفرنسية وأخذ فى إعداد الجيش الجديد ، واعتُبر فى شمال أفريقيا زعيما سياسياً ، فقد كانت له مكانة مرموقة حيث خدم كثير من الضباط تحت قيادته وكانوا فى رتب أصغر

وأخذت حركة الفرنسيين المحاربين تنتظم بسرعة حتى تكون

منها قوة حربية مناضلة استطاعت أن تعمل مع قوات الولايات المتحدة، وقد وافق القائد العام على أشد أزر الچنرال چيرو، وتعهدت حكومته بتقديم ما يحتاج إليه الجيش الفرنسى الجديد من أسلحة ومهمات

و بينما كانت قوات الچنرال د لارمينا تشترك مع الجيش الثامن فى زحفه المظفر من العلمين نحو طرابلس كانت قوات چيرو تأخذ مكانها بين القوات الذاهبة شرقاً، فأصبحت فرنسا ممثلة فى معركة البحر المتوسط — وهى تدخل دورها الحاسم — بفكرة تدمير المحور و إعادة فرنسا إلى مكانها الطبيعى

ولم يفت تشرشل أن يصرح بتلك الآمال فى خطبته التى ألقاها فى منتصف نوفمبر معبراً عن إيمانه و يقينه: «بأن فرنسا ستنهض مرة أخرى من كبوتها، لأنه ما دام هناك رجال أمثال ديجول وجميع الذين يناصرونه والجنرال چيرو ... الجندى الباسل الذى لا يمكن أن يسعه سجن من السجون . . فإن ثقتى بمستقبل فرنسا لا تتزعزع ... »

مع الجيش الثامن

لم توضع خطة الهجوم فى العلمين لمجرد غايات متواضعة ، ولم تكن كسابقاتها ترمى إلى التغلب على دفاعات العدو أو طرده إلى الوراء بعيداً عن الحدود المصرية فحسب ، ولـكنها كانت خطة زحف كبير ، إن لم يعجل بالقضاء على الخصم فسيتبعه إلى نهاية الطريق بعد مئات الأميال

فهذه المعركة — العلمين — وهي ذاتها معركة كبرى وعمل عسكرى عظيم ، قد وضعت وحدد وقتها لتكون مقدمة وجزءاً من المشروع الضخم الذى أراد به الحلفاء تدمير قوات المحور و إنهاء آخر مقاومة لها فى أفريقيا . وقد حددت ضربة العلمين بحيث تجىء ملائمة للضربة الأخرى التى جاءت من الغرب ، ولهذا كان لأصحاب هذه الخطط أن يدقوا أجراس النصر عند ما لاحت تباشيره ونجح الجنرال مونتجمرى فى طرد روميل خارج مصر

و إذا كان هذا الذى قدمنا هو غرض الجيش الثامن أمكن للقارئ أن يدرك مبلغ ما بذل من المجهود وما حشد فى ساحة العلمين من قوات وأسلحة وذخائر ومعدات ، ليس للقوات البرية وحدها



مستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية
يصافح الجنرال مونتجمرى قائد الجيش الثامن مهنئاً

« وإنى فى شك من أنه أتيح لأمبراطوريتنا من قبل أن كانت لديها أداة قتال رائعة تحاكى الجيش الثامن الذى لا يبعد أن يصبح أحدوثة الناس فى جميع أنحاء العالم . . »

مونتجمرى

ولـكن لقوات البحر والجو ذات المجهود الفعال والأثر الحاسم فى هذه الحرب .

وكانت الخطة تقضى بأن يبدأ الجيش الثامن هجوماً خاطفاً يصوب فيه للعدو ضربات قاضية سعياً إلى تدمير القوات المدرعة والقضاء عليها كقوة مقاتلة . . وقد نفذ هذا الجزء من البرنامج فكان هجوم العلمين قوياً مفاجئاً لقوات المحور وضربة شديدة أنزلت بها خسارة جسيمة فى العتاد والأرواح وعدد الجنود الذين أسروا . .

ثم اندفعت معركة العلمين رويداً رويدا إلى الأمام ، وكان قتال المشاة ناشباً فى عدة أماكن ، وكل معركة صغيرة تنتهى بالاستيلاء على أرض وأسلحة وأسرى ، بينما شغلت قوات المهندسين و بعض المشاة بتطهير المنطقة من الألغام والمصائد . . وقد كان متعذراً قبل هذه المرحلة من العمل أن تدخل الدبابات لتوجه ضرباتها الحاسمة فأعطى ذلك للمحور فرصة لإعادة التنظيم وسلامة الانسحاب . .

وهذه الحملة التى ستدرس فى الغد كمشروع حربى عصرى كامل كانت حافلة بدروس الحرب وأساليبها الجديدة ، وكان من أبرز مظاهرها تعاون أسلحة الحرب الثلاثة ، فالجيش نال تأييداً هاماً من الجو ، كما تكفلت القوات البحرية بتدمير وسائل التموين البحرية فى البحر المتوسط ، وكان الهجوم على مواصلات المحور هجوماً مستمراً قوياً عملاً جديراً بالذكر نهضت به القوات الجوية والغواصات وسفن الأسطول

وكان سلاح الجو البريطانى المؤيد بمركبات الهواء الأمريكية الضخمة مصدر قوة عظمى ، فالخطة الحربية الكبرى — كما يراها تشرشل — هى أكبر ما يمكن من المعارك الجوية . . وقد كان للقوات الانجليزية تفوق جوى حاسم أمنها من خطر طائرات المحور ومهد لها الطريق ، بضرب المركبات ومراكز التموين ومحلات التجمع ونقط المواصلات

ولم يدع الأسطول فرصة لسفن المحور فوقف لها بالمرصاد وقضى على المحاولات المختلفة التى بذلت لتوصيل الجنود والتموين ، وقام على حراسة الشواطىء وتأمين المواصلات الانجليزية ، وأحرز سيطرة على البحر كانت عاملاً هاماً من عوامل النجاح

وقد كان للقوات الانجليزية ميزة كبرى فى تفوق مواصلاتها على مواصلات المحور ، واستناد هذه المواصلات إلى قواعد عامرة ، وقد اتخذت الترتيبات — التى عززتها التجارب السابقة — لتدعيم هذه المواصلات التى أخذت تمتد بعد وقت مئات الأميال

وكانت محطات الغيار ومستشفيات الميدان تتنقل دائماً إلى الأمام وتؤدى أعمالها بعناية فى تخفيف الآلام و إسعاف الجرحى و إعادتهم بسرعة إلى ساحات القتال ، وكان الأطباء والجراحون والممرضات يعملون بشجاعة ومهارة فى أشد الظروف خطراً وهو أمر يجب أن يحسب بين عوامل النجاح التى لازمت قوات الصحراء

ويوماً بعد يوم كانت أفواج الأسرى تفد بغير انقطاع وتلقى بالأدلة القاطعة على مدى التدهور الذى حل بقوات المحور بينما كانت تسرى فى الجيش الثامن نشوة الظفر وحماسة المنتصر، ورغبة الآمل فى ضرب عدو طالت مراوغته، وإنهاء قتال تعددت حلقاته

وقد حالف التوفيق عمليات الجيش الثامن، بتكاليف بسيطة، فرد قوات المحور عن العلمين وأتم جلاءها عن الحدود المصرية. ومما يجدر بالذكر — مع أنه سيكون من تسجيل التاريخ — أن مصر أدت ما عليها وقامت بواجبها فى هذه الفترة العنيفة المليئة بالأحداث والمحن، وبظنى أننا لا نجد لتأكيد ذلك خيراً من الشهادة التى أدلى بها مستر تشرشل عند ما أفضى بتصريحه المشهور عن موقف مصر فقال: « . . فمصر ولو أنها كانت ولا تزال بلداً محايداً فليس من الحق مطلقاً أن يقال إن مصر لم تقم بدور مهم مشرف له قيمته، لا فى دفاعها عن نفسها فحسب بل فى الصراع العالمى الذى أخذ يتقدم تقدما عظيما نحو نهايته . . »

كما أنه بعث برقية إلى رئيس وزراء مصر يقول فيها: « إننى لا أزال أذكر مع الإعجاب روح الثبات الذى أبدته الحكومة المصرية والشعب المصرى عند ما كان الخطر على أقصاه . . »

وقبل أن ينتصف شهر نوفمبر سنة ١٩٤٢ كانت جميع مقاومات المحور فى حدود مصر قد أخمدت، وخطا الجيش الثامن فى ليبيا،

ودقت الأجراس فى جميع أنحاء الأمبراطورية البريطانية احتفالا بهذا الانتصار العظيم

وفى برقة لم تثبت جيوش المحور وتقاتل و إنما أمعنت فى الانسحاب، واستمر الجيش الثامن فى مطاردته لها ، فاحتل البردية ودخل طبرق فى الثالث عشر من نوفمبر، فكان هذا الزحف من الأعمال العسكرية الجليلة ، وقد تحدث الجنرال الكسندر عند ما وصل الأمر إلى هذا الحد فقال : « لقد ربحنا الجولات الأولى بصورة قاطعة ، و إذا كان هناك عمل يستحق أن يوصف بأنه هجوم خاطف فهو ذلك العمل المثمر الذى قام به الجيش الثامن ، إذ وصل من العلمين إلى طبرق فى أسبوع فقطع أربعمائة ميل ، وهى عملية شاقة مضنية . . »

وكان روميل — فى تراجعه — يبذل كل ما فى وسعه من نشاط وكفاية لتعطيل الزحف الذى كان ينهب الطريق خلفه ، فاستخدم الألغام بمهارة وحذق ، ولم يترك خلفه إلا هيا كل محطمة للكبارى والمنشآت التى مر بها ، وأدى عمل المؤخرة ببراعة أجهدت القوات الامبراطورية وصعبت تقدمها ومنعتها من الظفر بالطريدة ، فاستطاع روميل أن ينجو بقواته من المحنة المروعة التى كادت تصيبه . . ومهما قيل عن الأرباح التى كانت للخلفاء فيجب أن نذكر أن جيش روملِ لم يدمر

. . و بلغ الجيش الثامن مشارف طبرق ، وأطل الجنود على البلدة

الشهيرة التى شهدت قتالهم الرائع — غالبين ومغلوبين — وكان لهم فيها جولات وصولات . كانت طبرق — كما جاء فى مذكرات أحد الضباط — عالية كأنها تعلن عن مجدها ، مرتكنة إلى البحر كمن يتطلب الهدوء بعد أن طال به العناء . . وشوهدت إلى جانبها البواخر الغرقى والأجنحة الكسيرة ، فقد وقع الحافر فيما حفر ! . . كانت البلدة مهدمة ولكن « التاريخ » أكسبها جلالا ، فكم اهتز البرق لنبأ من طبرق ، وكم اشرأبت الأعناق واحتبست النفوس انتظاراً لحدث فى طبرق . . ها هى اليوم مهدمة صامتة ، ولن تلبث حتى تعود عامرة صاخبة

ثم تحركت القوات إلى درنة و إلى المخيلى ، وفى الطريق شوهدت عدة مزارع صغيرة تحتشد فيها المبانى الريفية الصغيرة ، ولكن دخولها لم يكن سهلا فقد كانت الألغام مخبأة فيها بعناية ومبثوثة فى محتوياتها بمهارة وتمويه

ومن أمثلة ذلك أن المفاتيح والأكر وما يشابهها كانت متصلة بالأسلاك الكهربائية ، فكانت أقل حركة بها تبعث التيار فينفجر اللغم وتقع الخسائر البالغة ، وفي قطع الأثاث والتحف والصور ، وحتى حنفيات المياه . . فانظر كيف يتربص الإنسان بالإنسان !

وقد استمرت المطاردة ولم تخل من وقائع صغيرة كلما اتصل الجيشان ؛ ولكن قوات روميل كانت تتجنب القتال ما استطاعت ،

وكانت خطتها التراجع بسرعة نحو بنغازى ، وكانت هى الميناء الوحيد الذى كان باقياً لدى روميل لتموين قواته ، وتوقع الكثيرون أن تصبح بنغازى ساحة حرب كما حدث غير مرة ، ولكن قوات المحور مرت بها دون أن تبدى رغبة فى الثبات ، وظهر بوضوح أن روميل شارع فى رجعة طويلة لم يصل إليها من قبل ، فدخل الجيش الثامن بنغازى فى ٢٢ نوفمبر

.. وأصبحت أحداث هذه الحرب تجرى على وتيرة منتظمة ، روميل يقيم العراقيل ويبث الألغام ويمعن فى الانسحاب ، ومونتجمرى يجد فى السير متمنياً أن يقطع على عدوه خط الرجعة فيقضى عليه .. فكان سباقاً غريباً أبدت فيه قيادة الفريقين غاية ما لديها من مهارة وجسارة ، وكان للطائرات فى ذلك أثر واضح يظهر فى أن اتساع مدى الأعمال الحربية كان بقدر انتقال قواعد الطائرات إلى الأمام

وسارت قوافل التموين التى لم يشاهد مثلها فى أى حملة سابقة ، وهى تحمل المؤن والذخائر للجيش الثامن ، كما شنت المواصلات سليمة يحميها التفوق الجوى والسيادة البحرية ، والنجاح فى العمليات البرية .. بينما كانت قوات المحور تعانى ضعفاً فى وسائل النقل ومسائل التموين التى تعرضت لضربات شديدة بعد معركة العلمين .

ثم جاء وقت فترت فيه الأحوال الحربية بسبب رداءة الجو ونشاط مؤخرة روميل مستفيدة من هذا الظرف .. فكان لزاما أن

تبطؤ المطاردة وخصوصاً بعد أن طالت مواصلات القوات البريطانية كثيراً، وأصبح جلب المعدات من نهاية الخط الحديدى البعيد ، على جانب كبير من الصعوبة

. . وانتهت مطاردة الجيش الثامن لجنود المحور فى سهول لوبيا ، حيث لم تكن الدبابات تلقى عقبات طبيعية فى طريقها ، وبدأت تخطو فى أراض أكثر صعوبة ، وكثبان رملية ، واقتربت من المراكز الأمامية لخط العقيلة الشهير الذى يمتد من البحر عند مرسى البريقة حيث وضع روميل كل ما يملك من قوات فى خط منيع يقوم خلفه واديان عميقان ، الوادى الكبير ، وهو أخدود عميق منحدر الجانبين يمتد من البحر إلى الجنوب خلف العقيلة ، والثانى وادى زمزم وهو عبارة عن خور كبير كثير التعاريج منبعه فى مجاهل الصحراء جنوباً ومصبه فى كثبان الرمال القاحلة والمستنقعات الممتدة على الساحل جنوبى مسراته

وكانت العقيلة مفتاح الموقف ، فالاستفادة من هذين الواديين وما حولهما من أراض صعبة أصبحت منوطة بالتمسك بالعقيلة والأراضى الممتدة بين العقيلة وسرت ، وهى صالحة للدفاع حيث تجد الدبابات عراقيل شتى فى الأخاديد وكثبان الرمال والمستنقعات .

ولا ننسى أن قوات المحور كانت تواجه الخطر من جهتين، فكان عليها أن تتخذ أحد قرارين: إما أن تزيد خط العقيلة تحصيناً وتثبت فيه ،

أو تسرع بالارتداد إلى تونس لنجدة قوات الجنرال نهر ينج والتضامن معها فى ساحة واحدة

.. ولم تشب المعركة التى كانت منتظرة الوقوع عند مرسى بريقة ، فقد أمضى الفريقان أسبوعين فى شاغل كبير واستعداد لهجوم فاصل ، وكانت دوريات المشاة دائبة فى نشاطها ، وبلغت الاستعدادات أقصاها . . وكان الألمان قد نجحوا فى تثبيت عدد كبير من مدافعهم فى مواجهة ضيقة ، وكانت مدافع الميدان قصيرة المدى موفقة فى عملها ، وقد استخدمت أيضا مدافع ٥ مليمتر التى وصفت قنابلها بأنها « تنطلق كالقطار وتنفجر كالبراكين » .. ولكن ذخيرتها كانت قليلة ولهذا لم تكن تطلق إلا فى فترات محدودة من اليوم

وخرجت الدوريات ليلة كعادتها ولكنها لم تلق النيران المعهودة ، فتقدمت فى المنطقة الحرام ولم تجد ما يمنعها من التوغل مسافات بعيدة ، فقد كان الألمان غادروا مراكزهم فى تكتم شديد ودون أن تبدو عليهم بادرة الانسحاب ، واستمرت نيران مدافعهم ومظاهر استماتتهم فى الدفاع بينما كانت عملية الانسحاب تؤدى بحذر ودقة . . وفى الصباح — عند عودة الدوريات — فُهم الموقف تماما ، فقد انسحب الألمان وأخليت مرسى بريقة نهائيا

وقد أرسل الجيش الثامن قوات الاستطلاع فوراً لتلاحق العدو وتكشف حقيقة الموقف ، بينما استعدت قوات من المشاة والدبابات

ورسمت خططها سريعا لمعاجلة العدو و إحباط مشروع انسحابه ، ولـكن الألمـان ليسوا من البساطة بحيث تفوتهم أساليب الإعاقة ، فقد نجحوا فى تلغيم الطريق والمنطقة المحيطة به فأصبح متعذرا على الجيش الثامن أن يتابع التقدم قبل التخلص من هذه العقبات المبثوثة فى كل مكان ، و بدأت فرق المهندسين وقوات من المشاة فى العمل على رفع الألغام ، وتكبدت فى ذلك خسائر فادحة قبل أن تصبح الطريق آمنة مرحلة بعد مرحلة حتى العقيلة . .

ولم تطل فترة الانتظار، فقد كان على الجيش الثامن واجب عاجل وهو تخطى العقبات ورفع المصائد وملاحقة العدو وتدميره ، و بغير هذه النتائج تصبح الأرباح الاقليمية قليلة الشأن ، ولهذا شرعت وحدات المشاة تشق طريقها فى المنطقة التى تركها العدو ، ومضت وسط الألغام التي وضعت بمهارة تحت الطرق وفى نقط متعددة حوله ، وحمل الجنود عبء التقدم فى طريق مملوءة بالعثرات الماكرة ، وكان الخطر الذى يعظم كل خطر — على حد ما وصفته برقيات روتر — هو الشراك الخداعة التى أخفاها العدو فى كل سيارة محطمة ومستودع مهجور أو إناء فارغ ، وفى كل جدار قائم أو حفرة خاوية . .

ولهذا كان الزحف البريطانى بطيئاً ، واستطاع روميل أن يتراجع بأقصى سرعة ممكنة ، ووُصفت العمليات الدائرة بأنها سباق بين قوة تسرع فى الارتداد وقوة تعمل على إيقاف هذا الارتداد ، فكانت

الأولى سلاحها الألغام للتعطيل وقتال المؤخرة للاجهاد . . وكان سلاح الثانية فرق المهندسين لرفع الألغام ، وقوة الجو لضرب المواصلات

ووصلت المطاردة إلى العقيلة

والعقيلة كانت النهاية التى وصلت إليها قوات الجنرال و يفل عند زحفها الجارف فى شتاء ١٩٤١ ، وقد وصفت العقيلة بأنها عنق زجاجة كما وصفت بأنها عنقا زجاجتين وسط منطقة وعرة ذات مستنقعات ، وهى قلعة عسكرية تشرف على ميناء صغير وتحوطها قلاع قليلة وتحف بها كثبان من الرمال الساحلية من الشمال ، والمستنقعات فى الجنوب

وقال مونتجمرى :

« إننا سنكسب معركة العقيلة ، ولا ريب أن روميل جندى عظيم ولكننا سنهزمه ! إن المعركة التى توشك أن تبدأ ستكون من المعارك التاريخية الحاسمة وستكون أيضاً نقطة التحول فى الحرب وسترجح كفتنا »

وفى الرابع عشر من ديسمبر أعلن رسمياً أن روميل ترك مراكزه فى منطقة العقيلة وأن قواته تتقهقر نحو الغرب

وخرج روميل من العقيلة وأصبح أمامه طريق جيد فى حين كانت القوات البريطانية تجد طريقها مليئاً بالألغام والعراقيل ، أما فى الجنوب فكانت رملية خالية المعالم ، وكان من المشاكل التى يواجهها الزحف مشكلة المياه بين العقيلة وسرت .

على أن جميع مصادر الأخبار أجمعت على أن « إزالة الشراك الشيطانية والألغام والفخاخ الماكرة التى خبأها الألمان » كانت أصعب وأخطر المهام التى صادفها جيش مونتجمرى

وكان روميل يرى أنه من الخطأ أن يثبت لمقاتلة قوات كبيرة فيضعف ذلك من قوته ، ولا يجد القوة الكافية لمساعدة نهرينج فى تونس . . وفى السادس والعشرين من ديسمبر دخل الجيش الثامن سرت

وهدأت الأحوال الحربية بعض الشىء ، وفُهم أن روميل لن يثبت قبل وادى الشبير

وكان لابد من وقفة لمراجعة الموقف وتجهيز الخطة و إتمام الاستعداد . .

وكانت منحة من السماء ليقضى الجنود عيد الميلاد وعيد رأس السنة فى أحوال مناسبة

وبزغ فجر العام الجديد — ١٩٤٣ — وقد قطع الجيش الثامن مرحلة عظيمة شاقة من العلمين إلى سرت و بدأ الزحف فى طريق مديد يبلغ ٤٠٠ ميل إلى طرابلس . وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية والتأخير والجهد فى مكافحة الألغام وقتال المؤخرة فإن الجيش الثامن تقدم بمتوسط سرعة كبيرة .

وكانت الحرب ضد مواصلات المحور وموانيه على أشدها ، وقد

حاول روميل بمناوراته التى يحذقها تقصير خطوط مواصلاته، ولكن ذلك لم يحل مشكلة التموين تماما بسبب سيطرة قوة الجو البريطانية ونجاح غاراتها

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام البيان الذى أذاعته قيادة الحلفاء الجوية فى الشرق الأوسط عن نشاط قوات الجو فى خلال عام ١٩٤٢ ، وقد جاء فيه : « قامت طائرات القتال وقاذفات القنابل المتحالفة خلال الاثنى عشر شهرا الأخيرة بما لا يقل عن ٣٠٠ ألف غارة وأسقطت ما يقرب من ألف طائرة للمحور فى معارك جوية فضلا عن أنها دمرت ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ طائرة فى المطارات ومائة دبابة وسيارة مصفحة ، وخمسة آلاف من ناقلات الجنود والبترول والمياه والمعدات الحربية، فضلا عما أنزلته من الضحايا بين الجنود فى غاراتها الاكتساحية وما حطمته من مستودعات الوقود والذخائر والسفن الراسية فى الموانىء أو التى تحاول جلب الإمداد والتموينات الأخرى »

وفى الخامس من يناير استولى الانجليز على بويرات الحسون ، وهى أول بلدة على الساحل تلى سرت ، وقد دمرت قوات المحور البلدة قبل مغادرتها ونصبت الفخاخ فى أمكنة عديدة ، الأمر الذى أجهد سلاح المهندسين البريطانيين وأضعف سرعة الزحف

هذا فى الوقت الذى زحفت فيه قوة الفرنسيين الأحرار من قاعدتها فور لامى «حصن لامى» فى منطقة شاد تحت قيادة الجنرال لكلير، واتجهت

شمالاً للاشتراك فى القتال فقطعت ٢٨٠٠ ميل فى أراض تعد من أوعر البقاع فى الصحراء ، وقضت على حاميات الواحات الإيطالية واستولت على عدة مراكز وصمدت لهجمات جوية عنيفة حتى دخلت طرابلس وانضمت لقوات الجنرالين كوينج ولارمينا ، وقد كان الجنرال لكلير من الضباط الفرنسيين الممتازين فى معركة فرنسا عام ١٩٤٠ وكان برتبة كابتن (يوزباشى) وانضم إلى الجنرال ديجول الذى أعجب بكفايته فرقاه كولونيل (قائمقام) وبعد فترة أولاه قيادة الفرنسيين فى منطقة شاد ومنحه رتبة الجنرال وهو فى الأربعين من عمره

ونعود إلى سير الأعمال الحربية فنلاحظ أن روميل قد أمعن فى الانسحاب على أساس تعطيل الزحف البريطانى بواسطة قتال المؤخرة وبث الألغام وتدمير كل ما يمكن أن تنتفع الجيوش به وغير ذلك من الأعمال التعطيلية التى تعطيه فرصة الانسحاب بسلام مع تكبيد العدو كل ما يستطاع من الخسائر ، ولم يشترك روميل فى قتال جوى خيفة أن تضعف قواته ، وقد كان عليه أن يصل قويا ما أمكن ليشترك فى المعركة الحاسمة ، إلى جانب الجنرال فون أرنيم ، الذى خلف نهر ينج فى تونس.

وفى النصف من يناير ١٩٤٣ استأنف الجيش الثامن زحفه على طرابلس بادئاً المرحلة الثالثة من حملته التاريخية بعد أن استكملت مسائل التموين والإمدادات ، وتقدم فى الدرب الممتد من الفدامية إلى أبو نجيم وفى المنطقتين الوسطى والجنوبية

وكان روميل يناور بمهارة حتى كأن المعركة على وشك الوقوع دائماً ، و يظل انسحابه على هدوئه وحيطته تاركاً وراءه حقولاً من الألغام والفخاخ .. ولم يدُر قتال فى منطقة زمزم ولو أن المُدافع يجد فيها حاجته، فقد كانت تقع بين المستنقعات الساحلية غربى بويرات الحسون إلى الفدامية ، وهى محصنة تحصيناً طبيعياً يوهن قوى القوات المهاجمة ويجعل مهمة إخراج المدافعين عسيرة كل العسر

وكانت الاشتباكات التى تحدث ، خصوصاً عند بدء كل هجوم ، تشبه إلى حد كبير ماحدث فى العلمين ، ففى هدأة الفجر تطلق المدافع كأفواه القرب وتنطلق القذائف فتضىء الصحراء بنارها ، و يستمر الرعد والبرق زمناً ثم تبدأ المشاة والدبابات زحفها . . أما فى الناحية الأخرى فإن المدافع ترد على النيران بمثلها بينما تأخذ المشاة والدبابات فى الانسحاب وعند ما تبطل المدافع يكون الجلاء قد تم عن الموقع

وفى اليوم الرابع من بدء الزحف حصل الجيش الثامن على نتائج مرضية ، فكان يزحف بمعدل ميل فى الساعة ولو أن الأعمال الحربية لم تكن هينة بسبب الألغام، ووعورة الأرض التى كانت تتزايد كلما تقدم المسير . وكانت مقاومات المحور ضعيفة لا تذكر ، واستمرت حركة ارتداده على طول الساحل وفى الطرق المجاورة نحو الجهة الشمالية الغربية بينما كان الجيش الثامن يطوى الأميال ويسرع للّحاق بغريمه

وانتهت معركة ليبيا وأخذت دبابات الجيش الثامن ومدافعه

ومشاته تنساب صوب ولاية طرابلس وأخذت الآراء تتضارب بشأن المكان الذى يحتمل أن يقف فيه روميل ثانية ، وكان أقرب الاحتمالات إلى التصديق هو أن يسرع إلى مسراته للقيام بأعمال تعطيلية جديدة .

ولكن .. لم تدافع قوات المحور عن مسراته فاحتلها الجيش الثامن

وفى هذه الأثناء عقد مؤتمر الدار البيضاء الذى اجتمع فيه رئيس جمهورية الولايات المتحدة ورئيس وزراء بريطانيا فى يوم ١٤ يناير واستمر الاجتماع عشرة أيام وحضره رؤساء هيئتى أركان حرب البلدين لدرس الموقف الحربى العام ، وقد تم فيه وضع خطط الهجوم المشتركة لسنة ١٩٤٣ . وكان أهم القرارات التى اتخذت أن يبدأ هجوم الحلفاء على أوربا فى ذلك العام ، كما تم الاتفاق على تنسيق العمليات الجديدة ، وتوضيح سياسة الحلفاء الحربية وهى : الحرب إلى أن يسلم العدو بلا قيد ولا شرط

وتم الاتفاق على أنه متى حدث انتقال جيش الصحراء إلى تونس يصبح الجنرال الكسندر نائباً للقائد العام — الجنرال إيزنهاور — ويصبح الإرتشيف مارشال أرثرتيدر قائدا عاما للطيران فى البحر المتوسط على أن يكون مسؤولا أمام الجنرال إيزنهاور عن جميع الأعمال الجوية الحربية فى منطقته ، وأعطى فوق ذلك مهمة الإشراف على جميع القوات الجوية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط ، كما يتولى



الكسندر
قائد القوات البريطانية



تيدر
قائد القوات الجوية



كننجهام
قائد القوات البحرية

القادة البريطانيون فى شمال أفريقيا

الارفيس مارشال كوننجهام — الذى يعمل مع الجيش الثامن — تنسيق الأعمال الحربية الجوية لتأييدالجيشين الثامن والأول وجميع القوات الجوية فى ميدان تونس . ويعطى الأميرال سيراندرو كاننجهام قيادة جميع القوات البريطانية والأمريكية البحرية فى تونس ، وتشمل مهمته جميع الأعمال البحرية فى البحر المتوسط

وفى الثالث والعشرين من يناير ١٩٤٣ دخل الجيش الثامن مدينة طرابلس فسقطت العاصمة الأخيرة فى مستعمرات « الامبراطورية الإيطالية » .

وكان الزحف على طرابلس ذا ثلاث شعب ، طابوران مصفحان من الجنوب عبر الصحراء ، وقوات المشاة من طريق الساحل ، وأطبقت هذه القوات على المدينة من الشرق والجنوب بينما كان التقدم شاقا لأن الألمان دمروا خلفهم كل قناة وجسر ونسفوا وجه الطريق ودمروا كل شىء له قيمة عسكرية ، وقاتلوا قتال المؤخرة بدهاء

وتراجعت قوات روميل صوب تونس بسرعة مخافة أن تشتبك فى قتال يضعفها وحذراً من أن يُقطع عليها الطريق . كما أنها كانت جادّة فى تنفيذ خطتها الخاصة بدخول تونس والاشتراك فوراً فى القتال الكبير الذى كان على وشك الابتداء ، ولذلك قام الألمان فى تونس بالهجوم على جسر الحفص للضغط على جيوش الحلفاء وتحويلها عن المنطقة الجنوبية لكى تكفل لروميل وقتا إضافياً للانسحاب بسلام

ودخلت قوات المحور تونس . .

وتم للجيش الثامن فى ثلاثة أشهر من معركة العلمين تدمير الجزء الأكبر من القوات المدرعة ومحق خمس فرق إيطالية من ست ، وتعقب العدو المقهور ١٤٠٠ ميل فى ثمانين يوماً ، والقضاء قضاء حاسماً على ما كان يدعى « الإمبراطورية الإيطالية »

فهذا العمل الكبير كان من الفعال العسكرية الباهرة ذات النتائج الحاسمة . وسيسجل التاريخ للجيش الثامن أنه دفع بعدو كبير إلى هاوية هزيمة مروعة ، ولاحقه فى صحراء وعرة قاحلة ملاحقة لا سابق لها ، وأنه جرّد إيطاليا من آخر بقعة تحت نفوذها ، وقضى على آخر جندى مسلح للمحور فى أفريقيا

فى أوقات الفراغ

يحلو للبعض أن يستطلع أحوال الجنود فى الميدان ليتعرف إلى أساليب عيشهم وألوان حياتهم حين يحتدم القتال و ينتشر الموت فوق الرءوس ، ترى كيف هم فى حلهم وترحالهم ؟ وهل يجدون أوقات فراغ ولحظات راحة و يحظون بفرص للعيش والتفكير كما يعيش الخلق و يفكرون . . ؟ أم أنهم يقاتلون دائماً وقد تملكتهم روح الحقد والشر ، فلا حديث إلا لأسلحتهم ولا تفكير فى غير عدوهم ، وما لهم من حركة أو سكنة إلا لدفع هذا العدو وتفادى ضرباته . . ! ؟

فى مثل هذا يفكر الكثيرون وخصوصاً عند اشتداد المعارك واحتدام القتال بهذه الصور الحديثة الرهيبة ، وهم يقرأون عن القتال وأساليبه ونظمه ولكنهم قلما يقرأون عن حياة الجنود الخاصة واستخلاصهم اللحظات الهانئة من بين الأيام المضنية ، وانتزاعهم فرص المرح من جو الكآبة المنتشر ، وخلقهم الحياة فى مكان يسيطر عليه الموت

وحرب كهذه التى احتدمت فى الصحراء كانت شراً مضاعفاً و بلاء مزدوجاً فقاست الجنود عناء القتال مع جنود شديدى البأس

مصقولى الأسلحة ، ولاقت الويلات من الطبيعة القاسية ، فهل كانت حياتهم كلها سوءاً وشراً مجدبة ليس فيها من معانى الحياة شيء . ؟

أما عن الصحراء وحدها فهى تجمع المتناقضات ، وقد جرى وصفها فى كتب مختلفة اللغات ، وأقربها إلى أذهاننا ذلك الوصف السهل الممتنع الذى ورد فى كتاب « فى صحراء ليبيا » لأحمد حسنين باشا وقد جاء فيه :

« قد يكون للصحراء متاعبها ولها أيضاً ملاذها ، وهى التى تستهوى عشاقها وتجذبهم إليها ، افتتن بها كل من جاب فيافيها ، افتتن بعظمتها المثلة فى فضائها الواسع وسكونها العميق وحياة التنقل المحفوفة بالمخاطر . .

تبسم فما أحلى ابتسامتها وتعبس فما أقسى عبوسها ، تضحك نجومها فتستهوى عابر سبيلها ، ويحتكم فضاؤها فى القلب فتوقعه فى أسرها فيسير مغتبط النفس هانيها سير المؤتنس بها المولع بجمالها . . ولكنها كالغانيات شيمتها الغدر فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة . . »

وقد أحس جنود الصحراء بهذا كله ، وسجلته مذكراتهم ويوميات المراسلين الحربيين ، فكانوا إذا ما تم الاستيلاء على منطقة أو بلدة راعهم مكانها وملكت أفئدتهم روعة الطبيعة فيها فقرأنا أوصافاً ممتعة بين أحاديث الحرب وويلات القتال

ويطول المقام عند سرد قصص الجنود ونوادرهم فى اوقات الفراغ. ولا شك أن هناك أحاديث خاصة وشخصيات معينة تكون غالباً محور التفكه ومدار التسلية، فيسأل أحدهم : ما هو وزن موسولينى؟ فيرد الآخر على الفور : بالمدفع أو بدونه ! ؟.. ويستفهم الآخر: من هم « الأعداء » الذين نحاربهم؟ فيسمع فى التو « هتلر بصفة عامة لأنه أتى بنا إلى هنا، وروميل بصفة خاصة لأنه سيتعبنا وراءه عدة أميـال » . وتدور الفكاهات « المحلية » ولا يمكن أن تخلو منها فعال الايطاليين ولباقتهم فى « عملية التسليم » ونظافة أسلحتهم ! ؟

ويقيم الجنود فى حفر صغيرة Dug Outs لا تتسع الواحدة لأكثر من سرير ميدان (سفرى) وسقفها من الخيش المدعم بعروق الخشب وهم يطلقون عليها تندرا « غرفة التدخين » لأن أحداً لا يستطيع أن يدخن فى الخلاء وخصوصاً فى الليل خوفاً من طائرات العدو

ولا يستطيع الجنود أن يجلسوا فى جماعات صغيرة ، لأنها تجعلهم أهدافاً واضحة للطائرات المغيرة ولذلك تتوزع الجماعات الصغيرة ، وغالباً فى مخابىء، وهذا الوضع لا يخلو من فائدة فإن هذه «الشلل» لا تتغير غالبا إلا إذا فقدت قتيلا أو جريحاً ويكون لهذا الحادث ماله من تقوية الروابط بين الباقين وازدياد الروح الانتقامية فى نفوسهم

ومن الطريف ما ذكره دنهولم يونج فى كتابه «رجال العلمين» من أن الجنود — فى هذه الحرب المجهدة والجو الخانق وعواصف الغبار —

كانوا يجدون أسعد لحظاتهم فى التجرد من ملابسهم والنزول إلى الماء البارد فى البحر المتوسط ولم تكن هناك سعادة تفوق ذلك ، وكانوا لا يفارقون الماء إلا بصعوبة وأسى ، ويقول إن جنود الجيش الثامن هم وحدهم الذين يمكنهم إدراك هذه السعادة الدافقة التى تنسيهم ويلات الحرب ومتاعب الصحراء

وقال إن من الفترات السعيدة فى حياة هؤلاء الجنود وقت « تغيير الملابس المتسخة » ، وعند وصول شحنات من الأغذية الدسمة فيكون الغذاء من المطبخ ، وأيضاً عند ما تغرب الشمس ويهدأ جو الليل وتصفو السماء وتسطع نجومها المؤنسة

ونرى أحد الجنود يسأل صاحبه : لماذا يريد الألمان أن يأخذوا هذه الصحراء الكئيبة ؟ فيجيب : إنهم لا يريدون الصحراء لذاتها ، ولكنهم يريدون مصر وقنال السويس فلا بد من عبور الصحراء . . ونحن هنا لمنعهم ، فيسأله : ولكن أهذه هى إمبراطورية موسولينى التى يتشدق بعظمتها ؟ فيرد عليه : نعم وغداً نُفقده إياها ثم نقفز يوماً ما إلى الغابات والمستنقعات الاستوائية للبحث عن اليابانيين « المساخيط »

وفى حفرة صغيرة جلس زميلان يراجعان حساب الماضى وينظمان خطط المستقبل فيسأل أحدهما الآخر عما سيفعله بعد الحرب ، فيجيبه على الفور :

— آخذ إجازة شهراً ! !

فإذا سأله رأيه عما يفعل مع الألمان قال : يجب أن نقضى عليهم ونريح العالم من الذين يعكرون صفوه خمس مرات فى مائة عام . . ولكن أهم من ذلك أن أعطى الاجازة وأركب عربتى الجديدة ، أمر بها فى جميع شوارع لندن ثم آخذ أدوات الجولف وعصا الصيد إلى الريف لأمضى شهراً . . شهراً كاملاً ! فإذا نهض ليعود إلى مكانه قال لصاحبه : « إلى غرفتى المنيفة التى تشرف على فضاء واسع من جميع الجهات ! »

وهناك إلى صخرة منعزلة جلس ضابطان يتذكران جولاتهما فى لندن ومكانهما المختار فى « حانة كروك » ويتمنى أحدهما كأساً ، فيذهب الآخر غير بعيد وينبش الرمال ثم يعود بزجاجة من البيرة فإذا سأله صاحبه : «من أين لك هذا ؟ » أجاب: « من أسلاب الطليان . . إنهم كرماء إلى الحد الأقصى ، أسلحة وذخيرة وأسرى ومناظر مضحكة ، وهذه أيضاً . . » ويتناوبان الشراب من الزجاجة بطريقة يضحكان لها ، ويأسف أحدهما على الأيام الماضية فيقول صاحبه « إنها لن تلبث حتى تعود يا بيتر ونشرب جالونات وجالونات من البيرة المثلجة فى « حانة كروك » وغيرها . . !

ويريان ضابط التموين « الكوارتر ماستر » ماراً بطريقته التقليدية فلا ينسى أحدهما أن يرميه بفكاهة فيقول : « إنك لا بد عائد بعد الحرب لمسح الصحراء وحصر المهمات ولعمليات التسليم والتسلم »

ويسألانه عن أكلات عيد الميلاد وهل الدندى (الديك الرومى) سيكون سميناً أو إنه مثلنا متعب من الحرب ويأكل ببطاقات .. إنى آكل البولى بيف والبسكويت والمربى منذ قرون ! فهل آكل مرة من المطبخ ؟ »

ويقول الضابط لزميله — وهو أحدث منه فى مدة الخدمة — إن ما يتمناه هو أن يخدم الاثنان معاً فى وحدة واحدة بعد الحرب ، فيصيح الآخر : ولكن كيف ستعاملنى .. هل ستبقى « نفخة الأقدمية » فارقاً بيننا ؟ فيجيبه صاحبه « يا صديقى ، بعد أن رأينا ما رأينا .. ما ذا تكون الأقدمية هذه ! ؟ » ويأخذان فى الضحك إلى ما شاء الله

وهذا قليل من كثير من الحياة العابثة والوقائع الفكهة التى تنتزع انتزاعاً من جو رهيب ، وهى على طرافتها لا تخلو من التعبير عن الاستهانة بالصعوبات والإصرار على ضرورة الاستمرار وشدة التعلق بكسب الحرب

ومن القصص التى لا تخلو من الحكمة أن قائداً سأل أركان حربه عن خسائر اليوم بالكتيبة فقال « ١٥ قتيلا و ٣٠ جريحاً إنها كارثة » ، فيعقب القائد المجرب فى هدوء : « كلا إنها لا توازى نصف الخسائر فى جولة مشابهة من جولات الحرب الماضية ، إن جنودنا يفهمون جيداً طرق الاختفاء والوقاية ويقاتلون بشجاعة وإلا لكانت خسائرنا مضاعفة . ولا تنس أن تسجل أعمال البطولة التى تقع من الأفراد

على اختلاف رتبهم، لأن الذاكرة ضعيفة القدرة فى وسط المعامع، وعليك أن تكتب ذلك فى الورق حتى لا تنسى بطولات الأمس ويهمل أصحاب النصر الحقيقيون . . »

ويذكّره أركان حربه بمؤتمر الغد الذى سيعقد فى رئاسة اللواء ويخبره أن إشارة تليفونية وصلت من رئاسة اللواء بأن تتحرك الكتيبة عند صدور الأمر مباشرة . فيسأله : هل علم بها قواد السرايا ؟ فيقول : نعم، حال وصولها . . ومن أمثال هذه الأحاديث البسيطة نستطيع أن ندرك أهمية إتقان الأعمال العادية مهما كانت بسيطة ، وعدم الإهمال وضرورة تدريب النفس على الجد والاحتفاظ بمستوى عال من الضبط والربط وحب إطاعة الأوامر ، وشعور التقدير والتعاطف بين الزملاء ، زملاء الشدائد والأهوال ، الذين تربطهم أقوى رابطة وتجمعهم أشرف مهنة . . إن شعار « نحن نفدى بعضنا » الذى هو لسان الحال فى الميدان يجب أن يكون شعار الضباط والجنود فى أوقات السلم أيضاً

أجل عليهم ألا ينسوا ، وأن يكونوا بأخلاق الجنود دائماً

وفى ثنايا السطور التى تكتب عن الحرب نستطيع أن نظفر بدراسات طلية للضباط والجنود ونفسياتهم ، ونستطيع أن ندرك أن البطولة والجد والشرف ليست من نسج الخيال أو من أبواب التمثيل ، وإنما هى حقائق فى القلوب العامرة المخلصة ، وهى حقائق المهنة الكبيرة .

وقد وصف أحد الكتاب ضابطاً أركان حرب أعجب به لأنه « رجل عمل ، قليلا ما يجلس للراحة ، وهو يفكر دائماً فى زملائه وفى الجنود محب لرؤسائه كل الحب مشفق عليهم كل الإشفاق ، مخلص لزملائه عطوف على من هم تحت قيادته ، يستغنى عن تكليفهم بعمل إذا استطاع هو أن يفعله ، وفى أشد أدوار المعركة لا يفارق مكانه مهما كان الخطر . . » ويصف آخر « ببسالة منقطعة النظير ، وقد عرفت أنه صرع بقبضته فى حلقات الملاكمة عدداً يقابل ما يصرعه من الألمان والطليان . ! » ويقول عن ثالث إنه أصيب فى الحرب بنوبات صرع تعاوده من وقت لآخر ، ولكنه يخشى أن يبلغ الأطباء ذلك حتى لا يبعدوه عن الميدان ويعيدوه كمدنى لا خير فيه « فقد عاش ليكون جندياً ويؤسفه ألا تعطى له الفرصة الخليقة بالرجال . . »

والذين يحسدون القادة على رتبهم ونياشينهم لا بد أن يعرفوا مسئولياتهم وتبعاتهم الجسيمة ، فإن قليلين فقط يصلحون لأن يكونوا قادة ، ولو عرفت حقيقة أعمالهم ، فإن قليلين أيضاً يحبون أن يكونوا قادة . . .

وهكذا نرى الحرب على ما فيها من محن وخطوب لا تخلو بعض نواحيها من المعانى الكريمة ، ومنها تقويم النفوس وتكوين رجولة صحيحة تصقلها النوائب والأحداث

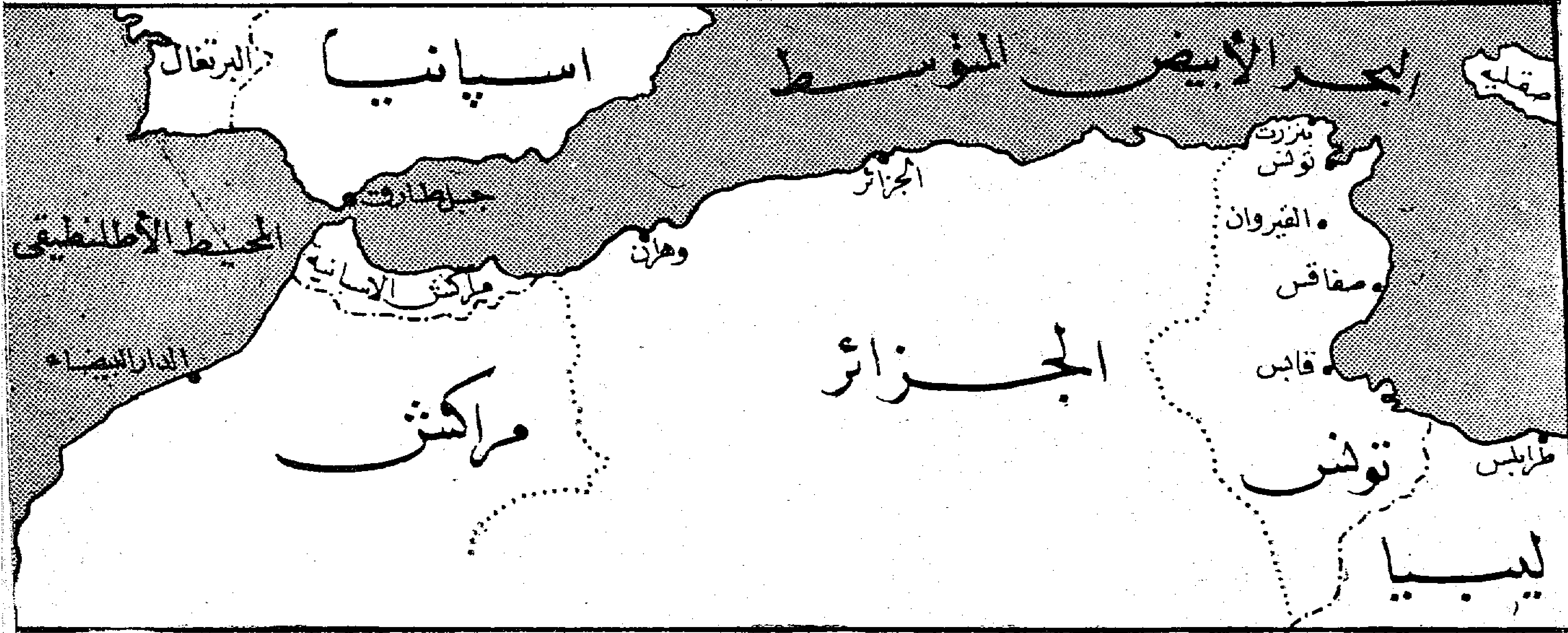
أفريقيا الشمالية الفرنسية

تتألف أفريقيا الشمالية الفرنسية من بلاد المغرب والجزائر وتونس بترتيب وقوعها على ساحل أفريقيا الشمالى ، وهى جميعاً تحت سيطرة فرنسا وإن كان النظام السياسى يختلف فى الواحدة عن الأخرى .

وتعد هذه البلاد أهم مستعمرات فرنسا فهى أقربها إليها ، وتعتمد عليها اعتماداً كبيراً فى التجنيد ويقيم فيها ربع الجيش العامل تقريباً ، وتعطيها مركزاً ممتازاً فى البحر المتوسط ، ولذلك يرى فريق من الرأى العام الفرنسى أن من تبذير الجهد أن تعنى فرنسا بسوريا ولبنان ، ويرى أصحاب هذا الرأى أن موضع العناية يجب أن يكون غربى البحر المتوسط حيث تتواجد مصالح فرنسا الحقيقية

وتنتج شمال إفريقيا معادن ومواد غذائية تجعلها مصدراً هاماً لدولاب الحرب وقاعدة ممتازة للتوريد والتموين .

وتعد مراكش آخر دويلات الساحل الأفريقى من ناحية الغرب ، وقد تمت السيطرة لفرنسا عليها عام ١٩٠٤ بعد أن ظلت ميدان سباق استعمارى كبير بين فرنسا وانجلترا وألمانيا ، وفى عام ١٩١١ احتلت



شمال أفريقيا الفرنسية

فرنسا مراكش وأقامت عليها حاكما فرنسيا مع بقاء السلطان المغربى .

وتبلغ مساحة مراكش ١٣ ألف ميل م وسكانها أربعة ملايين ونصف مليون وعاصمتها رباط التى يقدر سكانها بـ ٨٣ ألفاً ، ومن المدن الهامة الدار البيضاء وفاس وصانى .

أما الجزائر فتعد قسما إدارياً من أقسام فرنسا ، وهى تشمل مقاطعات مدينة الجزائر ووهران وقسطنطينية ، أما جنوبها فصحراء شاسعة . ويتولى الحكم حاكم فرنسى مطلق التصرف يعاونه مجلس استشارى . ويمثل الجزائر فى البرلمان الفرنسى ثلاثة شيوخ وعشرة نواب ، وأهلها يجندون كالفرنسيين سواء بسواء .

ويبلغ تعداد سكان الجزائر سبعة ملايين منهم مليون فرنسى ، وعاصمتها مدينة الجزائر ، وعدد سكانها ٣٦٠ ألفاً وأهم المدن بونا وفيلبفيل .

أما تونس وهى بيت القصيد فى حديثنا — فهى ولاية تحت الحماية الفرنسية ، وقد كانت مثار نزاع استعمارى قديم بين إيطاليا وفرنسا ، وقد شجعت بريطانيا وألمانيا التدخل الفرنسى فى تونس الذى توطد حين أرسلت فرنسا حملة لغزوها ووقعت بينها معاهدة باردو عام ١٨٨١ فأصبح لفرنسا بمقتضاها حق الإشراف على الشئون العسكرية والمالية ، وعين وزير فرنسى مقيم هو الصلة بين الباى وحكومته ، وقد حدثت عدة اضطرابات فى بلدان مختلفة اقتضت قيام فرنسا بعمل حاسم فقضت

على الثورات وأعلنت الحماية بمقتضى ميثاق المرسى (٨ يونيو ١٨٨٣) وبذلك بدأت تونس عهداً جديداً .

وقد أنهى هذا الاحتلال ما كان بين تونس وتركيا ، فقد دخلت تونس تحت ظل الحكم العثمانى فى القرن العاشر الهجرى ، ثم أصبحت «السلطنةالتونسية» وراثة فى البيت الحسينى (نسبة إلى الكتخدا حسين ابن على) وبقى أمراؤها موالين للسلطان ، ثم وفد الأجانب وتعددت الجاليات الأوربية وظهرت الامتيازات ، وبدأ التنافس بين الدول على تملك تونس حينما بدأ الضعف يدب فى الدولة العثمانية ، فكانت من نصيب فرنسا واعترفت الدول بحمايتها لها . وكان آخرها موافقة إيطاليا (سنة ١٩١٩) وتركيا (١٩٢٠)

وفى ظل العهد الجديد بدأت تونس تدرج فى الرقى والأخذ بالأساليب المدنية فاستقرت أمورها الحالية ووضعت لها ميزانية وأنشئت محاكم فرنسية ألغت المحاكم القنصلية ، وبدأ العمل فى استغلال الموارد الطبيعية والنهوض بالمرافق العامة والنواحى الاجتماعية والثقافية وتدعيم الإدارة وإنعاش الأحوال الاقتصادية .

وقد تركت مظاهر الحكم القديم على حالها فيتولى شئون السلطة الباى بوصفه صاحب ولاية تونس ، بينما يمثل الدولة الحامية مقيم عام فرنسى يوقع إلى جانب الباى المراسيم والأوامر ويتولى رياسة قوات البر والبحر .

الكبير وأغلبية فى المجالس الاقليميـة ، ويتولى الأهالى ٣ وزارات و١٨ كرسياً فى المجلس

وكانت سياسة فرنسا فى حكم تونس متجهة إلى التعاون مع الأهالى واشتراكهم فى المجالس و إنهاض مرافقهم وعدم تقييد حرياتهم .

وتقع تونس بين خطى طول ٨°، ١١° شرقاً وتبلغ مساحتها ٤٥ الف ميل مربع وهى تحد غرباً بالجزائر وفى الجنوب الشرقى بطرابلس وجنوباً بالصحراء ، وتقع سواحلها الشمالية والشرقية على البحر المتوسط .

وبها سلسلة جبال ممتدة من الجزائر وجبال من الطباشير والحجر الرملى — فى الشمال الغربى — يغطيها البلاط والحسك ، ويمر نهر مجردة فى تونس من الغرب إلى الشرق و يصب فى خليج تونس ، وتكتنف واديه عدة تلال منها قبر سعد ومدورة .

أما فى الجنوب فتضاريس تونس تشبه الصحراء ، قليلة الأمطار ، وتوجد بها شطوط الجريد ونفراوه

وتونس زراعية وأهم محصولاتها الكروم والنخيل والزيتون والحبوب والخضر وبها الحديد والرصاص والفوسفات ، وأهم الصناعات صناعتا الزيت والصابون ثم الصباغة والنسيج والخزف والطرابيش والمناخل والحصر ودبغ الجلود وصنع الأحذية .

ويبلغ سكان تونس ٢ مليون و١٥٩ ألفاً منهم مليون و١٨٤و٩٣٢

البحر الأبيض المتوسط
رأس بون
تونس
طبرقة
بونه
بجا
مجاز الباب
الحمامات
الكف
سوق الاهرس
الجزائر
سوسه
مهديه
القيروان
بيشون
عين بيضا
تبلسه
سبيطله
فريانه
مرفايد
بوثادى
صفاقس
تلبت
مكناسى
قفصه
رديف
خليج قابس
قابس
جزيرة جربه
نفطه
قبلى
شط الجريد
مارث
مدنين
بن جردان
زوارة
ططوين
سيدى طوى
دويرات
العواد
مروكا
تونس
صحراء الجزائر
طرابلس
ذهيبات
نالوت

تونس

مسلماً ويقدر عدد الأجانب بـ ١٧٣،٢٨١ والعاصمة هى مدينة تونس وهى من أهم مدن الساحل الأفريقى وأقربها إلى أوربا وهى نقطة استراتيجية هامة وقاعدة حربية وجوية وسكانها ٢٢ ألفاً .

وأهم بلاد تونس بعد العاصمة بنزرت (Bezerte) وهى تقع على ساحل البحر الأبيض (٤٠ ميلاً غربى تونس) وسكانها ٣٥ ألف نسمة، وهى تسيطر على مضيق صقلية وتعد من أهم قواعد البحر الأبيض وهى تؤلف مع اجاكسيو (فى كورسكا) وطولون (فى جنوب فرنسا) مثلثاً عظيم الشأن من الوجهة الحربية

وقد بعثت بنزرت فى عهد الحماية الفرنسية ووجدت العناية الجديرة بها فعمرت وحفلت بالمبانى والإصلاحات وازداد سكانها ونشطت تجارتها

وتقع مدينة القيروان جنوبى تونس بمسافة ١٢٠ ميلاً وغربى سوسة بمسافة ٤٠ ميلاً ، و بينهما خط حديدى، وهى على ارتفاع ٢٥٠ قدم من سطح البحر وتقع فى قلب واد كبير تجرى فيه الأنهار ، ويبلغ عدد سكانها ٢٢ ألفاً

أما المهدية فتقع بين سوسة وصفاقص على ساحل تونس الشرقى ، وهى تنسب إلى المهدى الشيعى الذى أنشأها واتخذها قاعدة الحكم ، وكانت تعرف قبل ذلك بمدينة أفريقيا ، و يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف وأهم أعمالهم صيد السمك و إنتاج الزيت .

يطلق على ولاية تونس بالفرنسية Tunisie والعاصمة Tunis كذلك يطلق على ولاية الجزائر Algerie والعاصمة Alger

وتقع صفاقص على الشاطىء الشرقى جنوب خليج قابس، وهى مركز اقتصادى هام وميناء لتصدير الزيتون والأسماك والإسفنج و يبلغ تعداد أهلها ٧٥ ألفاً

وتقع قابس على مسافة ٨٠ ميلاً جنوبى صفاقس و ٢٥٠ ميلا جنوبى مدينة تونس وهى على الشاطىء الغربى لخليج قابس وتعد مركز الإدارة المدنية ومقر القيادة العسكرية للمنطقة الجنوبية .

ولعل فى هذه العجالة ما يفيد القارىء عند مطالعته لأسماء هذه البلاد فى خلال ذكر حوادث الحرب ، فقد شهدت حركات عسكرية شتى ، وخاضت طرقها جنود متنوعة ثم تلاقت فيها النيران والحراب واقتتلت الجيوش اقتتالاً عنيفاً هز شعور العالم وحبس آماله فى تونس حيناً من الدهر حتى انتهت هذه المرحلة التي تعد من فواصل هذه الحرب الكبرى

الحرب فى تونس

كان السؤال الذى يتردد على الأذهان عند ما نجحت أعمال الحملة الأمريكية الإنجليزية من ناحية، وكللت أعمال الجيش الثامن بتوفيق عظيم من الناحية الأخرى، هو أيهما ينتهى من مهمته قبل الآخر؟ فهل تتمكن الحملة الغربية من القضاء على مقاومة المحور فى تونس فتتقدم لدهم قوات روميل المنسحبة من الصحراء.. ؟ أم يصل الجيش الثامن أولا فيدخل تونس؟ وهناك تنظم جميع القوات المتحالفة وتأخذ فى قتال موحد ضد جميع قوات المحور..

وكانت الحوادث تميل تارة مع هذا الرأى وتارة مع ذاك حتى وضح أن نجاح الألمان فى توطيد أقدامهم فى تونس يرجح الكفة الثانية وفيها الرأى القائل إن المعارك الأخيرة ستكون فى تونس

وإلى جانب هذا السؤال كان يتردد أيضاً سؤال آخر وهو هل يقاوم روميل فى العقيلة — كما حدث ذات مرة — أم يدافع فى طرابلس؟ أم يستمر فى تقهقره حتى يدخل تونس فينضم إلى قوات المحور وهناك تتحد الجهود وتتوحد الخطط..؟

. . ولكن كانت الحوادث تتطور بسرعة وترجح الأمر الأخير فقد أخذ الجيش الثامن يزحف دون أن يفتر أى وجه من وجوه نشاطه ويدفع بقوات روميل دفعاً إلى الوراء دون أن يعطيها فرصة للثبات والدفاع ، كما كان روميل معتزما دخول تونس فاكتفى بالأعمال التعطيلية وظل محافظاً على قواته حتى تدخل الميدان الجديد بنشاط وكفاية

ولهذا لم ينتـه شهر يناير ١٩٤١ حتى كانت جميع القوات قد اتخذت تونس ميدانها ، والتفت الأنظار إلى ذلك الركن الاستراتيجى الممتاز فى وسط البحر المتوسط لترى نتيجة من النتـائج الحاسمة فى الحرب . .

وقد أراد الحلفاء من تونس أن تقع فى أيديهم قبـل أن تحتلها قوات المحور فتضيع عليها بذلك فرصة السيادة على هذا الموقع المتوسط ، فاذا ما وقعت الواقعة وتم احتلال الساحل الأفريقى اتجهت الخطط إلى غزو أوربا

وأراد الألمان من تونس أن يسبقوا الحلفاء إليها فيثبتوا أقدامهم ويدافعوا عنهـا بقوة ، ثم ينقلب دفاعهم هجوما ، بينما تطمئن قوات روميل — المتراجعة — إلى مصيرها ، ثم تتخذ قوات المحور صقلية — طرابلس — تونس — مثلثاً لعملياتهم فى البحر المتوسط يقف حائلا بين شرق البحر وغربه ، ويكون لهذا النضال ما وراءه من تعطيل

خطط الحلفاء وتدمير قواتهم ، وكسب معركة البحر المتوسط ، ودفع خطر الغزو عن ساحل أوربا الجنوبى وحمايته من الغارات الجوية

وقد كسبت ألمانيا الشوط الأول بوصول قوات كبيرة قوية العتاد إلى منطقتى تونس و بنزرت قبل أن تصل القوات المتحالفة ، فاستولت على المطارات وخطوط المواصلات واستعدت قبل أن تجتاز حملة أفريقيا الحدود التونسية

وكان الألمان أسبق إلى احتلال النقط الحصينة فأعدوا محلات دفاعهم بعناية ، واستعدوا للمقاومة فشقوا الجسور والكبارى والطرق والسكك الحديدية بغية تأخير تقدم قوات الحلفاء ، وقد قدرت القوات الألمانية بادىء ذى بدء بعشرة آلاف جندى ولكن الإمداد كان يصل باستمرار ، وتوالت على تونس الأسلحة المدرعة وقاذفات القنابل المنقضة والدبابات (مارك ٤) ونقل عدد كبير من الجنود الفنيين الألمان من طرابلس بطريق الجو ونقلت قوات أخرى من كريت واليونان و إيطاليا

وقد قدّر عدد القوات البريطانية والأمريكية والفرنسية التى اخترقت حدود تونس من الجزائر بنحو ٣٠٠ الف تسبقهم قوة كبيرة من جنود المظلات ، واشترك فى هذا الزحف ٣٠ الف جندى فرنسى بقيادة الجنرال چيرو

وزحف الجيش الأول البريطانى فى اتجاه تونس و بنزرت

وتقدمت القوات الأمريكية بفكرة دق اسفين بين قوات نهر ينج ورروميل حتى لاتتاح لهما فرصة توحيد الجهود ، وقد وقعت المصادمات الأولى على مسافة ٣٠ ميلا جنوب شرق تونس بين القوات الألمانية الميكانيكية وطلائع الحلفاء ثم أصبح الميدان ثلاث ساحات : شمالية ووسطى وجنوبية . .

واستمر تقدم الحلفاء على الرغم من المقاومات الشديدة التى بذلها الألمان ورغم الغارات العنيفة ألتى شنتها طائرات المحور ، وقد كانت الحرب الجوية على أشدها فى ساحات القتال وفى الإغارات المتعددة على مراكز التموين والموانىء ونقط المواصلات

وقد وقع فى تلك الأثناء حادث فى فرنسا له ارتباط بعمليات البحر المتوسط فقد فقدت فرنسا أسطولها الكبير يوم ٢٨ نوفمبر عند ما احتل الألمان طولون فأصدر الأميرال دلابورد أمره إلى جميع الوحدات أن تغرق سفنها ... أما ما دعا إلى هذا الإجراء فيبدأ من وقت نزول القوات الأمريكية والبريطانية فى أفريقيا الشمالية الفرنسية الذى كان رد الألمان عليه احتلال بقية فرنسا ، ولكن طولون تركت لحماية الأسطول الفرنسى . . ، وتقول المصادر الألمانية إنه « قد لوحظت محاولات كبار الضباط الفرنسيين الانضمام إلى الحلفاء ، ورغبة فى عدم تعريض سلامة قوات الاحتلال للخطر صدر الأمر باحتلال طولون . . » وقد غرق قسم من الأسطول بيد بحارته وأبحر قسم منه فانضم إلى الحلفاء

ونعود إلى ساحة القتال فى الأيام الأخيرة من نوفمبر فنجد القوات فى الناحيتين تستعد لخوض المعارك الكبيرة التى ستقرر المصير فى أفريقيا. وقد شرع الألمان فى العمل التعرضى فقاموا بكرات متعددة لجس النبض واختبار الأوضاع ، ثم أخذت هذه الهجمات فى الاشتداد لإيقاف القوات المتحالفة وردّها عن المراكز التى وصلت اليها والتى كانت تشبه حلقة مضروبة حول منطقتى تونس و بنزرت .. وكان الألمان يملكون تفوقاً جوياً محلياً و يمتازون بمراكز جبلية محصنة ضد هجمات القوات البرية ولذلك قويت شوكة المقاومة وتعطل الزحف أمام مناعة الخطوط ووعورة الطرق واشتداد الكرّات المضادة وازدياد أعمال التدمير ... وقد ساعدت طبيعة الأرض فى تونس على ذلك فهى تتألف من الجبال والصحراوات ، ومعظم المنطقة الواقعة غربى الجزائر تمتد صوب صحراء لا أثر للطرق أو المياه فيها ، أو جبال وعرة تنتهى بتلال مطاطلة التى يتألف منها الجناح الغربى للمراكز الدفاعية الفرنسية فى جنوب تونس

وفى شهر ديسمبر كان التقدم قد أوقف واشتدت الكرّات من الجانبين وخصوصاً فى منطقة طابور به حيث كان الجنرال أندرسون قائد الجيش الأول يتولى دفة الأعمال الحربية ... كما حدث اشتباك بين الدبابات قرب ماطور (٣٠ ميلا من بنزرت) واشتباك آخر عند مجاز الباب فنجح الحلفاء فى توطيد أقدامهم ... وحدثت هجمات شديدة قامت بها الدبابات الألمانية مع المشاة بتأييد طائرات ستوكا والطائرات المقاتلة ،

وذلك على مدينة طابور به حيث احتدم القتال وأصيب الطرفان بأضرار شديدة دون أن يؤثر ذلك فى مراكزهم التى كانت قد استقرت

ويمكن القول بأن شهر ديسمبر كان شهر النشاط الجوى من الطرفين، وقد وضحت أهمية العامل الجوى فى المعركة بأبرز صورها فى تونس ، فكان من أسباب تأخير الحلفاء قلة المطارات الصالحة فى أيديهم بينما كان للمحور مطارات صقلية وسردينيا وبانتلاريا ، فضلا عن مطارات تونس نفسها ...

وقد ذكر مستر هنرى ستيمسون وزير الحربية الأمريكية « أنه حينما نحصل على التفوق الجوى ستكون أمامنا ثلاثة أهداف : (١) طرد أو تدمير قوات المحور فى تونس (٢) مهاجمة طرابلس وتحطيم قوات روميل (٣) التعاون مع البريطانيين لجعل ساحل شمال أفريقيا والبحر المتوسط خطوطاً آمنة . . . »

وكانت الأعمال المنتظرة الوقوع تتطلب استعدادات فائقة وترتيبات ضخمة من الطرفين المقدمين على صراع يقرر المصير، وكانت قوات الحلفاء قد بلغت منتصف الساحل الشمالى بعد شهر من نزولها فى أفريقيا ، وهى مسافة تقرب من ٩٠٠ ميل واقتربت من المواقع الدفاعية الرئيسية التى يحتلها جنود مدربون فكان لا بد من استعداد حاسم

ولم يخمد نشاط الألمان ولم تنقطع إغاراتهم البرية والجوية ، وكان

أقواها زحف قوة كبيرة إلى طابوربه حيث كان الجيش الأول يرابط في شبه دائرة من المراكز القائمة فوق التلال المرتفعة الواقعة غربي المدينة ، وقد قوبل هذا الزحف بستار ثقيل من نيران مدفعية الحلفاء ، وأبدى الألمان صلابة في القتال واستخدمت وحداتهم الميكانيكية بتهور محاولة كسر النطاق الذي ضربه الحلفاء حول الركن الشمالي من تونس

وإزاء هذا الضغط الشديد ارتد الجيش الأول عن مواقعه وشددت طائرات ستوكا والدبابات وقع الأزمة في صفوف الحلفاء فاستطاع الألمان احتلال المدينة ، ولكنه احتلال لم يلبث أياماً حتى اشتدت على أثره مقاومة الحلفاء فتمكنوا من إيقاف الأعمال التعرضية بصفة نهائية ، ثم هجمت قوات المشاة الأمريكية على المراكز الألمانية فارتد الألمان عن بعض الأراضي

وحدث قتال كبير في المنطقة الجنوبية جنوبي شرق تبيسة حيث كان الزحف الأمريكي قد قوبل بمقاومة الألمان ، وقد ثبّت الأمريكيون أقدامهم في مراكزهم بعد أن أصيب الطرفان بخسائر متعادلة ...

واستمرت كرّات الألمان على أشدها ، ففي الشمال كانوا يعملون على طول الطريق بين جبل العبيد وماطور ، وفي الغرب يزحفون نحو منتصف الطريق بين مجاز الباب وماطور ، وكانت قواتهم جيدة الاستعداد وفيها جنود الفرق المدربة الذين حاربوا في بولندا وفرنسا وروسيا وتدربوا تدريباً عالياً في أشد المعارك وعملوا تحت قيادات قديرة .. وقد

قدرت قوات المحور فى تونس بثمانية وعشرين ألفاً منهم ٢٣ ألفا من الألمان ، وقد كان للحلفاء التفوق العددى ولكنهم كانوا يعانون مشكلة عدم وجود المطارات وقلة الطائرات فى أول الأمر ويعانون مشكلة النقل فالطرق قليلة من الجزائر إلى ساحة القتال فى تونس .

وقد أراد الألمان اتخاذ طابوربه مركز هجومهم على مجاز الباب فرجعت قوة كبيرة من الدبابات والمشاة إلى الضفة الغربية لنهر مجردة الذى يجرى فى موازاة خط السكة الحديدية والطريقين اللذين يصلان طابوربه بمجاز الباب ، وزحف طابور آخر من الشرق فى الطريق الممتد من تونس إلى مجاز الباب . . وقد قوبلت هذه الغزوات بهجمات مضادة وكرات الدبابات ونيران المدفعية ، وفى منتصف ديسمبر أوقف تسرب جنود المحور فى هذه المنطقة واحتشدت قوات الفريقين فى ساحة طابوربه ، واتخذ الألمان خطة الدفاع فسدوا الطريق من الجبل الأبيض إلى ماطور ، وذلك فى منطقة جبلية مجهزة بأوكار الرشاشات التى كانت مخبوءة بمهارة تعزّ معها إصابتها ، وكانت المدافع البريطانية تلقى أطنانا من المتفجرات على مراكز الألمان . ثم بدأت فترة هدوء واستعداد .

وكانت معركة الإمداد مستمرة فالنجدات الأمريكية كانت تصل بوفرة ، كما كانت الطائرات الألمانية تحمل قوات جديدة إلى الميدان التونسى، وكان لسرعة إرسال المدد الألمانى عبر البحر المتوسط وتعزيز مراكز المحور الأمامية أثر عظيم اضطر الحلفاء إزاءه إلى قضاء

مدة طويلة فى انتظار إمدادهم من الرجال والأسلحة قبل القيام بالهجوم، وقد حصن الألمان منطقتى تونس و بنزرت تحصيناً قوياً أرادوا به الثبات فى هذا الموقع الممتاز الذى لاتخفى أهميته العسكرية فى عمليات البحر المتوسط وجنوب أوربا .

و إلى جانب ذلك كان النشاط الجوى مشبوبا فطائرات المحور كانت تهاجم الدار البيضاء و بونه والمطارات وتؤيد الأعمال البرية ، بينما كانت طائرات الحلفاء تساعد قواتهم وتغير باستمرار على طرابلس ومطارات تونس وصقلية .

لذلك لا يمكن القول بأن هدوءاً صحيحاً قد حل بميادين تونس، إذ كانت المناوشات مستمرة براً وجواً ، وكل يختبر أوضاع غريمه فيحدث الهجوم من هنا مرة ومن هنالك مرة دون أن تتأثر المراكز كثيرا

واستقرت الأوضاع وأصبح خط القتال يبدأ من نقطة قريبة من رأس سيرات فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى مجاز الباب ثم منطقة كوبرىَ الفحص التى كان الفرنسيون يدافعون عنها ببسالة

وقد تلقى الفرنسيون عبء القتال العنيف والهجمات الشديدة فى أكثر من موقع كما حدث فى فندق وفى منطقة صفاقس ، وقد انتهت القيادة العامة لفيلق أفريقا الفرنسى إلى الجنرال جيرو ، و بعد مقتل الأميرال دارلان أصبح جيرو قائداً مدنياً وعسكريا عاماً لأفريقيا الشمالية الفرنسية ، و إلى جانبه (لجنة حرب) لإدارة البلاد بدلا من

المجلس الامبراطورى الذى أنشأه دارلان فى نوفمبر ١٩٤٢ ، وقد جنّد چيرو ٢٥٠ ألفاً وتعهدت أمريكا بمدّه بأحدث أنواع الأسلحة

وفى السابع من يناير حل الجنرال جورجين فون أرنيم محل الچنرال نهرينج ، والقائد الجديد يعد من خيرة قواد الألمان وأكثرهم احتراماً للتقاليد العسكرية ، وقد وصل فى الوقت الذى يجرى فيه الاستعداد للمعركة الحاسمة فى تونس، وكانت فى انتظار انتهاء فصل الأمطار (أواخر فبراير) وكانت قوات الطرفين ترابط على طول مواجهة جبلية تمتد مائتى ميل من الساحل إلى الصحراء على شكل كوع تحيط بخليج قابس ، وعند هـذا الخط قدر شبوب المعـارك الـكبيرة ووقوع الحدث الفاصل

وحفل شهر فبراير بعمليات قوية بدأت بمحاولات تقدُّمٍ بذلها الجيش الأمريكى فى اتجاه مكناسى ، وقد استولى على سند على الرغم من مقاومة الألمان وكرّاتهم ، ثم هجوم الحلفاء فى المنطقة الجنوبية فى فايد ، وقيام الألمان بهجوم فى المنطقة الوسطى ، حول جسر الفحص ، لإيقاف زحف القوات البريطانية

وفى النصف من فبراير دخل روميل تونس وأسرعت وحدات من قواته للعمل فوراً فى مقدمة هجوم عنيف فى الساحة الجنوبية اشتركت فيه الدبابات وطائرات ستوكا المنقضة فحدث قتال مروع فى سيدى أبو زيد انتهى بخسائر فادحة للقوات الأمريكية ، واحتل الألمان المدينة

بينما حدث هجوم آخر فى طريق فايد لعزل قفصة فارتدت قوات أمريكا عنها بعد أن باتت مهددة بالعزل ، واحتلها الألمان أيضاً

هذا بينما كانت قوات روميل الأخرى تدفع الجيش الثامن على الحدود التونسية الجنوبية الشرقية ، فى ظروف قاست فيها قوات مونتجمرى أشد الأهـوال بسبب رداءة الجو واشتداد العواصف واضطراب الجـو وهبوب الرياح العاتية ، وذلك فى أراض صعبة ومستنقعات ملحة ، وكانت الدروب ملأى بالألغام وغيرها من المبتكرات الجهنمية لعرقلة التقدم ، وقد نسفت الطرق وأصبح التفوق الجوى لقوات المحور التى تلقت إمداداً كبيراً من المقاتلات للدفاع عن تونس

أما عن الهجوم الجارف الذى صُوّب على قفصة وسيدى أبو زيد فقد فاجأ القوات الأمريكية وأدهشها بشدته فتراجعت مضطربة بعد ما تلقت وقع الصدمة القاسية ، وقد وقع هذا الهجوم فى فترة إعادة تنظيم القوات ووقت انسحاب القوات الفرنسية لإعادة تسليحها ،وكان مصحوباً بطائرات الإنقضاض الثقيلة التى تقوم بغارات عنيفة فى حراسة طائرات القتال ، ولذلك تلاشت مقاومات الأمريكيين وأصابتهم ضربة نكراء أودت بربع أو ثلث مجموع رجالهم وأضاعت الأسلحة والمعدات

واستولى الألمان على قفصة وسيدى أبو زيد ثم بدأت المرحلة الثانية من هجومهم فاستولوا على سبيطلة وقصرين وفريانة ، وقد كانت ضمن قوات هذا الهجوم جنود من فرق روميل المدرعة ودبابات النمر

التى وصلت من إيطاليا وصقلية ، وقد انتهت هذه العمليات بتوسيع الطريق اللازم لعمليات روميل المقبلة ، ونجحت فى رد خط الحلفاء إلى الوراء

وبذلك عرف روميل كيف يجنى الفرصة الطيبة فى ساعتها فسدّد ضربته بمهارة وحقق أغراضه بعد أن أصاب قوات الحلفاء بضربة شديدة وضيّع عليها فرصة الاستعداد والهجوم العاجل

وفى هذه الأثناء التى تدهور فيها موقف الحلفاء فى الساحة الجنوبية قام الجيش الأول ومعه فيلق فرنسا الأفريقى بهجوم فى المنطقة الشمالية لتخفيف الوطأة بينما أسرعت الدبابات البريطانية لنجـدة القوات الأمريكية فأوقفت الزحف عبر ممر قصرين بعد أن شارف « تاله »

هذا فى الوقت الذى وصل فيه الجيش الثامن «مدنين» — ١٧ فبراير — ثم تابع زحفه صوب « مارث » فاحتل فم طاطاوين وهى الدعامة الجنوبية لخط مارث ، وأصبح واضحاً أن مهمة الجيش الثامن ستكون ضرب جناح المحور فى المنطقة الوسطى فتصبح بين مطرقة وسندان

وكان الجنرال فون أرنيم ملتزما خطة الدفاع فى الركن الشمالى الشرقى من تونس ، ولا يفتأ يهاجم مراكز الجيش الأول لاختبارها وشغلها عن المبادأة ، ويعمل على إعداد مراكز دفاع منيعة لا تنال

وفى الخامس والعشرين من فبراير كانت قوات المحور تعمل

للاستيلاء على شبكة الخطوط الحديدية التى تستخدمها قوات الحلفاء فبلغت قوة ألمانية تالة وتقدمت قوة أخرى حتى أصبحت على بعد ١٥ ميلاً من تبيسة ، ودارت معارك عنيفة فى تلك الأنحاء اشتركت فيها طائرات الحلفاء بقوة كبيرة ، وشرعت قوات المحور فى الارتداد

واحتلت القوات الأمريكية قصرين وأخذت تزحف نحو سبيطلة بينما كانت أخرى تزحف نحو فريانة ، فعادت قوات المحور إلى أوضاعها القديمة قبل الهجوم الكبير

ثم بدأت حملات الدوريات العنيفة على مجاز الباب وركن ناالليهو (ملتقى الطرق) والعروسة وجبل منصور ، وهذه العمليات من النوع الذى يجيده روميل و يقصد به محاورة غريمه ثم اختراق المنطقة الضعيفة فى مراكزه

وقد حدث مثل ذلك فى نطاق أوسع عند ما دهم الألمان مراكز الحلفاء وتجاوزوا سيدى نصير واقتربوا من بيجة ثم تراجعوا إلى مراكزهم الأصلية فى اتجاه قفصه وسبيطلة ، وأعقب ذلك ثلاث هجمات قوية

أما فى الساحة الشمالية فكانت الأوضاع مستقرة وتمكن الجيش الأول من مراكزه الواقعة على بعد ٣٠ ميلا من تونس و٢٥ من بنزرت وهى المراكز التى استطاع الوصول إليها على أثر نزول قوات الحلفاء فى بلاد الجزائر . .

وقد ابتدأت المصادمات العنيفة بابتداء شهر مارس الذى سدّد الألمان فى أوله هجومين قويين من سيدى نصير إلى ماطر و بيجه فى

الساحة الشمالية بقصد الاستيلاء على بيجه ومجاز الباب ، وقد قامت المشاة بالهجوم الأول وقامت بالثانى قوات من الدبابات والمشاة فصدتها القوات البريطانية ، ثم كرّ البريطانيون بهجوم مضاد ردّوا به قوات المحور إلى خطوطها الأصلية

وكان الأمريكيون موفقين فى هجومهم فى المنطقة الجنوبية فأتموا احتلال قصرين وفريانة وسبيطله بينما كانت القوات الفرنسية تصد ببسالة ماوجهه الألمان إلى منطقة بير العطر من هجمات شديدة

.. ذلك فى الوقت الذى كان الجيش الثامن يعجم خط مارث وتضربه طائراته بقنابلها على أثر تقهقر روميل من طرابلس وحشده قوة مناسبة من وحداته المدرعة شمال قابس .. وبدأ الطرفان يستعدان للمعركة

وكان جيش أفريقيا الألمانى وجيش الصحراء البريطانى يحتلان مراكز منيعة وخصوصاً فى الجبال حيث تشرف نقط المراقبة على حركات الجنود فى السهل الساحلى .. وفى مثل هذه الساحة تقرر طبيعة الأرض نوع الأسلحة وتحدد معدات القتال ، فأصبح الاعتماد على المشاة والمدفعية أكثر من الدبابات والوحدات المدرعة التى لا تجد مجالاً للتنقل وسط هذا الميدان الضيق المزدحم

وانتهت فترة الاختبار وأخذت دوريات الجيش الثامن تعمل فى الممرات الجبلية والأخاديد والآكام ، وبطاريات المدافع تطلق نيرانها

الغزيرة ، وبدأ نضال الفريقين للاستيلاء على المواقع الجبلية وهو أمر يتطلب التفوق فى المدفعية

ولما كان أمام قوات المحور عدة ساحات فقد رأت القيادة أن تشغل إحدى هذه الساحات بهجوم مخادع بينما تقوم بالهجوم الحقيقى فى الساحة المنشودة ، فعندما كان روميل يشاغل الجيش الثامن فى خط مارث قام فون أرنيم بضربته الممتازة فى سد جنان فرد الجيش الأول عن مراكزه

غير أن الجيش الثامن قام أيضا بحركة جريئة أتم بها زحفه من حدود تونس إلى خط مارث فى وقت ألقى فيه روميل أكبر قوات لديه ضد الأمريكيين الذين يكوّنون الجناح الجنوبى للجيش الأول .. فجاء مونتجمرى بحركته هذه كنجدة لتخفف الضغط عن القوات المتحالفة ، وانتهازا لفرصة نادرة تستوجب الإقدام

وهكذا الحرب . . سجال بين الفريقين ، كل يفكر ويبتكر ، وينوع خططه وأساليبه ويأتى بالمستحدثات للتغلب على خصمه أو للخلاص من معركة خاسرة . . وهنا مجال القائد الكبير الذى يعرف كيف يواجه الطوارىء ويعالج الأزمات ويعجل بالحلول . . ويشهد متتبعو هذه الحرب أنها أظهرت قائدين عنيدين ، كأنما وجدا لهذه الخصومة ، ند وند ، كل له جولاته الجريئة وابتكاراته الفذة وكفايته الممتازة . . غالباً كان أو مغلوباً !

وقد حسب روميل حساب مونتجمرى فعنى بإعاقته فى خط مارث وقام فى السادس من مارس بهجوم واسع النطاق ، بمشاته ودباباته ، جنوبى الخط ، واختار لذلك وقتاً مناسباً ، وقد عرف روميل بحصافته فى الاختيار ، فقد كان يهاجم عند ما يشرع غريمة فى الهجوم ويتهيأ للتوثب فتضيع فرصته ويقع الاضطراب والخلل فى العملية التى تكون موشكة على النفاذ

حدثت المعركة فى جناح مونتجمرى الجنوبى ، فقام رجال المدفعية البريطانية والمدافع المضادة للدبابات بدور باسل فى تحطيم الهجوم ، وكانت هذه المعركة نصراً لرجال المدفعية الذين استطاعوا صد وحدات الدبابات الألمانية التى كان من ضمنها عدد من الدبابات الثقيلة « مارك ٦ » التى تزن الواحدة ٦٠ طناً

أما هجوم الألمان فقد بدأ بستار كثيف من نيران المدفعية التى صوبت على « مدنين » وانحدرت فى الوقت ذاته الدبابات ومدافع الميدان والمشاة من الجبال على ساحة القتال ، وكان الهجوم شديداً وصفته برقيات روتر بأنه كان « اندفاعاً ألمانياً حقاً فى عنفه وشدته » فقد تجمعت فيه الدبابات والمدفعية الخفيفة عند سفوح الجبال وكونت وحدتين رئيستين متحفزتين للإطباق على مدنين ، ثم اتجهت الدبابات إلى مراكز الدفاع البريطانية الرئيسية ، واشتد القتال وأصيب الطرفان بخسائر شديدة

وعند ما تقدمت المعركة جلب الألمان مدداً من مدافعهم الثقيلة وألقوا خلف خط القتال الرئيسى قنابل شديدة الانفجار ليحدّوا من حركات أندادهم ، واندفعت دبابات كثيرة لتحطيم المقاومة فقابلتها نيران حامية . . ثم دخلت المعركة المدافع الألمانية ٨٨ مليمتر لشد أزر الدبابات والمشاة ثم انقلبت المعركة إلى تراشق بالمدافع . . و بعد لأى خفت وطأة الضرب وتراجع كل فريق إلى خطوطه السابقة لإعادة التنظيم واستكمال حاجات القتال

وعاد روميل فهجم بشدة فى ساحة قصر رهلين (ج . غ . مدنين) بقوات من السيارات المصفحة تؤيدها المدفعية ثم ارتد شمالاً ، و بدأ اشتباك الدبابات فى معركة مرة المذاق كثيرة الضحايا . . و بعدها خفت العمليات فى ساحة الجيش الثامن بينما عاد النشاط إلى الساحة الشمالية وأخذ الجيش الأول فضل المبادأة واستعد لعمليات هجومية كبيرة بعد أن مهد لها بدورياته

و يلاحظ من هذه المحاولات الألمانية أنها كانت بقصد التعطيل إذ أنه لم يكن لديها الاستعداد الكافى للتغلب على قوات الحلفاء ، وقد كان للأخيرة تفوق عددى ملحوظ وانتصار جوى حاسم

وأصبحت المسألة مسألة وقت : فقوات المحور التى أخذت تجاهد ببسالة فى الركن التونسى لم تكن كافية للدفاع عن تونس مدة طويلة فقد كانت بحاجة إلى إمدادات وافرة من الرجال والعتاد والطائرات لا يسمح الموقف الحربى بإجابتها ، وكانت الأوامر الموجهة اليها هى

القتال إلى النهاية ، دون أى إشارة إلى الوعد بالمساعدة أو إرسال الإمدادات .

فلم يبق لفن الحرب إذن فى هذه المرحلة شأن بعد أن وصل نهايته وأصبح القول كله للقدرة البشرية على الجلد والاحتمال

وقد كانت قيادة الحلفاء تعرف ذلك وتفهم أنها على قيد مرحلة لبلوغ غايتها الأخيرة على ماسيكون فى ذلك من مشقة ، ولذلك أزمعت أن تستعد استعداداً حاسماً لتتجنب أى نقص ولتقوم بعملية كاملة فتضرب ضربة موفقة وتختصر التضحيات والآلام . . ولهذا قال مونتجومرى : « قد تبدو استعداداتنا بطيئة فى أعين أشخاص عديدين ولكن الضربة ستكون حاسمة » وقال الجنرال أندرسون « إن الخطوات النهائية قد لا تكون سهلة ولكنى واثق من الوقت الذى تطهر فيه شمال أفريقيا . . »

وفى لحظة واحدة أخذت قوات الحلفاء تشرع فى أعمالها الهجومية فى مختلف الساحات فزحفت القوات الأمريكية من فريانه وأخذت فى الهجوم على قفصة هجوماً بدأ بستار قوى من نيران المدفعية وقذائف حاملات القنابل ، وقد تم احتلال قفصة واستمر الزحف فى طريق مليئة بالألغام واشراك الدبابات بينما أخذت قوات المحور فى الانسحاب

هذا بينما أعلن الهجوم على خط مارث يوم ٢١ مارس ، فقد أطلق مونتجومرى رجاله ودباباته على المراكز الرئيسة بتأييد كبير من القوات الجوية ، وكانت ساحة الهجوم تمتد من الساحل إلى تلال ماطماطه

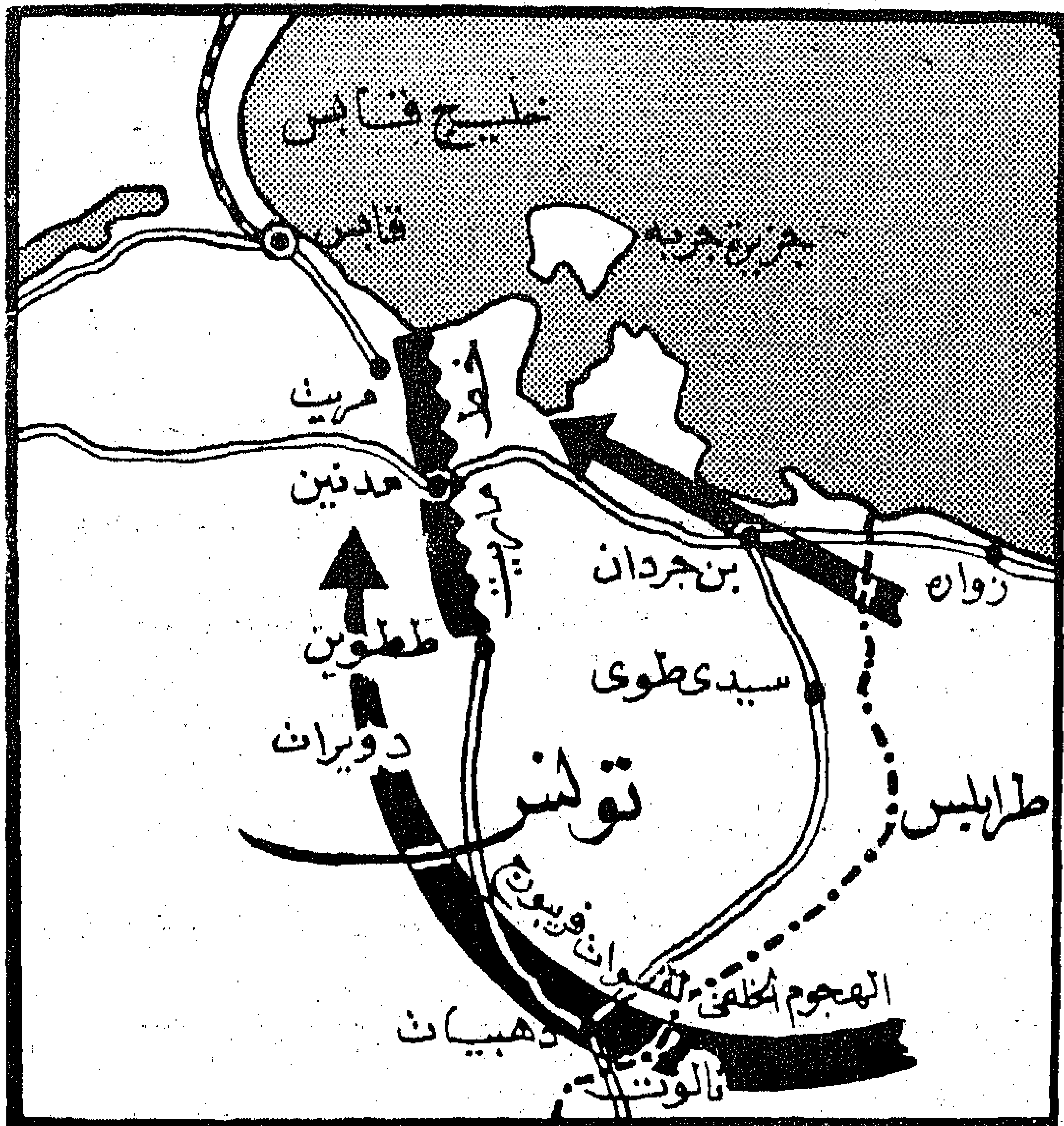
وقد بدأ الهجوم ليل ٢١ / ٣ ففتحت مئات المدافع أفوهها بأطنان القنابل على مساحة تقل عن الميل عرضاً فركزت نيرانها تركيزا شديداً ثم انبعث بعد ذلك ستار عنيف من النيران تقدم الجنود خلفه لبدء هجومهم .

وكانت خطة مونتجمرى أن يلقى بجنوده فى حركة التفاف بدلا من الهجوم بالمواجهة فدارت قوة كبيرة تحت قيادة الجنرال فريبرج والتفت حول خط مارث بحركة اندفاع حاسمة عاونتها الطائرات معاونة قيمة فتكللت بالنجاح .

وقام المهندسون بتطهير حفر الألغام ونسف الصخور وإقامة سلالم الحبال وكانوا هم أبطال الموقف بحق ، فقد أحدثوا الثغرة وحملوا مواد البناء لإنشاء رأس الكوبرى لبقية القوات .. واستبسل الألمان للاحتفاظ بالخط فألقوا بصفوة جنودهم فى النقط الحصينة بينما كانت المدفعية البريطانية تمطر مراكز الألمان بوابل نيرانها .. وقد تم اختراق الخط بعد معركة دامت ليلة ويوماً فكانت من أشد المعارك التى ذاق مرّها فيلق أفريقيا الألمانى .

وقد وصف اقتحام خط مارث بأنه إدارة المفتاح فى قفل دفاع روميل .. وقد انفتح القفل فعلا !

ويقال إن روميل أبلغ جنوده أنهم إذا لم يستردوا « مدنين » ولم يرغموا الجيش الثامن على الانسحاب فإن أيام المحور فى أفريقيا



معركة خط مارث


الجنرال فريبرج

ستعد عداً . . وقد عقب مونتجمرى على ذلك فقال لجنوده : « من واجبنا أن نبرهن لروميل على صحة بيانه ، فأيامه محدودة فى شمال أفريقيا ، فالجيش الثامن وقوات الصحراء الجوية عبارة عن آلة قتال واحدة متأهبة للتقدم ، والعدو نفسه يدرك تمام الإدراك معنى ذلك . »

ثم قال بصراحة وثقة : « سيحطم الجيش الثامن قوات العدو المواجهة لنا وسينفذ من ثغرة قابس ثم ينطلق شمالا إلى صفاقس وسوسة وينتهى به الأمر إلى ساحل تونس ، ولن يكون أمام العدو سوى الكف عن القتال أو إلقائه فى البحر . .

إلى الأمام نحو تونس ، وألقوا بالعدو فى البحر »

وقد حدث بعد أسبوع من بدء الهجوم على خط مارث أن أذيع أن قوات روميل تنسحب من ذلك الخط نهائياً .

وفى ٣٠ مارس أذاعت قيادة الحلفاء أن الجيش الثامن استولى على الحمة وقابس وتقدمت وحداته الأمامية نحو الشمال على الرغم من المقاومة الشديدة التى كانت تبديها ساقة الألمان .

وفى هذه الأثناء كانت القوات الأمريكية تواصل زحفها الموفق فى ساحة قفصة ، وتزداد القوات الفرنسية نشاطاً فى ساحاتها ، ويتقدم الجيش الأول فى ميدانه بمنطقة الجبل الأبيض

وعند انتهاء شهر مارس كان خط الحلفاء فى تونس يبدأ من

قابس — مكناسى — ممر فايد — فندق — وسلاته — مجاز الباب إلى سد جنان

ثم بدأت خطوة جديدة من خطوات الجيش الثامن باستيلائه على قريتى مطوية وأودرف صباح ٣٠ مارس ، وهما على جانب طريق قفصة — قابس ، تبعد الأولى ٧ أميال والثانية ٩ أميال شمال غربى قابس

ولم يبد الألمان أى مقاومة للوقوف فى هذه المنطقة ، ولكن كان روميل يحاول تأخير الزحف باستخدام الألغام وسد الطرق وحرب المؤخرة والضرب بقنابل المدافع البعيدة المدى ، وكان مطمئناً إلى أن البحر يحمى ميسرته والتلال تحمى ميمنته ، فلا سبيل إلى تطويق قواته

ويسهل على متتبعى الحالة الحربية إدراك ما كانت تعانيه قوات المحور أثناء ارتدادها من عناء وآلام وما بلغته من كلال وانحلال بعد هذه المعارك الطاحنة والانسحاب المرمئات الأميال ، والخسائر البالغة فى الأسلحة والمركبات الحربية على أنواعها ... وكانت قوة الحلفاء الجوية مصدر خطر كبير على الارتداد فقد تصدت للقوات المرتدة وشددت عليها النكير ، فكانت الخسائر مروعة بفعل سلاح الطيران الذى كان يبسط جناحيه فوق قوات روميل ويضربها ضرباً لا هوادة فيه ، ويواصل ضرب القوات ودك خطوط الدفاع أولا بأول ويلقى القنابل الثقيلة على الطرق والمواصلات ، فكان ذلك إعلاناً باقتراب النهاية وتقرير المصير

وقد جال بخاطر الكثيرين وهم يشهدون خارطة الميدان التونسى ، أن يثبت روميل فى فتحة قابس ، عند عنق الزجاجة ، فيستفيد من البحيرات الملحة ، وهى فكرة طيبة لولا أن هناك خطراً آتياً من ناحية القوات الأمريكية التى اقتربت من ظهر ذلك الخط فأصبحت مهددة بقطع خط الرجعة . . . وبذلك لم يعد من الطريق مكان صالح للدفاع سوى وادى العكاريت (٢٠ ميلا شمال قابس) الذى تصفه كتب الجغرافيا بأنه واد مائل ينحدر نحو البحر ، فهو عائق طبيعى للمركبات ، ومركز مناسب تتحصن فيه المشاة

وابتداء من شهر ابريل بدأ تقدم الحلفاء بصفة عامة فى جميع ساحات تونس

فالجيش الثامن كان يتقدم بسرعة على طول الساحل دافعاً أمامه جموع الفليق الألمانى رغم اشتداد مقاومة المؤخرة التى كانت تحمى تقهقراً وصل إلى حالة ميئوس منها بسبب الخسائر الشديدة التى أصابته بفعل طائرات الحلفاء وفقده لعدد كبير من المركبات وناقلات الجنود

وكانت القوات الأمريكية تزحف بنجاح فى طريق القطار ، قابس — بالمشاة والدبابات محاولة الاتصال بالجيش الثامن الذى لم يعد يفصله عن قوات روميل سوى نطاق ضيق متحرك لن يلبث أن يزول

وكان الجيش البريطانى الأول قد أتم استيلاءه ، على سد جنان فاضطرت قوات المحور إلى التراجع منها إلى المراكز القديمة فى التلال

تاركة جميع الأراضى التى ربحتها بعد عناء كبير ودماء مراقة وأسلحة محطمة وأسرى بالآلاف

وكانت القوات الفرنسية تعمل بنشاط فى عدة ساحات ، فكانت قوة منها تعمل مع الجيش الأول فى منطقة سـدجنان وقوة فى وادى وسلانه وثالثة فى شرق بيشون ورابعة وخامسة فى منطقة شط الجريد

وفى اليوم السادس من ابريل بدأت مرحلة جديدة من مراحل القتال النهائية ، وذلك فى وادى العكاريت

ففى الصباح الباكر عاود الجيش الثامن هجومه على مراكز المحور ، وهى الاستحكامات التى أقامها روميل على وجه السرعة فى مكان مناسب للدفاع بعد أن نسف الجسور وملأ الطرق بالألغام واستعد لاقامة ساتر قوى من نيران المدفعية

وقد جاء هجوم مونتجمرى دليلاً جديداً على كفايته العسكرية الممتازة ، فأخذ غريمة أخذة رابية ، وهاجمه فى جنح الليل الحالك فى ليلة غاب فيها القمر

فهو قائد لا يتقيد بطريقة حربية واحدة ، بل يغير ويبدل فى خططه حسبما يقتضى الموقف ، ويفعل الشىء الذى لا يتوقعه الخصم بخطط وفنون متنوعة ، ففى العلمين مثلاً جعل ثقل هجومه كله على مراكز المحور الرئيسية فى منطقة الساحل ، ثم دار فجأة فى توغل ناجح فحطم جناح العدو كله وأذاقه هزيمة مريرة ، وفى خط مارث خدع العدو

بهجوم أمامى ، ثم انحرف بغتة بكل قوته فى حركة تطويق بارعة لحطم مراكز دفاع العدو الرئيسية ، وفى وادى العكاريت فاجأ خصمه مفاجأة غير منتظرة فى جنح الظلام فكانت فاتحة انتصار رائع

وقد سبق زحف الفرق البريطانية والهندية ستار من نيران صبها خمسمائة مدفع على مثال ما حدث فى العلمين . . و بعد ساعتين أحدث الجيش الثامن ثغرة فى مراكز المحور التى كانت تمتد ١٢ ميلا فأسرعت القوات المدرعة والسريعة الحركة إلى التدفق منها ، وتم احتلال عدة تلال تعد مفاتيح الساحة فانهارت مقاومة المحور

وقاتل الألمان فى هذه المعارك قتالاً شديداً ، وكانت كرّاتهم صادقة ذات عزم شديد ولكنها صُدّت . وقالت مصادر الأنباء أن روميل تحمل خسارة جسيمة بل انكسر انكساراً حاسماً

وأسر فى هذه العملية ستة آلاف أسير ، ولاحظ المراسلون الحربيون أن الايطاليين يكوّنون دائماً الجانب الأكبر من الجنود الموجودين فى مراكز الدفاع ، وأنهم يكوّنون كذلك — كالعادة — الجانب الأكبر من الأسرى

وقيل أن نسبة الأسرى هى ست إيطاليين مقابل ألمانى واحد

وقد حدثت هزيمة المحور هذه أمام الجيش الثامن فى الوقت الذى نجحت فيه القوات الأمريكية والفرنسية فأتمت اتصالها بقوات

مونتجمرى يوم ٧ أبريل ، وأزاء هذا الاتصال انسحب المحور من منطقة القطـار

وأخذت قوات الحلفاء تدق قوات المحور فى تونس من الجنوب والغرب والشمال ، فالجيش الثامن يتعقب طريدته المرتدة شمالاً ، والقوات الأمريكية والفرنسية تندفع شرقى وشمال شرقى القطـار ومكناسى ، والجيش الأول يواصل هجومه فى صفاقس

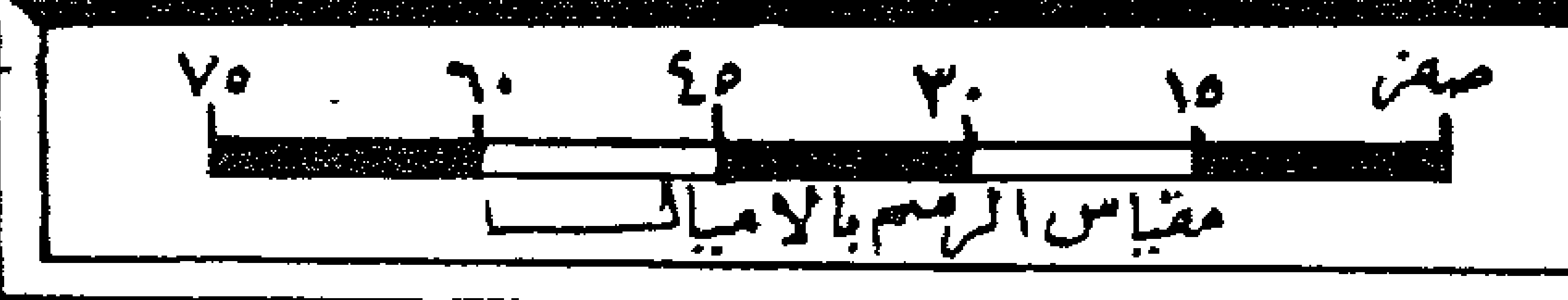
وفى صباح ١٠ ابريل أذاعت قيادة الحلفاء أن ميناء صفاقس (١٥ ميلاج . ش . تونس) — القاعدة الرئيسية لرومل — أحتلت ، فتراجعت قوات المحور بسرعة دون عناية بوضع الألغام والاشراك الشهيرة ، كما تم اخلاؤها فندق وبيشون فى الساحة الوسطى

وقد دار قتال عنيف قبل أن يتيسر للحلفاء اختراق خطوط منطقة (فندق) إذ كانت قوات المحور ثابتة فى مراكز دفاعية طبيعية ذات مناعة ، وفوق ذلك كانت الألغـام مبثوثة بكثرة ، وقوة من الوحدات المدرعة الشديدة البأس تتأهب لقتال حامى الوطيس

وتمكنت قوة متقدمة تحت نيران شديدة من فتح طريق وسط الألغام ، فراحت القوات المدرعة وقوات المشاة تجتاز المنطقة بطريقة المروحة وهى النفوذ فى منطقة ضيقة ثم الانتشار فتأخذ المنطقة فى الاتساع شيئاً فشيئاً ، ودارت الدائرة على جنود المحور فانسحبت على عجل

تاركة الكثير من مهمات وأسلحة وأسرى ، وأفلتت من موقف خطير جداً

وقد وصف يوم ١٠ ابريل ١٩٤٣ هذا بأنه كان يوماً مشئوماً على المحور ، ليس فقط بالنسبة لما حدث فى ساحة فندق ، ولكن أيضاً بسبب معركه جويه خطيرة ، فقد أسقطت القوة الجوية للحلفاء ٥٨ طائرة من طائرات المحور منها ٤٠ طائرة نقل ، وهو رقم قياسى لم يسبق له مثيل فى أى ساحة من ساحات الحرب



الركن التونسى : آخر ساحات الحرب فى أفريقيا

الجولة الأخيرة

فى النصف من ابريل عام ١٩٤٣ بدأت الجولة الأخيرة من هذه الملحمة العنيفة فى شمال أفريقيا

وكانت مراكز المحور تقع على بعد ٢٥ ميلا شمال سوسة والقيروان و٥٠ ميلا جنوب مدينة تونس ، وكان الخط الدفاعى يمتد ٣٢ ميلا من انفيدافيل غربا ثم ينحرف قليلا نحو الجنوب فى اتجاه بو حجر (٢٥ ميلا ج كوبرى الفحص) وقدرت قوات المحور فى الركن التونسى بـ ١٦٠ ألف جندى المانى و٧٠ ألف إيطالى

أما مدى ما وصل إليه الحلفاء فكان يحده خط يبدأ من رأس سيرات ويتجه جنوباً إلى سيدى نصير ثم يتجه إلى مجاز الباب فينحرف جنوبا إلى بوغراضة ويمتد شرقا إلى انفيدافيل

وأصبح من المسلّم به فى هذه الفترة أنه لا قبل لقوات المحور بالاستمرار على القتال إزاء الضغط المتزايد عليها من قوات البر ، والحملات العاتية من قوات الجو ، وضياع الأمل فى وصول نجدات أو إمدادات

. . فقد هزمت هذه القوات هزيمة تامة فى جميع الساحات وأصيبت باصابات خطيرة متوالية منذ موقعة العلمين ، وفقدت عدداً كبيراً من القتلى والجرحى وآلاف الأسرى وكميات عديدة من الأسلحة والمركبات التى غُنمت أو دُمرت

ووصلت مسألة تموين الألمان إلى درجة سيئة ، وأفلح الحصار البحرى الذى ضربته الغواصات والطائرات البريطانية ، وكانت قوات الحلفاء تغرق أكثر من نصف السفن التى تحمل الجنود والعتاد والبنزين ، ويقال أنه وقع فى يد الحلفاء ما يثبت أن الچنرال فون ارنيم شكا من زيادة النقص فى الوقود والذخائر الحربية وطائرات القتال وضعف الرقابة على السفن الحربية

وكان لقوات الحلفاء الجوية تفوق كاسح فكسبت معارك الجو ولعبت دوراً كبيراً فى القتال ، وتدمير المواصلات وضرب المطارات وكانت مصدر خطر ماحق لقوات المحور . . وقد أذيع بيان فى هذه الفترة جاء فيه أن حملة شمال أفريقية كلفت القوات الجوية الألمانية خسارة ١٢٥٣ طائرة مقابل ٤٩٨ طائرة للحلفاء

وقد حدثت طامة كبرى لقوة المحور الجوية فى التاسع عشر من إبريل إذ اشتبكت تشكيلة كبيرة من مقاتلات الصحراء التابعة لقوة الجو الأمريكية بمائة من طائرات النقل الألمانية التى كانت تحرسها طائرات القتال فوق البحر المتوسط ، فدارت معركة شديدة الهول تعد

أعظم الملاحم الجوية فى التاريخ وانتهت باسقاط ٧٤ طائرة للمحور وتسع طائرات أمريكية ، وكان ذلك ختاماً لمحاولات المحور التى أريد من ورائها إرسال إمدادات عن طريق الجو .

فالثمن الباهظ الذى بذله المحور فى الرجال وفى الفولاذ وفى الطائرات فى سبيل الاحتفاظ بمركز غير مأمون فى تونس بلغ حدّه ، ولم تعد هناك طاقة لاحتمال خسائر أخرى .

وهنا يثب السؤال الذى توارد على الخواطر عند ما بلغت الحالة فى تونس هذا الحد الميئوس منه بالنسبة لقوات المحور وهو : أى مشهد سنرى . . دنكرك جديدة أو ستالينجراد أخرى ؟ أو بعبارة أخرى هل ينوى ڤون روميل الجلاء كما فعلت القوات البريطانية فى دنكرك أو يستمر صامداً كما فعل الچنرال باولوس فى ستالينجراد . . ؟

وقد لوحظت الشواهد الآتية فبعثت الظنون على أن الألمان يعدون العدة للرحيل :

(١) إفساد الحلفاء موقف سفن المحور فى ميناء كاليارى حيث كانت تستعد .

(٢) وقوع وثيقة فى يد الحلفاء تعبر عن محاولة الألمان استخدام السفن التجارية الفرنسية .

(٣) حشد الجرارات وسفن الصيد الإيطالية فى موانى صقلية .

ولكن الحصار البحرى الذى أقامه الحلفاء جعل مسألة الجلاء عن عن طريق البحار محاولة ميئوس منها ، فإذا كان هناك تصميم على

الجلاء فلا يمكن أن يكون إلا عن طريق الجو ، على ما سيعرض له من أخطار لا مفر منها .

وقيل إن القائد الألمانى أمر بالقتال إلى النهاية ، وكان من دلائل ذلك أن القوات التى كان يقودها روميل انضمت لقوات الچنرال ڤون أرنيم وأخذت تستعد فى أماكن محصنة فى منطقة تونس فكان ذلك تغليباً للرأى القائل بأن ستالينجراد أخرى على وشك الحدوث .

أما خطة الحلفاء فكانت واضحة غاية الوضوح وهى القضاء على مقاومات المحور الشديدة فى الركن التونسى على أن يكون الأفضل فى ذلك منعها من الإفلات ودفعها إلى التسليم

وهى الخطة التى بدأت منذ وضعت تصميمات الهجوم وزحف الجيش الثامن غرباً من مصر ، ونزلت قوات الحلفاء فى شمال وغرب أفريقيا — وكان ذلك عملا عسكرياً كبيراً يناسب ما لتونس ومنطقة البحر المتوسط من أهمية كبرى -

وقد كانت الطريق شاقة والتكاليف باهظة إذ لم تكن القوات الأولى التى نزلت فى شمال أفريقيا تعلم بالدقة كل شىء عن المسائل العسكرية التى ستواجهها ، ولم يكن العتاد متكافئاً مع المسافات الطويلة التى يجب قطعها ، وقوات المحور القوية التى ستلتقى بها

ولكن فى شهر يناير تم ارسال الإمدادات اللازمة وعززت الحملة تعزيزاً كبيراً وتم تنسيق الأعمال بصفة تجعل نجاحها أكيداً فتمكن

الجيش الثامن من القيام بفعاله الحربية الباهرة التى حقق بها أعظم الانتصارات وغيّر من أمر الموقف فى ساحة تونس حين دخلها ، ثم حقّق فوزه العظيم فى خط مارث وفتحة قابس ووادى العكاريت ، وأخيراً أشار له مونتجموى « بالهجوم الثالث ، لنرغم العدو على مواجهة هزيمة تشبه دنكرك ولكن من الدرجة الأولى ! »

وكان خط الدفاع الألمانى أمام « أنفيدافيل » يحمى وراءه ممرات جبلية ضيقة أمام المسالك الجنوبية لمدينة تونس ، أما وسائل الدفاع الألمانية فكانت حفر الخنادق و إقامة مصاطب المدفعية فوق المنحدرات وقد عززت بما تبقى من مدافع ٨٨ مليمتر الشديدة الفتك ومدافع ١٠٥ القوية وعدد من مدافع الهاون ذات الأفواه الستة

و بدأ الجيش الثامن هجومه بصفة حاسمة مساء ١٩ ابريل ومُهد للهجوم بالستار المعهود من نيران مدفعيته الخفيفة ، وأخذت قوات المشاة تهاجم استحكامات الدفاع فى الجبال ، وحدث نضال عنيف وقتال مروّع فى كل شبر من الأرض

وهنا موضع درس هام لمن يدرسون الحرب ، فيجب ألا يمروا سراعاً بمثل هذه الملاحم المروعة ، إذ هذه هى الحرب الحقيقية ، فأمامنا خصمان بلغ الكلال منهما مبلغاً كبيراً إذ أن عراكهما استمر فترة طويلة تميل كفته مع هذا الفريق تارة ومع ذلك الفريق تارة أخرى ، وأصبحا أمام الجولة الأخيرة ، كلٌ يبذل آخر مجهود له وهو يعلم بنتيجة عمله

وما لها من أثر خطير فى مجرى الحرب ، وانتهى دور المدافع واستراحت الدبابات ، ولم يبق سوى الجنود يتقاتلون يداً بيد ، فالتى سوف تقرر المصير إنما هى العزائم والقوى المعنوية وروح القتال

ولم يكسب الجيش الثامن الموقف إلا بفضل تدريب شديد تلقاه عن قائد حصيف ومدرب جند ممتاز ، فقد ظل الچنرال مونتجمرى قبل أن يبدأ هجومه فى العلمين يمرّن رجاله على أنواع مختلفة من المعارك وألوان شتى من حالات القتال ، فتدربوا على القتال فى لهيب الصحراء المتقد ، وفى الممرات الجبلية والمسالك الوعرة ، وأتقنوا العمليات الليلية .. ولهذا كان هجومهم فى الجبال المتاخمة لأنفيدافيل ، على ارتفاع ألف قدم ، وقتالهم فى الليل الحالك ، خير برهان على ما كسبوه من التدريب قبل الشروع فى جولات الحرب الحاسمة

وقد انتهى تصميم الألمان على أن تنتهى حرب تونس كما حدث فى ستالينجراد لأنهم لم يسرعوا فى الجلاء واستحكاماتهم سليمة ، ولكنهم قرروا الدفاع إلى النهاية كى ينالوا نصراً دفاعياً كالذى أحرزته القوات البريطانية فى طبرق فتصبح تونس شوكة فى جنب الحلفاء تضيع عليهم قاعدة الوثوب على ساحل أوربا الجنوبى

وكان قوام القوات الألمانية مائتى ألف جندى تقريباً من خيرة رجالهم مجهزين بأسلحة من الطراز الأول ويرابطون فى مواقع جبلية محصنة ، وقد عمد فون أرنيم إلى تقصير خطوطه فبلغ القتال أقصى



روميل



أرنيم

القادة الألمان فى شمال أفريقيا

مراحله العنيفة ، واحتدمت المعارك فى البر والجو ، والتقى جنود الفريقين فى اشتبكات حامية بالأسلحة البيضاء

ولم يكن للدبابات مجال فى هذا الصراع بقدر ما كان للمشاة التى حملت عبء هذه العمليات ، وقد قامت الطائرات بدور هائل فأخذت فى تدمير معاقل المحور وهدم مواصلاته ووسائل تموينه

وكانت صورة القتال فى انفداڤيل مغايرة للصور التى عرفها الجيش الثامن من قبل ، فقد كان يعمل هذه المرة للاستيلاء على جبال شاهقة وممرات محصنة ثبتت فيها جنود قوية مصممة على الدفاع إلى النهاية . . وقد أبدت فيه صلابة أشد من أى مكان آخر وقفت فيه ، ومع ذلك فقد كانت ترغم على الانسحاب ببطء تحت عبء الضغط المصوّب عليها فى جميع ساحات تونس

فالفيلق الأمريكى كان يتقدم صوب بنزرت من رأس سيرات بينما كانت بقية القوات الأمريكية تزحف زحفاً مطرداً فى شرق مجاز الباب والفرنسيون فى جسر الفحص يبلون بلاء حسناً

وأخذ الجيش الثامن يتقدم على الرغم من أعمال الإتلاف وبث الألغام ويجدّ نحو المنفذ إلى تونس

وانتهى الأمر بارتداد جنود المحور وتراجعهم شيئاً فشيئاً متكبدين خسائر فادحة دون أن تغنى عن ذلك مراكزهم القوية ومدافعهم الجيدة وقتالهم الممتاز فلم يكن فى طاقة البشر أن يعمل أكثر مما عمل ، وقد

كانت قواتهم أقل عدداً وعُدداً وفى نقص فاحش من ناحية الطائرات

وفى فترة قصيرة — أقصر مما كان يتوقع أكثر المتفائلين — تم نجاح قوات الحلفاء فوثبت إلى تونس و بنزرت وثوباً خاطفاً

وكان هجوم الجيش البرى مصحوباً بأشد هجوم جوى تعرض له جيش من قبل ، وكانت الغارات مركزة فى منطقة ضيقة تتساقط فيها القنابل جنباً إلى جنب . . وتم للحلفاء دخول تونس و بنزرت وفريفيل فى يوم واحد وهو يوم ٧ مايو ١٩٤٣

وتقدمت قوات الجيش الأول المصفحة ودورياته يوم ١١ مايو على طول الساحلين الشمالى والجنوبى لشبه جزيرة رأس بون وأتمت تطويقهما فانهارت آخر مقاومة فيها وأسر نحو عشرين ألف جندى

فلما كان اليوم الثالث عشر من مايو تم وقف كل مقاومة للمحور من جميع أنحاء تونس ، وانتهت جميع أعمال القتال ، وألقت قوات المحور التى كانت تواصل الحرب فى « الجيوب » الثائرة سلاحها واستسلمت وأسر القائد العام الجنرال فون أرنيم ، وقائد الجيش المدرع الجنرال فون ڤاليست ، وعدد من القواد ، وجنود خيرة الفرق الألمانية ومقادير عظيمة من السلاح والعتاد وأعلنت المقامات الرسمية أن عدد الأسرى خمسة وسبعون ألفاً معظمهم من الألمان

وقد ذكر مستر تشرشل فى بيان أذاعه على مجلس الأمة (الكونجرس) فى وشنطن أن « عدد جنود العدو الذين أسروا أو

قتلوا فى هذه الحملة يزيد على ربع مليون من خيرة قواته ، وخسر مع هذه القوات مقادير هائلة من عتاد الحرب ، وقد كلفت شمال أفريقيا الدكتاتورين ٩٥٠ ألف جندي بين قتلى وأسرى ، ونحو ٤٠٠٠٠٠و٢ طناً من السفن ذهبت إلى أعماق البحر وما يقرب من ٨٠٠٠ طائرة دمرتها قواتنا ، و٦٢٠٠ مدفع و ٢٥٥٠ دبابة و٧٠ ألف مركبة نقل وكانت الهزيمة ماحقة حقاً ... »

وبهذا طهرت القارة الافريقية من الجنود المعادية للحلفاء ، وأعلنت البيانات الرسمية أن خسارة المحور فى ميدان تونس بلغت ٥٠ الف قتيل و٤٨ الف أسير فكانت ضربة قاصمة ختمت الفصل الأفريقى من كتاب الحرب العالمية بعد عامين ونصف فى قتال مر ودماء مراقة وتكاليف باهظة وضحايا جسيمة فى الأسلحة ومعدات القتال

وكان لهذا الانتصار الرائع أثره الكبير فى تغيير سير الحرب وتعديل اتجاهها ، فعُدّ ذلك مرحلة التحول أو بداية النهاية وفاتحة فعال حربية هجومية واسعة النطاق ؟



من القـــراء

بعث كثير من القراء ، من رجال العسكرية والسياسية — مصريين وأجانب — إلى المؤلف بخطابات ثمينة تعبر عن ارتياحهم وتشجيعهم الكريم لما يصدره من مؤلفات . . وبينها رسالات سامية من أصحاب السمو الأمير عمر طوسون والأمير يوسف كمال وأصحاب المعالى والسعادة أحمد حسنين باشا ومصطفى نصرت بك وسفير بريطانيا ووزير أمريكا المفوض والفريق إبراهيم عطاالله باشا ومحمد حيدر باشا وعلى فهمى باشا واللواء مندور محمد باشا والأميرالاى محمد متولى بك وغيرهم . .

وتلقى من صاحب السعادة البارون دى بنوا رسالة قيمة جاء فيها « وإنى على يقين من أن الكتاب الجديد سيقابل بترحاب فائق كما قوبل كتاب (حرب الصحراء المصرية) الذى وصفـــه سعادة إبراهيم عطاالله باشا بأنه يجمع بين دقة البحث واستقامة التفكير براعة العرض وأناقة التعبير . . »

وجاء فى كلمـة لسعادة الفريق محمود شكرى باشا عن كتاب (هذه هى الحرب) أنه « أول كتاب شامل لكل ما يجب أن تأخذ به أمة طموحة إلى الاستقلال الكامل والقوة ، وغاية ما أرجوه أن يطلع عليه قادة الأمة وزعماؤها ويعملوا بما فيه . . »

وكتب الأميرالاى أحمد عونى بك عن كتاب (حرب الصحراء المصرية) يقول « من لم ير الحرب فقد يراها فى ثنايا هذا الكتاب

الصغير الكبير . . يراها دائرة الرحى حامية الوطيس فى أدق مراحلها وأعنف أطوارها ، بريشة فنان بارع موهوب يطالعنا بأشهى ما تستمتع به النفس من حديث الحرب الصحراوية ، تلك التى تأججت نيرانها على أبواب مصر وكاد لهيبها أن يندلع فى أرجائها . . وتلك همة لم يضطلع بها غيره من عباقرة الكتاب فى مصر . . »

أقوال الصحف

ويقدم المؤلف أجمل الشكر إلى رجال الصحافة الكرام وأصدقائه الكتاب الذين أفسحوا له أنهر صفحاتهم وعنيت أقلامهم بمؤلفاته المتواضعة فى وقت يضيق فيه نطاق الصحف ويلزم بالتوفير والاختصار .

وفيما يلى مقتطفات من روائع ما قيل :

كتاب « هذه هى الحرب »

قالت عنه **الأهرام** « جاء جديداً فى معالجة موضوعات الحرب واستعراض الحوادث وتبسيط المعلومات العسكرية مما يغنى عن عشرات المؤلفات الحديثة . . »

وقالت **المقطم** « . فصول ممتعة تشيع فيها روح الإقدام والبطولة وصدق العزيمة وتدل على علم غزير وإلمام تام ودراية صحيحة بالمسائل الحربيـــة . . »

وذكرت مجلة الجيش أن « هذا المؤلف النفيس قد حوى العناصر الجوهرية التى ينطوى عليها فن الحرب »

ووصفته La Bourse بأنه « كتاب شائق جداً كتبه رجل اخصائى »

كتاب « حرب الصحراء المصرية »

قالت المقطم « كتاب نفيس ، بل تحفة ممتازة يشتاق للاطلاع عليها كل قارىء »

وقالت المصرى « أسدى المؤلف بكتابه هذا يداً جليلة الشأن إلى قراء العربية الذين كانوا شهود هذه الحرب ومن أشد الناس تلهفاً على أنبائها . . »

وقالت Le Progrès « قلما يجد القارى كما فى (حرب الصحراء المصرية) مثل هذه الدراية العسكرية ، وليس هذا هو أول كتاب للمؤلف فإن كتابه (هذه هى الحرب) قد أثار موجة اهتمام وترحاب أعلت شأنه فى مختلف الأوساط المصرية والأجنبية . .

وقالت Le Journel D'Egypte « كتاب شائق من عدة وجوه : إستعراض مثالى ووقائع دقيقة وحقائق وثيقة ودراسة منطقية لا أثر فيها للتحيز ، وكجندى صحيح أهدى اللازم أول السيد فرج كتابة إلى (الجندى الباسل . . غالباً ومغلوباً ، حياً وميتاً)

وقالت La Bourse « الكتاب جميل الأوضاع مكتوب بأسلوب واضح حكيم ، فهو يجمع إلى خصائصه الفنية حقائق شائقة ومعلومات

دقيقة عن الفعال الحربية للأعداء والحلفاء ، وسيلمس القارئ تضلع المؤلف فى الناحيتين العسكرية والفنية ، فهذا الكتاب ولا شك وثيقة قوية مترعة ستلقى الإعجاب . . »

وبمثل هذا تحدثت بقيـة الصحف والمجلات عن هذه المؤلفات وعن غيرها

شكر وعهد

وأخيراً يقدم المؤلف هذا الشكر والعهد إلى الأصدقاء المجهولين . . إلى القراء الأعزاء الذين أكرموا هذه المؤلفات وأحلوها مكاناً علياً بإقبالهم عليها وتأييدهم لها

أما مطبعة المعارف ، صاحبها الفاضل ومديرها القدير وسكرتيرها وموظفوها وعمالها . . فماذا أقول عنهم ! وهل تجزى كلمات الشكر والثناء كل هذا الفن والذوق والإبداع . . ؟ !

سادتى الكتاب والقراء والأصدقاء

شكراً عميقاً . . وإلى اللقاء .

السيد فرج

فهرس

١٢٠١/١/١/١٩٤٤

لحضرة الأستاذ حسين بيكار
الفنان البارع
رمز تقدير
وتذكار مودة

السيد فرج
[illegible]

حروب محمد علي

إذا فتح الله عليكم بمصر
فاتخذوا بها جنداً كثيفا
فإن هذا الجند خير أجناد الأرض

حديث شريف

مطبعة التوكل بالجاميز

من كتب المؤلف

الهجوم على أوربا

... ولقد حقق عملا عظيما وأتى على ناحية هامة يحتاج الرجل العسكرى والرجل المدنى إلى إدراك شئونها وفهم دقائقها ...
« الفريق عمر فتحى باشا »

حرب الصحراء المصرية

كتاب شائق من عدة وجوه : عرض بديع وحقائق دقيقة ودراسة منطقية لا أثر فيها للتحيز ...
Le Jonrnal D'Egypte

.. ملم بمقدمات هذه الحرب وأطوارها ، وقلما اتصلت بالحرب مسألة إلا كان له إلمام بطرف من أطرافها
«الاستاذ عباس محمود العقاد»

فى شمال أفريقيا

.. قصة ممتعة متتابعة الوقائع مع أنها خاصة بمرحلة من أشق مراحل الحرب والفضل فى ذلك لسعة اطلاع المؤلف وحسن إدراكه للفن الحربى والخطط العسكرية «المقطم»

هذه هى الحرب

يجمع إلى خصائصه الفنية حقائق شائقة . ومعلومات دقيقة وقد لقى ترحيبا إجماعيا من مختلف الأوساط المصرية والأجنبية
« La Bourse »

لئن أعوزنا المثل الأعلى لبث روح العسكرية فى البلاد وتقوية النفوس بمعانى الجندية السامية فلنتلمسه فى هـذا الكتاب ، وهو وليد دراسة عميقة وإحاطة شاملة ونفس وثابة فاضلة « الاميرالاى أحمد عونى بك »

الإهـــــداء

سألنى المغفور له دولة أحمـــد ماهر باشا
قبل مصرعه التاريخى بأيام عن كتابى الجديد . . .
ولم يدر أننى كنت معتزماً إهـداءه إليـــه ،
ولم أدر أنه سيحدث ما يجعلنى أهديه إلى . . .

إلى روح المغـــفور له أحمـــد ماهر باشا

الذى علّم هذا الجيل أن الوطنية كرامة وعدل
وأنها أداء الواجب ... مهما كانت العواقب

السيد فرج

المراجع

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار	عبد الرحمن الجبرتى
حقائق الأخبار عن دول البحار	الميرالاى اسماعيل سرهنك
الخطط التوفيقية الجديدة	على مبارك باشا
جيوش مصر البرية و البحرية	الأمير عمر طوسون
إبراهيم باشا	بيير كربتس (ترجمة الأستاذ بدران)
عصر محمـــد على	عبد الرحمن الرافعى بك

و

The founder of modern Egypt, a study of Mohmed Ali	Henry Dodwell
A short memoir of Mohamed Ali	Sir Charles Augutus Murry
Histoire militaire de Mohamed Aly et de ses fils	Le Général Weygand
Mon pays, le renovation de l'Egypte, Mohmmed Ali	Princesse Chivékiar
Histoire de la guerre de Mohamed Ali contre la Porte Ottomane	Cadalvène et Barrault

تقـــديم

لحضرة صاحب السعادة الفريق محمد حيدر باشا

ياور جلالة الملك

وكيل وزارة الشئون الاجتماعية

سبق أن قدم الضابط الأديب السيد فرج للمكتبة العربية جملة من مصنفاته : هـذه هي الحرب — حرب الصحراء المصرية — في شمال أفريقيا — الهجوم على أوربا . . . وغيرها ، وهي مؤلفات عسكرية يقدمها ضابط معروف

فالصلة بين المؤلف والمؤلف متوطدة ، وليس في هذا غريب ..

أما إنه يجيئنا اليوم بمؤلفه « حروب محمد على » وإن كان في العنوان ما يشير إلى ذات الصلة . . . فإن ذلك يعد اتجاهاً جديداً أضاف به المؤلف إلى المكتبة العربية سِفْراً كانت أشد ما تكون حاجة إليه ، وقدم للقارىء اطلاعا تنبعث منه دوافع الهمة والعزيمة ، وخصوصا في هذا الوقت الذي يحتاج فيه الشباب للجد والحق والمضاء وقوة العزم ... وهل أبعث على هذه الخلال — في تكوين الشباب ، بل في إعداد الأجيال — من سير المصلحين المتقدمين ، ومناهج العسكريين السياسيين

لقد كان محمد على فذاً من أفذاذ التاريخ ، وقد شاء الله أن يخص به مصر فى أسوأ حالات الحكم والاضمحلال الإجتماعى والاضطراب السياسى فاستطاع بفضل جهاده العظيم وحروبه المجيدة وسياسته الموفقة وإدارته الحازمة أن ينهض بمصر ويضع أساس رقيها فانتظمت الإدارة واستتب الأمن وعم الخير . . . وفى هذا التاريخ الحافل يجد القراء والباحثون من العسكريين والمدنيين ما يملأ النفوس فخراً وعزما وما يدفع إلى ترسم الخطى وترصد العبر من حياة هذا العاهل العظيم الذى أوتى العبقرية والمجد فأسبغهما على مصر والمصريين

وقد رأى المؤلف أن يخرج كتابه على نسق يتحقق فيه الإيجاز وتتوفر له الحقائق ، فتوخى القصد ولاحظ التبسط والتقديم بطريقة تناسب سائر القراء

وهذا فضل له منا — من أجله ومن أجل كتابه — شكراً عاما يختص منه العسكريون بنصيب كبير حيث تربطهم الصلة المجيدة بصاحب التاريخ كما تربطهم بمؤلف الكتاب

وأخيراً ، ترى بين هذا السفر الجامع وبين الجمع الأعم من النشء والمفكرين والقادة ، وبين القائد الأعلى فاروق العظيم — الذى ينحو نحو والده الأمجد ويترسم خطوات جده العبقرى — أقدس الصلات وأوثق الروابط ، لخير مصر ومجد شعبها

حسيد

نفحة من الماضى

يطيب لكثيرين أن يقبلوا على صفحات التاريخ مستوعبين دروس الماضى مستذكرين ما كان لأسلافهم من فعال باهرة وآثار مجيدة تعتز بها النفوس وتنتعش الآمال

غير أن هناك من يتجاهلون حديث الماضى كما يصمون آذانهم عن الصوت الذى يدعوهم للنظر بعين الاهتمام فى شئون مستقبلهم ، فلا يجدون من أنفسهم دافعاً لبذل الجهود ولا تساعدهم روحهم على العمل والكد ، بل يغلب عليهم اليأس والخنوع ويأخذ بقلوبهم الواجفة الوهم والتخاذل ، ويقع فى روعهم — حين يجدون وطنهم فى مشقة — ألا منجاة له ولا سبيل للنهضة به ، فيعتذرون عن السعى ويرتضون الحياة الناعمة ، وتسلبهم فكرة « لا فائدة » قوة الإرادة وروح الكفاح وتنسيهم ماينتظرهم من مستقبل رهيب حين يسلمون أمرهم للشيطان

ولو أن هؤلاء أنعموا النظر فى التاريخ لوجدوا أمماً تنهض من ضعف وتحيا بعد ممات ، فلا مدعاة إذن لليأس ولا سبب للتخاذل

ولا بد من عمل — تحققت الغايات أم قامت فى سبيلها العقبات — فالعمل الذى يبدؤه الآباء يتمه الأبناء ، ومن سار على الدرب وصل

وتاريخ مصر حافل منذ القدم بالأمثلة الكريمة والشواهدالناطقة ، فكثيراً ما استهدفت هذه البلاد لغزوات كبرى ودارت عليها رحى الدهر فى عهود مختلفة ، فما كان أسرعها استجابة لحاجات الساعة وضرورات السياسة وما كان أبرها بماضيها وأوفاها لتاريخها ، فلا تمتد بها أسباب الضعف ولا تتحكم فيها عوامل اليأس ، بل سرعان ما كانت تثوب إلى رشدها وتكشف عن روحها وتستعيد أزمّتها وتأخذ فى توقل أدراج الصعود إلى مكانتها الرفيعة التى يشير إليها ماضيها المجيد .

وهذا الكتاب « حروب محمد على » رواية عهد قريب ، يقص نبأ البلاد المصرية قبل قرن وربع قرن من الزمان ، حين نفضت عن نفسها شوائب النقص وقضت على أسباب الفوضى ، ونهضت نهضتها التاريخية التى استعادت بها سيادتها وأرست أساس حياتها الحديثة

ويمكن القول بأن هذا الكتاب صدى لرغبات شباب مصر فى يقظتهم الحاضرة ، وهم يتلمسون عوامل النهوض ودوافع التقدم ، ولا شك أنه سيطيب لهم درس أحياء مصر فى عهد محمد على باشا

وانتقالها من حالة ضعف وتأخر ، إلى منزلتها التقليدية فى ركب الحضارة والمدنية

غير أنه يجب ألا تطوف بنا هذه النفحة الطيبة من الماضى الكريم دون أن نستذكر درساً عالياً ونصحا غاليا جاءا فى رسالة ملكية سامية من صاحب الجلالة فاروق الأول إلى شباب شعبه الوفىّ : —

« أما مصر التى كانت فقد تولى التاريخ الكلام عنها والتغنى بمآثرها . . .

« وأما مصر التى ستكون فأنتم المسئولون عنها

« وإنها لأمانة فى أعناقكم

« فلا تجعلوا أنشودة التاريخ فيكم أقل روعة من أنشودته فى أجدادكم

« ولنؤمن جميعاً بمصر فإنها كنانة الله

« ولنعمل لها

« وسيرى الله أعمالنا ويباركها »

الوصول إلى الحكم

هذا كتاب موضوعه حروب محمد على

وهو موضوع لا يمكن فصله عن الأصل ، أى عن شخص محمد على وأعماله وعهده . . . ولكن إذا تطرق بنا البحث فى هذه النواحى لاحتاج الأمر إلى مؤلفات ضافية الفصول ولهذا سنكتفى ببحوث موجزة فى كل مايتصل بالموضوع الأصلى من النقط الضرورية

* * *

محمد على باشا هو رأس الأسرة العلوية ومنشئ مصر الحديثة

ولد فى مدينة قولة ، بمقدونيا ، سنة ١٧٦٩ ، وهى السنة التى ولد فيها نابليون بونابرت

والده ابراهيم أغا من رجال الضبط فى قولة ، من أصل تركى ، ومن عائلة صغيرة ولكن كريمة مجدّة ، ترك ولده طفلا ليس له مال ولا صناعة فكفله عمه طوسون ، ثم نشأ فى كنف حاكم قولة وكان يدعى « الشوربجى » كما أظله برعايته المسيو ليون — قنصل فرنسا فى قولة — وكان يتولى بعض الأعمال التجارية فأشرك فيها محمد على

حين توسم فيه النجابة والفطانة وتوقع له نجاحا عظيما

وعرف فى طفولته بالوسامة والذكاء ، والولوع بالفروسية وألعاب السيف ، وبلغ مدارج الرجال مبكراً فمارس التجارة واكتسب الخبرة فى دراسة الشعور والعواطف ، وأصول التعامل وفن اقتناص الفرص

وعند ما انتظم فى سلك العسكرية كان ذلك بشيراً له بالمجد ، وسرعان ما تكشفت مواهبه الفذة فاشتهر فى عدة أعمال بحرية ضد القرصان كما عمل فى القوات التى كانت تكلف باخضاع الثائرين أو المتخلفين عن دفع الضرائب ، وبلغ رتبة اليوزباشى وتزوج من قريبة حاكم البلدة ، وهى أم أولاده ابراهيم وطوسون واسماعيل

وجاء إلى مصر فى حملة القبطان حسين باشا ، التى جردتها تركيا — بايعاز من انجلترا — لإخراج الفرنسيين من مصر .

وخاض غمار الحرب ضد الفرنسيين — وكانوا مردة الحرب فى ذلك الوقت — فأدرك أصول الحرب الحديثة ووجدت مواهبه ميدان رحباً ، وخصوصا بعد أن ولى أمر « تجريدة قولة » . وكان لما أظهره فى تلك المواقع من الصفات الحربية العالية ما مكن له من الترقى السريع فبلغ رتبة الأميرالاى وتولى قيادة أحد الألوية فى سنة ١٨٠١ وهى السنه التى انحسر فيها ظل الفرنسيين عن مصر

بمقتضى اتفاقية لندن ، وأعيدت مصر لحكم تركيا المطلق

وبهذه الخاتمة تكون مهمة محمد على فى مصر قد انتهت ولكنه لم يبارح البلاد ، وساعدته بصيرته النافذة وقريحته الوقادة على فهم أوضاع الحكم والحياة فى مصر وإدراك أسباب الضعف وأسرار الفوضى،وقد وجد أمامه أمة ذات تاريخ ومواهب وقد حيل بينها وبين النهوض والعلاء ، تتنازع أمورها قوى مختلفة وتذهب بقوتها الأحقاد والفتن . . . ولم يكن هناك الرجل الذى يفهم أسرار الحكم فيقضى على عناصر الفوضى ويرفع العقبات عن الطريق لكى تسير مصر إلى مكان جدير بماضيها . . . أجل كان محمد على يرى من الأشياء ما لا تراه عيون الآخرين ويتوقع من الحوادث والنتائج ما لا يخطر ببال . . . وقد استشف ما يخبئه القدر لمصر ، واستلهم وحى طموحه ، وتذكر تنبؤات الماضى* ، فرأى كرسى الولاية فى متناوله ، وخصوصاً عند ما يكون سيفه فى يده

وأخذ الرجل الخبير بالأسواق والمضاربات يرقب مجرى الحوادث ويضع خططه ، ويستعد لمواجهة منافسيه والقضاء على

---

* قيل أن عرافة تنبأت لمحمد على بمستقبل كبير ، وهو طفل فى المهد ، وأن رجلا مباركا نصحه بالانتظام فى حملة مصر حين كان محمد على متردداً فقال له « يا بنى ، إن الطريق طويل ولكنه يقودك إلى المجد »

العقبات التى تعترض طريقه إلى الحكم ، فقد كان أمامه الأتراك والمماليك والألبان والتدخل الأجنبي ، وكان لا بد له من أن ينتصر على كل هؤلاء كى يستقل بمصر ويدفع بها إلى حياة جديدة حافلة

فى فبراير سنة ١٨٠٢ تولى خسرو باشا زمام الأمور فى ولاية مصر ، التابعة لتركيا ، وكان محمد على فى معيته ، يشترك معه فى وضع الخطط ويؤدى بعض الخدمات ، وكان الجهاد ضد الفرنسيين قد انتهى .وجاء دور المماليك — الذين تؤيد انجلترا سعيهم إلى النفوذ والسلطان — ولم يكن خسرو الحاكم القدير أو الخصم القوى الذى يستطيع أن يقضى على عناصر الفتنة والتمرد فاضطربت شئون الحكم فى يده وأثرت تصرفاته الخرقاء فى الموقف الحربى فحدثت الانكسارات العسكرية المتوالية أمام المماليك وقد اتهم فى أمرها محمد على فاستدعاه الوالى للتحقيق معه ولكنه رفض الانصياع للأمر ورد بعنف : « سأجيء فى وضح النهار وبين جنودى ! » وهى قولة القائد الواثق بنفسه المتمكن من قوة جنوده وولائهم له . . .

ولم تنقطع القلاقل والمشاغبات فى تلك الفترة المليئة بالأحداث والانقلابات فكان هناك المماليك يرفعون لواء الحكم فى عدة مدائن ، والألبان والأتراك ، وقد انفرط عقدهم وظهرت خصومتهم ، وأنصار طاهر باشا ، الذى انقلب على الوالى ، ثم جنود محمد على

الذى شق عصا الطاعة وناصب الوالى العداء

وقف محمد على بمنأى من المشاغبات والمنازعات ، وفضل سياسة الحياد فلا يناصر فريقا على فريق ، وظل يترقب نتائج المعارك حتى تسنح الفرصة المناسبة فيتصيدها ثم يمضى إلى هدفه بغير ابطاء

وثار الجند على خسرو حين دفع بهم الى قتال المماليك دون أن يدفع رواتبهم ثم اشتبك فى نضال مع احمد باشا طاهر قائد الأرنؤود الذى كسب الجولة الأولى فى هذه المعركة الفوضوية ووثب الى كرسى الولاية

وحاول طاهر باشا أن يثبت أقدامه فى ولاية مصر ولكنه أخفق فى محاولة القضاء على خسرو ولم يكن حاكما قديرا يفهم فى « إدارة الرجال » فحدث التنافر بين الأتراك والالبان ، وقامت قيامة الانكشارية حين كان قائدهم أحمد باشا فى طريقه الى بلاد العرب ، وحدث قتال مشوش قتل فيه طاهر باشا وعادت ولاية مصر شاغرة

وفوتح احمد باشا ، قائد الانكشارية ، لتولى الحكم ، فرضى بما عرضه عليه أعيان الترك ولكنه اشترط أن يؤيده محمد على ، الذى كان مبتعداً عن دائرة الفوضى ولم يكن يعنيه غير تدعيم قوة جنوده وتوكيد صلته بالاهالى وانتظار الساعة المناسبة لبدء دوره

رفض محمد على ماعرضه عليه الوالى الجديد وأرسل اليه ينصحه بترك شئون مصر لمصر ، وقرر أن يخطو خطوة جديدة فيضرب الاتراك بالمماليك ، ودعاهؤلاء لدخول القاهرة فاستمعوا له وشرعوا فى الزحف عليها وقضوا على الانكشارية وحركة أحمد باشا ، ثم أصبح الأمر فى أيديهم ، ولو أن محمد على كان فى الحقيقة قابضا على هذه الأيدى ، وفى هذه الأثناء تم القضاء على قوة خسرو وعلى حركة الألفى . . وخلا الجو قليلا

وبدأ محمد على الجولة الثانية حين صمم على ضرب المماليك بالالبان ! وانتهز فرصة هياج الجنود بسبب تأخر رواتبهم فأحالهم بدهاء الى زعماء المماليك ! ولم يجد البرديسى مفرا من طلب ضرائب جديدة فثار الأهالى وسخط كبارهم على هذه التصرفات الخاطئة . . ودخل محمد على باشا الحومة فسدد ضربته بحكمة إذ طارد المماليك من القاهرة.ثم انقلب يلبس مسوح رجل السياسة فذهب الى القلعة وفك أسر خسرو حتى يفهم الملأ أنه ليس رجل أطماع شخصية ، وبذلك نال حظوة كبيرة عند الأهالى كما أصبح موضع رضاء الباب العالى . . وقليلون هم الذين يستطيعون أن يضربوا عصفورين بحجر

ودخلت المسألة المصرية فى مرحلة جديدة حين ثار الألبانيون على خسرو وأبعدوه عن مصر بينما كان محمد على يطارد المماليك فى

الصعيد ، وجاء خورشيد باشا حاكم الأسكندرية ليتسلم ولاية مصر ، فرأى أن يتخلص من محمد علي — حتى يخلو له الجو — فاستصدر مرسوما بتعيينه والياً على جده ، فرفض محمد علي وانقلب راجعاً إلى القاهرة مطمئناً إلى ولاء الجنود وعطف الأهالي

وجاء أهل الرأى من رجال مصر وطلبو إليه عزل خورشيد ! واختاروه — أى محمد علي — والياً عليهم وجاء فى خطابهم « لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا » وتقدم السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى فألبساه الكرك والقفطان وهما شارتا الحكم وعينوه والياً ، وأرسلوا إلى السلطان ملتمساً بطلبهم فأقر رأيهم — وإن كان كارهاً — وبعث قبطان باشا حاملا سند الولاية وفرمان الحكم لمحمد على فى ٩ يوليو سنة ١٨٠٥

وهكذا استوفت المقادير فى شخصية محمد على مزايا الحاكم القدير ، كما أجمعت على صلاحيته لهذه الولاية ، وهو الرجل المتوقد الذهن النافذ البصيرة ، الذى أصبح بفضل كفايته وطموحه بطل الموقف فجاءته الولاية منقادة ، ولم تك تصلح إلا له

فلما رجع قبطان باشا إلى تركيا فى اكتوبر سنة ١٨٠٥ قال « لم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته »



محمد علي باشا

القضاء على الخصوم

تربع محمد على باشا على أريكة مصر حين رفعته إليها الزعامة الشعبية وصادق السلطان على هذا التعيين

ولكن ذلك كان فى عهد وصفت فيه ولاية مصر بأن الوصول إليها آية والبقاء فيها معجزة

وقد رأينا كيف كان الولاة يتساقطون الواحد تلو الآخر لأن أرض الفوضى والفتن والانقلابات لا تبقى شيئا ثابتا ، ولو كان كرسى الحكم

ولهذا فان الجهاد الذى كان محمد على قد بدأه فى طريقه الى الولاية لم يكن قد انتهى بل زاد كثيرا وأصبح نضالا كبيرا واسع النطاق

فقد كان عليه أن يواجه عدة عناصر خطيرة ويقضى عليها قبل أن يستتب له الأمر ، وهى : الاتراك ، المماليك ، الأرنؤود ، والعناصر الأجنبية المعادية . . . فأعد لكل منها خطة مناسبة وحدد لها وقتا

لم يكن مختار الاستانة ، وانما كان وصوله الى الولاية أمراً

جديداً لم تألفه دوائر البـاب العالى ولم تطمئن له ، فاذا كانت قد اضطرت للرضوخ وموافقة زعماء الشعب على وجهة نظرهم فقد كان ذلك ترضية وقتية وحلا لا مناص منه حتى تمر الأزمة فتراجع النظر فى الموقف وتحدث من التغير ما يناسب المقام . . .

ولذلك جعلت ترقب الحالة فى مصر وتراجع كفتى الميزان بين محمد على ومناوئيه ، وأبقت فى الأسكندرية عمارة بحرية تحت قيادة قبوطان باشـا وجعلت مهمته تثبيت محمـد على أو عزله كما تقضى الظروف .

واستخدم محمد على فطانته وحسن دهائه فأخذ يصور للرقيب ، قبوطان باشا ، ما ترمى إليه أعمـال المماليك ، الذين تسندهم سياسة أجنبية لها مراميها تتعارض مع نفوذ الباب العالى ، ويفصح عن وجهة نظره التى لا هـدف لهـا سوى انتشال مصر من الفوضى ، وأداء واجبه نحو السلطان

وكان محمد على يعتقد أن قوة الحاكم من قوة شعبه فعنى باسترضاء الرأى العـام ــ الذى انتقـل على أكتافه إلى الحكم ــ وكسب ثقتـه وتأييــده ، فكان يستشير الزعمـاء فيما يعن له من آراء ويشاورهم فيما يقدم عليه وذلك كى يستبق مكانته الشعبية ونفوذه بين الجماهير ، فالعرش الذى يسنده الشعب لا يسقط أبداً . . .

وبدأ محمد على جهاده ضد المماليك فقد دأبوا على بث الشباك وإلقاء المصائد فى طريقه ، وكانوا قوة لا يستهان بها ، غير أنه كان دائماً مفتح العينين نفاذ البصيرة ؛ فسبقهم إلى مكائدهم وأوجد فى صفوفهم « الطابور الخامس » ، ورصد لهم العيون وبعث إليهم من يغرر بهم ، فإذا هم يشرعون فى الزحف على القاهرة يتلمسون مساعدة كبار أهل الرأى ولكن هؤلاء أغلقوا الأبواب فى وجوههم فلم يجدوا تأييداً من الأهالى فاختلفوا وتنازعوا وذهبت ريحهم ، ولاذ بعضهم بالفرار ووقع البعض فى قتال شاق مع جنود محمد على فضاعوا بين قتلى وأسرى ولم يتفق لهم « أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة » كما جاء فى رواية الجبرتى

غير أن جهاد المماليك لم ينته عند هذا الحادث وأشباهه ، فقد كانوا دائبى السعى على الكيد لمحمد على وزلزلة الأرض تحت أقدامه ، وكان لهم نفوذ فى الصعيد يعد مصدر خطر كبير ، وإذا كانوا قد أخفقوا فيما أسميناه « الزحف على القاهرة » فإنهم لم يعدموا وسائل أخرى ، ورأوا أن يجربوا السياسة ففاوضوا محمد على أن يقطعهم أرضا ، ولكن رجل الحكم والسياسة لم يقبل أن يقيم دولة فى الدولة ، وجعل يترقب الفرصة التى يسدد فيها ضربته إليهم

ووجد المماليك منفذاً آخر ، فقد استعانوا بالإنجليز لدى الباب العالى

وأوغروا صدر أولى الأمر فى تركيا ضد محمد على، فعطفت الآستانة على قضية المماليك وصممت على عزله، وأرسلت لذلك حملة تعدادها ثلاثة آلاف جندى تحت قيادة صالح باشا وأوفدت معه والياً جديداً هو موسى باشا

وفوجىء محمد على باستلام فرمان نقله من مصر وتعيينه فى سلانيك فتظاهر بالطاعة وطلب فسحة من الوقت حتى يؤدى للجنود ما تأخر من رواتبهم، وأخذ يعالج الأمر بحكمة ويستخدم الدهاء للتخلص من هذا الموقف السيء، ولجأ إلى زعماء الشعب وشاورهم فى الأمر(١)، حتى إذا استوثق من إخلاصهم واطمأن إلى تأييدهم شرع يستعد للمقاومة ويرد على الاعتداء...

وذكر الجبرتى أن الباشا «شرع فى عمل آلات حرب وجلل ومدافع، وجمعوا الحدادين بالقلعة واصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهمات وجمع إليه كبار العسكريين وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك...»

---

(١) أرسل الزعماء ملتمسا إلى السلطات التركية يذكرون فيه أنهم لا يرتضون بمحمد على بديلا فهو «كافل الاقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقاطع المعتدين وأن الكافة من العامة والخاصة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشريعة مقامة فى أيامه، وجميع أهل القطر المصرى مطمئنون لولاية هذا العزيز..».

ولـكن أسلحة القتال لم تـكن كل ما تخبئه جعبة محمد على ، وقد كان يعرف أسلحة أخرى لها فعل السحر فرشا رجال الحاشية ، فهدأت أعصابهم (١) ، واستمال إليه الفرنسيين فنال تأييدهم (٢) ، وألقى بالخصومة بين رؤساء المماليك فتحول ثقل الأزمة قليلا

وقد حدث خلاف بين زعماء المماليك ولم تتفق كلمتهم وبذلك خيبوا ظن الجهات التركية ورأى صالح باشا ما كان من تأييد زعماء الشعب لمحمد على فكتب إلى الباب العالى فى ذلك ، ففوض له أن يتصرف فى الموقف فانحاز الى جانب محمد على واستصدر مرسوما بإبقائه فى ولاية مصر « حيث أن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس »

ولما اطلع قبطان باشا على ماجريات الحوادث ولاحظ ما بين المماليك من خصومات وأدرك قوة محمد على وسيطرته على الموقف انحاز الى جانبه وثبته فى الولاية وعاد الى الآستانة ومعه خورشيد باشا

وهكذا استطاع محمد على بالدهاء وحسن السياسة أن يتجنب

---

(١) بعث محمد على عريضة زعماء الشعب لتقدم إلى السلطان ومعها ألفا كيس لتوزع على أصحاب النفوذ فى الاستانة

(٢) من الجهود المذكورة ما بذله سفير فرنسا لدى الباب العالى فى تأييد محمد على

غضب السلطان ، ووعد بارسال ٤ آلاف كيس من النقدية هدية الى الآستانة ، ولكن المال لم يكن حاضرا وكان قبطان باشا رجلا عنيدا فأخذ يهدد بعزل محمد علي .. ولكن أمكن حل الموقف بان يرسل ابراهيم بن محمد على رهينة إلى الآستانة ـ ومعه الهدايا الثمينة للسلطان وحاشيته ـ وأن يبقى بها حتى يدفع المال كله

وفى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وصل فرمان تثبيت محمد على وبذلك انقضى حكم تركيا لمصر مباشرة وأصبح الأمر بيد هذا الوالى العظيم ...

أما ما حدث من قتال محمد على والمماليك حين بعث اليهم بحملة الرحمانية فقد كانت وقعته المهمة « النجيلة » يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٦ وقد هزمت قوات محمد على ـ التى كان يتولى قيادتها طبوزا أوغلى وطاهر باشا (ابن أخت محمد على) ـ فانسحبت إلى منوف ، وقال الجبرتى فى وصفها : « ووردت الأخبار بأن العساكر الكائنين بالرحمانية ومرقص رجعوا إلى النجيلة ونصبوا عرضيهم هناك وحضر الألفى تجاههم فركبوا لمحاربته وكانوا جمعا عظيما فركب الألفى بجيوشه وحاربهم ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم وانهزام العسكر وقتل من الولاة وغيرهم مقتلة عظيمة

ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البحر وألقوا بأنفسهم فيه وامتلأ البحر من طراطير الدلاتية ، وهرب كتخدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية وعدّوا فى المراكب ، واستولى الألفى وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبخاناتهم ... »

وبذلك أحرز الألفى نصراً محلياً فى النجيلة شجعه على معاودة حصار دمنهور ولكنه أخفق فى ذلك ودافعت دمنهور دفاعا أوهن قوى المماليك وكان ما أظهره الأهالى من الشجاعة والمثابرة سبباً فى إحباط خطة المماليك وإضعاف شأنهم أمام السلطات التركية *

ثم انقسم المماليك فلجأ أنصار الألفى ينشدون تأييد الانجليز وانصرف أصحاب البرديسى يطلبون صداقة الفرنسيين ، وفى تلك الآونة المشحونة بالأحداث مات البرديسى فزالت بذلك عقبة كأداء ، وبعد شهرين مات الألفى ، وقيل أنه حين أحس بدنو أجله قال : « قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على »

وأخذ محمد على يستعد للقضاء على المماليك فأعد حملة لمقاتلتهم فى الصعيد ، وجعل قوامها ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من

* قال مانجان فى كتابه « تاريخ مصر فى حكم محمد على » أن دفاع دمنهور المجيد جدير بالتسجيل فى تاريخ مصر الحربى ، وقد تولى أهلها الشجعان وحدهم الدفاع .. إلى أن تكلل دفاعهم بالنجاح فكان له تأثير كبير فى افساد خطة الباب العالى

الفرسان ، وست سفن مسلحة وغادر القاهرة فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٧

وقصد المنيا ، واستخدم أساليب السياسة قبل أن يطلق بنادقه ، إذ أرسل إلى المماليك يطلب إليهم الصلح بينما كان يجتذب إليه الأعراب ويستميلهم بالمال — وكانوا حراس المعسكرات — فمهدوا له دخول المدينة فانقض على المماليك وفاجأهم وأوقع بهم شر هزيمة وامتلك قواعدهم فى المنيا وأسيوط .

وقد أوقفت عمليات الصعيد حين سمع محمد على بقدوم الحملة الإنجليزية على مصر فاتجه لملاقاتها - وسيجىء الحديث عنها مفصلا - حتى تم له التوفيق وقد كان من نتائج إخفاق تلك الحملة أن نهضت الروح العسكرية والوطنية فى نفوس الشعب وذاقت مصر طعم النصر فازدادت شهيتها وتفتحت آمالها وازدهرت ، وكان من أثر ذلك أيضاً رضاء السلطان على محمد على — واغتباطه بانتصار الجيش المصرى — فأعاد إليه ولده (ابراهيم بك) وأعلنه بالرضاء العالى ...

غير أن محمد على واجه موقفاً مروعا كان الخطر فيه هذه المرة كامناً فى بعض طوائف جيشه الذى كان يجمع عناصر غير نظامية مجبولة على الفوضى والإخلال بالضبط والربط ، وهؤلاء هم جماعات الدلاة والأرنؤود الذين تمادوا فى العسف والفوضى والعصيان وقد

كان آخر ما قاموا به مظاهرة عنيفة يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٠٧ فخشى محمد على وقوع الفتنة والاضطراب وأوجس منهم خيفة فانتقل إلى القلعة، بينما امتد لهب الفتنة واضطربت العاصمة وساد فيها الهرج والمرج وضاعت مقاليد الأمن والنظام ... ولم ينقذ البلاد من هذه الفتنة الحمقاء غير نشاط الزعماء إلى مكافحتها، فقد جمعوا من الأهالى أتاوات ليدفعوا إلى الجنود بعض رواتبهم؛ فهدأت الأحوال وانتظمت الأمور غير أن محمد على لم يتغاض عن ذلك الخطر ولم يترك هذه الروح الشريرة المهددة التى هزّت الأرض تحت عرشه وكادت أن تقتلعه، فنفى زعماء الحركة وقرر التخلص من العناصر الرذيئة الفوضوية وإنشاء جيش جديد حتى يستقر النظام وتستقيم أمور البلاد

وقد استطاع محمد على أن يقضى على فتنة الجند وأن يضع من التدابير ما يكفل استقرار الأحوال بين عساكره، ثم خطا خطوة أخرى نحو الانفراد بالسلطة والنفوذ فعزم على التخلص من «زعماء الرأى العام» وهم الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم ووقفوا إلى جانبه فى أوقات الشدة وسندوه حين كان مقبلا على السقوط ... إذ لم يشأ أن تكون هناك قوة إلى جانبه تملك التحكم فيه والإملاء عليه، وقد كان لهؤلاء نفوذ ملحوظ لدى الشعب فلم يشأ محمد على أن يدع

هذا السلاح الرهيب المصلت عليه، والذى يملك أن يدق عنقه، وأراد أن يقصى هذه القوة ويتخلص من كل منافس له فى قلب الشعب وفى دائرة الحكم، وقد كان له ما أراد فأحدث الوقيعة فى صفوفهم وساعده ما ظهر بينهم من خلاف على التخلص منهم، وحطّم ذلك السلاح الرهيب الذى كان يعكر صفوه ويقلق مشاعره

ثم أراد محمد على أن يقضى قضاء نهائيا على المماليك ويستريح إلى الأبد من شر مكائدهم وخطر نفوذهم ؛ وقد كان كل ما فعله معهم حتى ذلك الوقت لا يزيد فى نظر المؤرخين عن « تقليم الاظافر » فبدأ معهم جهاداً جديداً !!

وراح يجرب معهم السياسة ويدبر لهم المكائد فاستمال إليه أنصار الألفى الذين أقطعهم الجيزة وعين لهم إيراداً خاصا غير أن الغالبية من المماليك أوجسوا منه خيفة وأدركوا ما وراء الأكمة فوحدوا ما بينهم وجمعوا شملهم وواجهوه بالعداء فسير إليهم جيشا جرارا أنزل بهم الهزائم والانكسارات المتوالية حتى أخضع الصعيد ؛ ثم استضاف زعماءهم وزين لهم طيب الإقامة فى القاهرة حتى خيل لهم هدوء الحال وصفاؤه

ثم أزمع محمد على إرسال حملة إلى بلاد العرب - سيجىء الحديث عنها مفصلا - فتهيب الموقف الذى ينتج من وجود المماليك حيز

تكون جنوده خارج الديار ، وراءه الخطر الكامن الذى ينتظره بسببهم فعزم على التخلص منهم نهائيا

وفى أول مارس سنة ١٨٤١ أقام محمدعلى مهرجاناعظيما احتفالا بتعيين نجله طوسون فى قيادة حملة الحجاز ، ودعا المماليك إلى شهود المهرجان فقدموا فى الساعة المحددة الى القلعة

وحدثت « مذبحة القلعة » وقضى على رؤساء المماليك ، وكان لهذا الحادث أثره فى مماليك الصعيدالذين لاذوا بالفرار إلى النوبةودنقلة وبهذا انتهى محمد على من ألد أعدائه وقضى على أقوى خصومه

ولسنا فى فسحة من المجال لمناقشة هذه الوقعة التى اختلف المؤرخون فى الحكم عليها ، فقد رأى البعض أنها تتنافى مع الانسانية ومبادىء الجندية وأصول الخصومة ولكنها كانت خلاصا للبلاد من فوضى وقتال لا تحمد عقباه ، ولا يضير رجل الحكم أن يرتكب المخالفات إذا كان فيها مصلحة وطنه . .

وقد جاء منطق الحوادث مبررا لما فعله محمد على فكل عمل يصير مشروعا متى كان لازما لصالح البلاد ، والشرف لا يكون هنا فى الوفاء بالعهود والتمسك بالاتفاقيات ولكنه الاخلاص لمصالح الشعب . . ومهما كان من أمر هذا العمل فقد انتهى باستقرار

الأمور فى مصر، وأصبح لها — لأول مرة بعد جلاء الفرنسيين — حكومة مستقرة

وقد ذكرت سمو الأميرة شيوه كار فى كتابها — بلادى* — أن رجلا من جنوا يدعى Medrici كان طبيبا لمحمد على فتحدث اليه فى أمر هذه الوقعة فقال محمد على :

« فليسا محنى الله القادر على كل شىء . . . إننى أعرف أن هذه المذبحة أمر فظيع ولكن كان يجب سفك هذه الدماء التى كان مقدراً لها ذلك . . إن إنقاذ مصر كان يحتمه . . »

" Mon pays, le renovation de l'Egypte, Mohamed Ali"*

. إخفاق الحملة الانجليزية

فى القرن الماضى كانت مصر تفاحة خلاف بين فرنسا وانجلترا وقد كسبت فرنسا الشوط الأول حين غزا نابليون بونابرت مصر بحملته المشهورة ، ولكن نشاط انجلترا لم يفتر فى أى وقت وأخذت تترقب الفرص وتنتظر الاحـــداث المناسبة لتدخلها ، ولذلك أخذت فى مساعدة المماليك وحاولت أن تفتح صدر الباب العالى لهم ، فيقصى محمد على عن مصر وتعود دولة المماليك

وقد قدمت انجلترا فى ذلك الشأن اقتراحا يقضى بتعين محمد بك الألفى واليا على مصر وإنشاء قوة عسكرية نظامية تحت اشراف بعثة إنجليزية وبقيادة ضابط إنجليزى حتى يضمن هدوء الحال فى مصر فيتمكن الوالى من دفع جزية كبيرة للاستانة قدرها ١٥٠٠ كيس (٧٥٠٠ جنيه)

ولكن هذا المشروع قضى عليه بسبب موقف مصر حين وصلتها حملة قبوطان باشا للتنفيذ ، وبسبب ما جد فى العلاقات الدولية ، فان تركيا كانت أكثر ميلا إلى فرنسا ، وانحازت إلى

جانبها صراحة، وازاء ذلك قرر الانجليز إرسال حملة إلى مصر لتصفية الموقف فيها، كما كان فى ذلك العمل رد على موقف تركيا وذلك بفكرة القضاء على نفوذها فى مصر وتمزيق امبراطوريتها

وفى شهر مارس سنة ١٨٠٧ أقبلت السفن الانجليزية إلى مياه الاسكندرية ونزلت القوات إلى الثغر بالتواطؤ مع محافظ المدينة * الذى أضلته الرشوة فاستسلم ومعه ثلاثمائة جندى. وتم للانجليز الاستيلاء على الاسكندرية بدون مقاومة، وقد ذكر الجبرتى «أن ورودهم - أى الانجليز - كان مساعدة ومعاونة للألفى على أخصامه باستدعائه لهم واستنجاده بهم، وسبب تأخرهم فى المجىء لما كان بينهم وبين العثمانى (السلطان) من الصلح، فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة، وكان الألفى ينتظر حضورهم بالبحيرة، فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه مقبلا وقضى الله بموته باقليم الجيزة، وحضر الإنجليز بعد ذلك إلى الاسكندرية فوجدوه قد مات فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأمراء القبليين (أى المماليك الموجودين بالصعيد) يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم، ويقولون لهم إنما

---

* هو أمين أغا من ضباط الاستانة وقد أغراه قنصل انجلترا بما دفعه اليه من المال، وقد كانت تركيا تعتبر الاسكندرية مركزا منفصلا عن ولاية مصر وتضع فيها حاكما من قبلها

جئنا إلى بلادكم باستدعاء الألفي لمساعدته ومعاونته . . . الخ »

وكانت الحملة الانجليزية مكونة من ستة آلاف مقاتل بقيادة الجنرال فريزر ـ وهذا رقم لا يصلح لحملة ترمى إلى إخضاع مصر فقد كانت حملة بونابرت مكونة من ٣٦ ألف مقاتل ـ غير أن ما اتضح من اتفاق المماليك مع الانجليز جعل هؤلاء يكتفون بذلك العدد المتواضع مطمئنين إلى تأييد قوات المماليك ووجود عدد كبير من المصريين على استعداد لمؤازرتهم

وفي تلك الأثناء كان محمد علي يقاتل المماليك فى الصعيد ، فلما سمع بخبر الحملة الانجليزية لم يشأ أن يصبح بين نارين ، فيحارب فى جبهتين ، ولذلك رأى أن يؤجل الجهاد الأصغر — ضد المماليك — لينهض بالجهاد الأكبر ـ ضد الانجليز ـ وقضت الضرورة السياسية والإدراك الحربى إلى مهادنة المماليك فقبل أن يترك لهم حكم الوجه القبلي فى مقابل أدائهم خراج الصعيد ، وأن يعاونوه فى مقاتلة الانجليز . . أما من ناحيتهم فقد أمضوا هذه الاتفاقات دون أن يكونوا جادين فى إخلاصهم له ، غير أنهم لم يستسيغوا أن يظهروا انضمامهم للانجليز وتأييدهم لعدو خارجى ضد أهل البلد ، فآثروا التريث وانتظار النتائج

وكانت خطة فريزر أن يزحف المماليك من الصعيد إلى القاهرة حتى

يتم لقواته أن تسيطر على الثغور ، ثم يقود الطرف الآخر من الكماشة إلى القاهرة

واعتزم البدء برشيد فأنفذ اليها ألفى مقاتل تحت إمرة الجنرال ويكوب الذى بدأ الزحف فى ٢٩ مارس ١٨٠٧ فقطع الطريق اليها فى يومين ثم تأهب لدخول المدينة فى اليوم الأخير من شهر مارس

وكانت حامية رشيد لا تزيد عن ٧٠٠ جندى غير أن حاكم المدينة ـ على بك السلانكلى ـ كان رجلا شجاعا أميناً لم تنفع معه ضروب الغواية والخداع وكان رجلا بصيرا فصمم على خداع الانجليز وقرر أن يفاجئهم . . وخشى أن تتكرر مأساة تسليم الاسكندرية فعمد إلى مراكبه فأبعدها إلى الشاطىء الشرقى حتى يصبح البحر خاف جنوده فلا يجدون مفرا من القتال إلى النهاية . . وكان من أثر فعلة « طارق » هذه أن أصبحت الخطة قوية ومهيأة للتنفيذ . .

وتراجعت الحامية إلى داخل المدينة حسب الخطة الموضوعة ، واستعد الأهلون واعتصموا ببيوتهم ... هذا بينما تقدمت القوات الانجليزية فلم تر داعيا لإطلاق النار ولم تجد أثراً للمقاومة غير أن وقت الأمان والاطمئنان لم يطل ، فقد أعطيت إشارة الانذار ، وهبت البلاد بجنودها وأهلها تدفع عن قداستها وكرامتها ودارت الدائرة على الغزاة ، وكانت المفاجأة تامة والهزيمة كاملة . .

وقد جاء فى رواية الجبرتى لهذه الوقعة أن « أهل البلدة ومن معهم من العساكر كانوا متنبهين ومستعدين بالازقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليها من كل ناحية وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إلى ذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين وفرت طائفة منهم..»

فأهل رشيد بدأوا حرب الشوارع قبل أهل ستالينجراد بأكثر من قرن ، وفعلوا فى عام ١٨٠٨ ما أوصى به الجنرال روديمسيتف* فى عام ١٩٤٢ ، . . . وفازت روح المقاومة الشعبية قبل أن يتحدث كبار القواد عن « حرب الأمم » و « جبهة المدنيين » ... وهناك أيضا ملاحظة جديرة بالتسجيل وهى أن أهل رشيد ـ على قلة عدد جنودهم ـ لم يطلبوا من القاهرة مدداً لأنهم كانوا يعلمون ما طبع عليه جنود الأرنؤود والدلاة وأخلاط الأتراك من الفوضى وضعف الروح المعنوية وعدم الانقياد فلم يحب قادتهم أن يكون جنودهم خليطا مفككا . . وفى هذه الملاحظة تتضح أهمية الاعتزاز بالعنصر ، والاستعانة بالنظام وروح الجندية وتفضيل ذلك عن زيادة العدد وكثرة المعدات .

---

* من قواد الروس فى الحرب العالمية الثانية ونظريته فى القتال « الدفاع شارعا فشارعا وبيتا فبيتا وطابقا فطابقا . . »

انتصر المصريون على الانجليز فى واقعة رشيد ، وذاقت مصر كأس الانتصار العسكرى العذب واهتزت البلاد بأخبار هذا الحادث الكبير ، وقد وصف هذه الاحتفالات الجبرتى - راوية ذلك العهد فقال « أشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضا كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاتهم فطلعوا بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العساكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال (ضابط) كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر ، ورءوس القتلى معهم على نبابيت وعدتها أربعة عشر رأسا ، والأحياء خمسة وعشرون ، ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة وفى يوم الاثنين وصل أيضا جملة من الرءوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون رأسا وثلاثة عشر أسيرا وفيهم جرحى

وقد تجلت روح مصر فى هذه الفترة العصيبة ، وكان انتصار رشيد بمثابة الشعلة التى ألهبت نار الوطنية فى البلاد جميعا وبعثت روح

الجهاد والتضحية ، فظهرت قوة الشعب المعنوية الرائعة ، واستهان الناس بأمر الانجليز وانتهت الهيبة التي كانت معروفة للأجانب ، فذكر الجبرتي أن « أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد ، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ... »

وقد تمكن محمد على من إعداد حملة كبيرة بعث بها إلى رشيد ، فقد كان يعلم أن جهود الانجليز لا تنتهي عند هذا الحد ، وأنهم لابد أن يستأنفوا القتال أملا في استعادة مركزهم وإنقاذ هيبتهم وإتمام ما جاءوا من أجله ... ولم يكتف بهذه الحملة بل أخذ ينظم الأعمال الدفاعية في قلب البلاد ، ويعنى عناية خاصة بخطط الدفاع عن القاهرة

ونستطيع من مراجعة أعمال محمد على في تلك الفترة أن نتبين جانباً من جوانب هذه الشخصية الفذة والعقلية المستنيرة ، وأن نثبت ناحية الكفاية العسكرية في صفاته ، فهو جندي بفطرته ، يفهم في تقدير كل موقف ويناقش حلول أعدائه ، فقد رأى أنهم لا بد أن يعاودوا حملتهم على رشيد لاستعادة الشرف المفقود وإنقاذ السمعة التي أضاعتها الهزيمة ولذلك بعث إمداداً كبيراً إلى رشيد لتقوية حاميتها .

وهو قائد يعرف أهمية استغلال النجاح فرأى ضرورة المبادأة بأن تسارع قوات رشيد في العمل حتى لا تعطى فرصة طويلة للإنجليز فيزيدوا استعداداتهم

وهو رجل حكم يدرك أهمية العاصمة ، قلب البلاد ، وأنها هدف الغزاة دائما ، فيعمل على تقوية استحكاماتها وجعلها بمأمن من الغزو ، حتى إذا نجحت عمليات الانجليز فى الشمال وأقبلوا نحو العاصمة امتنعت عليهم وردت حملاتهم ، وبذلك تسلم الولاية ولا يسقط الوالى

كما أنه كان رجلا استراتيجياً لا يجهل مبدأ الدفاع الذى يقول بجعل المناورات بعيدة عن الغرض ولذلك جاءت خطته للدفاع عن القاهرة مثلا ممتازاً لعمل الدفاعات

وهو قبل كل شيء عسكرى حصيف ، ومعاصر لنابليون ، يعرف خطر الحرب فى جهتين ويعمل بمثله على تفرقة أعدائه حتى يكون لكل منهم دور ... ولهذا هادن المماليك حتى يفرغ من الإنجليز ، ولكل موعده

كانت الحملة التى أرسلها محمد باشا إلى رشيد تتكون من قولين سارا على جانبى شاطىء النيل يتولى قيادة أحدهما طبوزا أوغلى (كتخدا بك) بالبر الشرقى ، ويتولى قيادة الآخر حسن باشا ، بالبر الغربى ، فلما قاربا هدفهما اتجه القول الأول ناحية برنبال بالشاطىء الشرقى ، ويمم الثانى شطر الحماد .. على أنه ليس بين المؤرخين محدث حربى يستطيع أن نتبين منه أسباب تخلف محمد على عن قيادة جنوده

أو عدم ذهابه إلى أرض المعركة للإشراف على سير العمليات الحربية وأغلب الظن أنه اضطر لترك ذلك حيث كان معنيا باستحكامات القاهرة ، التي ستكون مأواه فى آخر مراحل الحرب إذا ساءت الظروف ، وأنه كان يعالج مسألة المماليك ، وحاجيات الجنود ، ومسائل الميرة والذخيرة والاموال والأمدادات الحربية

وقد حدث ما توقعه محمد على من خطط الإنجليز ، ففى ٣ إبريل زحف الجنرال ستيورات على رأس أربعة آلاف مقاتل متجهاً إلى رشيد ، وقد احتلت كتيبة من قواته بلدة الحماد (جنوبى رشيد) فقد كانت الخطة ترمى إلى تطويق رشيد ومنع وصول الإمداد إليها من القاهرة ولذلك أيضاً تم احتلال آ كام أبى مندور وهى على مسافة الضرب من رشيد وبدأت عمليات الحصار

وضربت المدينة بنيران المدفعية التى ألقت أكثر من ٣٠٠ قنبلة شديدة ، وكانت حامية رشيد مكونة من ٣٠٠ من الفرسان ، ٨٠٠ من الأرناؤط وألف من الأهالى المسلحين ، وأخذ هؤلاء يصدون أربعة آلاف كاملى الاستعداد ، غير أن الأهالى كانوا يستندون إلى التحصينات والمواقع المنيعة ويسدون سبل الغزو رغم ما استهدفوا له من ويلات

ولما بلغ العناء حده لدى الجنرال سيتوارت كتب إلى قائده

الجنرال فريزر فى الأسكندرية يقول « إن ما أنبأتمونى به من قرب حضور المماليك جعلنى أتريث فى الهجوم على رشيد ، لقد ألحقنا بالمدينة أضراراً كبيرة ، وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المرمى وحدها ٣٠٠ قنبلة ، على أنه يتبين لنا أن الأعداء لا يكترثون بالمصائب التى تنزل بهم ، ونظراً لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل باقتحام المدينة فى انتظار النجدة ... »

وحدث تراشق بالمدفعية عند الحماد بينما كان الانجليز يشددون الحصار على رشيد دون أن تقضى قنابلهم على روح المدينة ، ثم أقبل المدد من القاهرة وحدث الاصطدام الأول بين حسن باشا وقوات الانجليز الأمامية فى الحماد فانهزمت القوات الانجليزية ولم ينقذها غير وصول إمدادات سريعة بقيادة الكولونل ماكلود الذى باشر العملية وأعاد النظر فى أوضاع قواته ، فجعل قوات الماجور وجلسند مرتكزة على شاطىء النيل ، وقوات الكابتن تارلتون على بحيرة أدكو ، ووضع بينهما قوات الماجور مور

أما قوات طبوزأوغلى فقد عبرت النيل إلى الضفة اليسرى وانضمت إلى قوات حسن باشا وبدأ الجميع مجهوداً موحداً كان أول أغراضه الهجوم على الحماد وهنا رجحت كفة الجنود المصرية ، وأصبح لها التفوق العددى فلم يجد القائد الانجليزى بداً من الانسحاب ، واستأذن

فى ذلك رؤساءه فأقروه على خطته ، وفى تلك الأثناء كانت الفرسان المصرية قد قطعت المواصلات بين الحماد ورشيد فأخفقت خطة ماك لود وتفرق شمل قواته وأصابته هزيمة مريرة فقد فيها ٤٨٠ أسيراً بينهم عدد من القواد ، وأصبحت الحماد معقلا للقوات المصرية وكانت هذه الوقعة نصراً عظيما للقوات المصرية وصفها الجبرتى بأنها كانت مقتلة كبيرة وأن الانجليز « انجلوا عن متاريس رشيد وأبى مندور والحماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم حتى توسطوا البرية وغنموا ضماناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين . . . »

وبدأت عمليات المطاردة وفيها أبلى الفرسان بلاء حسنا وفتكت الجنود المصرية بفلول الانجليز المنسحبين وأسروا منهم عددا كبيرا

وأدرك الجنرال ستيوارت ، وهو بين قواته المرابطة جنوب رشيد ، ما وصل اليه الموقف من سوء وشعر بالنكبة التى تهدده فقرر الانسحاب فورا وبذلك رفع الحصار عن رشيد ، فخرجت قوات الدفاع تتعقبه ، وطارده الأهالى إلى أبى قير ومنها أبحر إلى الاسكندرية.

أما فى الأسكندرية ، فقد بلغ فريزر أنباء الهزيمة المريرة فى رشيد فأخذ يضع الخطط لتحصين الاسكندرية وقطع سد أبو قير لتحيط المياه بالمدينة فيتعذر غزوها ، وحاول إغراء المماليك فصدوا عنه بعد

ما حل به من الهزائم ، فساء مركزه كثيرا وخصوصا بعد مايئس من معاونة المماليك وأصبح يخشى نيات محمد على ، ولذلك أسرع فبعث رسله لطلب الصلح

ولا شك أن طلب شروط الصلح كان مفاجأة لمحمد على الذى لم يتوقع أن تأتى النتائج الفاصلة بهذه السرعة ، ولذلك لم يتسرع فى الرد على الدعوة وقرر أن لا يدخل فى مفاوضات قبل أن يصل بجنوده إلى دمنهور خشية أن يكون فى الأمر خداع ، ولكن رسالة فريزر كانت صادقة الوعد بعدأن فقد كل أمل فى البقاء ، كما أن الموقف الحربى فى أوروبا كان لا يسمح بعمليات أخرى ، ولذلك عدلت انجلترا عن غزو مصر وبعثت فى طلب قواتها من الأسكندرية .

وبلغ محمد على دمنهور فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧ على رأس أربعة آلاف من جنوده وهناك التقى بالجنرال شربروك ، مندوب الجنرال فريزر ، ورئيس وفد المفاوضة ، وقد بحثا موضوع جلاء الإنجليز عن مصر وإبرام الصلح ، وتم ذلك بتوقيع معاهدة الجلاء وقد جاء فيها « بما أن الجنرال فريزر قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والكبتن هلول قائد الأسطول الإنجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك والكابتن فلوز من ضباط البحرية الإنجليزية سلطة إبرام الإتفاق الخاص بالجلاء

عن الاسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر والجنرال شربروك والكابتن فلوز على الشروط الآتية :

(١) توقف فوراً الأعمال العدائية من الجانبين وتجلو القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن ويسلم صاحب العظمة محمد على باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهرداره سليمان افندى بصفة رهائن يبقون على ظهر إحدى السفن الحربية الانجليزية إلى أن يتم تنفيذ المعاهدة

(٢) جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم من الاقرباء يطلق سراحهم ويرحلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة انجليزية

(٣) يصدر عفو عام عن سكان الاسكندرية أو غيرهم من الأهلين لما وقع منهم فى الماضى ويؤمنون على أرواحهم وأملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف إلى اتخاذ الطريق الذى سلكوه

(٤) نظرا لتفرق الأفراد الارقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطانى ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب الإنجليز فى الاسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا ، ولهذا المندوب أن يحصل من

صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لأداء مهمته فى إحضار هؤلاء الأفراد ... الخ

وبهذا تم جلاء الإنجليز عن الأسكندرية فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ « ودخل اليها كتخدا بك (طبوزاوغلى) ونزل بدار الشيخ المسيرى » على حد ما جاء برواية الجبرتى وبهذا طويت صفحة الحملة الإنجليزية على مصر

ووضع محمد على يده على الأسكندرية وضمها إلى جامعة الوطن المصرى

وكان من نتائج هذه الحملة أن أعجب السلطان محمود بانتصار الجيش المصرى فأعلن رضاه على الوالى ورد اليه ولده (ابراهيم بك) وأنعم عليه بالعطايا .

وهكذا تخلصت مصر من خطر الغزو الأجنبى ولم يبق أمام محمد على سوى القضاء على خطر العناصر المعادية فى الداخل ، فقضى على المماليك فى مذبحة القلعة وأخمد فتنة الجند وطرد زعماءها ثم تخلص مما أسميناه « الزعامة الشعبية » وبذلك تم القضاء على الخصوم وخلا الجو لهذا الحاكم العظيم ليبعث فى بلاده حياة جديدة تنعم فيها بالقوة والاستقلال والكرامة .

إخماد حركة الوهابيين

لم يكن الأمر قد استتب من جميع نواحيه لمحمد على فى مصر حين دعاه السلطان للقيام بحملة شاقة طويلة الأمد كثيرة النفقات أريد بها قمع حركة الوهابيين فى بلاد العرب ، ففى تلك الأثناء كان محمد علي يصارع خصومه ويعنى بالمسائل الداخلية ويضع النظم والتشريعات التى تنهض بالبلاد ويعد جيشه وما يحتاجه من موارد ومعدات ، ولم يكن قد مضى على ولايته عامان – كانا مليئان بالأحداث الجسام من قتال مع المماليك وتطهير فى محيط الجند إلى دفع الغزو الأجنبي – فإذا وصلته دعوة السلطان لإنفاذ حملة إلى الحجاز أخذ يعتذر بما يواجهه من مشكلات حتى وصله رسول الأستانة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ ملحاً فى الرجاء فلم يجد محمد على مناصاً من القبول وبدأ يستعد لأول حملة خارج الديار المصرية ، وكتب عدة رسائل إلى الأستانة يعبر فيها عن ولائه وامتثاله لما كلفه به السلطان وتمنيه للفرصة التى تمكنه من أداء ذلك الواجب ..

ولم تكن المشاكل الداخلية هى كل ما يدفع محمد على باشا إلى التردد فى قبول هذه المهمة فإن الحملة ذاتها كانت تتطلب جهوداً كبيرة

لا تسمح بها حالة الأمة الناشئة فقد كان ضرورياً أن تعد حملة كبيرة مسلحة بأمضى الأسلحة ومجهزة بالمؤن والمعدات التى تكفل لها قطع الفيافى الشاسعة والتغلب على وعثاء الطريق وشدة القيظ وندرة المياه حتى تصل فى حالة طيبة فتبدأ فى مواجهة خصم قوى باسل يستعد للدفاع عن أرضه التى لا يقدس شيئاً قدرها ولا يعرف دافعاً للقتال أشد منه فى سبيل الوطن والحرية وكرامة العقيدة

ولكن محمد على رضى أن يقوم بهذه المهمة رغم ما يحيط بها من صعاب ورغم أن مركزه لم يكن يشجع على التسرع فى المضى فيها وحمل مسئولياتها ونتائجها ، غير أنه وجد لمصر صالحا فى القيام بهذه الحملة ، وترضية للباب العالى وإعلانا عن الولاء والإخلاص ، كما أنه وجد أن هيبة تركيا قد ضاعت حين أخفقت حملاتها فأراد أن ينجح حيث أخفقت تركيا

ووافق أن يقوم بهذه المهمة الشاقة ويخوض الحرب ضد الوهابيين تثبيتاً لمركزه فى مصر وإعلاء لشأن بلاده فلا يصبح والياً يعزل أو ينقل وإنما حاكما ملحوظ المكانة ، ونداً حليفاً للسلطان ، ولابد أن محمد على قد فكر فى خطر انتشار الدعوة الوهابية وما قد يصيب مصر منها إذا قدر لها النجاح وتمكن قادتها من القيام بفتوح وغزوات لنشر مبادئهم وإخضاع البلاد المجاورة

وأراد محمد على بهذه الحملة أن يؤدى مهمة دينية جليلة فتسمو مكانته ويكسب عطف العالم الإسلامى حين ينقذ الحرمين الشريفين ويعيد مناسك الحج ويؤمن سبله

وفكر فى الشهرة التى واتت على بك الكبير حين بسط نفوذه من قبل على بلاد الحجاز فأطلق عليه شريف مكة لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين »

كما أنه رأى فى ذلك فرصة مواتية ليتخلص من العناصر الرديئة المشاغبة فى جيوشه، فينتهى إلى الأبد من الدلاة والأرنؤود وأشباههم، ثم يأخذ فى إعداد جيش جديد، جيش نظيف يدفع به نهضة مصر ويعلى قدرها

ولم يجد غضاضة أو اعتراضا على فرض ضرائب جديدة مادامت ستبذل فى جهاد دينى ومن أجل غايات شريفة يضعها المسلمون فى اعتبارهم الأول

ولذلك كله قرر محمد على أن يقوم بهذه الحملة « لرفع المذلة والمهانة عن زوار الكعبة والقبلة الشريفة معقد آمال المسلمين ومتعبدهم، وإنقاذ الأرض المقدسة ... »

وأما الوهابية التى أريد القضاء عليها فهى مذهب المتطرفين فى الإسلام وشيخ هذا المذهب هو محمد بن عبد الوهاب من أهل العيينة

فى نجد ، وقد عني بالمسائل الدينية فى صباه ودرس تعاليم الإسلام بتعمق وراعه انحراف الكثيرين عن أصوله الدقيقة واستنكر ما رآه من البدع التى كانت فاشية وأراد الدين خالصاً من الشوائب ، فارتداء الحرير وشرب الدخان وإقامة الزارات ونصب القباب على القبور تعد فى نظر الوهابيين مخالفة لأحكام الدين، والدعوة فى حد ذاتها صالحة غير أن تطبيقها كان متطرفا مغاليا فيه ، وقد انحرف أنصار الدعوة عن مبادئها السليمة وأسرفوا فى ارتكاب الفظائع واختراع الممنوعات

وقد انتقل مركز الحركة من الحساء إلى الدرعية على أثر حادثة غضب لها حاكم الحساء ، وفى الدرعية وجدت مجالا خصبا حيث صادفت الدعوة هوى من نفس حاكمها محمد بن سعود ، واستندت الدعوة إلى قوة السيف وأخذت تنتشر تدريجيا حتى عمت بلاد نجد ثم تجاوزتها فى عهد خليفته عبد العزيز بن سعود فبلغت مشارف العراق والبصرة وكربلاء مما أثار سخط المسلمين ، واتخذت الحركة شكل الأعمال العدائية حتى امتدت يد الثوار إلى القبور والمساجد والأضرحة التى يكرمها عامة المسلمين

وقويت الحركة الوهابية فتغلبت على محاولات شريف مكة وصدت حملات حاكم العراق ، وامتد نفوذها إلى مسقط وشواطىء

الخليج الفارسى ثم سقطت مكة فى أيدى الوهابيين عام ١٨٠٢ وكتب عبد العزيز بن سعود الى السلطان ينبئه بفتح مكة وهدم القباب ومنع مجىء المحمل من دمشق أو القاهرة

ثم استولى الوهابيون على المدينة ونهبوا نفائسها — وكانت لاتقدر بمال — وبلغوا فى انتشار نفوذهم حدود فلسطين والعسير ويمن ، وأصبح سعود بن عبد العزيز صاحب الأمر والنهى فى جزيرة العرب وانحسر ظل السلطان وانقشع نفوذه ، وأصبحت بلاد العرب ملك السعوديين

عين محمد على باشا ولده طوسون — وكان فى السابعة عشرة من عمره — قائداً للحملة ، وأقام معسكراً بجهة القبة جعله مركزاً للرئاسة ، وقضى عشرة أشهر فى إعداد الجنود والأسلحة والقوات اللازمة ، وقد بلغ عدد الجنود ثمانية آلاف ، وأخذ يتدبر مسألة النقل عبر البحر ، فشرع فى بناء أسطول بحرى ، واستورد الأخشاب اللازمة وأنشأ ترسانة بولاق — وهى مصانع لصنع المراكب — حتى أتم إنشاء ثمانية عشر مركبا كبيراً تكفى لنقل الحملة وما يخصها من ذخائر ومؤن ومهمات

ولم ينس أهمية الإمدادات والتموين لمثل هذه الحملة فعنى بهذه الشئون كثيراً وعين مديراً للمهمات السيد محمد المحروقى ، وألحق به

طائفة من الصناع من كل حرفة

وضم إلى جيش طوسون رجلا أسكتلنديا ، يدعى توماس كيت وعهد اليه بالاشراف على الشئون المالية

كما أنه ـ وهو مُعاصر نابليون ـ لم يقصر واجبات الحملة على الناحية الحربية وإنما أرسل معها العلماء من أئمة المذاهب ، وخصوصا وأنها مرسلة فى جهاد دينى

وقدر طول السفر ووعرة الطريق وندرة الماء وشدة الوهابيين ـ وهم فى أوج قوتهم ـ فأعد لكل شيء عدته

وأدرك ما هو مقدم عليه من حرب شاقة إزاء خصم عنيد ، وهو سعود الكبير ، الذى تدين له بلاد العرب بالخضوع ، والذى أعد قواته وقبائله للدفاع ضد الغزو الأجنبى عن وطن الأعراب الذى يفتدونه بكل شيء ... أدرك ذلك كله محمد على فلم ينس أن يستخدم الحكمة مع السيف ، ففاوض بعض العشائر وأغراها بالمال والوعود وأوجد «الطابور الخامس» الذى مهد له وبذل كثيراً من العون ، كما إعتمد على كثير من العرب وأشراف مكة وأهل الحجاز وغيرهم من الناقمين على حركة الوهابيين فكانوا من العوامل التى استطاع والى مصر أن يستفيد بها فى غزوته التاريخية

وكانت الخطة أن تنتقل المشاة بالسفن من السويس إلى ينبع

وتسير الفرسان براً من طريق السويس فالعقبة حتى يتلاقى الطرفان عند ينبع ومنها يبدأ الزحف

وأقلع الأسطول من السويس فى الثالث من سبتمبر سنة ١٨١١ بينما ترك الفرسان تحت قيادة طوسون

ووصلت الحملة إلى ميناء ينبع ونزلت المشاة إلى البر وحدث قتال محدود هزمت على أثره حامية الميناء وتلاشت بين قتلى وأسرى وهاربين . . هذا بينما تقدمت الفرسان واتصلت بالمشاة ، وبدأت التجريدة المصرية فى الزحف نحو المدينة

وحدثت معركة فى بدر دامت ساعتين انهزمت على أثرها قوات السعوديين وأسرعت بالتراجع الى وادى الصفراء حيث كانت الخطة تقضى بالدفاع إستنادا على ما أعد من قبل من تحصينات واستحكامات

تقدّمت قوات طوسون صوب وادى الصفراء ، من طريق اقتراب ضيق ، وكانت قوات الوهابيين تتحكم فى طرق الاقتراب وتشرف عليها من أمكنة مرتفعة حتى إذا لاحت لها قوات الغزو صوبت اليها البنادق وأرسلت عليها وابلا من المقذوفات فاوقعت الاضطراب بين القوات الأمامية التى كان جنود الأرنؤود فى مقدمتها ، ولم تساعد هؤلاء روحهم الضعيفة على الثبات والمقاومة فتشتت شملهم وسارعت اليهم الهزيمة ، وكاد أمر الحملة ينتهى إلى إخفاق مر فارتدت إلى ينبع

بعد أن خسرت أكثر من نصف عددها

ولم يتخذ الوهابيون الأهبة لهجوم مضاد أو لمطاردة وتطويق القوات المتراجعة ولم يفكروا فى الإسراع إلى مهاجمة ينبع فى تلك الاحوال السيئة التى كانت تعانى فيها القوات المصرية ويل الهزيمة .

ووصلت أنباء الحملة إلى محمد على وشخص اليه بعض القادة والجنود ، ولكن عزيمته لم تقهر وسارع فى إعداد حملة جديدة ، ويقول الجبرتى فى ذلك « لم يتزلزل الباشا ، واستمر على همته فى تجهيز عساكر أخرى ، وبرزوا إلى خارج البلدة . . »

وبناء على إرشادات محمد على وتوصياته لإبنه طوسون راح هذا الأخير يغرى رؤساء العشائر ورجال القبائل ويضمهم إلى جانبه بالمال والعطايا فكانوا له خير عون فى غزوته الثانية . .

فلما وصلت الإمدادات وانضمت اليه قبائل العرب تقدم إلى الصفراء فاحتلها بغير قتال ، ووصف الجبرتى هذه العملية بأنها « تمت بغير حرب ، بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدابير شريف مكة . . » ثم واصل طوسون سيره حتى بلغ مشارف المدينة المنورة بعد رحلة شاقة لاقت فيها جنوده الأمرين من حرارة الجو ووعورة الطريق ، ولو أنه كان يتبع خطة مثلى إذ كان يسير فى الليل ويريح قواته بالنهار اجتنابا للحرارة الشديدة وإمعانا فى التستر . . وأخيراً

أطبق على المدينة لحاصرها دون أن يطلق عليها نيرانه إحتراماً للحرم الشريف ، وانتهاجا لخطة جديدة تنطوى على المفاجأة . . ذلك أنه أطلق الألغام تحت أسوار المدينة ثم فجرها فاقتعلت جانبا من الأسوار وأحدثت الثغرة — على حد ما يفعل كبار القادة إزاء التحصينات الحديثة — ثم أخذت جنوده تتدفق من الثغرة ، والتقت القوات وشبت الحرب التى انتهت بانتصار كبير للجنود المصرية وتم على أثرها انحلال القوات المقهورة وفرارها فتسلم طوسون المدينة وأرسل بمفاتيحها إلى محمد على مبشرا ومهنئاً . . ويروى الجبرتى أن مفاتيح المدينة وبشرى الانتصارات بلغت الوالى « يوم الأضحى فحصل للباشا بذلك سرور عظيم وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد »

وبعد المدينة احتل طوسون جدة ثم سار إلى مكة واستولى عليها بغير قتال ثم احتل الطائف فى ٢٩ يناير سنة ١٨١٣ فدانت له بذلك أهم مواقع الحجاز

ولم يكن سعود بن عبد العزيز - أو سعود الكبير كما اصطلحوا على تسميته - خصما عادياً وإنما كان مقاتلا عنيداً ، فإنه لم يجاذف بجميع قواته فى ذلك القتال الذى دارت رحاه، والذى انتهى باستيلاء طوسون على جدة ومكة والمدينة ، وإنما راح يرقب حركات خصمه بعناية وحرص ويختبر قوته وأسلوبه فى القتال ، ولعله كان يحرص

على مبدأ الحرب الصحراوية الذى يقول « إذا كانت الصحراء حليفتك فاجعل خصمك يتوغل فيها ثم وجه اليه ضربتك . . »

وجه سعود قوتين كبيرتين ، قاد أحدهما بنفسه وقاد الأخرى نجله فيصل ثم شرع فى الزحف إلى مكة والمدينة واعتزم قطع المواصلات بينهما

وقابل طوسون هـذه الحركة بإرسال قوة بقيادة مصطفى بك لمهاجمة تربة (٨٠ ميل من الطائف) التى كانت مركز قيادة فيصل ، فطوقها بجنوده وشدّد عليها الحصار ولكن البلدة انقلبت على بكرة أبيها وصدته بعنف وقتال لا هوادة فيها * فارتدت القوات المصرية على غير هدى تاركة المعدات والمدافع وفى الوقت نفسه كان سعود يهاجم الحناكية (٢٠ م من المدينة) ففتحها وشرع فى الزحف على المدينة .

وهنا رأى محمد على أن يشخص بنفسه إلى بلاد العرب فأعد حملة كبيرة كى يستطيع أن يقضى بها على مقاومات الوهابيين وينتهى من اخضاع بلاد العرب ، وقد ترك مكانه ولده ابراهيم ليشرف على الوجه القبلى ، وحسن بك ليشرف على الوجه البحرى ثم غادر مصر فى أغسطس فبلغ جدة فى شهر سبتمبر سنة ١٨١٣

---

* قادت هذه الحركة سيدة بدوية تدعى غالية ، كان زوجها من شيوخ تربة ، وكانت زعيمة فى قومها ومن أشد انصار الوهابية وأقوى خدامها

ولا ريب أنه أراد من وجوده فى أرض العمليات أن يعيد النظر فى أوضاع قواته ويراجع خططها، كما أن وجود القائد فى المعركة يبعث الحماس والحمية فى نفوس جنوده ويمكنه من إصدار القرارات الحاسمة ومواجهة المواقف السيئة بما تقتضيه ... وكان محمد على يرتاب فى نوع الدور الذى يقوم به الشريف غالب، وراح يعزى أسباب الهزيمة إلى تراخيه فى معاونة الحملة المصرية وعنايته بخدمة مصالحه الشخصية، كما رأى من الخطأ بل من الخطر أن يطلع هذا الرجل على خطط المصريين وهو موضع الارتياب، فقرر القبض عليه واعتقله وأرسله إلى القاهرة بعد أن صادر أملاكه وولى مكانه أحد أفراد عائلته الأقربين، الشريف يحيى بن سرور

ووضع خطة تقضى بتحصين المراكز الهامة وتأمينها ضد هجمات الوهابيين كما فعل فى مكة، ثم الشروع فى الأعمال التعرضية ومهاجمة العدو، ورأى قبل أن يهاجم النسر أن يحطم أجنحته وكانت هذه الأجنحة هى قبائل البدو من أهل عسير فأرسل حملة قوامها ألف ومائتى جندى لاحتلال قنفدة ولكن العرب وضعوا أيديهم على عيون الماء وقاوموا بشدة فتراجعت القوة المصرية بسبب مشكلة المياه، وارتدت ارتدادا مضطربا عاثرا كلفها خسارة بالغة ...

وقد لاقت حملة طوسون على تربة نفس النتيجة ولم ينجح

الحصار الذى ضرب حولها بسبب ما لاقته الجنود من متاعب الصحراء ومقاومة العدو الباسلة .

ولكن هذه الهزائم وما ظهر على أثرها من نشاط الوهابيين لم تضعف من تصميم محمد على ولم تصرفه عن عزمه ، فأرسل فى طلب المدد فوافاه نائبه فى مصر بسبعة آلاف جندى من المتطوعين ، ويروى الجبرتى أن كتخدا بك — قائم قام الوالى — شرع فى « استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحى القرى فكان كل من ضاق به الحال فى معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه وإن كان وجيهاً جعله الكتخدا أميراً على مائة أو مائتين ... » .

ويمكن القول أن محمد على لم ينازل « سعود الكبير » منازلة جدية ، أو أنه لم تتح لها الفرصة للقاء لأنه فى الوقت الذى كان فيه الطرفان يستعدان للمعارك الفاصلة توفى سعود فى إبريل سنة ١٨١٤ فكان ذلك من المصادفات الطيبة التى صادفها محمد والتى كثيراً ما كان يلتقى بها فى طريقه

على أن وفاة سعود الكبير لم تقضى على الحركة ولم تنه القتال ومع أن ولده عبد الله لم يكن فى مثل بأس أبيه وعلو همته ، إلا أن القتال ظل مستعراً ونال فيه الوهابيون عدة انتصارات صحراوية انتهت بتطويق الطائف وأصبح طوسون على رأس قواته محاصراً

فعمد محمد على إلى الحيلة لينقذ قواته المحصورة فى الطائف بأن أرسل إلى طوسون رسالة قدّر لها الوقوع فى أيدى العرب ، وقد جاء فيها « إنى قادم إليك فاحذر والحق بنا فوق الجبل » فلما عرف الوهابيون ذلك ظنوا بهذه الرسالة الظنون واعتقدوا أن جيشا كبيرا قد شرع فى الزحف لتخليص المحاصرين فلا يمتد الوقت حتى يصبحوا — أى العرب — بين قوسى الخطر ، أسرعوا فى رفع الحصار من الطائف وعجلوا بالانسحاب

وإلى هذه الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها لم يكن مركز الحملة المصرية قد تحسن ، فقد بلغ الإجهاد بالجنود مبلغا سيئا فى هذه الحرب الصحراوية المتنقلة الحافلة بالمتاعب والمشاق التى يهددهم فيها تقلب الأعراب وثورانهم . غير أنه مما يذكر لهذه الحملة بالخير أنها فى تلك الآونة كانت قد أمنت طريق الحج وسهلت أداء الفريضة للمسلمين من جميع الأقطار

ثم حدثت موقعة كبرى بسبب ماحشد فيها من قوات وبسبب ما انتهت إليه من نتائج وهى موقعة « بسل » وفيها التقى محمد على باشا على رأس أربعة آلاف مقاتل بفيصل بن سعود على رأس ٢٠ ألف ، وذلك فى شهر يناير سنة ١٨١٥ وقد استمرت المعركة نهارا كاملا وانتهت بهزيمة ساحقة للوهابيين خسروا فيها ستمائة من رجالهم

وزحفت قوات طوسون إلى مراكز الوهابيين فأدالتها واحداً بعد آخر واستولت على رينة وبيشة وتربة وقنفدة والرس وكان من نتائج هذه الانتصارات أن داخل اليأس ابن سعود فأرسل وفداً لطلب شروط الصلح وحدثت لذلك هدنة مؤقتة حتى يعرض الأمر على والى مصر

وكان محمد على قد ترك بلاد العرب فجأة وأسرع الى مصر بسبب ما بلغه عن اختلال الأمن وما أشيع من مؤمرات تدبر فى غيبته (١) كما أن حالة الحرب بين فرنسا وأعدائها كانت قد دخلت مرحلة جديدة حين عاد نابليون من منفـــاه وأعاد أوروبا إلى الأتون ... وخشى أن تستهدف مصر بسبب ذلك إلى الأخطار

وقد وفد مندوب الصلح إلى مصر فى سبتمبر ١٨١٥ وكان محمد على قد صمم على أن ينتهى من الوهابيين فانتهز الفرصة وتشدد فى طلباته التى كان فى مقدمتها أن يسافر ابن سعود الى الآستانة ليكون رهن أوامر السلطان فرفضت هذه الشروط (٢) وكان هـذا نذيرا

---

(١) مؤامرة لطيف باشا ، وهو من مماليك محمد على ، أنعم عليه السلطان بالباشوية حين كان موفداً لحمل بشرى الاستيلاء على المدينة ، وقد طمع فى الولاية ومالأ الحكومة التركية على ذلك ، وأخفقت محاولته ، وقتل أثناء فراره

(٢) جاء فى كتاب ابراهيم باشا — لبير كربتس — أنه جاء فى رسالة ابن سعود « لم يبق لدينا شىء من النفائس التى وجدها والدنا سعود عند قبر =

بمتابعة الحرب والعودة الى القتال

وعاد طوسون فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٥ إلى مصر فاستقبل استقبالا حماسيا سجله الجبرتى بما شاهده من زينة الحوانيت والشوارع ودخول الموكب الحافل من باب النصر وطلوعه القلعة .. » وقد ولى طوسون فى مصر قيادة بعض الفرق حتى عاجلته المنية ليلة ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦

ولم تكن الهدنة التى أقرها طوسون وابن سعود سوى سلم مسلح بينما كان الطرفان يتأهبان بشدة ويستعدان للعمليات الفاصلة ولذلك أخذ محمد على يفكر فى قائد قدير يستطيع أن يقوم بضربة عاجلة فيقضى على الوهابيين ويخضع بلاد العرب جميعها وقد ناقش محمد على أولى الأمر فيمن يقع عليه الاختيار ، ويروى أنه جمع القواد والوزراء والرؤساء وشرح لهم خطته الحربية ثم أشار إلى تفاحة أمامهم وسط طنفسة كبيرة مفروشة فى أرض الحجرة وقال لهم « من استطاع منكم

= النبى وحملها معه ، بل بيعت كلها و بددت أما حكم البلاد فاسمحوا لنا أن نقول أن فى استطاعتكم أن ترسلوا رسولا من قبلكم يجمع لكم الأعشار ..) فأغضب هذا الرد محمد على وأجاب الرسل بقوله (قولوا لمولاكم أنى عارف بأنه قد حصن المدن وحشد الجند وتأهب للقتال ، وليس هذا كله بخاف على فأبلغوه نصيحتى أن يأخذ حذره ، ويحتاط لنفسه ، لأنى مرسل الى الحجاز ولدى ابراهيم ليتزل ببلادكم الخراب والدمار ويأتى إلى بأهلها أمواتا أو أحياء ...) وهكذا أبدت الرغوة عن الصريح وعرف كل من صاحبه ما يبطن له ...

أن يصل الى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتيني بها من غير أن تطأ قدمه الطنفسة وليته قيادة الحملة على نجد ... » وقد عجز الجميع عن الوصول إلى التفاحة حتى أقبل ابراهيم وأخذ يطوى طرف الطنفسة إلى الداخل حتى أصبحت التفاحة في متناول يده فأخذها وحملها إلى والده فولاه قيادة الجيش في الحال ... !

وقد جاء ذكر ابراهيم أكثر من مرة في الصفحات الفائتة ولكنها لم تكشف عن روحه ولم تعبر عن شخصيته الفذة ، فهذا الرجل الذى كان رهينة فى الآستانة والذى ولى حكم الصعيد فى غيبة والده والذى اختير في السابعة والعشرين من عمره لقيادة حملة الحجاز ، قد وضع قدمه فى ساحة التاريخ ودفع اسمه بين عظماء القادة وأفذاذ المحاربين وقد جاء تعيينه فى هذه الحملة نشيرا له بالمجد فانبعثت شهرته وبزغ نجمه فى سماء العسكرية وواتته الفرصة التى دفعت به الى الميادين العالمية تحت سمع التاريخ وبصره

قضى ابراهيم قرابة ستة أشهر فى إعداد الحملة ، وقد امتازت بوفرة النظام وجودة التسليح وحسن التدريب وقد ألحق بهيئة أركان الحرب المسيو Jassière ، من ضباط نابليون ، كما انضم إلى القسم الطبي عدد من الإيطاليين الاخصائيين .

تحركت قوات ابراهيم من القاهرة فى ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ الى

أسيوط حيث انضم اليها ألفان من الأهالى ثم بلغت قنا وتركتها الى القصير حيث بدأت عمليات العبور، وبلغ الأسطول المصرى ينبع فى ٢٩ سبتمبر فنزلت القوات واتجه سيرها شطر المدينة المنورة(١) وقد اختار ابراهيم بلدة « الصويدرة » لتكون معسكرا عاما لقواته، وفيها بدأ يعد خطط الغزو

وكان أول ما فكر فيه هو القضاء على العرب المناوئين للقوات المصرية فقد كانوا يترصدون للقوافل ويقطعون الطريق بين الصويدرة والساحل ، فأرسل اليهم قوة فتكت بهم ... وكان من أثر هذا العمل الحاسم أن انحاز كثير من العرب إلى جانبه وآثروا مساعدته

وتقدمت القوات المصرية نحو الرس - وكان الوهابيون قد استولوا عليها عقب اخفاق مشروع الصلح وشرعوا فى تحصينها فحاصرها ابراهيم طيلة ثلاثة أشهر دون أن تلين قناة أهليها أو يضعف من

---

(١) عند ما بلغ ابراهيم باشا المدينة المنورة فى ٩ اكتوبر بادر بزيارة قبر المصطفى ، وهناك دعا له شيخ الحرم بالتوفيق (يا أيها النبى الكريم ، هاهو ابراهيم بن محمد على قد خر ساجدا أمامك وقد قدم الى ديارنا ليهلك أعداء دينك فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة الوهابيين ..) فعقب ابراهيم على ذلك داعيا الله أن ينصره (فاجعل النصر حليفى ووفقنى إلى معرفة مقاصد العصاة فان أعدائى هم أعداءك وأعنى على تمزيق شملهم ...)

عزمهم ، وقد تكلف هذا الحصار ، وما تخلله من هجمات قوية مايزيد على ثلاثة آلاف من الضحايا مع ما استنفذ من ذخيرة ومؤن ومجهودات وأخيرا تراخت قوة الحصار بسبب الملل وضآلة القوة ومتاعب الصحراء وانتشار الأوبئة وكثرة الخسائر ، فرفع الحصار عن البلدة وتراجعت عنها قوات ابراهيم بعد اتفاق غريب مع عبد الله بن سعود وهو أن يسلم الرس لابراهيم اذا تمكن من الاستيلاء على عنيزة !

وكانت عنيزة من أهم مواقع نجد ، وقد سار اليها ابراهيم بعد استيلائه على الحمراء فحاصرها ستة أيام حتى سلمت وبذلك كان له أن يدخل الرس طبقا لما جاء في الاتفاقية السابقة ، واستأنف ابراهيم الزحف ، وأعادت انتصارات عنيزة والرس الأمل في نجاح الحملة وأنعشت روح الجنود ، فتم احتلال بريدة بسرعة وسهولة ومنها بدأ الزحف الى الشقراء

ولم يحدث التحام قبل أن تصل امدادات وافرة من مصر ، وبعدها سارت الحملة الى الشقراء فحاصرتها ورجمتها بمدفعية شديدة حتى سلمت في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨١٨ وعد ذلك من الانتصارات الحربية الباهرة للحملة المصرية

وبقيت الدرعية ـ وهي عاصمة الوهابيين ومركزهم المنيع

على بعد ٨٠ ميل من الشقراء ـ وكانت قوية بأسوارها وبما وضع فيها من قوات وأسلحة ومؤن ، فاقتضى الأمر أن تستعد القوات المصرية استعدادا عظيما وأن توضع لفتح الدرعية خطط كبيرة الإحكام

وكان ابراهيم عقب استيلائه على الشقراء قد ترك بها حامية مناسبة ثم شرع فى الزحف على الدرعية ، وفى الطريق قاومته «ضرمة» وامتنعت عليه وكانت غنية بما فيها من جنود ومؤن وجياد ، قوية بدفاع أهلها وصلابتهم ، فشن عليها حربا شعواء وأدار حولها قتالا عنيفا سلمت البلدة على أثره فقتل أهلها جميعا !

ثم هطلت الأمطار فأوقفت التحركات وقضى ابراهيم شهرين فى ضرمة ثم تركها يوم ٢٢ مارس فى طريقه الى الساحة الأخيرة

وهكذا طوى الجزيرة حتى جاء الدرعية بعد حرب شاقة وقتال مرير وطريق محفوف بالمصاعب والأخطار وأحوال جوية متقلبة وأصبح على أبواب المرحلة الأخيرة فى تلك الحرب ، فأخذ يعد لهذه المرحلة الفاصلة عدتها ، ووضع خطة محكمة للهجوم على الدرعية تشتمل على البدء بضرب المدفعية بينما تدور الفرسان حول البلدة لشغل أهلها ثم تقوم المشاة بالاقتحام حين تضطرب حالة الدفاع وتضعف قوته ولكن بقيت الحالة على أشدها شهرين كاملين دون أن تتمكن الحملة

المصرية من دخول البلدة التي دافعت دفاعاً مجيدا عبّر عن روح أهلها وصلابتهم ، ولا غرو فقد كانت الدرعية قاعدة الحركة وآخر معاقلها .

وحين كان الحصار يطول في أمثال تلك المواقع لم يكن الملل يصيب المدافعين وحدهم ولكنه كان يبرى المهاجمين أيضا حيث تقسو عليهم الطبيعة وتطول بهم المحاولة ، وزاد في سوء موقف الجنود حول الدرعية حادث جاء قضاء وقدرا فإن ريحاً شديدة كانت تهب في تلك الأنحاء فأطارت نارا كان يوقدها أحد الجنود فبلغت مكان الذخيرة فنسفت ما يقدر بنصف المرتب ، وكاد الموقف أن ينقلب إلى خسارة مريرة وإخفاق أخير لولا ما بذله القائد من جهود واحتياطات لتوفير الذخيرة ، كما أنه على أثر هذا الحادث قام السعوديون بهجوم مضاد - منتهزين الفرصة المواتية - ولكنه أخفق بسبب ثبات ابراهيم وقدرته على مواجهة الشدائد ، والتخلص من المواقف السيئة . فقد تفادى الهزيمة ورد الوهابيين على أعقابهم ، ثم حمل عليهم حملة شعواء حين وصلت الإمدادات والذخائر ، وهاجم البلدة هجوما عنيفا حتى أفقدها القدرة على المقاومة ، وانتزع منها الثبات والصلابة ، وأطاح بآخر آمال السعوديين فأرسل أميرهم مندوبيه لتلقى شروط الصلح في التاسع من نوفمبر سنة ١٨١٨

وانتهى القتال وسلمت الدرعية ـ عاصمة الوهابين ـ وسافر ابن سعود على أثر تلك الهزيمة الى الآستانة ، وقضى على حركة الوهابيين القضاء الاخير وخضعت بلاد العرب لوالى مصر فكان ذلك من الأحداث الكبرى فى تاريخ الجيش المصرى ، وقد احتفلت البلاد بهذا الانتصار العظيم يوم ١٨ أكتوبر فى القاهرة وأطلقت المدافع تحية وابتهاجا

وقد وصف الجبرتى الحفلات الحربية فروى أنه « وردت البشائر من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الوردانى أمير ينبع بأن ابراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية » فانسر الباشا لذلك الخبر سرورا عظيما وانجلى عنه القلق وأنعم على المبشر وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والازبكية ، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش ووصل المرسوم بالمكاتبات من السويس وينبع فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وأمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة ، وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة ببولاق . . ثم احتفل بهذه البشائر سبعة أيام أخرى ثم أعدت حفلات نيلية فى بولاق « تضرب فيها المدافع وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط

وتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء ، ويرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين . . »

وهنا نستطيع أن نعرف القائد الفاتح على أضواء هذه الحملة ونقف على بعض مزاياه كجندى كبير ، وما امتاز به من صفات شخصية ساعدت مع الصفات العسكرية على جعله جديرا بهذه الصبغة التى اكتسبها بين عظماء الرجال والشهرة التى واتته كرجل سيف ورجل حكم . .

أما من الناحية العسكرية فقد كان استراتيجياً بعيد النظر ، فاختار السير فى الوادى الطويل الممتد من مكة الى نجد حتى يسلم من المرور بوادي الدواسر ـ وكان يقطنه المتطرفون من العرب ـ كما أنه رأى فى ذلك ضمانا لحاجته من الماء ، وهذا يكشف عن الناحية الإدارية وأهميتها فى نظره

وفى الوقت نفسه كان سياسيا حصيفا يعرف أن الكسب بغير حرب أفضل من الانتصار فى الحرب ولذلك أخذ يستميل اليه البدو ويجمع حوله الأنصار بحسن سياسته ، وكان يحسن معاملة الأهالى لحرص جنوده على النظام وعدم الاعتداء ، وقد ذكر الرحالة الإنجليزى بلجريف ، إن ابراهيم حرم على جنوده وضباطه إيذاء الأهالى العزل ونفذ ذلك التحريم وعاقب مخالفيه بأشد الجزاء

وعنايته باضعاف خصمه من ناحية استنفاد الموارد تفصح عن حصافته وسعة حيلته ، فقد كان يدفع بالبدو الذين لافائدة منهم أمامه إلى أوساط نجد ليستنفدوا موارد الوهابيين

أما شدته ، فى موضع الشدة ، فقد كانت مضرب المثل ؛ وقد عرف بالقسوة الشديدة مع أصحاب الأفكار التى تتعارض مع سيادة القانون والنظام ؛ ومن الوقائع المشهورة أنه استدعى رجال الدين والفقهاء لمراجعة أسباب الخلاف بين العقائد ، فلما طال النقاش دون أن ينتهوا إلى رأى ، أمر بهم فقتلوا ، وأنقذ الاسلام من هذه الشوائب الضارة وصان وحدة المسلمين وكان شعاره فى ذلك الآية الكريمة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »

وكان حاكما كيسا أو مثالا للنزاهة والصبر كما وصفه أحد المؤرخين فكانت سياسة تنظيم البلاد المفتوحة والمسالمة مع الشعب الخاضع والاستعانة على حكم البلاد بأمرائها الأقدمين ، وفى الوقت نفسه كان يتبع القسوة والصرامة حين تؤدى إلى الأغراض ، مسترشدا فى جميع أعماله بقواعد النظام والرقى والعدالة

هذا هو ابراهيم البطل المصرى ، ونقول المصرى لأنه قال من قبل « لقد جئت مصر طفلا فغيرت شمس مصر دمى وبدلته دما مصريا خالصا . ! » وهذه غزوته لبلاد العرب التى قمع بها حركة

الوهابيين وأخضع بلاد العرب وهى بداءة غزوات وحروب كبرى جعلته من أعظم رجال الحرب فى التاريخ

نعود بعد ذلك إلى استكمال قصة الحملة المصرية بعد أن دانت لها بلاد العرب فقد أرسل عبد الله بن سعود إلى الاستانة حيث قتل بأمر السلطان

. أما عن الدرعية فقد أرسل محمدعلى أمرا بتخريبها وتدمير حصونها ثم أرسل أخوة عبد الله بن سعود إلى القاهرة ، ثم عاد ابراهيم إلى مصر فوصلها يوم ٩ ديسمبر سنه ١٨١٩ وهناك استقبل استقبال كبار الفاتحين واستمر الزينة والوقود والسهر بالليل وعمل الحراقات وضرب المدافع فى كل وقت من القلعة ومفاتن وملاعب فى مجامع الناس سبعة أيام بلياليها فى مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط . . . »

وأهم ما يلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن محمد على لم يظهر فيها حتى يترك جلالها وعظمتها لولده ابراهيم ، ولهذا بقى فى أثنائها بعيداً عن الأنظار تدفعه إلى ذلك عاطفة رقيقة ، فبينما كان ابراهيم يدخل القاهرة من باب النصر ويشق طريقه إلى القلعة فى موكبه الرهيب ، كان محمد على واقفا فى مسجد الغورى فى موضع لا يراه منه أحد

يشاهد من أحد نوافذه موكب ابنه أثناء مسيره فى يوم من أيام المجد المصرى

أما بعد عودة ابراهيم الى مصر فقدبقيت قوة من الجنود المصرية فى بلاد العرب تحت قيادة الميرميران ـ أى الفريق ـ أحمد شكرى باشا ابن أخت محمد على وقد عين حاكما على جدة ووضعت حاميات نسبية فى مكة وينبع والمدينة وقنفدة وغيرها من المراكز الهامة ..

وبعد مضى وقت طويل انشغلت مصر خلاله بأحداث هامة أخذ نفوذ شكرى باشا يضعف فى بلاد العرب وعادت حركة الوهابيين تبعث من جديد وأخذت القبائل العربية تناهض الحكم المصرى وتشن الغارات على طرق القوافل ومسالك الحجاز ثم راحت تتوغل فى ضواحى البلدان وتهدد صفو الأمن فى مكة والمدينة وتهدد طرق الحج .

فلما بلغ الأمر مرحلة لايحسن السكوت عندها أرسل محمد على حملة من جنوده النظامية لاخماد نشاط المفسدين والقضاء على الفوضى وإعادة الأمن وإقرار السكينة ، وكان قوام الحملة الألاى الثانى مشاه تحت قيادة الأميرالاى محمد بك الدويتدار وقوة الفرسان التركية وعدة مدافع ، وضم اليها عددا من القواد الفرنسيين واثنين من المهندسين المصريين ـــ وقد أنيطا برسم الخرائط ـــ

ووتحرك الركب من عدن في شهر اكتوبر سنة ١٨٢٣ فوصل إلى قنا بطريق النيل ثم بارحها الى القصير ومنها عبر إلى جدة - التى أصبحت قاعدة تموين القوات المصرية بالحجاز - ورابطت الحامية فى مكة خمسة عشر يوما حتى جهزت الخطط وكانت ترمى إلى التقدم فى اتجاه سلسلة جبال الطائف .

وولى قياده الحملة شكرى باشا وكانت قواته تتكون من آلاى مشاة وستة أورط وبلوكين وقوة من الفرسان ومدفعية مناسبة ، وقد غادرت الحملة مكة من طريق شاقة ومسالك جبلية وعرة حتى بلغت الطائف وبعد إقامة قصيرة عاد الركب الى المسير فى اتجاه الشرق مارا بكلاح وتربة وعقيق وشينه ومنها انحرف جنوباً مارا بحنيفة ووادى ونان وسليلا حتى التقت بطلائع العدو - بعد مسيرة ٢٥ يوماً - عند مرتفعات جبال شيط وكان العدو الذى يبلغ عدده ٢٥ ألف رجل يرابط فى مراكز منيعة ويستعد لملاقاة الحملة المصرية ، ثم دارت رحى قتال عنيف وفوجىء العرب بقوات نظامية مدربة ذات أسلحة ممتازة لاعهد لهم بها، وانتقلت المعركة إلى سفوح الجبال ولم تأخذ وقتا طويلا بسبب تفوق الجنود المصرية فى قوة النيران وحسن النظام ووفرة الاستعداد فتراجعت قوات العرب عن مراكزها وتركت بالميدان أربعمائة من أفرادها بين قتيل وجريح وأسير بينما

خسر المصريون أربعين قتيلا وجرح مائة وثمانية وعشرون وكان من نتائج هذه المعركة أن انتهى عهد القلاقل واختتمت حركة الوهابيين واستتب الأمن فى بلاد العرب

وقد أصدر محمد على — على أثر ذلك — مكاتبة إلى ناظر الجهادية — على نحو ما يجىء فى البلاغات الحربية الحديثة — جاء فيها عن هذه المعركة « وجاءوا - أى العرب - خفية من طرف الجبل ومعهم خمسة وعشرون ألفا وأرادوا أن يبيتوا لعساكر المنصورة ويباغتوهم ولكن المخافر الأمامية كانت منتبهة فى كل وقت فلما رأوا أولئك الأشقياء جائين أخبروا بمجيئهم ففى الحال ضربت النقارات وأخذت العساكر تتوقل الجبال وتصطف صفوفا حسب الأصول المرعية فألفوا سدآ منيعا كأنه من حديد ، فلما وصل الأشقياء إلى مرمى الرصاص بدىء باطلاق النيران عملا بقاعدتنا ؛ وحمى وطيس الحرب ست ساعات ونصف ساعة بالتمام وأخيراً اشتبك الطرفان فيما بينهم بالطعن بأسنة البنادق فلم يستطع أولئك الأشقياء الثبات والمقاومة فاختلت أحوالهم فبادروا إلى الفرار ، وقد كانت تلك المحاربة ليلية لا يستطيع اللسان أن يصفها فإن ثبات أولئك العساكر المجاهدين أمام ذلك الجمع الكثيف من أشقياء العرب وانتصارهم عليهم ثم رجوعهم إلى أماكنهم بكل جسارة وبسالة من غير أن

يخلوا بالنظام بالرغم من كون اصول التعليم العسكرى أينما تكون وقت التعليم فقط لا أثناء الحرب ليجعلنا نعتقد من غير شك ولا شبهة أنهم سيبلون البلاء الحسن عند وقوع حرب أخرى ... »

وفى هذا البلاغ الحربى ما يشعر بمقدرة قوات محمد على النظامية وكفايتها فى الحرب وما كانت عليه من تدريب ودراية ، فقد كانت تتبع أحدث أساليب الحرب وتجرى فى نظامها وتحركاتها على الأصول المرعية ، وتحارب عدوا شديد البأس فى أرضه - بين الصخور والمرتفعات التى يجيد فيها القتال فتهزمه وتقصيه ، وهى تتبع قواعد الحرب فلا تفتح النيران على العدو إلا حين يصل إلى خط (التمويه) حتى يكون الضرب محكما ومفاجئاً وبدون إسراف فى الذخيرة ، وهى تضع النقط الأمامية لملاحظة تحركات العدو واستكشاف نواياه والتسرع فى إبلاغ القوات الرئيسية ما يتكشف من أمره ؛ وهى تستخدم الفرسان فى الاستكشاف البعيد المدى والحصول على المعلومات وسرعة إبلاغها وغير ذلك من قواعد الحرب الحديثة

وفى نهاية البلاغ نجد العاهل العظيم ؛ وهو بالقاهرة يطمئن إلى نتيجة التجربة وما بلغته جنوده من كفاية حربية ، فيجعله ذلك واثقا من أنهم «سيبلون البلاء الحسن» حين يبعث بهم فى غمار حروب أخرى...!

فقد كان يحلم بفتوح شائقة وأمبراطورية مصرية عظمى

بلاد العرب والسودان

حملات فتح السودان

لم يكد محمد على باشا ينتهى من حروبه فى بلاد العرب ويبسط سلطانه على الجزيرة بعد إخماد حركة الوهابيين حتى جاشت نفسه بالآمال الكبار فقد كان يحلم بتكوين امبراطورية عظيمة موطدة الدعائم موفورة النظم تحاكى الممالك العظمى فى عصره وتقف معها على قدم المساواة ، ولذلك صحت عزيمته على فتح السودان وضمه إلى جامعة الوطن المصرى

وكان - منذ فازت جنوده فى بلاد العرب بالانتصارات العظيمة وبدأت الآلات الحربيه الجديدة والنظم المستحدثة التى أشاعها الكولونيل سيف فى القوات المصرية تبشر بنهضة عسكرية حافلة - يفكر فى ميادين جديدة لتحقيق ما يهدف له من أغراض حربية ؛ وكان هناك أكثر من دافع يجتذبه نحو الجنوب

وقد ذكرت عدة أسباب دفعت محمد على باشا إلى فتح السودان منها توسيع المجال الحيوى لمصر ، وتجنيد السودانيين حتى يضم إلى جيشه عناصر قوية معروفة بالصبر والشجاعة والولاء ، وتخليص

قواته من العناصر غير النظامية وتدمير البقية الباقية من المماليك الذين استوطنوا دنقلة بعد فرارهم من مصر ، وقيل أنه كان معنيا بكشف منابع النيل (١) وتأمينها ، فقد كان يدرك أن الاستقلال الصحيح لا يتحقق لمصر قبل أن تمتلكِ مجرى النيل من المنبع إلى المصب (٢) كما كان مهتما بما سمعه عن وجود معدن الذهب فى أرض السودان فأراد كشف مناجمه ولذلك ألحق بالحملة عدداً من المختصين

ويرى بعض المؤرخون أن فتح السودان كان مشروعا قوميا بحتا أراد به محمد على تأليف وحدة مصر السياسية ، وإعادة البلاد إلى حدودها الطبيعية والمحافظة على كيانها القومى

وقد ذكر الجبرتى عن غايات محمد على من فتح السودان ما يأتى :

---

(١) قال مسيو ديهر أن فى كتابه (السودان المصرى فى عهد محمد على) أن محمد على بايفاده الرحلات والبعثات لاستكشاف منابع النيل قد حقق الآمل الذى كان يطمح اليه علم الجغرافيا

(٢) ذكر ابراهيم باشا فوزى فى كتابه (السودان بين يدى غردون وكتشنر) أن محمد على باشا سمع أن دولة أجنبية تسعى لمعاوضته باحتلال منابع النيل فاهتم لهذا الغرض أكبر الاهتمام واستشار كثيرا من المهندسين الاوروبيين الذين جاءوا من بلادهم الى مصر فأقروا بالاجماع أن وقوع منابع النيل تحت نفوذ دولة أجنبية أمر لا تحمد عقباه حيث تصير حياة مصر فى يدها ، فصمم على انفاذ الحملة إلى السودان

« حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل فى سرحته إلى الشلال وكان الناس تقولوا على ذهابه إلى قبلى أقاويل ، منها أنه يريد التجريد على بواقى المماليك المتقطعين بدنقلة فإنهم استفحل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك ، ومنها أنه يريد التجريد أيضا وأخذ بلاد دارفور والنوبة ويمهد طريق الوصول اليها ومنها أنهم قالوا إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد . . »

وقال فى موضع آخر « قوى عزم الباشا على الإغارة على نواحى السودان ومن قائل إلى دارفور ، وصارى العسكر ابنه اسماعيل باشا ، ووجه الكثير من اللوازم إلى الجهة القبلية ، وعمل البقسماط والذخيرة ببلاد قبلى والشرقية . . »

ويتضح من ذلك أن محمد على كان قد صمم على فتح السودان لأكثر من سبب واحد وأنه سافر بنفسه إلى الحدود الجنوبية كى يجرى استطلاعا شخصيا فيما وراء حدوده وهناك وضع خطط الزحف بما تمليه طبيعة تلك الجهات ، فلما عاد إلى مصر شرع فى التمهيد للحملة وإعداد مستلزماتها ، وبعث إلى المماليك يسترضيهم ويدعوهم للحضور إلى مصر فرفضوا دعوته وأخذوا يهددون الحدود الجنوبية بأغاراتهم عليها وبذلك وجد سببا لمقاتلتهم

وقد ولى قيادة الحملة إسماعيل باشا – ثالث أنجال محمد على – وكانت تضم أربعة آلاف مقاتل منهم ١٢٠٠ من الفرسان العثمانيين و ٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة ، و ٦٠٠ من المشاه ، و ٣٠٠ من رجال المدفعية ، و ٨٠٠ من المشاه العرب والمغاربة ، و ٧٠٠ من عرب العبابدة ، وقد أعد للحملة السفن اللازمة لنقلها بطريق النيل والإبل الضرورية لنقل المؤن والمعدات

وتحركت الحملة فى ١٩ يولية سنة ١٨٢٠ بطريق النيل بينما سار الفرسان بمحاذاة الشاطىء ، فلما بلغت الدر سارع المماليك إلى الفرار ودخلها إسماعيل بغير مقاومه ثم اتبع ذلك بالزحف على دنقلة حتى أخضعها ، وفى خلال ذلك كثر عدد الذين خضعوا من المماليك بينما تشرد الباقون فى أنحاء السودان حتى لاقوا حتفهم

وبعد احتلال دنقلة دخل الجيش بلاد الشائقية – التى تقطنها قبائل شديدة البأس ، قوية التحفز لحماية البلاد والدفاع عنها – فواجه إسماعيل ثلاثين ألفاً بين فرسان ومشاة فى معركة عنيفة دارت يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ تغلبت فيها النيران على الشجاعة وانهزمت قوات الشائقية بعد أن فقدت ٨٠٠ مقاتل مقابل ٣٠ من المصريين ثم احتل اسماعيل عاصمتهم (كورتس) وأحرقها ومما يذكر أن إسماعيل دعا أهل الشائقية – الذين أعجب ببسالتهم – للانضمام

إلى الجيش المصرى، فقبل بعضهم؛ وحاربوا بشجاعه، وظلوا موالين مخلصين وأبلوا البلاء الحسن

وأستأنف اسماعيل الزحف فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ ففتح بربر فى ١٠ مارس وشندى يوم ٨ مايو والحلفاية ثم أم درمان وأخيراً بلغ الخرطوم، ثم احتل دنار وواد مدنى حتى دخل العاصمة فى يونيه سنة ١٨٢١

وكانت ثمة حملة أخرى أرسلها محمدعلى تحت قيادة صهره محمدبك الدفتردار لفتح كردفان، وكان الطريق اليها وعرا فى صحراء يباب لا ماء فيها ولا غذاء وقد حدث اشتباك كبير مع سلطان دارفور فى معركة باره، نال فيها القائد المصرى نصراً حاسما مكنه من احتلال الأبيض.. وكانت معركة باره نصراً للمدفعيه المصرية التى انتزعت النصر بعد مشقة وعناء، ثم حطمت بعد ذلك محاولات الهجوم المضاد

غيرأن الجيش المصرى كان يواجه عدواً آخر أشد خطراً وهو أمراض المناطق الحارة، التى فتكت بالجنود وأهلكت منهم عدداً كبيراً، فساءت أحوال الحملة فى سنار وكردفان وأوشكت على الفناء (١)

---

(١) وصل عدد الوفيات ١٥٠٠ فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢١

ولذلك سارع محمد على - عند ما بلغته الأنباء المحزنة عن الحملة المهددة بالهلاك - فأرسل نجله إبراهيم باشا على رأس قوة كبيرة ومعه المؤن والملابس وعدد كبير من الأطباء وكميات من الأدوية ، وبذلك جدد الأمل فى نفوس هؤلاء المحاربين البواسل وأنعش روحهم المعنوية ، وكان قدوم ابراهيم بشيرا لهم بالنصر والسراء

وشرع ابراهيم فى إعداد خططه لفتح مابقى من ولايات السودان. واستقر رأيه على أن يتقدم بنصف الجيش فيخترق سنار متجها إلى أعالى النيل بينما يقود إسماعيل نصف الجيش إلى إقليم فازوغلى على النيل الأبيض

فلما بلغ ابراهيم منتصف الطريق أصابه المرض فعاد إلى مصر واستمر إسماعيل فى زحفه حتى بلغ أهدافه فى يناير سنة ١٨٢٢ وأخذ فى توطيد السيادة المصرية على ولايات السودان ، بينما كانت بعثة الذهب تقوم بأبحاثها دون توفيق ، ثم وصلت الأخبار بما كان من تمرد ، أهل سنار على الجيش فعاد إسماعيل اليها فى فبراير ١٨٢٢

وكانت ثورة أهالى حلفا وشندى بسبب ما كان من سوء معاملة الجنود الأرنؤود للأهالى ، فشقوا عصا الطاعة وتمردوا على السلطة وهاجموا قوافل الأرقاء . . فرحل إسماعيل فورا واستدعى ملك شندى ، وكان يدعى نمر ، فحاسبه وأساء معاملته وقضى عليه بغرامة

من الرقيق ، فخرج نمر متظاهرا بالطاعة مضمرا الشر مصمما على الانتقام (١)

وقد حدث أن دعى نمر إسماعيل باشا إلى حفل فى قصره ثم أشعل النار بينما كان الجنود يرابطون حول القصر ويسدون المسالك فمات إسماعيل وصحبه جميعا ، فلما سمع بأمر هذه المكيدة محمد بك الدفتردار سارع إلى شندى للثأر فخرب البلدة وسفك دماء أهلها انتقاما لمقتل اسماعيل ، ثم وطد أقدامه فى أنحاء السودان وأنشأ مدينة الخرطوم وجعلها قاعدة الحكم

وهكذا تم فتح السودان وعين محمد على حاكما من قبله يسمى حكمدار السودان ووضع النظم والتشريعات الادارية والمالية ، وبدأ السودان يقطع شوطا جديداً وهو فى جامعة الوطن المصرى ، وأصبح وادى النيل من منبع النهر إلى مصبه تحت راية الوحدة القومية ، بعد عناء ومشقة ومجهودات طائلة ودماء مصرية عزيزة روت تلك التربة فأثبتت وحدتها ووضعت تصميمها الذى لا يمكن فصم عراه أو تهديم كيانه

---

(١) جاء فى بعض المراجع ان محمد على كان قد أوصى اسماعيل باللباقة والفطنة ودماثة الخلق التى تغنى عنها الشجاعة ، ولكن إسماعيل لم يحفظ الدرس فأساء معاملة ملك شندى ولطمه على وجهه فأسر له تلك الاهانة وانتقم منه انتقاما مروعا

إخماد ثورة المورة

لم يعد ذلك السيف البتار إلى غمده ، بعد أن قضى على حركة الوهابيين وانتهى من فتح السودان وإنما ظل مشهوراً فقد كان لديه واجبات جديدة دائماً ، وقد أريد به فى هذه المرة أن يعبر البحار ليقضى على ثورة نارية

ذلك أن بلاد المورة (اليونان) كانت جزءا تابعا للسلطنة العثمانية يمثل السلطان فيها أحد الولاة وطال عهد هذه التبعية حتى أقبل وقت الحركات الاستقلالية فثابت الأمة اليونانية إلى رشدها وأرادت التحرر من الحكم العثمانى وشبت الثورة فى كل بلاد المورة فاجتذبت عطف الرأى العام فى أوربا وخصوصاً فى روسيا

وقد روى أكثر من مؤرخ أن اليونانيين كانوا أكثر الأجناس الخاضعة لتركيا ولاء وأقربهم منزلة ، وكانوا شبه مستقلين لا يشوب استقلالهم غير هذه التبعية الظاهرية التى يمثلها وجود نائب السلطان وما يدفع إلى الآستانة من جزية وعدد من البحارة ينتظمون فى الأسطول التركى .

فلما بلغ اليونانيون مرحلة الرقى والثراء وتاقت نفوسهم إلى الحرية بدأوا ينظمون جهودهم للتخلص من حكم تركيا والحصول على الاستقلال إحياء لمجدهم القديم وإنقاذاً لسمعتهم التاريخية ، وأخذوا يستعطفون الرأى العام فى العالم الأوروبى الذى عطف على هذه الحركة وتنبه إلى ضرورة تحرير هذه المملكة الأوروبية ، وإعادة الحياة الحرة إلى أبناء الإغريق البواسل

وقد أشعل لهيب هذه الثورة فى بلاد اليونان جماعة الاخوان (هيتريا) وهى جمعية سرية بدأت منذ سنة ١٨١٥ تعمل على نشر مبادىء ترمى إلى التألب على حكم الأتراك وتدعو إلى تحرير البلاد وكان للقائمين بهذه الحركة اتصال بقيصر روسيا إسكندر الأول الذى أمدهم بالمال والموارد ، بينما وقفت أوروبا من الوجهة الرسمية موقف الحياد ، فى ذلك النزاع الذى نشب بين الأمة اليونانية والدول العثمانية .. *

وفى شهر مارس بدأت الثورة علانية ، وكان يتولى تحريكها

---

* أرسل مترنخ إلى البرنس جيكا يقول (استقر الرأى نهائيا على عدم التدخل فى شئون الدولة العثمانية وهذا عمل عظيم . . ومما هو خليق بالذكر فى تاريخ هذا العصر هو أنه لم يرتفع فى مؤتمر فيرونا صوت واحد يدافع عن الاغريق)

— من كتاب اليونان السياسى لادوارد دريو —

إسكندر إبسلنتى وهو من ضباط الجيش وكان من ياوران قيصر روسيا فأرسلت تركيا جيشاً تمكن من القضاء على الثورة وإخماد الحركة فى مهدها وساعد على ذلك أن روسيا لم تستطع مساعدة اليونانيين بسبب الشواغل السياسية فيها

على أن ذلك لم يكن قضاء نهائياً على الحركة ولم تؤمن عودتها بعد قليل ، فقد كانت الفكرة مختمرة فى جميع الرءوس ، وخصوصا وقد صبغت بالصبغة الدينية وأصبحت جهادا مشروعا يتزعمه الأساقفة وقد حدث أن قاد أسقف بتراس ـ وكان يدعى جرمانوس ـ حركة كبيرة فى كالفرنيا ، جعل شعارها « الإيمان ، الحرية ، الوطن » وسرعان ما استجابت البلاد إلى الحركة علانية ، وقام الثائرون بفعال مروعة ضد العثمانيين فى كل مكان واستولوا على كثير من المراكز الرئيسية وأكثروا من الغارات على المواقع التركية فى البر والبحر ثم استولوا على تريبوليتزا مقر الحكم وأعلنوا استقلال اليونان وانفصالها عن السلطة التركية فى شهر يناير سنة ١٨٢٢

فأجاب السلطان على هذه الحركة بإرسال جيش جرار يتولى قيادته خورشيد باشا (الذى كان واليا على مصر قبل محمد على) ولكنه لم ينجح فيما كلف به وباء بالإخفاق وصار هدفا لهجمات الثائرين. الذين تضاعفت جرأتهم واشتد بأسهم ولذلك منى الجيش العثمانى

بهزيمة ماحقة وانتحر خورشيد باشا على أثرها ، وهذا بينما نشطت حركة القرصنة فى جزر الأرخبيل واعتدى الثائرون على مراكب الأتراك وأغرقوا عدداً منها ، وبذلك أصبح النفوذ العثمانى مهدداً بالزوال ما لم يسرع إلى إنقاذه سيف مرهف صادق الإنباء

وتلفت السلطان ليبحث عن العون فأشار عليه سفير النمسا بذلك السيف الذى مازالت تقطر منه دماء النصر والفتوح ، فأرسل السلطان إلى محمد على قاهر الوهابيين وفاتح السودان * ، فوجدفيها فرصة مواتية لها ما بعدها وأخذ يستعد استعداد واسع النطاق فى البر والبحر فقد كان عليه أن يواجه للمرة الأولى قوة أوروبية وحركة ثورية ، تنظر إليها أوربا بالعطف والمؤازرة ، وتمدها بالعون والقوة ...

وأصدر السلطان فرمانا يقضى بتعيين محمد على حاكما على كريت ويخوله ولاية المورة ووجد محمد على فى قبول هذا العرض فرصة لتوسيع نطاق حكمه ونشر نفوذه وتثبيت مركزه السياسى حيال تركيا .

---

* يذكر بعض المؤرخين أن التجاء الباب العالى إلى محمد على إنما كان ينطوى على أكثر من معنى واحد ، فالرغبة فى الاستعانة بالجنود المصرية كان يقابلها رغبة أخرى فى إضعاف محمد على — باشتراكه فى تلك الحرب — وحرمانه من المضى فى تنظيم جيشه ومضاعفة قواته .

وقد أرخ الجبرتى ذلك الفصل فروى أن الباشا « سافر إلى الأسكندرية لداعى حركة الأروام وعصياتهم وخروجهم على الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطرق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والتقتيل ... فنزل الباشا إلى الأسكندرية وشرع فى تشهيل المراكب المساعدة للدونانمة السلطانية ... »

وقد أنفذ محمد على باشا حملة إلى كريت قوامها خمسة آلاف جندى بقيادة صهره حسن باشا فبلغت الحملة كريت فى شهر يونيو سنة ١٨٢٢ واشتبكت فى قتال كبير أحرزت فيه نصرا كاملا وحققت أهدافها بإنقاذ الحامات التركية المحصورة ، وتضييق الخناق على الثوار حتى سلموا فاستتبت السكينة وخضعت كريت

هذا بينما كانت استعدادات أخرى تجرى على قدم وساق من أجل حملة المورة التى وضع فيها محمد على جانبا من آماله، ونظر فيها البشير بالنصر وعلو الشأن ولذلك عين ولده إبراهيم باشا — القائد الفاتح — سر عسكر أى القائد العام لجيوش مصر ، فأتيح بذلك لهذا الجندى الموهوب أن يجلى كفايته فى ميدان برقية العالم المتحضر ، وأن يقوم بدور هام يعد أقوى المشاهد الحربية وأعظمها فى ذلك الحين

وكانت الحملة مكونة من سبعة عشر ألف مقاتل وسبعة آلاف

من الفرسان ومدفعية قوية وأسطول ضخم مكون من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل ، وقد وصف الأسطول المصرى بأنه « الأرمادا » كما وصفت الحملة بأنها رد الشرق على الغرب (حملة نابليون)

وكأنما أراد الزمن أن ينصف البلاد المصرية وشعبها العريق فجعل على يدها الرد العاجل على حملة نابليون القريبة العهد ؛ فأرسل محمد على باشا حملته هذه رد الشرق على اعتداء الغرب

غادر الأسطول المصرى مياه الإسكندرية فى التاسع عشر من شهر يولية سنة ١٨٢٤ فبلغ رودس فى الثالث عشر من أغسطس وهناك التقى بالأسطول التركى الذى يقوده خسرو باشا وهناك بدأ إعداد الخطط المشتركة على أن بين المؤرخين من لم تفته مقاونة الحال بين الأسطولين وأنهما كانا يعطيان فكرة صادقة عن مصر الناهضة وتركيا الآفلة ، وقد ظهرت بوادر الضعف والإستخذاء فى فى صفوف العثمانيين حين تراجعت مراكبهم عند الصدمة الأولى فسبب ذلك هزيمة مشينة ويذكر أحد الضباط الفرنسيين ممن حضروا الوقعة أن الأتراك « نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مقرهم » ترتعد فرائصهم ويسكن الرعب جوانحهم وكان فرارهم فى سفائن تجارية مسلحة غرّ ضباطها هذا الجبن فاندفعوا وراء أعدائهم حتى أتو إلى

بوغاز ضيق ثم التحمنا (أى المراكب المصرية) ولكن بعض فرقا طاتنا رأت من الحكمة أن تخرج من المعمعة واستطاع ابراهيم بجرأته وصادق بأسه أن يوقف سيل الاغريق فلما رأى هؤلاء أن أمامهم خصما قويا لم يعملوا له حسابا من قبل هموا بالرجوع وارتدوا ارتداداً يشهد لهم بالبراعة..»

وأعاد ابراهيم النظر فى الموقف فآثر أن يعود إلى كريت حتى تواتيه الفرصة المناسبة ، وكان قد شعر أن وجود قيادتين للقوات المشتركة كان من عوامل التفكك والاضطراب لأن توحيد القيادة أمر جوهرى لنجاح العمليات - وقد قيل أن قائدا عادياً خير من قائدين كبيرين - ولهذا شكا محمد على ذلك للسلطان فى كتاب بعث به اليه فى ١٣ سبتمبر ١٨٢٤ جاء فيه :

«يؤسفنى أن ما طلبته من توحيد الأسطول كله لم يجب وأن هذا الشرف لم ينله ولدى ابراهيم وليس بخاف أن النصر فى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد.. ذلك أن اختلاف الرأى لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة السيئة ، وقد كانت الحوادث الأخيرة مع الأسف الشديد أكبر دليل على صدق هذه العقيدة...»

وعلى أثر ذلك صدر الأمر بتقليد إبراهيم باشا القيادتين البرية

والبحرية فأصبح القائد الأعلى للحملة المصرية العثمانية :

وكانت عودة ابراهيم إلى كريت مدفوعة بعدة أسباب منها تخاذل الأسطول التركى وفراره من كل واقعة وتضاؤل الأمل فى كسب العمليات البحرية إزاء خصم متمرن على حرب البحار وأعمال القراصنة ... كما قرر إبراهيم باشا الانتقال إلى الميدان البرى ، الذى يجيد فيه العمل والذى سيتقرر فيه المصير .

فخمسة الأشهر التى انقضت على إبحار الأسطول من الاسكندرية إنما قضيت فى جهود شاقة ومتاعب لا هوادة فيها ومخاطر تتجدد كل يوم ، وقد ذكر مسيو دوان فى كتابه « الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على » أن ما أبداه إبراهيم باشا فى هذه الظروف من الثبات ورباطة الجأش ما يستوقف النظر ، فإن قيادة أسطول بحرى تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التى لا يسهل الاضطلاع بها وأن ابراهيم باشا فى قيادته عمارة من مائتى سفينة نقل تقل نحو عشرين ألف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابرت من قبل – مع تفاوت الفرق بين الموقفين – حينما اجتاز البحر الأبيض فى أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨ ألف مقاتل ، وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين أسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين

الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على إبراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد ، وأن يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين أمواجه وأهواله .. ، إذا تذكرنا كل ذلك فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى خسرها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت أمام الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وعدة نقالات ... ولا شك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزم إبراهيم باشا وعلو همته وتطالعنا بما تحتويه نفسه من صفات عظيمة مع مزايا الرياسة والقيادة ، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعته الكبرى التى لا يسع أى إنسان إلا أن يبادر إلى الإعجاب بها ...

وقد وصف لين پول شخصية إبراهيم باشا فقال « هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ، أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة شجاع رحيم لين العريكة ، ولكنه شديد الحرص على النظام ، يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب صغيرة ... دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الناس



ابراهيم باشا « الفاتح »

بسرعة تنقله بين الجند وكثيراً ما ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره ، وهو حدب على جنوده يعطف عليهم ويحادثهم ويبث فى قلوبهم الشجاعة، وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه الهدوء وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصايد وما ينصب له من المكائد ...

ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز ،

وكان إبراهيم رجل حرب ورجل حكم ، فكان يعمل بقلب المحارب وعقل السياسى ، ويضع خطته على أساس الظواهر العسكرية والمعنوية فى خصومه ، ولذلك أخذ يتتبع أخبار الثورة اليونانية الداخلية التى انتهت بحرب أهلية بين الأحزاب فرأى أن يسرع إلى بلاد المورة منتهزاً هذه الفرصة المواتية ، وفى هذه الأحوال المضطربة التى تضاربت فيها قوى عدوه أقلع بغارته إلى ميناء (مودون) الميناء الوحيد الذى بقى فى يد الأتراك - وأنزل جنوده إلى البر فى فبراير ١٨٢٥

وبدأت الأعمال الحربية بإنفاذ جيش إلى نفارين وكانت من أهم مراكز الثورة استعداداً فشرع إبراهيم فى حصارها وحدث فى سبيل ذلك قتال طويل الأمد متدفق الدماء دون أن يتم صنع ذلك

الطوق من الحديد والنار الذى أراد أن يحصر فيه المدينة ، وكان استبسال اليونانيين فى نفارين مضرب الأمثال ، فقد كانت معقد آمال الثوار وقاعدتهم المنيعة ، ولذلك جاءتها الإمدادات الوافرة التى قدرت بثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، فسارع إبراهيم إلى لقائهم وحدث قتال مرعب ومعركة مروعة أودت بالنجدات اليونانية وقضت عليها ، فخف ابراهيم إلى مشارف نفارين وشدد عليها الحصار وأذاق أهليها ويلات الحرب

ثم أقبل مدد جديد من المتطوعين الشبان ، فقد كانت الثورة تغذّى بالخطب والأشعار والفصول الحماسية التى تدبجها أقلام شهيرة ، وكان المدد الجديد يبلغ تسعة آلاف رجل وجهتهم نفارين لرفع الحصار عن المدينة وطرد الغزاة عن أرض الوطن

وشعر ابراهيم بما جد فى الموقف ، ولم يكن قد قضى على روح المدينة المحاصرة ، فأصبح بين نارين ، وعند ما تأزم الحال تظهر العبقرية العسكرية ويفتح التاريخ صفحة للقائد الكبير ... ولهذا فإن تصرف إبراهيم باشا فى هذا الموقف وأمثاله لما يحله فى قائمة كبار العسكريين فإنه لم يتخاذل ولم يضطرب ولم يرفع الحصار عن نفارين كى يواجه القوة الأخرى المقبلة ولكنه وضع خطة تشهد له بالحصافة والجسارة ، فقد نظم مدافعه وأحاط بها المدينة ، وترك جزءاً من جيشه لتثبيت

حاميتها ثم خرج ببقية جيشه للقاء الإمداد وأفواج المتطوعين الملتهبين حماسا وعزما ، فأمر جنوده فاحتلت مواقعها، ونفذ أحدث التعليمات العسكرية من نواحي الإخفاء والوقاية والاستطلاع ، واستخدم المفاجأة كأمهر القواد العصريين وأمر بعدم فتح النيران حتى تصدر الإشارة الخاصة بذلك وكانت الإجراءات ترمى إلى الإمعان فى التستر حتى يمكن مفاجأة العدو فلما أقبلت القوات اليونانية وصارت على مائة ياردة ، أعطيت الإشارة المتفق عليها وفتحت النيران وصبت القذائف وفوجىء العدو مفاجأة تامة أذهلته وأصابته بخسائر فادحة ثم انتهت المعركة وأطل جنود مصر على شراذم الهاربين وأفواج الأسرى ونظروا الميدان الأوروبى تحت أقدامهم غاصا بأشلاء القتلى وجثث الجرحى والأسلحة والمعدات التى دمرت أو أسرت

وقد وصف المؤرخون هذه الموقعة بأنها كانت نصراً مبينا للجيش المصرى ومثلا صادقا على حسن استعداد المصريين للحرب وقوة روحهم المعنوية وبسالتهم فى القتال ، كما كانت شهادة ناطقة بصفاتهم الحربية العالية وتقاليدهم الخلقية فلم ينهبوا ولم يضلوا وإنما أحرزوا انتصارا سريعاً كريما

وعاود إبراهيم حصار نفارين ، وكان قد أدرك أن الحصار

لا طائل من ورائه ما دامت الإمدادات والمؤن تصل إلى المدينة عن طريق البحر فصمم على قطع ذلك الطريق وذلك بأن يستولى على جزيرة أسفاختريا — قفل نفارين الذى لم يفتح بعد — فأرسل إليها الكولونيل سيف مع ١٢٠٠ مقاتل ، وحدثت فى سبيل الإستيلاء على تلك الجزيرة معارك خطيرة بسبب ماوقع فيها من صراع عنيف وضحايا عديدة ، وكان اليونانيون يدركون أهمية أسفاختريا التى كانت القفل الأخير الذى يسد آخر أبواب نفارين ، وقد حطم إبراهيم ذلك القفل بسيفه وانفتح الباب فعلا ...

أما تفصيل ما حدث فهو أن حامية الجزيرة كانت قد عززت وأمدت بالمدافع والأسلحة ، فلما أقبلت السفن المصرية بدأ التراشق بالمدافع وفتحت النيران من الجبهتين ، ولم تمنع معركة النيران هذه من تقدم الجنود المصرية رغم ما يحيط بها من مكروه حتى بلغت الشاطىء ونزلت إلى البر ، وبدأت معركة عنيفة تلاقت فيها الحراب والبنادق وتصارع فيها الجنود يدا بيد وتبودلت أزمة المعركة مرة بعد مرة حتى استقرت أخيرا فى يد المصريين ، ورفع العلم المصرى على الجزيرة بعد معركة مشرفة بلغت حظا كبيرا من البسالة والنظام والتضحية .

وبذلك أكملت الحلقة الحديدية حول نفارين برا وبحرا وقطعت

طرق النجدة ، وأخذ ابراهيم يشدد الحصار على المدينة ويذيقها الويلات ، وحدث أثناء ذلك أن هاجم الثوار المراكب المصرية فى مودون ـ وذلك فى شهر مايو ١٨٢٥ وانجلت المعركة عن حريق كبير أحدثه قاذفات اللهب اليونانية ـ الحراقات ـ والتهبت المراكب المصرية واحترق عدد منها واتصلت النار بالشاطىء وانتقلت إلى المدينة فخربت جزءا كبيرا والتهبت مخازن الذخيرة وكان لهذا الحادث وقع سىء ولو أنه لم يؤثر على الموقف الحربى الذى كان قد استقر نهائيا وكان ابراهيم باشا قد أرغم حاميات نفارين على قبول هزيمة مريرة فتراخت قوات الدفاع واستسلمت ودخل الجيش المصرى القاعدة اليونانية الشهيرة مزهوا بأكاليل النصر والبطولة

وانتقل القتال إلى ميناء كلامانا فدارت معارك خطيرة بسبب ما عرف به الجبليون من شجاعة وبأس ولكن فاتح نفارين لم يكن بالذى يمكن صده بسهولة ، كما كان جنوده البواسل قد ثملوا بكأس النصر ، فاندفعوا كالمردة وأذاقوا البلدة الويل حتى استسلمت ، ومضت جنود النصر تجتاز قلعه بعد قلعة وحصنا فى أثر حصن حتى بلغت تريبولتزا عاصمة المورة ومعقل الثوار ومكمن الباقى من الأمل

وكانت البلدة منيعة صعبة المرتقى ، تتحكم فى الطرق الجبلية الوعرة يزيد فى مناعتها أنها كانت مركز المقاومة الشعبية فتد تحصن فيها

« خريطة حروب المورة »

الثوار والأهالى ، واطمأنوا إلى مناعتها فأعدوا فيها ما استطاعوا من قوة . .

وبينما كان إبراهيم يطوى الطريق بجنوده المظفرة ويجتاز المناطق الجبلية الوعرة مثلما كان نابليون يفعل . . كان الثوار قد أنفذوا جيشا عند أحد المضايق - مضيق كورسيتكا - بعيدا عن البلدة ليسدوا الطريق فى وجهه ويتخذوا موقعا دفاعيا يحقق المبدأ القائل بالدفاع بعيدا عن الغرض . . ولكن الجيش المصرى استطاع أن يحدق بقوات العدو وأن يذيقها هزيمة من الطراز الأول فطارت نفوسهم شعاعا وانهارت روح المقاومة الأهلية وأخلى الثوار تريبولتزا ودخلها إبراهيم باشا فاتحا فى ١٣ يونيه ١٨٢٥

وبدأت عمليات تنظيف الميادين وإخماد الثورات وتدمير المقاومات التى كانت تنشب فى مكان بعد مكان حتى تم لإبراهيم باشا بسط نفوذه على شبه جزيرة المورة ، ولم يبق غير الاستيلاء على نوبلى ، عاصمة الحكومة الثورية ، فأخذ يتأهب لغزوها ، ولكن صوتا آخر كان يدعوه وكان عليه أن يلبيه وذلك أن الجيش التركى الذى كان يحارب الثائرين تجاه مسيولونجى قد أصبح فى مسيس الحاجة إلى المساعدة ولم يعد فى إمكانه الإطباق على المدينة بغير عون قوى فأرسل قائده رشيد باشا إلى ابراهيم طالبا المدد ، وبعث إبراهيم

إلى القاهرة برسالة يستأذن فيها والده فى أداء هذا الواجب فأذن له وأمده بحملة جديدة وافية *، فقد كان الاستيلاء على مسيولونجى يساوى الاستيلاء على نصف بلاد اليونان، وتقع مسيولونجى فى مدخل خليج ليبانت على أرض منخفضة تمتـــد إلى سفوح جبلية لا يمكن الوصول اليها من الغرب أو الجنوب تكتنفها أكوام الرمال والمخاوض والجزر المتناثرة، والأسوار والأبراج التى تطرز الشواطىء

وكان ابراهيم قد فرغ من امتلاك المواقع البحرية فى مودون وكورون ونفارين وتريبولتزا غير أن الأمر لم يكن قد استتب له نهائيا؛ فقد كان الثوار ينتهزون انشغاله فى موقع ليغيروا على موقع آخر، وحالة كهذه لا يمكن علاجها بغير القضاء على الثائرين نهائياً وتعقبهم فى جميع أنحاء البلاد وشل حركاتهم والقبض عليهم وكان هذا يقتضى القيام بعمليات متقطعة متنقلة سريعة

وكان الجيش التركى بقيادة الصدر الأعظم رشيد باشا يحاصر المدينة بغير نجاح رغم هجماته العديدة فغضب السلطان وأرسل إليه يقول: «إما مسولونجى وإما رأسك». فجمع رشـــيد كل قوته فى هجمة جديدة لم يخرج منها بطائل فكتب إلى ابراهيم باشا فى أوائل

---

* مكونة من ثمانية آلاف جندى وعتاد من المدافع والذخيرة

يناير ١٨٢٦ يدعوه إلى معاونته فى الاستيلاء على المدينة

فلما استجمع ابراهيم أهبته للوثبة الجديدة رأى أن يترك حاميات كافية فى سائر بلاد المورة ، عاهدا بقيادتها إلى سليمان باشا وعبر خليج ليبانت ونزل على مقربة من مسيولونجى فى فبراير ١٨٢٦ لحاصرها براً وبقيت الناحية البحرية بابا مفتوحا لإمداد الثوار من الخارج ثم توجه إلى مسيولونجى وكانت كفة الأمور تبدو فى جانب الثوار الذين كان لهم التفوق البحرى والسيطرة الكافية التى ضمنت توالى وصول الإمدادات إلى المدينة

وشرع ابراهيم باشا فى مهاجمة المدينة فأرسل نصف قواته إليها فقوبلت بنيران شديدة وهجمات مضادة مفزعة فارتدت على أعقابها بعد خسائر شديدة ثم تقدمت بقية القوات فاستدرجت إلى أرض ملغومة وفوجئت بانفجارات هائلة أبادت الصفوف الأولى وردت الباقين إلى حيث أعيد تنظيمهم ثم أخذ فى وضع الخطة الجديدة

وفى فجر ٢٤ أصلى إبراهيم باشا المدينة بألف قنبلة من مدافعه وبعد يومين جدد الهجوم دون أن تتراخى قوات الدفاع ؛ ولم يعد من سبيل الى غزو مسيولونجى قبل أن يقفل البحر عليها وتمنع الإمدادات عنها

ثم بدأت عمليات جديدة جاء ذكرها بالتفصيل فى المحفوظات

الرسمية بسراى عابدين - وثيقة رقم ١٠ - وقد جاء فيها
حوادث يوم ٣ شعبان سنة ١٢٤١ (١٣ مايو سنة ١٨٢٦)

«هناك جزيرة صغيرة تسمى (دولمه) تقع على مسافة نصف ميل من جزيرة أنداليكوس القائمة فى الناحيه العربية من حصن مسلنك وعلى مسافة ٣ ساعات منه. ولما كان الكفار قد لاحظوا أن جزيرة (دولمه) هذه إذا ما حصنت عزز تحصينها مراكزهم فى أنداليكوس فقد أقاموا فى (دولمـه) طابيات ركزوا فيها ٦ مدافع ووضعوا هناك نحو ٣٠٠ من رجالهم للدفاع عن الجزيرة، والواقع أن الجزيرة القائمة بالقرب من أنداليكوس من شأنها أن تعزز مركز أنداليكوس وتحميها على نحو ما اتضح من معاينة موقعها، ولذا فقد رؤى وجوب الاستيلاء على دولمه هـذه تمهيداً للاستيلاء على جزيرة أنداليكوس

وفى ضحى ذاك اليوم تحرك مولانا السر عسكر من مقر الجيش فى طريقه إلى المكان المقصود

ولما أن وصل الروم إيلى والسر عسكر المظفر ومن فى معيتهما من العساكر المنصورة إلى نقطة هناك وجدوا أن القائد البازارجيقلى وعساكره قد تخلفوا فى مكان وعر المسالك تكتنفه المستنقعات وكانوا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وهنا أخذ السر عسكر المشار إليه

يستنفر العساكر بصوته الداوى ويحرضهم على مهاجمة الكفار فاندفع الجميع نحو الجزيرة يخوضون عباب الماء والطين . ولما أن أصبحوا على مقربة من الجزيرة راح الكفار يطلقون عليهم نيران المدافع والبنادق وكانت العساكر فى زحفها على الجزيرة قد اجتازت ٣ مستنقات وتوقفت عند المستنقع الرابع القريب من إحدى طابيات الكفار على أن ثمة قوة من عساكر الجهادية كانت تتقدم إلى الأمام وكان عساكر الأناضول وعساكر كريد قد نصبوا أعلامهم عند آخر المستنقع الثالث وأوشكوا أن ينهزموا فى حين كانت عساكر الجهادية التى تتقدم إلى الأمام تقاتل بروح الشجاعة والبطولة وتضحى بنفوسها فى سبيل الدين والدولة

على أن عساكر « الروم » الأنضول وعساكر كريد كانوا إذ ذاك على وشك الانهزام . وقد تخلفوا عن تتبع عساكر الجهادية وحاولوا أن يعودوا إلى ناحية البر . وما أن لمح منهم ذلك السرعسكر المظفر حتى امتشق حسامه وصاح بالقوم : لست أنا الذى يولى الأدبار يوم القتال إنما أنا من ترونه يخوض غمار الوغى بين الدم والوحول . ثم نزل عن صهوة جواده وتقدم نحو الماء الموحل حتى غاص فيه إلى عنقه وأخد يضرب بسيفه بعض العساكر الذين أرادوا العودة إلى البر ويقوى قلوب أهل الإسلام ويحثهم على مقاتلة الكفار

ويعلن أن الذين يتقاعدون عن مقاتلة الكفار ان ينجوا من سيفه .
فثارت الحمية فى نفوس العساكر واعتمدوا على الله وعلى ما وعد به أهل الإسلام من نصر حيث قال :(وكان حقا علينا نصر المؤمنين) واستمدوا العون منه سبحانه وتعالى ومن روحانية نبيه الذى خاطب الله بقوله : (حرض المؤمنين على القتال) وهتفوا جميعهم : الله . الله واقتحموا الماء فى طريقهم إلى الجزيرة . وبعد أن تخبط معظمهم فى الأوحال واعتمد البعض الآخر على السباحة بلغوا شاطىء الجزيرة .
وفى تلك الآونة كان حسين بك الذى عهد إليه بمهاجمة الجزيرة من ناحية البحر قد وصل بالمراكب التى تقل عساكره إلى مسافة ٥٠ خطوة من طابيات الجزيرة وأخذ يصلى الكفار نيران المدافع والبنادق ويبث الرعب فى قلوبهم . وإذ ذاك أبدت العساكر القادمة من طريق البر روح البسالة وساعدتها القوة البحرية فى القتال . وتقدم الأغا الجوقدار السالف الذكر من الناحية اليمنى بينما زحف البكباشى عثمان أغا من الناحية اليسرى وهاجموا متاريس الكفار واستولوا عليها .
وعلى أثر ذلك خرجت إلى الجزيرة جميع القوات الزاحفة عن طريق البر والبحر .وأمعنت فى قتل الكفار الذين انهزموا شر هزيمة وكان عددهم ٣٠٠ كافر فلم ينج منهم سوى ٢٠ كافر إذ أن أكثرهم لاقوا حتفهم داخل متاريسهم والبعض الآخر ألقى بنفسه فى الماء من شدة

وعبهم على أمل أن يصلوا إلى جزيرة أنداليكوس ، ولكن العساكر تلقتهم بالحراب حيث ذهبوا الى الجحيم . وهكذا تم والحمد لله فتح هذه الجزيرة .

وكان دولة السر عسكر المظفر يرغب فى الاستيلاء على أنداليكوس هذه إلا أن الغزاة كانوا فى حالة تعب من جراء ما لاقوه من الصعوبة فى فتح جزيرة دوله . وكان لا بد لهم والحالة هذه من الراحة سيما أن الوصول إلى جزيرة أنداليكوس يحتاج الى قوارب ومراكب كثيرة . ولذا أرجىء ذلك الى فرصة أخرى . وقد كتب دولة الباشا السر عسكر إلى دولة محرم بك سر عسكر الأسطول المصرى بشأن هذه القوارب والمراكب المطلوبة لهذه الغايه . وعلى أثر ذلك جمع دولة محرم بك جميع قبطانات السفن التى فى معيته وخاطبهم بقوله : إن هذه المهمة لهى من أجل الخدم التى تقدم للدين المبين المحمدى وللسلطنة السنية فاذهبوا لتضحوا النفس والنفيس فى سبيل الحضرة السلطانية وتبدوا منتهى الشجاعة والإقدام . ولقد أدت به حماسة إلى إرسال قبطان السفينة احسانية التى يركبها وقبطان السفينة ثريا معهما نحو ٣٠ فلوكة وهى مزدانة بالأعلام ومشحونة بجميع لوازم الحرب حيث تولت هى وقوات حسين بك ميرالاى ٨ جى بيادة سالف الذكر تطويق جزيرة أنداليكوس من جميع

جهاتها وراحت تضيق الخناق على الكفار الذين هالهم أمر هذه القوات وأدركوا ألا حيلة غير التسليم ، فأرسلوا يطلبون منحهم الأمان . . . »

وفى هذه الوثيقة تتضح روح الامتثال التى كان عليها الجيش المصرى ، وما كان لقائده الكبير من بسالة ونفوذ وقد انتهت المعارك بالاستيلاء على الحصون التى كانت تحمى مسيولونجى وقفل نوافذ البحر ، فبدأ دور العمليات البرية وتشديد الحصار على المدينة فلما تم له ذلك دعا القائد المصرى الحامية إلى التسليم حقنا لدماء لا موجب لإهدارها وإبقاء على منشآت يفضل بقاؤها ، ولكن أهل المدينة — وكانوا مشهورين بالبسالة وحب التضحية — رفضوا ما عرض عليهم وآثروا المـــوت على التسليم ولذلك استمر الحصار وشدّد المصريون على المدينة حتى إذا نفدت المؤن التى كانت القوات المحصورة تعتمد عليها ولم يعد فى الإمكان وصول مؤن أخرى تعرضت المدينة لخطر الجوع وانهارت المقاومة الحربية فطلبوا التسليم على أن يخرجوا بأسلحتهم وعتادهم — فرفض ابراهيم ذلك العرض أكثر من مرة ولذلك أجمع اليونانيون أمرهم على الخروج للقتال وكان عدد سكان المدينة تسعة آلاف منهم ثلاثة آلاف قادرون على القتال ومع ذلك اتفقوا ، مدفوعين بشعور حمية قلما

يوجد له نظير فى التاريخ أن لا يبقوا احيـــاء وأن ينتظروا مجىء الأعداء فيجعلون أنفسهم بأنفسهم طعمة للنيران .. »

وأخيراً استقر رأى المدافعين على البدء بالأعمال التعرضية فخرجوا لصد قوات الحصار عن معاقلهم ، فقابلهم هؤلاء بنار حامية شردت جموعهم وحصدت غالبيتهم فارتدوا على أعقابهم وتفرقوا والتجأ بعضهم إلى مستودعات الذخائر ومراكز الدفاع فتمسكوا بها رافضين التسليم مؤثرين الموت على الأسر فعبروا بذلك عن روح وطنيه جبارة وتقاليد عسكريه مجيدة

وانتهت مسيولونجى إلى يد ابراهيم الفاتح فى ٢٣ ابريل ١٨٢٦ بعد قتال عنيف ودماء مراقة وتخريب وتدمير أصبحت المدينة بعدها أطلالا وقد فقد الجيش المصرى ألف قتيل بينما فقد الثوار ستة آلاف ... وبعد هذه الواقعة الكبيرة ارتد إبراهيم باشا إلى المورة وشرع يعد العدة للقضاء الأخير على الثورة اليونانية التى طال أمدها

ونظرت أوروبا لاهثة وهى ترقب الانتصارات المصرية المتوالية وراعها ما حل بالبلاد اليونانية وأهلها من تدمير وهزائم فلا يمض الوقت حتى يذهب ذلك « الشعب الاغريق » وتسقط اليونان مضرجة بدمائها فيتحكم فيها « الهلال » .. وراح دعاة إنقاذ

أبناء الحضارة القديمة يستصرخون الرأى العام ويحثون أوروبا على الوقوف فى وجه الفاتح المصرى الذى شهّر به فى دعاياتهم ووصف بأنه Atilla الذى يستبيح الدماء ويخرق حرمة القوانين

وكان سقوط ميسولونجى بمثابة فتح الطريق إلى أثينا ثم القضاء على البقيـــة الضئيلة الباقية من المقاومات ، ولذلك ازدادت درجة الاستفزاز وبدأت الحكومات تتقدم بخطوات ثابتة إلى جانب الحركة الثورية

وقد خطت دول أوروبا خطوة صريحة إلى جانب الثوار حين سقطت ميسولونجى وكانت الحركة الاستقلالية قد صادفت تأييدا لم تسمح الظروف السياسية بإظهاره من الناحية العملية وكان المناصرون للثورة من الكتاب والشعراء ورجال الدين يثيرون الهمم ويستصرخون الرأى العام لمساعدة اليونانيين وإنقاذ أبناء الحضارة الإغريقية

وقد بدأ التدخل الروسى فى سنة ١٨٢٥ عند ما تولى نقولا الأول عرش روسـيا وخشيت انجلترا أن يكون لتدخل روسـيا ما بعده لإقامة نفوذها فى بلاد البلقان فرأت أن تدلى برأى فى الموضـوع وتفاهمت الدولتان على الحلول المعقولة. وقد تمخضت المباحثات فى يناير ١٨٢٦ عن تعهد يضمن لبلاد اليونان نوعا من الاستقلال المقيد ترعاه إنجلترا وروسيا وأن يكون فى اتفاق ولنجتون - نسلرود مجال

لتوقيع ممثل فرنسا، وكأن الدول أخذت تتنافس لنيل شرف الدفاع عن اليونان وكان القضاء المبرم الذى أصاب اليونان فى معركة الأكروبولس (عقب ميسولونجى) قد عجل بوضع الاتفاق فعقدت معاهدة لندن فى ٦ يوليو ١٨٢٧ وفيها رأت الدول الثلاث التدخل فورا فى المسألة اليونانية على أساس استقلال اليونان داخليا مع استمرار تبعيتها لسلطان تركيا وطلبت إلى الجانبين وقف القتال .. وقد اتخذ هذا القرار فى الوقت الذى كانت حالة الثوار تدعو إلى اليأس وتشرف بهم على التسليم فأحدث ذلك تأثيرا معنوياً رائعاً بينما قوبل بخيبة أمل وأسف لدى الباب العالى .

ثم جد جديد فى المسألة اليونانية بسبب ما حدث من تنازع بين زعماء الثورة وانقسام الثائرين شيعاً وأحزابا فضربت الفوضى أطنابها واستعرت نار الحرب بين كل زعيم وزعيم وأخذت الأحزاب المتنافسة تتراشق بالمدافع فأريقت الدماء وشاعت الفوضى وعم البلاء ولم تعد فى اليونان سلطة معترف بها بل صارت مباءة للقتلة والمتهورين والقرصان .. وواجه إبراهيم هذه القوى المجرمة التى حرقت كل موانيه مقرراً أن يقضى عليها بغير شفقة وأن يشن حرب المدنية على القرصنة وأعمال التدمير والإتلاف

وكانت إنجلترا وفرنسا وروسيا قد انتهت إلى خطة مشتركة

ترمى إلى التدخل بين تركيا واليونان ولذلك طلب إلى الفريقين إيقاف القتال على قاعدة استقلال اليونان الداخلى مع بقاء السيادة التركية وعرضت الوساطة على الباب العالى حتى إذا رفضها كان للدول المتفقة على معاهدة لندن أن تبدأ التدخل العملى وتباشر استخدام القوة أزاء ذلك الرفض وكان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا لهذا التدخل فاستمهلوها شهراً وقرروا استخدام القوة فأبحرت أساطيلهم إلى ميناء اليونان وأنفذت انجلترا أسطولا مكونا من ١٢ سفينة بقيادة الأميرال كودرنجتون إلى بحر الأرخبيل ثم لحق به أسطول فرنسى مكون من سبع سفن تحت قيادة الأميرال ريني ثم قدم الأسطول الروسى وعدده ثمانى سفن بقيادة الأميرال هيون وتولى القيادة العامة للأساطيل الثالثة الاميرال الانجليزى كودرنجتون وقد اتخذ مراكزه بين جزيرتى هياوترميا ولكن ذلك لم يمنع وصول الحملة المصرية الجديدة إلى أهدافها رغم المحاولات التى أريد بها منع ذلك الوصول

وكان محمد على قد أرسل حملة جديدة فائقة القوة كثيرة العتاد إلى بلاد المورة أقلعت من الأسكندرية فى أوائل أغسطس ١٨٢٧ بقيادة الأميرالاى محرم بك وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و١٦ سفينة تركية و ٤ سفن تونسية و٦ حراقات و ٤٠ مركبا لنقل الجنود وكانت الحملة مؤلفة من ٤٦٠٠ جندى وقد وصلت هذه التجريدة

الضخمة إلى ميناء نفارين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ مع أسطول تركى آخر تحت قيادة الأميرالاى طاهر باشا فانتظما مع القوات الأخرى التى يتولى إبراهيم باشا قيادتها العامة فى البر والبحر

ولما أخفقت خطة الأساطيل المتحالفة فى منع الحملة المصرية من الوصول إلى نفارين رأى القائد العام أن تنقل هذه الأساطيل إلى ذلك الميناء لإملاء شروط الحلفاء على إبراهيم باشا وفى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧ وفد رسول الأميرال كدرنجتون لإبلاغ إبراهيم باشا مطالب الحلفاء طبقا لمعاهدة لندن وما تقرر من وقف القتال ومنع القوات من القيام بأى عمليات حربية أو بحرية

وقد نظمت عدة اجتماعات اتفق فيها قواد الأساطيل المتحالفة على أن يوضحوا لإبراهيم باشا قرارات الحلفاء وما تنطوى عليه من خطر ماحق لقوته إذا لم يؤخذ بها ويروى المؤرخون أن إبراهيم كان ثابتا رزينا فى مقابلاته وأحاديثه وأنه كان موضع الإعجاب فلم تأخذه الرهبة ولم يضعفه إجماع ثلاث دول عظمى على مناوأته وإنما اختط طريقا يليق بفطانته السياسية ولا ينقص شجاعته وتقاليده العسكرية فأرسل إلى الآستانة والقاهرة يطلب رأى أصحاب الرأى وبقى هو فى ميدانه جنديا باسلا ينتظر الأمر فيصدع به فورا

وقد جاء فى مذكرة أمير البحر سير إدوارد كودرنجتن عن

الاجتماع الذى عقد فى نوارين مع إبراهيم باشا يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٢٤ ما يأتى : بدأ أميرا البحر حديثهما بأن قالا لإبراهيم أنه على أثر المعاهدة المعقودة بين انجلترا وفرنسا وروسيا أصبح واجبا مفروضاً عليهما أن يمنعا جميع الإمدادات التى ترسل بطريق البحر ضد بلاد اليونان . . . وقرءا له بالتفصيل ما عندهما من التعليمات فأجاب إبراهيم بأن أميرى البحر يعرفان من غير شك أنه جندى مثلهما وأن إطاعة الأوامر فرض واجب عليه كما هى فرض واجب عليهما وأن الأوامر التى لديه تحتم عليه أن يهاجم وأن واجباته مقصورة على العمل فقط وليس المفاوضة ولذلك يفوض الرأى لرئيسه الأعلى

ولم يفت إبراهيم ما تنطوى عليه نيات الحلفاء وخططهم فقد لاحظ أنهم يقصدونه دون اليونانيين ويفرضون عليه من التعليمات والأوامر ما لا يفرضون على أعدائه ، فلم يكونوا حكاما صادقين وكان سوء النية ظاهراً فى تصرفاتهم فقد تركوا اليونانيين أحراراً فاستمروا على أعمالهم العدائية فاستفحل أمرهم وأخذوا يهاجمون الحاميات المصرية ، فالهدنة التى أرادها الحلفاء قد أصبحت بينهم وبين ابراهيم أما اليونانيون فقد استمروا على فعالهم المنافية للهدنة وحاول ابراهيم باشا أن يحول دون وقوع الكارثة فكان يشكو إلى

الأميرال كدرنجتن فلم يلق إجراء فعليا من جانبه كما ذكر للأميرال ريني « أنكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال، وفي الوقت نفسه تتركون الأروام يفعلون ما يشاءون، أن هذا ليس من الانصاف في شيء »

وكان إبراهيم باشا مخلصا في تنفيذه لشروط الهدنة ولم يفكر في نقضها قبل أن ينقضها أعداؤه فلما يئس من عـدالة المراقبين وخشي على قواته التي يهاجمها الثوار، أنفذ حملة إلى باتراس لإنقاذ الحاميات المصرية فأرسل كدرنجتون انذاراً إلى إبراهيم باشا فاضطر للعودة إلى نفارين حيث جاءت اليه أوامر محمد على باشا بالتزام خطة السلم وتجنب التحرش والاصطدام حتى تصل التعليمات النهائية من الاستانة، ولهذا قرر إبراهيم باشا اتخاد خطة الدفاع في نفارين

وقد أجاب أميرا البحر أنهما يدركان ما يشعر به رجل شجاع مثله في هذه الظروف وذكراه بأنه إذا خرج إلى عرض البحر متحديا تحذيراتهما الودية فأنهما مضطران إلى تنفيذ ما لديهما من الأوامر فأجاب إبراهيم أنه يتعهد بوقف جميع العمليات الحربية التي تقوم بها القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الاسكندرية حتى يتلقى رداً من الآستانة والاسكندرية، ووضع يده على صدره وقال

إنه وعد مقدس غير إننى لا أرى من العدل أن تفرضا علىّ ذلك وتسمحا لليونانيين بأن يواصلوا أعمالهم العدائية .

.. وتوجد نقطة دقيقة فى هذه المذكرة كانت سبب أحداث جسيمة فيما بعد وهى ناتجة عن سوء فهم فقد كان إبراهيم باشا يعتقد أن ما حرم عليه هو استخدام قوات « حملة الاسكندرية » وبذلك رأى أن له الحق فى أن يعالج المواقف الناشئة باستخدام أى قسم من قواته عدا « القوات البرية والبحرية المكونة لحملة الاسكندرية ...»

هذا بينما فهم أمير البحر البريطانى أن الاتفاق يشمل جميع السفن التركية والمصرية

ولذلك فعندما بعث ابراهيم باشا ببعض قواته فى كلماتا وأخذ يستعد لمهاجمة مانيا أرسل اليه أمراء البحر الثلاثة أن « هذه الأعمال تناقض شروط الهدنة التى وعدتم سموكم بشرفكم أن تحافظوا عليها ... »

أما ما حدث بعد ذلك فكان موقعة نوارين

فى العشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٢٧ دخلت سفن الأساطيل الثلاثة المتحدة ثغر نوارين

وكانت السفن المصرية والتركية مصطفة فى ثلاث قولات

يتكون منها أنصاف دوائر حول مدخل الميناء، وكانت بعض السفن الحقيقية من قادفات اللهب تشترك فى الخطـــة الدفاعية من استحكامات نفارين وبطاريات المدفعية

وانقضى يوم ١٩ أكتوبر وقد تم فيه وضع الخطة لاقتحام البوغاز (وتدمير العمارتين المصرية والتركية) ومرت ثلاث بوارج إنجليزية ثم استقرت فى الأماكن التى عينت لها فأرسل الأميرالاى محرم بك قائد الأسطول المصرى رسولا إلى البارجة آسيا (مركز قيادة أمير البحر البريطانى) يطلب إلى كودرنجتون أن يمنع أساطيل الحلفاء من الرسو فى نفارين فأجابه قائد الأساطيل أنه لم يأت ليتلقى أمراً بل ليلقى أوامره

ورست مراكب الحلفاء فى مواجهة المراكب المصرية والتركية ولم يعد هنالك ما ينقذ الموقف من كارثة جلى

وكان أسطول ابراهيم أكثر عدداً ولكن أقل استعدادا فقد كان لديه ٦٢ سفينة مقابل ٢٧ للحلفاء ولكن قوة الضرب والتفوق فى النيران والقيادة كانت فى جانب الحلفاء الذين كان لهم فى المعركة عشر بوارج مقابل ثلاث للمصريين، وقد تم لسفن الحلفاء دخول المرفأ وإحكام الحصار حول أسطول إبراهيم

ويقول الأميرال كودرنجتون فى تقريره عما حدث يوم ٢٠

أكتوبر ١٨٢٧ « لقد أمرت بأن لا يطلق مدفع من سفننا إلا إذا أطلق الترك مدافعهم أولا ، وقد مرت البوارج الإنجليزية أمام البطاريات ورابطت فى أماكنها من غير أن تقوم بعمل عدائى ولكن لما أرسلت البارجة دارتموت قاربا من قواربها إلى إحدى الحراقات أصيب الملازم فتزووى وبعض بحارتها بطلقات من بنادق الأعداء فأجابت البارجتان دارتموت ورسيرين بإطلاق نيران دفاعية من البنادق على العدو وعلى أثر ذلك أطلقت إحدى البوارج المصرية قذيفة من أحد مدافعها على سفينة القائد فرد عليه بالمثل ولم يمض إلا قليل من الزمن حتى حمى وطيس القتال واشتركت فيه جميع السفن .. »

وحدثت معركة طاحنة تجاوب فيها الطرفان الضرب العنيف واستعر القتال فى ذلك الميدان الرهيب فأصبح أتونا من نار وانقلب البحر دركا سحيقا تدفن فيه السفن والرجال واستمرت المعركة أربع ساعات لا يهدأ لها أوار ثم خيم الهدوء وانقشعت سحب الدخان ثم انفرج الموقف عن هزيمة تامة للقوات التركية المصرية التى خسرت جميع مراكبها وخسرت ثلاثة آلاف قتيل وعددا من الجرحى فى مقابل ٤١٠ من الحلفاء بين قتيل وجريح

وقد حارب المصريون ببسالة فائقة مع أنهم فوجئوا بالحرب وعلى الرغم من تفوق الأعداء عليهم وسابق خبرتهم فى الحروب

وكانوا كلما جنحت منهم سفينة وعجزت عن القتـال أشعلوا النار فيها حتى لا تقع فى أيدى الأعداء ، وبذلك فقدت مصر أسطولها العزيز بعد ما تكبدت فى سبيل تكوينه ماتكبدت من وقت ومجهود وأموال

وكان إبراهيم باشا بعيداً عن الميدان حينما حدثت هذه المعركة المشئومة وسمع بما حل بأسطوله بسبب خطأ موبق وفى هذا دليل على أنه كان أمينا على تنفيذ عهده فلم يستعد لمحاربة الحلفاء وإلا لكان على رأس أسـطوله فى القتال ولما غاب عن نوارين فى ذلك الوقت العصيب .

وعلى الرغم من هذه الكارثة التى إصابت الأسطولين المصرى والتركى فإن تركيا لم توافق أو تسلم بوجهة نظر الحلفاء وأصرت على رفض مطالبهم وطالبت بتعويض ما حدث لأسـطولها فلما وقفت ذلك الموقف العنيد من الحلفاء أعلنت روسيا عليها الحرب وأرسلت فرنسا جيشاً لإجلاء المصريين والترك عن اليونان

وقد انتهت الحرب الروسية التركية بعقدمعاهدةأدرنه التى سلمت فيها تركيا بمعاهدة لندن فاعترفت باستقلال اليونان استقلالا داخليا مع بقاء السيادة الرسمية لتركيا . . ثم انتهى الفصل اليونانى من موضوعنا

أما إبراهيم باشا فعلى الرغم من الأسى الذى شعر به أزاء نكبة أسطوله فإنه لم ير فى ذلك مدعاة لإنهاء القتال ، فأرسل إلى محمد على

ينبئه بأمر الكارثة البحرية وأنه يعمل على تلافى آثار الهزيمةويستعد لمواصلة القتال ، وقد طلب إرسال المدد لا سيما السفن ، وكان جيشه فى ذلك الوقت ١٢ ألف جندى نظامى ، وأربعة آلاف غير نظامى وألف فارس ومؤن تكفى أربعة أشهر

وكان سليمان باشا قد احتل تريبولتزا وكان إبراهيم يتقدم نحو كاليبوبوليس دون أن يعنى بالمسائل الدبلوماسية فقد كان يراها من اختصاص والده ومن اختصاص السلطان ، أما هو فكان جندياً يعرف أن واجبه هو القتال بشجاعة وإلى آخر طلقة

أما محمدعلى باشا فكان دائم الاتصال بنبض أوربا الدبلوماسى يباحث السفراء ويدرس نيات الدول المتحالفة ، وخرج من مباحثاته ومشاوراته بضرورة الكف عن القتال بعد ما فهم من نيات البلاد المتحالفة وبعد ما حلت الكارثة بأسطوله وانقطعت المواصلات البحرية بأيدى الحلفاء فلم تعد ثمة مصلحة للاستمرار فى الحرب كما أنه لم يجد اضطراراً إلى التقيد بسياسة تركيا والسير فى ركابها ، فقد جاءت الفرصة المواتية ليتفق مع الحلفاء رأساً ولكى يصبح لمصر المستقلة مركز شهير وقدتم الاتفاق بين الحلفاء ومحمد على فى أغسطس سنة ١٨٢٨ على إخلاء المورة تحت الشروط الآتية :—

(١) يتعهد محمـــد على بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر

(٢) يتعهد الأميرال البريطانى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية التى أسرت

(٣) تخلى الجنود المصرية المورة وينقلهم محمد على بسفنه إلى مصر

(٤) تترك الحرية لليونان المقيمين بمصر فى البقاء أو العودة

(٥) لا يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى المورة عددا من العساكر يزيد عن ألفين ومائتين للمحافظة على مودون وكورون ونفارين وباتراس وكستل توريره أما المواقع الأخرى فتخلى فوراً

وقد تم تنفيذ هـذه الشروط وعادت القوات المصرية فى شهر أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد هذه الحملة المجهدة والقتال والفعال الحربية الخالدة والمتاعب والضحايا والنفقات

وإذا كانت مصر قد خسرت فى حملة اليونان ثلاثين ألفاً من الجنود وأنفقت ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت أسطولها البحرى فقد كسبت مركزا دوليا معترفا به ، وفاوضت الدول المتحالفة رأساً بغير وساطة تركيا ، وظهرت شخصية مصر الدولية وأصبحت دولة مستقلة فعلا عن تركيا خصوصا بعد اتفاقية أغسطس سنة ١٨٢٨ وهى أول وثيقة تحدد مركز مصر السياسى فى عهد محمد على



الحرب السورية الأولى

انتهت حملة بلاد اليونان بعد حرب مريرة وجهود مضنية وانكسار بحرى ودماء مراقة ، وانتهت بغير مكافأة كريمة من الباب العالى للرجل الذى ضحى برجاله وأسلحته ومعداته لخدمة تركيا وإنقاذ سمعتها ، ولم يزد نصيبه مقابل ذلك كله على إسناد ولاية كريت إليه وهى جزيرة ثائرة لا سبيل إلى إخضاعها ولا نفع من السيطرة عليها

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد بل كان واضحاً أن العلاقات التركية المصرية لا تخلو من أسباب الخداع ، فكان السلطان يغار من قوة محمد على التى كانت فى ازدياد ، وكان وهو يدفع به إلى ميدان الحرب اليونانية إنما يرمى — إلى جانب الاستفادة من معاونته — إلى شغله فى تلك الحرب عن الاستمرار فى تنمية قوته ، وإلى تدمير جزء من قواته ومعداته ، كما كان يترقب الفرصة التى يسدد فيها ضربته فيقصيه عن حكم مصر ويتخلص من منافسته نهائياً

أما محمد على فقد ذهب المؤرخون إلى ناحيتين فى تحديد أهدافه فرأى البعض أنه كان يشعر بفساد أداة الحكم فى تركيا وأن حكما

كهذا مآله الانهيار وساءه أن يقضى على هذه الأمبراطورية الإسلامية فتمنى أن يحل محل السلطان وأن يسيطر على هذا الملك الواسع حتى لا تتصدع أركانه أو يضعف شأنه ، ويقول أصحاب هـذا الرأى أن محمد على كان يتمنى ذلك ولـكنه كان ضعيف الأمل فى تحقيقه لأن حالة الضعف كانت قد تسربت إلى عمق لا رجاء معه فى إنقاذ الأساس من التآكل والانهيار

هـذا بينما يرى عدد من المؤرخين أنه كان يحلم بأمبراطورية مصرية فتيـة تستند إلى القوة وتضم مصر وبلاد العرب وسـوريا والسودان فتحتل بذلك مكان تركيا فى الوجود وتظفر بمكانة دولية عالية وتساهم بنصيب ملحوظ فى سياسة العـالم وتقف إلى جانب الدول الأوروبية الـكبرى

ولا غرو أن طمح محمد على إلى ذلك فقد كان يشعر بضعف تركيا وفساد أداة الحـكم فيها وكان شـديد الثقة بقدرته وكفاية رجاله وصلاحية النظم التى أدخلها فى حكم مصر ومهـارة جيوشه وقواته البحرية وخبرته بالسياسة والحرب ، وكان يرى أن حدود مصر الطبيعية يجب أن تـكون عنـد طوروس وكاشف السلطان بذلك وطلب اليه أن يمنحه ولاية سوريا جزاء لمـا بذله من تضحيات فى حروب المورة فلم يجبه السلطان الى طلبه ، فلم تعد هناك مندوحة من

الالتجاء إلى سيفه ، ولم تكن الحرب اليونانية قد أضعفت عزيمة محمد على مع ما خسر فيها من قوات وعلى الرغم من تدمير أسطوله ولكنه كان حاكما بصيراً وقائدا حكيما أخذ فى زيادة جيشه وبناء أسطول جديد بهمة عالية ... وأصبح الجيش والأسطول جاهزين فى خريف ١٨٣١

ولم تكن فكرة ضم سوريا إلى مصر وليـــدة تلك الفترة التى أعقبت الحرب اليونانية ولكنها كانت مطمحا قديما لمحمد على منذ ثبت فى ولاية مصر وقضى على الخصوم وانتهى من الارتباكات الداخلية حتى أن بعض دوائر الآستانة كانت تظن أن حملة محمد على إلى بلاد العرب قد تخترق الصحراء إلى سوريا بدلا من الحجاز

كما ثبت فيما أورده المؤرخون أن محمد على قد طالب بهذه الولاية فعلا أثناء حربه فى بلاد العرب وكانت حجته فى ذلك حاجته إلى الإمدادات لإنهاء الحرب الوهابية ، وقد ذكر قنصل فرنسا فى مصر فى تقرير بعث به إلى حكومته عام ١٨١١ « أن محمد على يطمع فى ولاية سوريا وقد قال يوما أنه لا يستبعد أن ينالها مقابل مبلغ من المال يدفعه لخزانة السلطان » كما ذكر الدكتور كلوت بك فى مذكراته « إن ضم سوريا كان ضرورياً لصيانة ممتلكات الباشا ، فمنذ تقرر فى الأذهان إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل تفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر .. »

وقد ظل محمد على ينتهز الفرصة حتى جاءت بأكثر من وجه يدفعه إلى العمل وأكثر من سبب يدعوه إلى امتشاق الحسام

وكانت تركيا قد خرجت من الحرب اليونانية ثم من الحرب الروسية مقصوصة الجناح فقدضاعت بعض ممتلكاتها وتقلص نفوذها وزادها ضعفا ما طرأ على حالة الجيش التركى من انحلال بعد إلغاء فرقة الإنكشارية

لم يكن أهل سوريا محبين للحكم العثمانى بل كانوا يتمنون الخلاص منه لكثرة ماعانوا من المساوىء والمظالم وبذلك لم يعد يضرهم تغيير ذلك الحكم ، بل إن رجال لبنان وأمراء نابلس وطرابلس كانوا يعضدون محمد على وكانوا عونا له فى غزوته الكبرى ...هذا من ناحية الأطماع والتصميمات ، أما السبب المباشر فقد كان وحده كافيا للشروع فى ذلك الزحف على سوريا والانتقام من عبدالله باشا بسبب موقفه العدائى من محمد على

وكان لمحمد على يد سابقة على والى عكا فقد سعى إلى تثبيته فى الولاية حين غضب عليه السلطان ، ولكنه لم يحفظ ذلك الجميل وكان رجلا كبير المطامع قوى النفوذ ، يستقل بولايته ويمد سلطانه إلى فلسطين ويسعى لضم ولاية الشام وينافس محمد على فى أطماعه وبذلك بذرت بذور الشقاق ولم يعد الموقف يتسع لهما معا

وقد طلب محمد على من والى عكا دفع ١١ مليون قرشا وإعادة المهاجرين من مصر وعدم السماح بالهجرة إلى عكا فرد عليه عبد الله ردا جافا تحدى فيه محمد على بل شهر السيف فى وجهه وجاء فى رده « إنى مثلك وزير لمولانا وليس من حق أن أمنع الرجال المخلصين لمولانا المعظم من الانتقال من مصر إلى الشام» وبذلك وضحت نيات حاكم عكا ولم يعد من سبيل لتلافى الحرب

وفى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٣١ تحركت الحملة فقاد إبراهيم باشا يكن الجيوش البرية فى طريقه إلى حدود سوريا بينما تحرك الأسطول المصرى من الاسكندرية حاملا إبراهيم باشا سر عسكر الجيش ومعه أركان حربة وقوة من الجيش وعدد من المدافع والمؤن والذخيرة . فى الطريق إلى ثغر يافا ، وكانت حملته على سوريا مؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل وأسطول مكون من ٦ سفن حربية و١٧ سفينة نقل تحت إمرة الأميرالاى عثمان نور

وفى حيفا التقت الجيوش البرية بالحملة التى جاءت عن طريق البحر وأعدت قاعدة التحركات العسكرية وبدأ منها الشروع فى الزحف على عكا .

واتخذ إبراهيم حيفا معسكرا عاما لقيادته وجعلها قاعدة العمليات وهناك انضمت إليه قوات العرب التى كانت مترددة بين الفريقين ،

كما انضم إليه رجال الدين من المسيحيين — وقد كان لهم نفوذ كبير في الشام ، ويرى بعض المؤرخين أن هذين العاملين السياسيين كان لهما أثر في فتح الشام لا يقل عن أثر العمليات الحربية

وبلغت القوات المصرية أبواب عكا ، المدينـــة ذات الشهرة الحربية الذائعة التي صدّت نابليون وانفردت بشهرة الثبات أمامه وقد جعلها عبدالله قلعته الحصينة وزادها مناعة وقوة وجعل فيها ٣ آلاف مقاتل يدافعون دفاع المستميت

وقد أرسل سر عسكر الجيوش المصرية إلى والى عكا يطلب اليه إجلاء النساء والأطفال قبل أن يبدأ هجومه على المدينـة فلم يستمع عبدالله الى ذلك ، وكان إبراهيم قد ضرب نطاقا حول المدينة منذ السادس والعشرين من نوفمبر وبدأ يشدد عليها الحصار برا وبحرا ، وأمطرتها مدفعية السفن ومدافع الميدان بوابل من قنابلها فجاوبتها مدافع الحصون بنار مماثلة وأصيبت فى ذلك القتال عدة سفن مصرية فتراجعت الى الإسكندرية وانتفت المحاولات التى أراد بها إبراهيم باشا أن يأخذ المدينة عنوة واستعصت عليه طيلة ثلاثة أشهر . .

أما تركيا فكانت تنظر الى هذه الحملة باستياء فقد أقدم محمد على عليها دون أن يرجع إلى السلطان ، فأرسل إليه السلطان مندوبا يطلب اليه عدم الاستمرار فى الزحف وأن يوقف الأعمال الحربية فورا فتظاهر

محمد على بالطاعة وأخذ يماطل فى الجواب بينما كان إبراهيم ينهب الأرض بجيوشه ويشدد الحصار على عكا فلم تر تركيا بدا من مقابلة ذلك الاعتداء بمثله فأرسلت جيشا قوامه عشرين ألف مقاتل تحت قيادة عثمان باشا والى طرابلس وعهدت إليه رفع الحصار وأصدر السلطان أمرا يرمى فيه مصر بالمروق ويعلن حصار ثغورها وأصدر فى الرابع من مايو فرمانا بتجريد محمد على من ولاية مصر وإباحة دمائه ودماء إبراهيم باشا

وكانت أقوى الهجمات على المدينة تلك التى شنها إبراهيم باشا فى التاسع من شهر مارس سنة ١٨٣٢ فهز بها قلاع المدينة دون أن ينال منها منالا ، وزاد الموقف سوءاً تقدم الجيش العثمانى لتخليص عكا وفك حصارها فاستقر رأى إبراهيم على ترك قوات كافية لتثبيت المحاصرين بينما يزحف بمن بقى ليواجه العدو الآخر قبل أن يصل إلى ميدان المعركة

على أن ذلك الجيش الذى أنفذه السلطان تحت قيادة عثمان كان قد مُنى بما يشبه الهزيمة فى طرابلس حينما هاجمها ثم رد على أعقابه فعاد إلى محاصرتها والضغط عليها ، وكاد أمرها ينتهى اليه لولا أن بادر إبراهيم إلى نجدتها وأسرع فى زحفه الموفق عليها فارتدت عنها قوات العثمانيين

وكأنما كان إبراهيم يلقى الرعب فى نفوس أعدائه وكأنما كان اسمه وسمعة جيشه بشير الفوز فى حملاته فقد انسحبت القوات التركية وأمعنت فى انسحابها ، ولم يندفع إبراهيم فى إثر هذا الانسحاب قبل أن يتزود بحاجات جيشه من الميرة والذخيرة فعاد إلى بعلبك ، وفى الطريق عاد الجيش لتركى الى مهاجمته ، فانقض عليه إبراهيم فى سهل الزراد وأصابه بضربة قاصمة

والتكتيك الذى اتبعه إبراهيم فى هذه المعركة جدير بالتسجيل والملاحظة فقد ظهرت فيه ضروب المهارة ومخادعة العدو ودقة الترتيبات ، ذلك أن الجيش المصرى اصطف فى صفوف متوالية ، أما مدفعيته فقد نظمت خلف جنود المشاة حتى لا يشعر العدو بمكانها وعند ما تقدمت قوات الأتراك مطمئنة إلى أنها تهاجم المشاة فحسب أخذت المدافع تطلق نيرانها الرهيبة بين دهشة المهاجمين الذين أذهلتهم المفاجأة وحصدتهم النيران وتلقوا هزيمة مكدرة تفرق على أثرها شملهم وضاعت مقاليد الأمور من أيديهم فارتدوا نحو حماة ..

وأخذ إبراهيم يرسم الخطة للأعمال المقبلة ، وتأتيه العيون بالأخبار فعلم أن عثمان باشا قائد القوات التركية قد أرسل فى طلب الإمداد من الآستانة فلا يمكنه معاودة القتال قبل شهرين .. وإذن فليتجه إبراهيم إلى عكا وهو مطمئن أن جيش عثمان باشا لن يلحق به ...

وفى ٢٣ مايو سنة ١٨٣٢ عاد إبراهيم إلى عكا فشاد حولها حلقة من قوات الحصار براً وبحراً فترددت وتزلزلت أركانها ولحظ القائد العام منها ذلك فشهر سيفه وهدّد كل جندى يحاول النكوص على عقبيه برمى عنقه ثم دفع بالجنود الى الأمام وما زال بهم حتى اتخذ لهم مكانا فى الثغرة . . وجاء المدد وبينما كان القسم من العساكر يصد العدو بإطلاق البنادق عليه كان القسم الآخر مشتغلا بإنشاء استحكام للدفاع ، وحدثت على أثر ذلك معركة طاحنة، وكان الطرفان يقاتلان ببسالة وحمية ويتبادلان المواقع ، واستمر القتال طول اليوم ثم تراخت قوات الدفاع وجنحت الى الاستسلام بعد أن ذاقت مرارة الهزيمة ولاقت جم الخسائر فكفت عن القتال وسلم عبد الله المدينة فى المساء

وبذلك وقع حدث تاريخى فإن هذه البندقة التى استعصى كسرها على نابليون قد سحقت فى يد إبراهيم فلا عجب أن ذاعت شهرة الواقعة وأعلت قيمة الفاتح ونشرت صفحة تمجيد وفخار للجيش المصرى

وقد كان سقوط عكا هزيمة مكدرة للسلطان فأدرك ما تتعرض له أملاكه وهيبته من خطر حين تتقدم جيوش مصر ويكتب لها النجاح فى غزواتها ولهذا قرر أن يجابه الموقف بأقصى ما يستطيع من قوة فحشد جيشا كبيرا مكونا من ستين ألف وأسطولا ضخما

قوامه خمس وعشرون سفينة وعهد بالقيادة العليا إلى سردار أكرم « حسين باشا » القائد الكبير ووعده بولاية مصر وكريت إذا قهر محمد على وخلّصه منه إلى الأبد

وفى أوائل شهر يوليه ۱۸۳۲ كان الجيش التركى قد بلغ أنطاكية وهناك بدأ وضع الخطط وتنظيم العمليات الحربية، وقد استقر رأى القيادة على أن يتقدم جزء من الجيش بقيادة محمد باشا والى حلب لكى يتجه إلى حمص فيعسكر بها ويحصن قلاعها

وأرسل إبراهيم باشا عيونه وأرصاده لتأتيه بالأخبار فاذا هو واقف على أسرار الخطة التركية وعالم بأمر القوة التى تتخذ حمص مركزا دفاعيا فوضع خطته فورا وكانت تقضى بالتقدم إلى حمص والإجهاز على القوات الموجودة فيها ثم التقدم إلى الشمال لمهاجمة بقية الجيش العثمانى.

وكان الجيش المصرى حين وصل إلى حمص وواجه معسكرات الأعداء يبلغ ثلاثين ألف مقاتل، وهناك كانت أوضاع الفريقين على النحو الآتى:

الجيش التركى يتخذ مواقعه جنوب البلدة فى ثلاث صفوف ، يشتمل الصف الأول على جنود المشاة والثانى من المشاة والفرسان والصف الثالث من جنود غير نظامية، وكانت المدافع تحمى أجناب هذه الصفوف

واتخذ الجيش المصرى مواقعه فى مواجهة الجيش التركى على ثلاثة صفوف أيضا يشتمل الصفان الأولان على جنود المشاة تحف بهم من اليمين واليسار قوات من الفرسان بينما انتظمت خلفهم فى صف ثالث قوات احتياطية من الفرسان والمشاة تحمى أجنابها من فرسان العدو ، أما المدافع المصرية فوضع قسم منها فى الأمام ، بمجموعة فى الوسط ومجموعة فى اليمين وأخرى فى اليسار ووضعت بمجموعة بين الصفين الثانى والثالث

وهذه الأوضاع والخطط إنما تنبىء بنتيجة المعركة سلفا فهى تحدث بالدقة فى الترتيب والقدرة فى وضع الخطط والكفاية فى القيادة وزاد عن ذلك أن المبادأة كانت فى يد إبراهيم باشا الذى سارع إلى العمل وأمر بالهجوم قبل خصمه ، فقاد كتائب الفرسان فى حركة التفاف ممتازة حول ميسرة الأتراك فشتت ذلك الهجوم فرسان الأتراك وأنزل بهم هزيمة قاصمة ثم تقدمت قوات من المشاة المؤيدة بعدد من المدافع واشتركت مع الفرسان ضد فرسان الأتراك فأنزلوا بها هزيمة منكرة هذا بينما هجمت المشاة فى الوسط وحطمت قوة ذلك الجناح فارتد إلى الوراء ارتداداً مضطرباً عاثراً وتخلى عن مواقعه

ثم تحركت قوة من ميسرة الجيش المصرى فاتخذت مكانا

جديداقبالة ميمنةالأتراك وقطعت الطريق عليهاوثبتت قواهاوحجزتها عن العمل وبهذازاد الموقف سوءاً على الأتراك وانفلت زمام الأمور من أيديهم وكانت المدافع المصرية تدمر مواقعهم وتسحق قواتهم، وأخيرا تولى قائدهم إجراء عملية يائسة إذ استجمع قوته فى هجمة قدّر لها الإخفاق التام ونجم عنها هزيمة مريرة وخسائر بالغة فحلت الكارثة الحقيقيــة فى المعركة وتراجعت القوات التركية أو فرت على غير هدى بعد اندحار مشين، وقد بلغ عدد الأسرى ٢٥٠٠ وأخذ الجيش المصرى ٢٠ مدفعاً وجانبا كبيرا من الذخائر والمهمات وانتهت المعركة ودخل إبراهيم باشا حمص واحتلت قواته حصونها ولم يحدث من القوات التركية المنهزمة أى هجوم مضاد وبذلك صار مفهوما أن هزيمتها كانت كاملة

وقد أحصيت خسائر الجيش العثمانى بألف قتيل و ٢٥٠٠ أسير أما خسائر المصريين فى المعركة فكانت ١٠٢ قتيل و١٦٢ جريح وتعد معركة حمص أول معركة كاملة خاض غمارها الجيشان المصرى والعثمانى بكامل الاســـتعداد والأسلحة، فكانت بذلك نصراً للقوات المصرية ونظمها وأسلحتها وقيادتها وكفايتها الحربية

وعاود إبراهيم باشا التقدم بقواته وكان هدفه هذه المرة حلب واحتل فى طريقه حماة ودانت له أورفا وديار بكر ثم استمر فى زحفه

حتى بلغ مواقع العثمانيين فى بيلان وذلك فى ٣٠ يوليوسنه ١٨٣٢

وكانت قوة الأتراك فى بيلان تشتمل على ٤٥ ألف جندى تشد أزرهم مدفعية كبيرة تضم ١٦٠ مدفعاً، وترابط فى مواقع منيعة، غير أنها كانت تفتقر إلى الروح المعنوية بعد ما لحق العثمانيين من هزائم مريرة، أما الجيش المصرى فكان ثملا بخمر النصر يكسب الوقعة بعد الوقعة ويتقدم فى غزوة موفقة لا قبل لأحد بدفعها ...

وفى ذلك اليوم ٣٠ يوليو بدت أوضاع الفريقين كما يأتى : —

الجيش التركى بقيادة حسن باشا يحتل قمم الجبال فى بيلان وهى مواقع دفاعية جيدة تتحكم فى طرق الاقتراب وتستر الجنود وتغطى ميداناً جيداً للضرب وتعوق تقدم المهاجمين وتخفى المدافع عن الخصوم

وكان الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا يحتل السهل المنبسط وقد نظمت الصفوف فكان المشاة فى الصف الأول ثم المدفعية ثم الفرسان وأخيراً الاحتياطى من الأسلحة والذخيرة والمهمات

ويعطى ذلك فكرة عن مناعة المراكز التركية التى لم تتوفر لدى الجيش المصرى وهو محتشد فى أرض مكشوفة واضحة الأهداف وهنا تظهر براعة القائد فى تكييف موقفه ووضع خططه وتظهر كفاية الجنود فى تنفيذ هذه الخطط وكسب معركة عنيفة أخذ العدو بأغلب مميزاتها

وكانت قلة جنود إبراهيم باشا تقضى بالالتفاف من الجنب لأن الهجوم بالمواجهة يعرض القوات المهاجمة للنيران البعيدة التى تطلقها المدفعية والتى تقذفها بنادق الجنود المحتمية بالصخور والمختفية فى مواقع القتال .

وهذا الالتفاف الجانبي يحتاج أيضاً لتثبيت قوات الوسط وشغل قوات الميسرة عن العملية الجارية فى الميمنة ولهذا أنفذ إبراهيم بعض قواته من المشاة والفرسان المؤيدة بالمدفعية وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة ، وهى العملية الرئيسية ، وقد أوجد لها احتياطيا كافيا ، هذا بينما أنفذ قوات أخرى لتثبيت الوسط وشغل بقية قوات العدو

وعلى الرغم من صعوبة التحركات فى هذه البقاع الجبلية ، وما كان يكتنف العمليات من مصاعب جمة وشدائد هائلة ، وعلى الرغم من تعرض الجبهة المصرية إلى رصاص الأعداء ونيران مدافعهم فإن العملية استمرت فى نجاح حتى بلغت أهدافها ووصلت الجنود إلى الأماكن التى تبدأ منها الهجوم ، وبدأ القتال ، ولم يمض وقت طويل حتى تراخت قوات الدفاع وزلزلت المواقع فانجابت عنها الجنود التى استهدفت لنيران المدفعية ورصاص الضاربين المهرة ، هذا بينما بدأ الهجوم فى الوسط وارتدت فرسان الأتراك وتفرقت على غير هدى وأصاب الجناح الأيمن مثل هذه الهزيمة حين سلط عليه الهجوم ؛

فانهزمت قوات العثمانيين بصفة نهائية وأمعنت فى الفرار بعد أن ذاقت انكساراً حربيا مراً.

وفقد الأتراك فى هذه الوقعة ٢٥٠٠ بين قتيل وجريح وغنم المصريون ألفى أسير و ٢٥ مدفعاً وعدداً من الأسلحة والذخائر ودخلت القوات المصرية «بيلان» ثم اجتازت حدود سوريا الشمالية إلى أدنة ومنها بدأ إبراهيم يستعد للزحف فى الأناضول.

وبينما كان الجيش المصرى يشهر هذه الحرب الراعدة على الجيش العثمانى كان الأسطول المصرى يجوب البحار باحثا عن غريمه، وقد ذكر القنصل النمسوى فى تقرير بعث به إلى مترنخ فى ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٢ «إن تفوق أسطول محمد على على أسطول الأتراك أمر لا شك فيه فإذا نظرنا إلى مصير الحرب من هذه الناحية لم يخالجنا الشك فى أنها ستكون وبالا على الأتراك»

على أنه لم يحدث اشتباك بين الأسطولين، فبعد تردد طويل عاد كل منهما إلى قواعده سالما

وبعد موقعة بيلان أحس السلطان بقلق متزايد عما سيأتى به المستقبل ولم يشأ أن يستسلم لتلك الهزائم التى ذاقتها قواته فى سوريا وسارع إلى إعداد جيش كبير عهد بقيادته إلى خيرة جنده الصدر الأعظم محمد رشيد باشا الذى وضع تحت تصرفه ٥٣ ألف

مقاتل ، ولكن هذا الجيش الكبير كان مصابا ببلاء عدم التجانس إذ كان خليطا يفقد الرابطة ويفتقر إلى القوة المعنوية

وكان إبراهيم ينهب الطريق فاتحا غازيا فاستسلمت له أورفا وعنيتاب ومرعش وقيصرية ثم مضيق كومك فى جبال طوروس وشفت خان وأولو قشلاق وهرقلة ، حتى بلغ مشارف قونيه بمجهودات بسيطة ، وهناك كان لابد من وقفه لإراحة الجنود وإعادة التنظيم ودراسة المكان ريثما توضع الخطط على أساس ما يعرف من نيات العدو وتدابيره

وفى صبيحة يوم ٢٠ ديسمبر كانت قوات رشيد باشا قد أشرفت على الميدان واتخذت أماكنها على سفوح مدينة سيلة ، على مسافة ثلاثة آلاف متر من مواقع الجيش المصرى ، الذى كان يرابط شمال قونيه وترتكن ميمنته على أرض بها مياه راكدة ، مثلما كان نابليون يفعل بوضع قواته على مركز استناد . .

وكان ذلك اليوم ـ ٢٠ ديسمبر ـ من الأيام الشديدة البرودة التى يكتنف جوها ضباب كثيف يحجب الرؤيا ، فلا تكشف مواقع الطرفين ، وقد تقدمت قوات الأتراك حتى صارت على مسافة ستمائة متر من مواقع المصريين ، ولم يشرع إبراهيم باشا فى هجومه قبل أن يتحقق من مواقع الأتراك التى كشف عنها ضرب المدفعية . . ثم قام باستطلاع شخصى من نقطة قريبة واستطاع أن يتعرف الى أوضاع

خصمه وأن يصل إلى مكان الضعف فى دفاعاته . . . ثم شرع يسدد ضرباته بمهارة فائقة

وقاد إبراهيم باشا بنفسه الجيش المؤيد بقوات من الفرسان ثم هاجم ميسرة الترك هجوما أيدته المدفعية بنيرانها المتواصلة وحطم ذلك الهجوم قوات الأتراك وأزالها عن مواقعها وهى تعانى هزيمة نكراء واضطرابا خطيرا ، وبعد قليل بدأ الهجوم العام وأحدقت القوات المصرية بجيش الأتراك وحاربته حربا لاهوادة فيها حتى كلت قوته وحاقت به هزيمة كاملة بعد سبع ساعات رهيبة

وهكذا انتهت وقعة قونية بنصر حاسم للقوات المصرية فقد أصيب الجيش التركى بضربة مرنحة أفقدته القدرة على المناورة وأضعفت همته كقوة مقاتلة ، وقد أسر فى هذه الموقعة قائد الجيش التركى وعدد من كبار ضباطه مع خمسة آلاف آخرين كما فقد نحو ثلاثة آلاف بين قتيل ومفقود ، هذا مقابل خسارة محدودة نسبيا فى الجانب المصرى وهى ٢٦٢ قتيلا

ولهذا تعد موقعة قونية من المواقع الفاصلة فى تلك الحقبة من الزمن ، فقد كانت آخر محاولات الأتراك لدفع غزاة أراضيهم وأصبح طريق الآستانة مفتوحا أمام إبراهيم باشا لا تعترضه قوات ذات شأن ... وأضحى النصر النهائى قريب المنال

وأخذت جيوش إبراهيم الفاتح تتقدم فى سوريا وهى تخوض معركة بعدمعركة وتسحق جيشا إثرجيش وكأنما كانت تطوى بساط الدولة العثمانية طيا نهائيا وتفتتح عهداً جديدا فى الشرق الأدنى، وقد استرعت انتصارات الجيش المصرى أنظار الدول الاوربية فبدأت تتدخل لتحقيق مطامعها الخاصة وتنفيذ مآربها الذاتية

وأرسل السلطان مندوبا لمباحثة محمدعلى فى ترك صيدا وطرابلس والقدس ونابلس تحت التبعية المصرية، ولكن محمد على رفض هذا العرض، وكان — وهو يتكلم بلسان الظافر — يرى أن تضم سوريا وولاية أدنة إلى مصر، وبذلك تكون جبال طوروس هى الحد الطبيعى بين مصر وتركيا

وقد رفضت الدولة العثمانية اقتراح محمد على الذى كان يضمن السلام وفضلت أن تلجأ إلى روسيا كى تستعين بها، ولم تتأخر هذه عن انتهاز الفرصة الذهبية فسارعت بتوجيه أسطولها الى البسفور وإرسال قوة عسكرية على الفور

ولكن نشاط الفرنسيين كان على أشده، فسعى كل من سفير فرنسا فى تركيا وقنصلها العام فى الاسكندرية سعيهما المشهور، بينما كان إبراهيم باشا من ناحية، والجنرال الروسى من ناحية أخرى يجدان فى السير نحو الآستانة

وقدهددت انجلترا وفرنسا محمد على باستخدام القوة مالم يستمع الى رأيهما فى الاتفاق مع السلطان ، وتبودلت الرسائل فى هذا الشأن غير أن حديث الكتب لم ينته الى نتيجة ، أما السيف فكان أصدق إنباء . . ذلك أن ابراهيم وثب بقواته وثبة جريئة فاحتل كوناهية وصار يهدد الآستانة ، فأرسل السلطان مندوبا للصلح ، وهو مصطفى رشيد بك ، وكان يصحبه مندوب من السفارة الفرنسية ليقرّب بين الفريقين ، وقد انتهت المباحثات فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ ، وأسفر « صلح كوتاهية » عن تخلى السلطان عن سوريا وإقليم أدنه لمحمد على مع تثبيته على مصر وكريت والحجاز

وبمقتضى هذه الإتفاقية انجلت الجيوش المصرية عن باقى بلاد الأناضول ، وصدر الفرمان العالى فى ٦ مايو بمضمون الاتفاق . .

وهكذا انتهت الحرب السورية بتقرير موقف مصر الدولى واتساع نطاق حكمها ، وصار محمد على يتحكم فى مملكة شاسعة تنتهى حدودها الشمالية عند جبال طوروس ، وبدأت مصر عهدا جديدا لإذاعة رغائبها فى الحياة وأخذ مكانها بين الدول العظمى .

غزو سوريا والأناضول

الحرب السورية الثانية

فى شهر مارس سنة ١٨٢٣ فُصل فى الحرب المصرية التركية بقوة السلاح وهزمت تركيا فطلبت إلى القائد المصرى شروطه لعقد الهدنة ، ولكن فى اللحظة التى وقعت فيها معاهدة كوتاهية بدأ عهد نقض الوعود التى قطعت ، وانتهى الأمر بتركيا إلى عقد معاهدة سرية مع روسيا أطلق عليها اسم « هنكار أسكلة سى » وهى معاهدة للمعاونة المتبادلة يتعهد فيها الطرفان بأنه فى حالة الاعتداء على أحدهما فإن الطرف الآخر يقوم فى الحال بإنجاده بصفته حليفا وقد أعطت هذه المعاهدة لروسيا حرية المرور بين البحرين وإستخدام البواغيز مع إغلاقها فى وجه الدول الأخرى ، فهذه المعاهدة - التى تنقص من السيادة التركية - إنما كانت رداً يملؤه التحدى على اتفاقية كوتاهية وإنذاراً بنقضها مهما كان الثمن الذى تدفعه تركيا

أما عن الجانب المصرى فقد قدمت مصر كل دليل على اعتزامها الوفاء بتعهداتها وانصرف إبراهيم إلى إخماد الثورات - التى كانت الأيدى المغرضة تحركها - وإلى تهيئة البلاد لعهد جديد تنعم فيه بالحرية

والإصلاح والرقى ... فتركيا كانت العازمة قبل كل شيء على إعادة فواجع الحرب ولم يبد من جانبها أى دليل على المسالمة بل أنها كانت تساعد الثوار وتبذل الوسائل المختلفة لمعارضة الحكم المصرى فى سوريا وتعد العـــدة لنقض تعهداتها والعودة بجيش زاحف للثأر وإستعادت ما تنازلت عنه فى وقت هزيمتها الحربية ولذلك وُصفت معاهدة كوتاهية بأنها صلح مزعزع الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات ، وأوجدت تركيا بتصرفاتها ما يفرض على القائد المصرى الاستعداد لكل طارىء فإذا ظهر أن تركيا غير جادّة فى تنفيذ تعهداتها فإن الجيش المصرى ينهض ويقاتل . . وقد أثبت المؤرخون لأى مدى بعيد كان السبب فى عود التطاحن من جديد الى التدخل الأجنبى وإلى تقصير الأتراك فى فهم روح مصر الحديثة

ولماظهرت بوادر الخلاف وظهرت أمارات الاستعداد والتحرش رؤى الالتجاء إلى الوسائل السلمية فجرت محادثات لم يقدر لها أى نجاح فقد كانت اليد الأجنبية تلعب دورها وتعكر الماء حتى يصبح صالحاً للصيد وشجّع ذلك تركيا على المضى فى خطتها ولذلك لم تسفر المفاوضات عن شيء ولما اتسعت الهوة لم يجد محمد على بدأ من إعلان الاستقلال حتى يقطع الخيط الأخير الذى يربطه بتركيا واستدعى لذلك وكلاء الدول وأعلنهم بقراره فى شهر مايو سنة ١٨٣٨

وفى يناير سنة ١٨٣٩ عقد السلطان مجلساً حربيا واستقر رأيه على إعداد ٨٠٠٠٠ جندى بقيادة حافظ باشا، للزحف على الشام وبذلك انقضى وقت التسوية الملفقة وشرعت القيـادة المصرية فى الاستعداد، بعد أن فعلت كل ما تستطيع فقد تمكنت الدول من التأثير على السلطان وتحريضه على مقاتلة محمد على

أما رأى والى مصر فى ذلك الوقت فقد أعلن عنه بهذه الكلمات القليلة المبنية على حسن التقدير ومضاء العزم « إننى لا أرغب فى الحرب وان أقدم على عمل عدائى ولكنى أطلب الاستقلال ولن أتخلى عن هذه الغاية . . »

فلما تطورت الحالة وشرعت تركيا فى الأعمال العدائية لم يعد سبيل للرد على العنف إلا بالقوة والعنف فأخذت القيـادة المصرية تعد عدتها وتحصن مناطق الحدود وتقيم القلاع وتصنع المدافع حتى تم سد مضايق جبال طوروس وتأمن على باب سوريا من ناحية الأناضول وقد فطنت القيادة التركية إلى صعوبة هذا المنفذ فغيرت خطتها واستعد قادتها لوضع خطط حربية ترمى إلى الزحف من جهات أورفة وديار بكر حيث لا تقع المواقع الطبيعية فى طريق الجيوش وأزاء هذا رأى إبراهيم باشا حشد قوانه فى حلب لمراقبة تحركات الأتراك وصد هجماتهم، وجعل طلائعه تسد مشارف عينتاب وكايس

وغيرها من البلاد المشرفة على الحدود .

ووصلت نجدات من مصر وعلى رأسها أحمد باشا المنكلي وزير الحربية موفداً من قبل محمد على باشا لمعاونة ابراهيم فى الخطط المنتظرة ، وقد عارضت الدول فى سفر وزير حربية مصر فى ذلك الوقت المشحون بكهرباء العداوة بين مصر وتركيا ، غير أن هذه الدول لم تستطع أن تتعهد لمحمد على باشا بأن الجيش التركى لا يزحف على الشام ولذلك أنفذ وزيره على الفور ومعه التعليمات اللازمة

وقد شرع الجيش التركى فى الزحف فعلا وأخذ قسم منه بقيادة اسماعيل باشا يعبر نهر الفرات يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ واحتشدت طلائع الترك فى قرية نصيبين وأخذت فى احتلال القرى واجتياز الحدود المرسومة فى اتفاقية كوتاهية وعند ذلك تحركت القوات المصرية من حلب ودخلت بلدة تل باش يوم ٣ يونيو دون أن تقع معركة ، هذا بينما دخل الأتراك عنيتاب التى انجلت عنها حاميتها مقهورة .

ولا يغيب عن البال أن ابراهيم باشا قد أجل تحركاته إلى آخر وقت ممكن حتى لا يكون البادىء بالعدوان وحتى تصله أوامر صريحة من والده وفى الفترة التى سبقت بدء القتال تبادل القائدان الرسائل

دون أن يقف النشاط الحربي حتى وصلت الحالة الى مرحلة الخطر وجاء إلى إبراهيم باشا الأمر من والده ، بعد طول الانتظار وفيه يقول : —

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبرى كلما زاد عدونا إيغالا في بلادنا فعلينا أن نرد هجومه بمثله ولما كان العدو هو المعتدى فان الدول لن تلقي التبعة علينا ... ونصيحتي اليك أن تبادر عند وصول رسالتي بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا أرضنا وأن لا تكتفي بإخراجهم منها بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله ... »

وكان الأتراك قد شرعوا في تحصين نصيبين * التي وضع تصميم دفاعها قائدان بروسيان هما فون مولتكه وفون ملباخ ، فكان معسكر الاتراك عند سفح التل الذي يجرى عنده نهر كوزين (كرسيم) وهو من نهيرات الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى ، فيصبح ذلك النهر حائلا بين الجيشين

---

* يوجد خلاف في التسمية : نصيبين المشهورة التي دارت فيها رحى المعركة هي القرية الواقعة على الطريق الموصل بين بيرة جك والأسكندرة وتسمى « نزيب » وهي غير نصيبين التي بالجزيرة .

أما خطة ابراهيم باشا فكانت شيئا جديد فى الفن الحربى يعبر عن مهارة القائد العظيم فى المواقف العسيرة فقد رأى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتذاك ويسير مخترقا قرية مزار (جنوب غربى نصيبين) فى أثناء الليل ثم يدور لمواجهة العدو من من الجنب تجاه قرية كرد قلعة ، وبذلك قلب الخطة التركية البروسية وجعلها ضد أصحابها وبذلك كانت خطة ابراهيم باشا مما لا يساير البديهيات والمبادىء الرسمية الشائعة وإنما كانت من طراز خاص يتطلبها موقف خاص وقد وصفها إيميل فنترينيه بأنها كانت وميضا من العبقرية إذا نجحت وأوهاما من عقل متعب إن أخفقت

وقبل أن نتحدث عن سير القتال يجدر بنا أن نذكر شيئاً قوات الطرفين وأوضاعها ، أما عن الناحية العددية فكان الجيش المصرى مؤلفاً من ٣٧٦٧٣ من المشاة و٦٧٧٥ من الفرسان و٥٦٢٥ من الطوبجية فيكون مجموع القوات ٥٠٠٧٢ من الضباط وضباط الصف والجنود وكان معهم ١٦٢ مدفعا وقد جاء فى بعض المصادر أن الجيش المصرى كان مؤلفاً من نحو ٤٠٠٠٠ مقاتل فى مقابل ٣٨٠٠٠ فى معسكر الأتراك ، فالجيشان كانا متقاربين من جهة العدد ، غير أن جميع المصادر قد شهدت بأن الجيش المصرى كان أحسن نظاما وأكثر دربة وأفضل قيادة كما أنه كان جيشا منتصرا ، قطع ١٠٠٠

معركة نزيب (نصيبين)

كيلو متر من طريق النصر ، وأصبح على قيد خطوات من المعركة الفاصلة فى سبيل حياة مصر ومستقبلها ومكانها فى الوجود ولا يُنس أن الجيش المصرى كان جيشا واحد أما الجيش التركى فكان خليطا لا تضمه رابطة واحــــدة وكانت قيادة الجيش المصرى معقودة لإبراهيم باشا ، البطل الفاتح ومستشاروه من رجال الحرب الممتازين وعلى رأسهم سليمان الفرنساوى واحمد باشا المنكلى واحمد باشا الدره ملى وعباس باشا طوسون وسليم باشا الحجازى وغيرهم

أما قيادة الأتراك فكانت معقودة للجنرال حافظ باشا وهو من أفذاذ المحاربين ، وكان مستشاروه من الضباط البروسيين المشهود لهم بالخبرة والجرأة وهم فون ملباخ والبارون مولتكة والجنرال وينكى والجنرال فيشه وكانت المعركة المنتظرة الوقوع هى القول الفصل فى هذه الخصومة التى طال مداها وقد أعرب سليمان باشا عن هذا الرأى بقوله : —

« إن الواقعة المقبلة ستكون معركة فاصلة ، فإما أن نذهب نحن إلى استنبول وإما أن يذهبوا هم إلى القاهرة »

وأخيراً جاء دور الجيوش وبدأت المعركة الكبرى

ففى يوم ٣٠ يونيو سنة ١٨٣١ وصل الجيش المصرى إلى قرية مزار ، وما أن ظهرت طلائع الجيش حتى أخذت القوات التركية فى

الانسحاب وإخلاء القرية التى كان يعسكر بها نحو ٥٠٠ جندى ولعل دخول الجيش المصرى كان مفاجأة الأمر الذى ألجأ الأتراك الى الانسحاب السريع تاركين معسكراتهم بأمتعتها ، فكانت أول غنيمة صادفها الجيش فى غزوته التاريخية

ثم بدأت عملية الاستكشاف وظهر أن الجيش التركى يرابط فى مواقع محصنة تعطيه الأفضلية وتضعف هجمات عدوه ، ولذلك رأى ابراهيم باشا أن يضيع على الأتراك هذه الميزة وذلك بأن يتحرك من الجنب دون أن يهجم بالمواجهة وقد اتخذت جميع التدابير المحكمة للفت نظر الأتراك عن الحركة الجارية حتى إذا انتهى الجيش إلى أمكنته الجديدة شرع قادته يعدون خطة الزحف والهجوم من الباب الخلفى ، الذى التفت اليه حافظ باشا أخيرا وأدار جيشه لمواجهته

وقد ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون نقلا ن أوثق المصادر ، أن العمليات قد بدأت فى يوم ٢٣ يونيو ، وأن نشاط الأتراك كان ملحوظا بجلاء فقد كانوا يشتغلون بجد فى إقامة حصون بسيطة وقتية ليضمنوا بها ستر واجهتهم الجديدة على قدر الإمكان

ورأى ابراهيم باشا أن ينتقل معسكره مرة ثانية ، حتى يلتف حول غريمه من جهة اليسار ، فتصبح خطوط الجيش غير متوازية ويصير الجناح الأيمن للجيش التركى أقرب للهجوم ، وبذلك تجىء

الضربة من الجنب الضعيف ولهذا احتل الجيش المصرى ربوتين صغيرتين تواجهان الجناح الأيسر للترك

واستعد الجيش المصرى للهجوم الحاسم ، وكان ضروريا أن يكون الجناح الأيمن قوياً فأضيف اليه قوة جديدة وعين لقيادته سليمان باشا وكان يتولى قيادة القلب أحمد باشا المنكلى والجناح الأيسر الميرميران عثمان باشا

وجاءت الساعة الحاسمة فأشار سليمان باشا إلى مدافعه فأرسلت وابلا من القذائف المبيدة فردت عليها الطوبجية التركية وتبودلت النيران بقوة وحماسة ، ثم قام سليمان باشا بحركة تجميع نيران المدفعية فدكّت مواقع الترك وحطّمت قواهم الدفاعية التى لم تستطع الثبات وأخذت تنسحب من مواقعها ، وتخلى كثير من الجنود عن مدافعهم وحدثت عدة انفجارات فى ذخيرة الجيش التركى فأوقعت الإرتباك وأضاعت مقاليد الموقف وتقدمت قوات المشاة من الجناح الأيمن لمهاجمة القوات التركية ولكن هذه أجابتها بنيران حامية فقضت على حركة الهجوم التى لم تكن قد نضجت بعد ثم صدر الأمر بالهجوم العام الذى أيدته نيران المدفعية ووقع ثقل الهجوم على الجناح الأيسر للقوات التركية وتحطمت مواقعه وحدث ارتباك كبير فى صفوف الأتراك ، وانسحبت وحدات كثيرة على غير هدى وضاع

زمام المعركة وانتهى القتال ، ووثبت القوات المصرية إلى نصيبين وسجلت نصراً باهرا بعدعملية حربية ممتازة

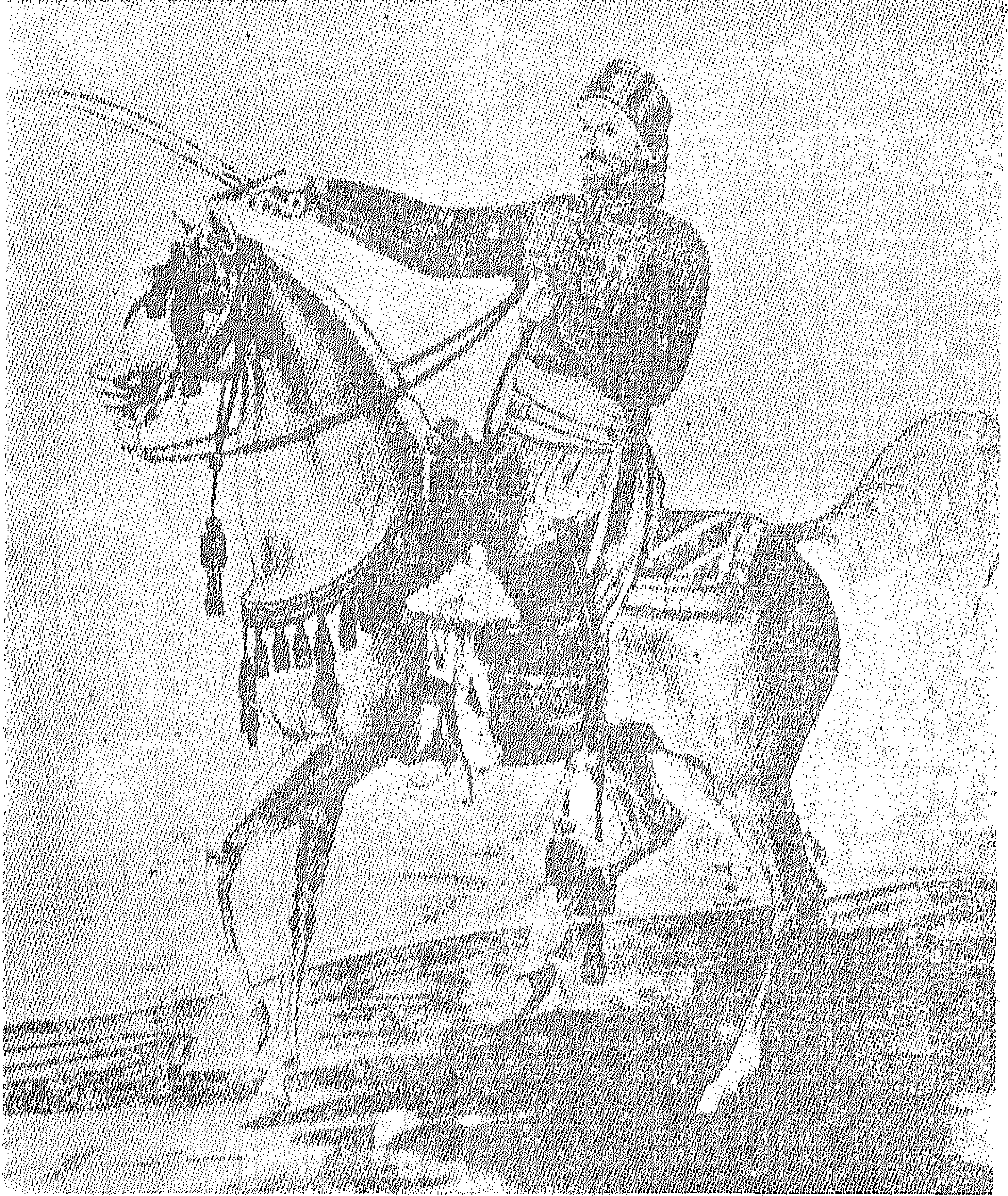
وكانت نتائج الإنتصار للجنود المصرية فى نصيبين عظيمة جداً من الوجهتين المادية والمعنوية وغنم المصريون ١٤٤ مدفعاً مع ذخيرتها و٣٠ مدفعا من مدافع الحصون و٢٣ ألف بندقية و١٥ ألف أسير هذا وقد فقد الأتراك ٣٠٠٠ قتيل و٦٠٠٠ جريح مقابل نصف هذا العدد من الجيش المصرى بين قتلى ومفقودين كما أن انتصار الجيش المصرى على الجيش التركى كان من الضروريات القصوى لإرهاب المزمعين على الثورة فى سوريا وجعلهم يخلدون إلى الطاعة وقد تحقق ذلك ولولاهم لانتهى حكم محمد على وجاءوا هم إلى القاهرة كما قال سليمان باشا ، وقد أورد الأستاذ عزيز خانكى نقلا عن أوثق المصادر أن عددا من الوثائق وجد فى خيمة حافظ باشا منها وثيقة تتضمن التعليمات والخطط التى وضعها السلطان لحافظ باشا وخلاصتها أن محمد على ينوى إعلان استقلاله فى صيف عام ١٨٣٩ فأوجب السلطان على حافظ باشا السرعة فى القضاء على جيش إبراهيم وحدد السلطان خمسة أشهر لطرد المصريين من الأناضول وسوريا والاستيلاء على عكا وحدد أحد عشر شهراً أوسنة لإتمام الإستيلاء على سوريا ومصر .

وذكر البارون فون مولتكه أن الجيش العثمانى خسر فى تقهقره خمس أسداس عدده كما خسر جميع مدفعيته

وبعد هذا النصر المبين أصدر إبراهيم باشا أمر أيوميا جاء فيه: (أخبركم بأنى هجمت على الجيش العثمانى فى نزيب ، وفى أقل من ساعتين استوليت على مدافعه وذخائره ومؤنه وقد قضى على الجيش كله وأنا أتابع سيرى ولا أقف أبدآ)

وبلغت أنباء المعركة إلى محمد على باشا فى برقية أرسلها حفيده عباس باشا وقد جاء فيها «بعد ساعتين فى قتال مع جيش السلطان استولى إبراهيم باشا على جميع مدافع وخيم ومهمات الجيش العثمانى »

وقد أمر محمد على باشا بإقامة الأفراح احتفالا بهذا النصر العظيم مدة ثلاثة أيام كاملة أطلقت فيها جميع القلاع وجميع سفن الأسطول مدافعها ابتهاجا بهذا الحادث العظيم ، هذا الحادث الذى وصفه الجنرال فيجان بقوله « إذا حكمنا على المعركة بنتائجها فإن معركة نزيب تعد بحق أكبر نصر حازه الجيش المصرى »



أحمد باشا المنكلى

جيوش محمد علي

انتهت معركة نصيبين « نزيب » بانتصار لامع للجيش المصرى الذى استمر فى تقدمه واحتل بيره جك وعنيتاب ومرعش وغيرها وكان الطريق سهلا بعد أن تحطمت قوات الأتراك وفقدت القدرة على المناورة والقتال وأخذ المراقبون يتوقعون إقتراب الخاتمة وانتهاء عهد السيادة العثمانية ، ولم يعد هناك ما يمنع إبراهيم من الفوز بالآستانة التى اقترب يومها وحان قطافها

وقد قضى رئيس الدولة التركية « السلطان محمود » إذ عاجلته المنية فى أول يوليو سنة ١٨٣٩ قبل أن تصله أنباء جيشه الذى تحطم فى معركة وحيدة وترك أبواب تركيا مفتوحة على مصراعيها .. أما خليفته السلطان عبد المجيد الذى ولى الحكم فى السابعة عشرة ، فلم يدر كيف يواجه هذه الظروف التعسة التى ألمت بعرشه وعاجلته فى بداية حكمه

وتوالت الحوادث المعكرة على السلطان الجديد ، فان اختيار خسرو باشا صدرا أعظم جرّ على السلطنة كارثة كبيرة ، ذلك أن أمير الأسطول العثمانى « أحمـــد فوزى باشا » كان من ألد أعداء

خسرو ، لحدثته نفسه أن يلوذ بالفرار حتى لا يظفر به عدوه وفضّل أن يقلع بالأسطول إلى مصر ويسلمه إلى محمد على ، رجل الساعة ، الذى دان له النصر وفتح له المستقبل ساعديه

وهكذا ترك الأسطول العثمانى موانيه فى الدردنيل يوم ٤ يوليو متجها إلى الإسكندرية فوصلها يوم ١٣ يوليو ، وأقبلت على الميناء عمارة ضخمة مؤلفة من تسع بوارج كبيرة وإحدى عشرة سفينة وخمس قوارب كروفت ، وعلى ظهرها ستة عشر ألفا من البحارة وخمسة آلاف جندى .. فاستقبلتها العمارة المصرية ، ودخلتا الميناء معا فى مظاهرة رائعة . .وهكذا فقدت تركيا جيشها وسلطانها وأسطولها فى ثلاثة أسابيع

وقد قلنا أن إبراهيم قد فتح باب الآستانة عند ما حطم قوات الجيش التركى ونكل بها فى نزيب ، غير أنه فتح بابا آخر أطلت منه الأطماع الأوربية وكأنما اجتمعت كلمة الدول العظمى على مناهضة محمد على وإضاعة ثمرات النصر من بين يديه ، وهى التى أحرزها بعد جهود مريرة ودماء متدفقة وآلام وتضحيات . . وأرسلت الحكومات مذكرة مشتركة إلى الباب العالى ، فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ لإبلاغه « إن الدول الخمس متفقة فيما يختص بالمسألة الشرقية وأنها تشدد فى ألا يتم صلح أو يبرم اتفاق مع محمد على ما لم توافق عليه الدول »

وقد تم الاتفاق بين « أصحاب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وإمبراطور النمسا وملك بروسيا وقيصر الروسيا » على تقديم المساعدة للسلطان في المحنة التي وقع فيها على أثر سلوك محمد على العدائي نحوه ، تلك المحنة التي عرضت سلامة الدولة العثمانية وعرش الخلافة للخطر ..

وهو الاتفاق الذى تضمنته معاهدة لندن « ١٥ يوليو ١٨٤٠ »

١ ـ أن تعمل الدول المتفقة بالتضامن على إرغام محمد على لقبول الشروط التي اتفق عليها

٢ ـ إذا رفض محمد على قبول الشروط التي سيعرضها عليه السلطان فعلى الدول ، بالاتفاق مع السلطان أن تتخذ التدابير الفعالة لتنفيذ شروط الاتفاق بواسطة قطع طريق الاتصال بين مصر وسوريا ومنع إرسال الأدوات والمؤن الحربية من البلدان وتنفيذا لذلك تصدر ملكة بريطانيا وامبراطور النمسا الأوامر اللازمة لأسطوليهما بالبحر الأبيض المتوسط لمساعدة رعايا السلطان الذين يظهرون ولاءهم وطاعتهم

أما القانون الخاص الملحق بالمعاهدة فهو : ـ

يعلن عظمة السلطان عزمه على منح محمد على الشروط الآتية :

١ ـ يتعهد السلطان بمنح محمد على وذريته من أولاده من بعده حكومة مصر ، وزيادة على ذلك يعد السلطان بمنح محمد على مدة

حياته حكومة جنوب الشام مع إعطائه لقب والى عكا وحكومة الحصن ويشترط السلطان لهذه المنح قبول محمد على لها فى مدى عشرة أيام بعد إعلانها اليه بواسطة مندوب عثمانى يرسله السلطان إلى الأسكندرية وبشرط إصدار التعليمات اللازمة بإخلاء شبه جزيرة العرب وجزيرة كريت وإقليم أطنه

٢ — إذا رفض محمد على الشروط المقدمة بعد عشرة أيام يسحب السلطان منحه حكومة عكا لمدة حياته ويوافق على إبقاء منحه الحق الوراثى فى حكومة مصر بالشروط المذكورة فى المادة السابقة

٣ — تعين الجزية حسب الشروط التى سينتهى محمد على بقبولها

٤ — يرد محمد على الأسطول العثمانى بكل أدواته ويسلم للمندوب العثمانى الذى سيعرض عليه الشروط دون أن يكون لمحمد على حق فى أى طلب من الباب العالى بخصوص تكاليف الأسطول مدة وجوده بمصر

٥ — جميع القوانين والمعاهدات النافذة فى الدولة تطبق على مصر وعكا كغيرها من أجزاء الدولة

٦ — القوات البرية والبحرية التى تكون لباشا مصر وعكا تعتبر جزءا من قوات الدولة

بالمرستون . نيومان . بولوف . برنوف . شكيب

وقد وقعت هذه المعاهدة وقعا سيئا بالنسبة لمحمد على غير أنه شرع من فوره فى الاستعداد للدفاع عن أراضيه وكون فرقا من الحرس الوطنى وتعهد القلاع بالإصلاح والتعمير واستدعى الجيش من بلاد الغرب ووحد الأسطولين المصرى والتركى وأعدهما للقتال

وأعلن محمد على رفضه لمعاهدة لندن، وشجعته فرنسا على ذلك الرفض، فلما انقضت الفترة التى حددتها المعاهدة تحركت أساطيل الدول وجيوشها، ونزلت قوات إنجليزية وتركية ونمسوية على سواحل سوريا وبدأت تتوغل إلى الداخل، فسارع إبراهيم باشا بمواجهتها ونشب قتال راعب بين الطرفين فى منتصف سبتمبر، واستطاع الحلفاء أن يقبضوا على زمام الموقف وأن يردوا قوات إبراهيم باشا مرحلة بعد مرحلة حتى سقطت فى أيديهم بيروت وصيدا، وفى نوفمبر سنة ١٨٤٠ سقطت عكا، وبدت الأمور تسير إلى نهاية سيئة، واشتد وقع الحصار البحرى الذى ضربه الحلفاء على الشاطىء، ولم يستطع إبراهيم أن يتراجع بسلام بعد أن تقطعت المواصلات واضطربت الأحوال بسبب ثورة الأهالى .. ومرت أيام مريرة لاقت الحملة خلالها شدائد لا حصر لها وانتهى الأمر بانسحاب القوات المصرية انسحاباً مضطرباً عاثرا، وغادرت البلاد السورية

وأخير اضطر محمد على إلى الموافقة على الصلح بالطريقة التى

اتفقت عليها كلمة الدول العظمى ، وهى تضمن حكومة مصر وراثية وصدر الفرمان بذلك فى فبراير سنة ١٨٤١ . وظفر محمد على بتثبيت عرشه وعرش أسرته فى مصر فوضع بذلك أساس مصر الحديثة ..

وعاد السيف إلى غمده ، بعد أن أدى واجبه ، وسجل صفحات مجد وفخار بسطور من الدم الذى أريق فى سبيل نهضة مصر وإعلاء رايتها وإبلاغها مكانا كريما بين الدول العظمى

وإنه لما يدعو للغبطة والفخار أن يعيـــد المصرى النظر فى هذا التاريخ القريب فيشهد أعمالا تملؤه إعجابا وثقه بأبناء وطنه الذين أثبتوا جدارتهم فى كل ميدان وحقهم فى مكانة دولية محترمة ، فخاضوا حروبا طويلة وانتصروا فى معارك فاصلة وواجهوا أعظم الدول شأنا وسجلوا فى قتالهم ضروب البسالة والبطولة حتى قال ثقة من عظماء المؤرخين « أن المصريين هم أصلح الأمم لأن يكونوا جنودا ... »

وقال البارون بوالكونت « إن المصريين خير من رأيت من الجنود ، إنهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد ، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الرضاء ؛ وقد رأيتهم فى قونية يبقون سبع ساعات فى خط القتال محتفظين بالشجاعة والبأس ... »

وقال كلوت بك فى كتابه « نظرة عامة حول مصر » : « لعل المصريين من أكثر الناس صلوحا واستعدادا لأن يصيروا جنودا

ممتازين، فهم على وجه العموم أشداء أقوياء البنية متصفون بالقناعة والجلد،
وقد أزاحت حرب المورة الغطاء عن أعين الترك الذين كانوا يحتقرون المصريين احتقارا شديدا ويزدرونهم فظلوا زمنا طويلا يعتقدون أنهم لا يعادلونهم كفاية، فعلمتهم هذه الحرب أن هذا الشعب الذى ضعضعته المظالم وحطت من قدره وزرعت فى قلبه المخاوف فى استطاعته أن يسترد مجده التالد وأن يقارعهم فى مواقف القتال،

ولعل خير ما فعله محمد على هو أنه لم يترك مسألة الدفاع الوطنى لتكون تحت رحمة الدول الاجنبية فقرر أن يجعل الإنتاج الحربى من صنع المصريين، فكانت الاسلحة والمعدات الحربية وأدوات القتال والذخيرة تصنع فى مصر وبأيد مصرية، وكان ذلك أمرا عجيبا حقا كما رآه المؤرخ الحربى المارشال مارمون، الذى أدهشته هذه النتائج فى بلد ليس فيه خشب ولا حديد، فلما زار هذه المنشآت العظيمة - أو كما قال - هذه المعجزة التى فوق الإدراك، رأى عمالا ماهرين لدرجة كبيرة ولم يكن تدريبهم مقتصرا على النجارة والحدادة والخراطة، بل إن بعضهم مهر فى الأعمال الدقيقة الفنية وآلات الملاحة كالبوصلة والمناظير والأجهزة المختلفة ... ،

وقد عنى محمد على بتنشئة الضباط والجنود تنشئة عسكرية ممتازة فأنشأ المدارس الحربية التى كان منها مايختص بالضباط ومنها ما يختص

بالاسلحة المختلفة كمدارس المشاة ومدارس المدفعية والفرسان والموسيق ، ولم يكتف بثقافة الضباط فى المدارس الحربية بل أنشأ مدرسة أركان الحرب، وكانت ثانى مدرسة أركان حرب أنشئت فى العالم

وقد ذكر كلوت بك إحصاء عاما للقوات المصرية البرية والبحرية النظاميه والاحتياطية سنة ١٨٣٩ فاذا هى :

الجيـــوش النظامية	١٣٠ر٣٠٢
« غير النظامية	٤١ر٦٧٨
الحرس الأهلى	٤٧ر٨٠٠
عمال المصانع المدربون	١٥ر٠٠٠
تلاميذ المدارس الحربية	١ر٢٠٠
جنود الأساطيل وعمال دار الصناعة	٤٠ر٦٦٣
المجموع	٢٧٦ر٦٤٣

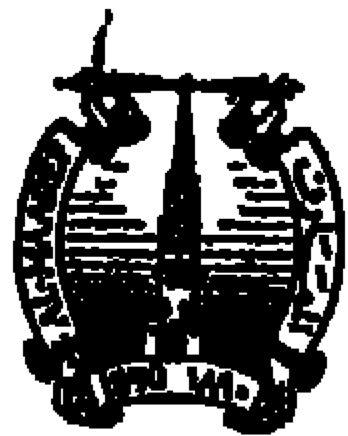
وهى أرقام تغنى عن الـكلام ! !

الفهرس

صفحة

أمين إبراهيم كحيل

العلم فى الحرب



ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

يملأ حديث الحرب الأسماع والأفواه ويطغى على كل ما عداه وقد شغلت وقائعها وآثارها الناس من كل طبقة وفى كل بلد. ومن الأخبار ما يترك الناس فى حيرة لما حواه من أمور هى عندهم أحاجى ومعميات ينطقون أسماءها ولا يعرفون كنهها. فالناس يسمعون عن الحرب الميكانيكية الآلية الخاطفة وعن المفرقعات وعن الغازات والألغام العائمة والمطمورة والممغنطة وعن الطائرات الخفيفة والضخمة والمطاردة وحاملة القنابل وحاملة الجند وغيرها. ولا يدركون مم صنعت وكيف تعمل أو بأية وسيلة يتقى شرها. فرأيت من واجبي بإزاء ذلك أن أتوجه للقراء بهذه البحوث، وقد توخيت فى كتابتها سهولة اللفظ وتنحيت عن أسلوب العلماء والتقيد بمصطلحاتهم، ولقد لمست فيها النظريات العلمية من سطوحها دون التغلغل إلى صميمها تاركاً كل ذلك للبحوث العلمية والكتب الدراسية. وأحسب هذا الكتاب هو الأول من نوعه

فى لغتنا العربية وإن كان فى اللغات الأخرى عديد من أمثاله لعنايتهم بنشر الثقافة العلمية بين أفراد الشعب لتنوير أذهانهم بموضوعات لا يمتاز بدراستها وتفهم أصولها وفروعها غير فئة قليلة مختارة فى كل أمة .

وإنى لكبير الأمل فى أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه . ولا يسعنى إلا تقديم واجب الشكر للأستاذ محمد سعيد العريان على تفضله بقراءة أصول الكتاب ومراجعته عند الطبع .

المفرقعـــات

أنواعها وصناعتها وآثارها

الكفاح فى سبيل البقاء والسعى من أجل العيش نصيب كل حى . وكل حى مصيره إلى الزوال ولا بد أن يدركه الفناء إما بعامل طبيعى كالمرض أو الهرم فى الحيوان مثلاً أو بتمام النضج فى النبات أو بعامل خارجى يؤثر فيه كأن يعتدى حيوان على نبات يلتهمه أو يغتال حيوان مفترس حيواناً لا يضارعه قوة وفتكاً وهكذا دواليك . وفى سبيل الدفاع عن النفس من ناحية وللحصول على القوت من ناحية أخرى كانت للأسد والنمر وما شاكلهما من الوحوش الضارية أنياب ومخالب ولغيرهما قرون وحوافر أو أشواك وبراثن . حتى الحيوانات الدنيا كالحشرات قد سلحتها الطبيعة بما تدافع به عن أنفسها عند الضرورة .

والإنسان حيوان أعزل ليس له أنياب ولا مخالب ولا أشواك ولا قرون ، ولكنه امتاز عن الأحياء جميعاً بقوة فى الإدراك، فهو يستخدم فى سبيل الحصول على القوت إلى قوة الجسم هذى العقل . ولذا كان هو المخلوق الوحيد الذى لجأ إلى الحيلة فسخر

الآلات والأسلحة لصالحه منذ أول خلقه . فمما لا شك فيه أنه قد مرت به تجارب حاول فيها الدفاع عن نفسه ضد الضاريات بيديه وأظفاره فلم يفلح . فاتخذ من أغصان الأشجار ومن قطع الصخر سلاحاً . ثم هداه تفكيره إلى أن يتعلم الرماية فيصيب صيداً أو يدفع كيداً أو يؤذى غريمه وهو بمنأى عنه لا يناله شره . ثم اخترع على مر السنين الرماح والنبال والقسىّ وما شاكلها وبرع فى استخدامها وعلمها ذريته . ولما ارتقى درجات فى سلم المدنية وانتظم الناس قبائل وشعوباً واشتد التزاحم على العيش وتملك فريقاً منهم حبّ السلطان تكونت الجيوش المسلحة . وكان علم الإنسان بإيقاد النار والتحكم فيها واستخدامها فى صهر الأحجار لاستنباط المعادن قد خطا خطوات كذلك فصاغ منها السيوف والرماح والدروع

فالنضال والتسلح من أجل البقاء والفوز فى الحياة من الغرائز الأولى تتولاها الطبيعة حيناً وتكملها الحيلة الفكرية أحياناً . ولكن ثمة ظاهرة لا سبيل إلى نكرانها ، وإنها لتبدو مشتركة واضحة فى الأسلحة القديمة جميعاً ، وهى أن تلك الأسلحة على تنوعها واختلاف أشكالها مستمدة من قوة الإنسان ، فالسيف البتار مهما صفا معدنه والرمح مهما طالت قناته والبلطة الثقيلة مهما أرهف حدها والسهم مهما تصلب عوده ودقت سنه كلها تعتمد فى فتكها وأذاها على

قوة ذراع حاملها ونمو عضلاته والتفاف زنده ثم جرأته وثباته ومرانه وتجربته . ولذلك مجد الأقدمون قوة الجسم واهتموا بكماله قبل أن يعملوا على نضج العقل بقرون .

ظلت الحال على ذلك حتى كشف روچر باكُن (Roger Bacon) — وهو من رجال العقل — سر عمل البارود وهو المادة المفرقعة الأولى ، فى القرن الخامس عشر بعد الميلاد . فتطورت باختراعه أو كشفه طرق الحرب شيئا بعد شىء وأخذ البارود يحتل ميدانه فريداً لا يكاد يشاركه فى قوة أثره سلاح آخر ، حتى القرن التاسع عشر قرن الانقلاب الصناعى والنهضة العلمية التى يجنى الآن من ثمارها الحلو والمر . وقد كان للبارود وما تلاه من أنواع المفرقعات أثره فى تطور الحرب من طعان ونزال بالرماح والسيوف وقد وقف الخصمان وجهاً لوجه يتباريان فى إظهار قوتهما الجسدية ومهارتهما الحربية بين كر وفر وإقبال وإدبار وصيال وجولان ومطاولة واحتيال وهما فى كل ذلك متجاوران متقاربان أو ملتحمان حتى يصرع أحدهما الآخر — تطورت الحرب إلى ترام بالقذائف المختلفة الشديدة الفتك على أبعاد شاسعة ، لا يعرف الخصم غريمه ولا يرى مقره إلا بالمناظير المكبرة أو بالحساب ، ولا يميز مستقره إلا برواية الرواد أو الجواسيس أو الآلات كما سنبينه فى بعض

أبواب هذا الكتاب . وأصبحت قوة الزند وشدة الأيد وتكتل العضل معدومة القيمة ووسيلة عقيمة إزاء ما يفعل الرصاص أو شظية القنبلة التي تصيب الفارس الصنديد فتهلكه فى أقل من لمح البصر ، على حين قد تخطىء الجبانَ الرعديد فينجو ، ولربما تكون القذيفة المدمرة قد أطلقتها من عقالها يد فتى غض لا تقوى على حمل السلاح . فالطفل والعملاق سيان أمام سلاح المفرقعات ، والقوى المهيب هو الذى وهب له الله علما بطبائعها وإدراكاً لكنهها ومعرفة وثيقة بطرق الحصول عليها ومهارة فى استخدامها ، والضعيف الهالك من تجاهل قوتها وأنكر جبروت فتكها وتهاون فى الحصول عليها فأفلتت منه الفرصة وإنه لضعيف وأن قويت بنيته وسلمت صحته .

وسر قوة المفرقعات بسيط كل البساطة، فتصور حبة صغيرة تنقلب بفعل السحر قبة، أو فأرا تحاول صيده فما تكاد تلمسه عصاك حتى ينقلب فيلا ضخما أو كومة من التراب تتضخم فجأة فإذا هى تل عال . هذا هو سر المفرقعات وهذه أمثلة لما يحدث لها إذا أثيرت .

فالمادة المفرقعة عادة هى مادة صلبة تلتهب إذا ارتفعت درجة حرارتها لسبب ما كالطرق المفاجىء أو مس النار، فتتحول فجأة

إلى جملة مواد غازية تشغل حيزا يبلغ حجم المادة الأصلية آلاف المرات مع انبعاث حرارة شديدة كالجحيم لا يقوى على احتمالها حيّ ولا يابس، ويحدث الانفجار لهذين السببين وأثرهما معا وهما زيادة الحجم وتضخمه فجأة، ويصاحب ذلك ما تفعله الحرارة الشديدة فى الغازات الناشئة وفى الهواء الموجود فى منطقة الانفجار الذى ينتشر بقوة مفاجئة خاطفة فيحمل فى طريقه كل ما يصادفه مما لا يقوى على احتمال ضغطه، مقتلعا الأشجار ومهدما المبانى ومخربا كل ما يقوم فى دائرة تأثيره .

وقد قدروا أن السنتيمتر المكعب الواحد من البارود يتضخم إلى ٤٠٠٠ سم٣ من الغازات وأن السنتيمتر المكعب الواحد من النتروجلسرين وهو أساس الديناميت إلى ١٠٠٠٠ سم٣ من الغازات، وتنشأ فى كلتا الحالتين حرارة تبلغ درجتها حوالى ٣٠٠٠ وهى تزيد كثيراً عن درجة الحرارة التى يذوب عندها الحديد والصلب إلى ما يشبه الماء فى سيولته .

والغريب فى المواد المفرقعة أنها سلسة القياد مأمونة الجانب إلى حد ما . إذا أشعلها الإنسان عمداً (بكميات معقولة طبعا) فى الهواء الطلق وهى حرة طليقة لا يحتويها وعاء، فان شأنها فى ذلك شأن غيرها من المواد : تلتهمها النار ثم تخبو ويصدر عن احتراقها

بريق يومض ثم لا يلبث أن يختفى فى مثل سرعة البرق . وإنما بلاؤها موكول باشعالها وهى فى حيز مقفل ، فانها فى تلك الحالة تحول دفعة واحدة إلى غازات وتتضخم آلاف المرات كما ذكرنا ، فيضيق بها الوعاء ولا بد لها حينئذ من الافلات ، وتساعد الحرارة الشديدة على زيادة حجمها وضغطها فيتحطم الوعاء الذى يحتويها متحولا إلى شظايا تتطاير مع الغاز المنتشر فى كل ناحية ، فإذا كل شظية منه قذيفة قاتلة لا تكاد تصيب فى طريقها شيئاً حتى تحطمه أو تأتى عليه ، ويُحدث صوت انتشار الغازات والشظايا وما يتبع ذلك من موجات التضاغط والتخلخل فى الهواء صفيراً يصم الآذان منبئاً بما يحمله من الموت والخراب والدمار .

وتختلف المفرقعات من حيث سرعة تأثرها بالنار اختلافا كبيراً ، وعلى هذه السرعة تتوقف قوة انفجار المادة المفرقعة واستخدامها . فبينما يستغرق اللهب وقتا محسوسا فى الانتقال خلال شريط يبلغ طوله بضعة أمتار ، ترى شريطا من الديناميت طوله خمسة أميال يحترق بأكمله فى أقل من ثانية واحدة . ومن هنا كان استخدام البارود فى توجيه الطلقات من البنادق والمدافع وتوجيه القذائف إلى الأهداف ، إذ أن بطء انتشار اللهب فيه واستغراقه وقتا طويلا نسبياً يجعل انسياب الغازات منه على

درجات ومقادير متدرجة تسمح للقذيفة بالسير داخل أنبوبة (ماسورة) الآلة القاذفة بقوة لا تؤثر كثيراً فى مادة الأنبوبة، ويتسنى للمحاربين بها الوقت الكافى لتسديد الرماية وتوجيه القذيفة إلى حيث يراد أن تصيب. أما إذا كانت المادة المفرقعة من نوع تلك المواد التى يلتهمها اللهب بسرعة فتعرف بالمواد المتفجرة أو شديدة الانفجار عادة، وهى لا تصلح فى الغرض السابق، وإنما تحشى بها القنابل التى ترمى بها الطائرات من عل، فإذا ما مست هدفا صلباً انفجرت وتوزعت شظاياها. كما تحشى بها أجزاء من نوع خاص من قذائف المدافع التى لا يراد من مقذوفاتها مجرد الإصابة والهدم فحسب بل أن يصحب ذلك انفجار القنبلة ذاتها وانتشار شظاياها. كما تستخدم فى حشو أنواع من الألغام البرية والبحرية وقذائف «الطوربيد» وما شاكلها. وقد نشرت الجرائد ومحطات الإذاعة منذ قريب نبأ نوع جديد من القنابل ترميه الطائرات على السفن فلا ينفجر لمجرد إصابة سطح السفينة بل يخترق ذلك السطح ويهبط إلى جوفها حيث ينفجر وتنتشر غازاته وشظاياه فتتلف ما تصيبه، وهى فى ذلك شبيهة — على حسب ما نتصور — بالقنابل الضخمة التى ترمى بها المدافع البعيدة المدى إلى أهدافها وقد جمعت فى تأثيرها بين دانة

المدفع وقنبلة الطائرة . وسنذكر فيما يلى أنواع المفرقعات إجمالا .

فالمفرقعات تنقسم من حيث الانتفاع بها فى الحرب إلى ثلاثة أقسام أساسية : وهى المفرقعات المثيرة والمفرقعات الدافعة والمفرقعات المدمرة . وأساس هذا التقسيم كما قلنا يستند فى الغالب إلى سرعة تأثرها بالحرارة وسرعة انتشار اللهب فى أجزائها إذا أشعلت،وقد تكلمنا فيماسبق عن النوعين الثانى والثالث منها. أما النوع الأول وهو المفرقعات المثيرة فهى مواد توضع بمقادير قليلة فى « كبسولة » الأجزاء الخلفية من القذائف كرصاص البنادق وخرطوشها ودانات المدافع ، فإذا ما دقها الزناد التهبت وانتقل منها اللهب إلى الجزء التالى من القذيفة،ويكون حشو هذا الجزء عادة من النوع الثانى من المفرقعات ، وهو النوع البطىء الاشتعال ، فيلتهب تدريجياً ويدفع بالقذيفة إلى حيث يراد أن تصيب ، وكثيراً ما يوضع شريط من البارود أو شىء يقوم مقامه ، كشريط من « الكورديت » يصل بين حشو الكبسولة وجسم القذيفة لكى يساعد على انتقال اللهب من المفرقع المثير إلى المفرقع البطىء ، وأكثر المفرقعات المثيرة شيوعا مادتان : إحداهما مركب من الزئبق والنتروجين ويعرف باسم « فولمانات الزئبق » ، والأخرى مركبة من الرصاص والنتروجين

كذلك ويعرف باسم « آزيد الرصاص » وهما من المواد الخطرة السريعة التأثير ولذا يكفى استخدام كميات ضئيلة منهما مقيدةً فى وعاء محبوك من النحاس يعرف « بالكبسولة »

هذه أنواع المفرقعات، والغريب فى أمرها جميعاً (على التقريب) أنها مركبات يدخل فيها النتروجين، وأحياناً الأكسجين وعناصر أخرى. والنتروجين هذا من عناصر تكوين الهواء، وهو عنصر عنيد يكره الارتباط الدائم بغيره من العناصر ولا يرتبط حين يرتبط إلا مضطراً وتحت تأثيرات عنيفة، فإذا ما أتيحت له الفرصة انفصل سريعاً عما يربطه بقوة وعنف لدرجة يحدث عندها الانفجار. فالنتروجين كالمرأة اللعوب الشديدة الإغراء لا تقبل الارتباط الوثيق برجل إلا مضطرة، ثم لا تكاد ترتبط به حتى تتحين الفرص للانفصال عنه وتحتال لذلك حيلتها، فتثير الزوابع وتسبب القلاقل حين تنفصل عنه. والنتروجين متوفر فى الهواء إذ يبلغ نحو ⅘ حجمه مخالطاً للأكسجين الذى يتكون منه الخمس الباقى، والأكسجين هو عنصر الحياة الفعال الذى يهب الحياة للحيوان والنبات، ويدخل فى تركيب الماء والخبز، واللحم واللبن، والسكر والنشا، وغيرها، ويساعد على اشتعال النار التى يستخدمها الإنسان فى مرافقه الحيوية جميعاً.

وعلى الرغم من مخالطة النتروجين العاصي للأكسجين الفعال فى الهواء بهذه النسبة الكبيرة فإنه يظل بمنأى عنه ، يخالطه ولا يتزاوج معه إلا تحت تأثير البرق والشرر الكهربى الذى ينقدح فى الجو فى أثناء الصواعق المنقضة على الأرض ، أو المنسابة بين السحب ؛ ويتكون من تزاوجهما فى مثل هذه الحال مواد نتروجينية يحملها المطر إلى الأرض فتذوب فى التربة وتتحول إلى غذاء للنبات والحيوان . ولقد عرف الإنسان هذه العملية الطبيعية فقلدها لمنفعته واستخدم الشرر الكهربى الصناعى يولده من مساقط المياه الطبيعية والصناعية ليصنع من الهواء مواد نتروجينية يستخدمها فى إخصاب الأرض وزيادة إنتاجها ، وهذه المواد النتروجينية هى ما نسميه بالأسمدة الكيمياوية الصناعية، وتستهلك منها مصر الزراعية سنوياً آلاف الأطنان ، وقد حُرمتها الآن بسبب الحرب ، ولو تم مشروع كهربة خزان أسوان الذى كان على وشك التنفيذ قبيل الحرب لاستطاعت مصر أن تنتج بهذه الوسيلة ما يكفيها الآن من الأسمدة ويزيد على حاجتها . فالمواد النتروجينية إذن هى أساس صناعة المفرقعات الحديثة كما أنها أساس صناعة المخصبات الكيمياوية ، بل إنها أساس المخصبات الطبيعية كذلك ، وانفصال النتروجين عن طائفة من مركباته

يسبب الفرقعة والانفجار وما يتلوهما من خراب ودمار، كما أن تغذية النبات بطائفة ثانية من مركباته هو مبعث الخصب والرخاء ويقظة الحياة . فسبحان الله القوى الجبار الرحمن الرحيم موجّه عباده إلى غرائز الخير والشر .

وأول معرفة الإنسان بالمفرقعات ترجع إلى عهد كشف البارود كما قلنا ، والبارود هو مخلوط من دقيق الكبريت ومسحوق الفحم النباتى مع ملح البارود ، والأخير مركب كيميائى يحتوى على النتروجين والأكسجين . وإذا مس البارود لهباً فى حيز محدود من الهواء حدثت جملة تفاعلات كيميائية معقدة وتكونت غازات عدة أهمها من حيث الكمية أول وثانى أكسيد الكربون وغاز النتروجين ، ويبلغ حجم هذه الغازات عند أول تكوينها بالنسبة لحجم البارود الأصلى مائتى مثل . ويزيد هذا الحجم ويتضخم بفعل الحررة المتولدة من التفاعل الكيميائى والاحتراق حتى يضاعف إلى عشرين مثلا ، فيبلغ بذلك حجم الغازات الناتجة ٤٠٠٠ مثل حجم المادة الأصلية .

وتفسير العملية كيميائياً أن كربون الفحم والكبريت مادتان قابلتان للاحتراق إذا توافر لهما الأكسجين اللازم لذلك وهو متوفر بنسبة كبيرة فى ملح البارود مرتبطاً بالنتروجين على كره

منه ، فهو يرتبط به ارتباطاً مخلخلا غير وثيق فينفصل النتروجين عن الأكسجين بعنف ، ويرتبط الأكسجين بالكربون والكبريت بشره وجاذبية وسرعة ينشأ عنها فعل البارود المعروف .

وكانت نسبة خلط ملح البارود بالفحم والكبريت كما ابتدعها « باكن » لأول مرة أربعة أجزاء من الأول إلى ثلاثة أجزاء من كلا النوعين الثانى والثالث . ولم يحدث اختلاف يذكر فى تركيبه خلال القرون التى تلت كشفه وسبقت كشف غيره من المفرقعات اللهم إلا استبدال مسحوق الفحم بمادة خشبية (سيلولوزية) مع زيادة طفيفة فى نسبة ملح البارود بناء على تجارب العسكريين ونتج عن ذلك ما يسمى بالبارود الأسمر Brown Powder . ولقد سبب استخدام البارود فى الحرب تطورات عدة فى فنونها على رغم صعوبة تداوله وقلة خطره كمفرقع لو وزن بالكثير من المفرقعات الحديثة التى جعلت من الميسور إيصال القذائف من مدافع بعيدة المدى إلى ١٥ كيلومترا من موضعها مثلا . ولو أريد استخدام البارود لهذا الغرض لكان لزاما أن تملأ ماسورة المدفع على ضخامتها بالبارود حتى آخرها ، وهو ما لا يحدث ولا يمكن أن يحدث الآن مع إمكان الحصول على المرغوب فيه بكمية ضئيلة نسبيا من مفرقع آخر لا تكاد تشغل إلا جزءا من الدانة أو القنبلة أو القذيفة .

وتبدأ قصة المفرقعات الحديثة بكشف قطن البارود أو « النتروسليلوز » والبارود السائل أو « النتروجليسرين » . وحدث ذلك فى فجر البحوث الكيميائية العضوية ، أو كيمياء الكائنات الحية ومنتجاتها ، وهذا هو السبب فى أن أكثر المواد المفرقعة الحديثة تستند الى مواد تمت بصلة الى المواد الدهنية كالجليسرين ، أو للمواد الكربوايدراتية (النشا والسكر والخشب) أو لمنتجات تقطير الفحم الحجرى كالفينول (حامض الفنيك) ؛ وهلم جرّا . . . .

فالديناميت مثلا أساسه الجليسرين ، وهو يستخرج من المواد الدهنية والزيوت النباتية ، والنتروسليلوز أو قطن البارود أساسه القطن أو الخشب ، وحامض البكريك أساسه الفينول أو حامض الفنيك المشهور . وسنتحدث فيما يلى بإيجاز عن طرق الحصول على هذه المفرقعات وغيرها ، ولسوف نرى أن صناعتها جميعاً تحتاج الى حامض النتريك ، إما بمفرده أو مخلوطاً مع حامض الكبريتيك . فأما حامض الكبريتيك أو زيت الزاج كما سماه العرب فمادة هامة فى الصناعات الكيمياوية جميعاً ، ويستند إلى الكبريت أو بعض مركباته فى تحضيره . وفى مدينة كفر الزيات يقوم مصنع لاستخراجه وللانتفاع به فى عمل صناعة السوبرفسفات

(السماد المعروف) من حجر الفسفات الطبيعى الذى توجد مقادير كبيرة منه فى بعض مناطق مصر على البحر الأحمر، والذى لا بد من تحويله بوساطة حامض الكبريتيك من حالته الطبيعية الحجرية الى أخرى تذوب فى الماء فيتغذى بمحلوله النبات

وقد كان حامض الكبريتيك ولا يزال من أهم العوامل فى صناعة حامض النتريك اللازم لصناعة المفرقعات ، إذ يحصل عليه من فعل حامض الكبريتيك فى نترات شيلى أو نترات الصودا الطبيعية التى يستهلك العالم منها مقادير هائلة للتسميد ، وفى صناعة حامض النتريك الأساسية فى عمل المفرقعات

ولعله من المفيد أن نذكرهنا أن استهلاك العالم المتزايد لنترات شيلى هدد باستنفاد هـذا المورد الوحيد الطبيعى لمادة أساسية للمدنية ، ومن أجل ذلك قام الباحثون فى أقطار الأرض يسعون للحصول على منبع آخر لمركبات النتروجين ، وقد وفق عدد منهم الى طرق كثيرة استغلوا فيها نتروجين الهواء وهو مورد لا ينفد ، وجعلوه يرتبط فى جملة أشكال وحصلوا على مخصبات عدة تعرف بالأسمدة الكيمياوية الصناعية نذكر منها « نتروتشوك » أو نترات الجير والسيناميد وغيرهما ، كما استغلت هذه المواد وأشباهها فى صناعة حامض النتريك للمفرقعات. وسنذكر فى مكان

آخر من هذا الكتاب كيف أنقذ العالم الكيمياوى « هابر » ورفقاؤه من أصحاب الكيمياء والصناعة فى ألمانيا بلادهم من ويلات هزيمة سريعة بكشفه طريقة ربط النتروجين بالإيدروجين لتكوين غاز النوشادر، وطريقة تحويل هذه الى حامض النتريك ونترات النوشادر، وهى من أشد المواد المفرقعة فتكاً .

ونحصل على قطن البارود من فعل حامض النتريك فى القطن أو فى عجينة الخشب المنقاة أو أى مادة سليلوزية أخرى. ويفضل القطن عادة لأنه يكاد يكون أنقى أنواع السليلوز، واسمها الكيمياوى ثالث نتروسليلوز وهو على أنواع يتوقف تركيبها على مدة تأثير الحامض من حيث قوته ومدة فعله فى القطن، فاذا قصرت المدة نوعاً تكونت المادة المعروفة بالسليوليد، وهى من نوع العجائن التى تعمل منها الأمشاط وسبائب الصور الشمسية (الأفلام) وما شابهها، وتسمى عرفاً بالطبخ وإذا طالت مدة فعل الحامض القوى فى القطن زادت نسبة النتروجين المرتبطة به وتكونت المادة المفرقعة المطلوبة . ولقد ثبت بالتجربة وبعد بذل كثير من الضحايا أن المادة المفرقعة يجب أن تخلص من الشوائب كبقايا الحامض أو أى مادة غريبة فى السليلوز، إذ أن وجود شيء منها يجعل مداولة المادة محفوفاً

بأخطار جسيمة كالالتهاب الذاتى مثلا ، ولذا فان صُناعه يبذلون عناية فائقة فى غسله وتجفيفه وتنقيته ، حتى يتسنى لهم خزنه ونقله وتداوله فى أماكن صنعه . وإذا أذيب قطن البارود فى سائل باخر كالأسيتون ثم بخر السائل تدريجاً تكونت عجينة رخوة يسهل تشكيلها فى خيوط أو أنابيب أو سبائب أو شرائح أو كتل على حسب الإرادة ثم تجفف تجفيفاً تاماً فى أشكالها الجديدة وهى مصمتة صماء خالية من المسام التى تستكن فيها الشوائب عادة إن وجدت ، ويطلقون على المادة الجديدة اسم البارود غير الداخن (Smokeless Powder)

والبارود السائل أو النتروجلسرين كما يدعى يحصلون عليه من فعل مزيج من حامض الكبريتيك والنتريك المركزين النقيين فى الجلسرين ، وهو ذلك السائل السكرى الذى كثيراً ما يستخدم بلسما لجروح الجلد ويدخل فى تكوين أدهنة التجميل والتطرية عند الغوانى ، فيتحول هنا إلى مادة زيتية غير مستقرة ولا مأمونة الجانب ، تلتهب لذاتها إذا أسىء تداولها أو مستها نار أو طرقتها طارقة بعنف ، وتحتاج العملية الى دقة واحتراس ومران لتمام نجاحها فى أمان . إذ يجب أن تظل درجة حرارة الخليط الحامضى والجلسرين منخفضة وأن تكون إضافة الجلسرين الى الحامضين

بكميات ضئيلة وعلى مهل ، وأن يحرك باستمرار ، مع إحاطة الإناء بماء بارد متجدد . وإذا ما انتهت العملية انفصل الزيت الجديد عن الخليط الحامضى فيرفع ويضاف الى ماء كثير يغسل به ، ثم يعاد غسله بماء مشوب بشىء من كربونات الصوديوم ، ويغسل ثانية بالماء النقى وهكذا حتى يتم تخليصه تماماً من آثار المزيج الحامضى ، وبعد تمام تجفيفه يخلط بنشارة الخشب أو يعجن مع أى مادة ترابية مناسبة لتكوين ما يعرف بالديناميت .

أما المفرقع المشهور المعروف باسم الكورديت فيتكون من مخلوط النترو جليسرين مع النترو سليلوز فى مادة لينة كالفازلين ، ويقال إن أحسن أنواعه وأسلسها قياداً ما يتكون من ٥٨ ٪ من الأول و٣٣ ٪ من الثانى مع ٥ ٪ من الفازلين . ويستخدم الكورديت فى هذه الحالة مكان البارود بل يقولون إنه خير المفرقعات القاذفة وأقلها أثراً فى أنابيب المدافع والقاذفات.

وهناك الترايترو تولوين الذى يكنى له عادة بالحروف T.N.T. ، وهو مفرقع جبار يحصلون عليه من فعل حامضى الكبريتيك والنتريك فى السائل الزيتى المسمى تولوين وهو أحد منتجات تقطير الفحم الحجرى ، ويصح فيها كل ما ذكر فى سابقاتها من ضرورة الاحتراس عند صنعها ومن لزوم تنقيتها من

كل شائبة غريبة وبخاصة آثار المخلوط الحامضى بعد تمام تكوينها وهى صلبة سلسة القياد إذا كانت نقية : تتأثر بالحرارة والطرق .

أما حامض البكريك أو الترا ينترو فينول فيصنع من الحامضين والفينول بنفس الطريقة مع اتخاذ الاحتياطات السالفة ، وهو مادة صلبة متبلرة صفراء اللون ، وتعرف فى انجلترا باسم لِدَّايت (Lyddite) وفى فرنسا وألمانيا باسم ميليناَيت (Melenite) . وتمتاز هذه المادة عن غيرها من المفرقعات بأنها لا تترك رواسب كربونية بعد اشتعالها . والغريب أن محلولها فى الماء يستخدم فى الطب كدهان للحروق الجلدية كما أن أحد مشتقاتها يستخدم الآن لمكافحة وباء الملاريا تحت اسم أتابرين

أما نترات الأمونيوم فملح النوشادر مع حامض النتريك ، وتخلط عادة بمادة متفجرة أخرى فيتكون منهما مفرقع فتاك يسمى أماتول (Amatol)

ولما كان من غير الميسور التحدث عن المفرقعات التى يكثر استعمالها فى الحرب الحالية ، فإننا نكتفى إذن ببعض ما وصل إليه علم الباحثين عن المفرقعات فى الحرب الأسبانية القريبة ، إذ قد صار من المعروف أن ألمانيا وحليفتها إيطاليا قد جربتا فيها بعض أسلحتهما توطئة لما كانتا تبيتانه من نية . وقد أشيع فى أثناء

الحرب الأسبانية أن الألمان فاجأوا محاربيهم بمفرقعات شديدة الفتك لا يعرف سرها غيرهم ، وقد جدّ الباحثون وراء هذا السر فاتضح أنها لم تكن بسوى مخلوط من نترات الأمونيوم والفحم. وتتوقف شدة انفجار مخلوط من هذا الطراز على سرعة انتشار اللهب فيه ، وقد وجد بالتجربة أن سرعته تبلغ ٤٥٠٠ ياردة فى الثانية الواحدة مع ارتفاع عظيم فى درجة الحرارة تنشأ من وجود مسحوق الألومينيوم. وسنرى فى مكان آخر من هذا الكتاب أن هذا المسحوق هو أساس القنابل المحرقة المشهورة .

ولقد قيل أيضاً إن بعض القنابل الشديدة الانفجار فى الحرب الأسبانية كانت مشحونة بالهواء السائل ، وقيل بل بالأكسجين السائل، وخطر مثل هذه القنابل شديد ، إذ أن هذا الهواء السائل المضغوط فى أوعيته عند درجة حرارة منخفضة دون الصفر بمراحل يتحول إلى غاز ساخن منتشر يحدث موجة من التضاغط يزعمون أنها تؤثر فى منشآت تبعد عن مركزها بنحو ٤٠٠ متر. والمهم فى ذلك أن استخدام الهواء أو الأكسجين السائل أو غاز الكربونيك الصلب كمفرقعات لم يكن سراً ولا كشفاً جديداً ، فقد سبق استخدامها فى تحطيم الصخور وفتح الأنفاق فى الجبال . وقد ظهر بالتجربة أن ملء القنابل بها محفوف بكثير من الأخطار ،

وأن المواد الصلبة آمن وأسهل فى التداول من السوائل ، وهذه أكثر أمنا عند التداول من الغازات .

هذه نماذج من المفرقعات ابتدعها الكيميائيون . وهناك غيرها عشرات مطوية فى سجلات وزارات الحرب وإداراتها فى الأمم المختلفة ، وأخرى ما زلنا نجهل وجودها ولا نتكهن بتركيبها تتقاذف بها الآن مدافع أو طائرات الدول المتحاربة فى كل لحظة . وربما أتيح لنا العلم بها لو قدر لنا العيش إلى أن تضع الحرب أوزاها ويرفرف السلام على ربوع العالم . ولرب معترض يقول إنه لولا نشاط الكيميائيين ما روع العالم بآثار كشوفهم إلى هذا الحد . والله أعلم أن لا ذنب لأكثرهم فى هذا البلاء ، فإنما كان قصدهم ولا زال أن يتعرفوا كنه المادة وخواصها وتركيبها ، ولقد وفقوا إلى الكثير من ذلك ، والكيميائى الذى يصنع المادة المفرقعة هو بذاته الذى يركب الأصباغ والعطور والعقاقير والأدوية والفيتامينات والهرمونات . وما لنا ننسى خدمة المفرقعات للانسانية فى أيام السلم ، ولولاها ما أمكن شق قناة بنما ولا نفق سمبلون ولا مهدت الطرق وشقت السبل وتفتحت المناجم ولما عم العالم رخاء صناعى وتجارى وعلاجى لم يعرفه تاريخ البشر من قبل .

الحرب الكيميائية

حرب الغاز واللهب والدخان

ليست الحرب الكيميائية من مبتكرات هذا العصر ، فلقد استخدم القدماء الحراقات فى حروبهم ، وأطلقوا على أعدائهم أبخرة الكبريت وغازاته ، إلا أن تقدم علم الكيمياء والمعرفة التامة بخواص المواد ، وإتقان طرق شحنها وتفريغها وحملها ونقلها وتوزيعها ، ثم عدد أنواع الآلات والمحركات وطرق صنعها وتسخيرها وتغلغلها فى كافة المرافق الحيوية — كل أولئك جعل من المحتم تحوير طرق الحرب وأساليبها . وبذا صارت الكيمياء بغازاتها الخانقة وأبخرتها المحرقة سلاحا من أسلحة الحرب الحديثة ، وبلغت شأواً غير من قواعد الحرب وأساليبها ونظرياتها وتطبيقاتها ، بعد أن اتسعت ميادينها فشملت مواقع حشد المحاربين ومساكن الآمنين ، وبعد أن استعد لكفاحها والتغلب عليها والوقاية من شرورها العامل فى مصنعه ، والزارعُ فى حقله ، والطفلُ فى مهده أو مدرسته ، والزوجةُ فى مخدعها ، والجندىُّ المحارب أينما كان ، على جناح الريح ، أو على سطح الأرض ،

أو على متن السفينة ، أو فى جوف المـاء . ولن يقع فريسة لهـا إلا كلُّ جاهل متهاون يهمل استماع نصائح العارفين ، ويتغاضى عن الاستعداد بمـا ينصح به الفنيون ، وإنمـا شأنه فى ذلك شأن المريض يصف له الطبيب الدواء فيعرض عنه ولا يتعاطاه ويرسم له طريق الشفاء فيتجنبه ويتحاشاه .

ولنبدأ بالحديث عن الغازات ذات الأثر السام أو المؤذى ، فنذكر أن كتب الكيمياء وموسوعاتها قد وصفت نحو ثلاثة آلاف نوع منها بخصائصها وطرق تجهيزها إلا أن عدداً قليلا جداً من بين تلك الأنواع هو الذى أمكن تسخيره فى الحروب واستخدامه فيها كسلاح ، وربمـا لا يتجاوز عددها العشرة ، لأن الغاز الذى يتخذ سلاحا فى الحرب لابد أن تتوفر له صفات ومزايا قل أن تجتمع فى غير هذا العدد الضئيل .

وأول هذه المزايا إمكان الحصول على الغاز بسهولة ويسر من مواد أولية موفورة ، ونحن نعرف الكثير من الغازات السامة التى لها مثل هذه الميزة كغاز المواقد (أو أول أكسيد الكربون) فهو غاز سام قاتل له عديد من الضحايا ، وبخاصة من المغرمين بالتدفئة بمواقد الفحم فى حجرات نومهم أو فى الحمام . وهو غاز عديم اللون لارائحة له ، ومن ذلك ينشأ خطره ، إذ ليس له صفات

محسوسة تنذر بوجوده . ولكنه خفيف ، بل هو أخف من الهواء كثيراً ، ولذا قل أن يكون له ضحايا إلا فى الحجرات والأماكن المقفلة كحظائر السيارات مثلا حيث ينبعث هذا الغاز مع ما ينبعث من مخلفات (أو عادم) الآلات التى وقودها البترول ، وبخاصة عندما تدار تلك الآلات ببطء وهى ساكنة بلا حركة .. وخفة وزن هذا الغاز تجعل منه سلاحا مفلولا فى الحرب . فإنه على فرض إطلاق عشرات الأطنان منه فى جو الميدان لا يلبث أن يتشتت ويتبعثر فى الجو الطلق ، ويطفو لخفته على الهواء الجوى ، ويذهب عبثاً قبل أن يحدث كبير ضرر.

فغاز الحرب إذن يجب أن يكون أثقل من الهواء . وهذه الخاصة وحدها تحد كثيراً من عدد الغازات الصالحة للحرب من بين الآلاف السامة .

وثمة خاصة أخرى وهى ضرورة أن يكون للغاز أثر ضار ملموس فاعل، ولوكان بكميات ضئيلة ، فمن الواضح أن الغاز عند إطلاقه من محبسه سيختلط حتما بالهواء ، ولذا لزم أن يكون له أثر فعال حتى فى الحالات التى يختلط فيها جزء منه بعشرة آلاف جزء من الهواء مثلا ، وليس فى ذلك مغالاة ، فهنالك مواد كيميائية يظهر أثرها ، وتحتفظ بخواصها وفعلها إذا اختلطت بالهواء

بنسبة جزء منها إلى عشرة ملايين جزء من الهواء .

فالغاز الصالح الكامل هو ذلك الذى يكون عديم اللون والرائحة حتى لا ينذر ضحاياه المقصودون بأذاه فيستعدوا له بكماماتهم الواقية أو بالالتجاء إلى مخابئهم التى يكونون قد أعدوها من قبل للاحتماء بها من أضراره . والغاز الصالح لشئون الحرب كذلك يجب أن يكون تحضيره هينا ، وأن تكون مواده الأولية موفورة، وأن يكون أثقل من الهواء ليظل على مقربة من سطح الأرض فترة معقولة فلا يطفو ولا تبعثره الرياح ويضعف أثره الانتشار ، كما يجب أن يكون ذا أثر فعال شديد الأذى ولو امتزج قليله بالكثير من الهواء . ولكل ذلك حرصنا على تأكيد القول فيما سبق أنه بالرغم من تعدد الغازات السامة فالصالح منها أقلية ضئيلة ، والواقع يثبت ذلك ، فإن كل ما استخدم من الغازات فى الحرب الماضية ، وكان له أكبر الأثر لم يكن من المواد الغازية أصلا ، بل كان سوائل إذا انتثر رشاشها أو طار بخارها أحدث الأثر المطلوب ، ولو بلغت الحرب القائمة الآن مرحلة يلجأ فيها المحاربون إلى الاستعانة بالمواد الكيميائية فلن تكون هذه المواد إلا من نفس هذا النوع الذى سبق تجربيه كغاز (الخردل) مثلاً ، وإنما سمى غازاً على المجاز ، فما هو إلا مادة سائلة تغلى

عند درجة من الحرارة تفوق درجة غليان المـاء .

ويحسن لتبسيط الموضوع أن نقسم الغازات السامة إلى فصائل تبعاً لتأثيراتها فى الـكائن الحى . فطائفة منها تؤثر فى القصبة الهوائية وأجهزة التنفس ، وتعرف بالغازات الخانقة ، وطائفة تؤثر فى الأجهزة البصرية فتدر الدموع وتهيج أغشية العين فتستحيل الرؤية أو تضعف ، وأخرى تثير الالتهابات والجروح والبثور الجلدية وتضر البشرة حيثما لامستها ، فهى تفعل فعل النار ، وتعرف لذلك بالغازات المحرقة . ورابعة تؤثر فى المجموعة العصبية ، ولعل أوضح مثل لها سيانيد الايدروجين أو غاز حامض السيانيك ، أو الحامض البروسى ، ويقال إنه ربمـا كان أشد المعروف من الغازات إطلاقاً فى تأثيره السام ، فهو يسبب الموت الفجائى حتماً إذا تنفس الإنسان فى هواء يخالطه هذا الغاز بنسبة جزء واحد منه إلى ألفى جزء من الهواء ، أى يكفى أن يوجد منه سنتيمتر مكعب واحد فى لترين من الهواء ليكون استنشاقه قاتلا وقد استخدمه البريطانيون بمقادير قليلة مرات معدودة فى الحرب المـاضية .

ولنذكر الآن أمثلة لـكل طائفة من الطوائف الثـلاث المشهورة :

أول غاز استخدم كسلاح فى الحرب إطلاقا غاز ثانى أكسيد الكبريت ، ويتكون من احتراق الكبريت فى الهواء. والكبريت من العناصر الصلبة القليلة التى توجد فى الطبيعة خالصة أى غير متحدة بغيرها من العناصر ، ولذا عرفه القدماء واستخدموه فى مرافق عدة ومنها الحرب ، والذى يطالع كتب الأقدمين فى الكيمياء يعثر على إشارات عدة إلى الكبريت وهو مادة حجرية فى شكلها ومظهرها وهى التى تحرقها النار كما تحرق الهشيم والخشب والفحم . ولقد ذكر العرب فى رسائلهم عن صناعة الذهب والفضة وفى بحوثهم فى سبيل ذلك عن حجر الفلاسفة أن هذا الحجر أساسه الكبريت الأحمر وزئبق الفلاسفة ، والزئبق معدن أو فلز يتميز عن غيره بأنه سائل رجراج يوجد فى الطبيعة خالصاً فى بعض الأحيان فهو غريب بين الفلزات غرابة الكبريت بين الأحجار. ولذلك ألبسهما القدماء أردية من القوة السحرية وجعلوهما أساساً فى تكوين سر الأسرار، وهو حجر الفلاسفة الذى يتيح لحامله الغنى الكامل ويضع يده على إكسير الحياة الذى يهب الصحة والعافية والشباب السرمدى .

وإذا احترق الكبريت نشأ عنه غاز نفاذ يثير السعال فى بادئ الأمر وإذا استنشقه الحيوان طويلا اختنق . وورد فى بعض وثائق حرب القرم أن الانجليز لما عز عليهم قهر الروس وطال أمد الكفاح بينهما وتزايدت الضحايا اقترح بعضهم استخدام هذا الغاز كسلاح فرفض أولو الأمر ذلك لبواعث إنسانية على ما يزعمون . وإنا لنذكر هذه الحقائق للتدليل على أن حرب الغازات قديمة عريقة فى القدم ، مع العلم أن علم الكيمياء الحديث لم يخط خطوات واسعة إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر ، إذ كان أول أهدافه معرفة طبائع المواد وتراكيبها فتجمعت لدى الإنسان المعلومات رويداً وتعرّف كنه الكثير منها سواء فى ذلك الصالح المفيد والضار المبيد . إلا أن الدوافع الإنسانية قد حالت فيما تلا ذلك من حروب دون استخدام الغازات والمواد الكيميائية التى تفعل فعلها كسلاح ، حتى كانت الحرب الأوربية الكبرى الماضية ١٩١٤ — ١٩١٨ ميلادية ، وفيها اندفع الألمان فى غزو بلاد البلجيك وشمال فرنسا وصارت جموعهم الجارفة إلى الأمام حتى موقعة المارن المعروفة حيث صمد لهم الحلفاء واتخذت الحرب شكلا جديداً هو حرب الخنادق، وقد وقف الجيشان العظيمان وجهاً لوجه يتبادلان القذائف النارية

ويسرفان فى استخدام المفرقعات إسرافاً لم يكن لهما فى حساب ، حتى كادت تنفد عدة الألمان واحتياطيهم من المفرقعات على حين قد ضرب عليهم الحلفاء حصاراً بحرياً قاسياً جعل حصولهم على المواد الأولية التى تستخدم فى صنع المفرقعات من المستحيلات . ولولا كشوف « هابر » العالم الألمانى الكيميائى التى مكنتهم من صنع حامض النتريك بطرق جديدة لما استطاعت ألمانيا أن تقاوم طوال أربع سنين . وقد لجأت ألمانيا فى أيام محنتها إلى سلاح الغازات توفيراً للمفرقعات ومحاولة للتغلب على حرب الخنادق وإرغام عدوها على العودة إلى حرب الميدان وهى الحرب التى حذقها جنودها وأتقنها قوادها . وفى يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩١٥ أطلقت من خطوط الألمان لأول مرة سحب من غاز الكلورين وهو غاز خانق نفاذ أخضر اللون يضرب إلى الصفرة ويستحضر فى كثير من الصناعات الكيميائية ، ويمكن الحصول عليه فى الأصل من ملح الطعام (فمنه ومن فلز الصوديوم يتكون هذا الملح) ويخزن هذا الغاز عادة فى اسطوانات من الصلب أو الحديد الظهر تحت ضغط كبير ، فاذا فتح صنبور الاسطوانة خف الضغط وانساب الغاز . وإذا كان اتجاه الريح مناسباً — بأن كان يهب إلى ناحية الخصم — حمله الهواء للموت والدمار ، كما حدث

فعلاً فى ذلك اليوم التاريخى . ويقول المؤرخ إن عدد الموتى من بين صفوف الحلفاء فى هذه الحملة الغازية الأولى بلغ حوالى ستة آلاف ، وهو عدد كبير نسبياً ، وإنما كانت المفاجأة وعدم الاحتياط هما كل السبب فيما حدث . ولكن ما لبث الحلفاء بعد معرفة السر أن احتاطوا واستعدوا واتخذوا الكمامات الواقية ووزعوها على جنودهم وردوا على الألمان بمثل سلاحهم ، وهكذا نشأت حرب الغازات ومضى الفريقان فى سباق هائل كانت الخطوة الأولى منه عند باب المعمل الكيميائى ؛ ودخلت الحرب فى طور جديد ؛ وتلا الكلورين أنواع عدة من الغازات منها مادة الفُسْجين .

والغريب أنها مادة تتكون من غازين سبقت الإشارة إليهما فى هذا الباب وهما غاز المواقد أو أول أكسيد الكربون وهو حاصل احتراق الفحم فى حيز محدود من الهواء ، والثانى غاز الكلورين . والفسجين أشد فتكا من الكلورين ، بل يزيد أثره السام عن غاز الكلورين بعشرة أضعاف أو أكثر ، وقد تناوب الجيشان المتحاربان تسخيره مرات عدة إما خالصاً وإما مخلوطاً بغاز الكلورين .

ومن هذه الطائفة الخانقة مادة (الكلوروبكرين) ومادة

ثالث كلورمثيل الكلوروفرمات » . وهما مادتان سائلتان عند درجة الحرارة العادية ، إذا أطلق بخارهما تسببت عنه أضرار جسيمة تصيب الأجهزة التنفسية .

الغازات الدمعية

أما الغازات التى تؤثر فى المجموعة البصرية وهى التى تدر الدموع أو تصيب ضحاياها بعمى موقت يزول فى الغالب بعد فترة قصيرة فلا يقف استخدامها عند حد الحروب ووقائعها ، بل كثيراً ما استخدم فى أيام السلم فى تفريق المظاهرات وفض الاجتماعات غير المرغوب فيها ، ومن هذا النوع مادة (بروميد الزيليل) وقد طلع بها الألمان على خصومهم ، وكان الرد عليها بمادة أخرى من نوعها ولكنها أشد وأنكى ، وهى (يود وخلات الايثيل) ولا يضعف أثر هذه المادة مهما قلت نسبتها فى الهواء حتى لو أنها أطلقت فى الجو بنسبة جزء واحد منها إلى خمسة ملايين جزء من الهواء — وهى نسبة تقرب من التلاشى — لظهر أثرها جلياً فى عيون المتحاربين .

وباستخدام الغازات الدمعية أصبح من المحتم تغيير الكمامات وتطورها إلى أقنعة واقية ، وتختلف هذه عن الكمامات بحمايتها للوجه بأكمله ، بما فى ذلك الجبهة والعينان ، وتتركب الكمامة

من صندوق محشو بمادة مسامية مشبعة بطائفة من المواد الكيميائية اختيرت لتبطل عمل الغازات بتفاعلها معها. وبالصندوق من أسفله منفذ للهواء يمر منه فى حركة الشهيق ، فإذا ما كان به ما يضر خلصته منه المواد التى تملأ الصندوق قبل أن يصل إلى الرئتين . ولتكون الكمامة قناعاً واقيا وتؤدى الغرضين معاً يضاف إليها جزء علوى أساسه غطاء من المطاط يكسو الجبهة والصدغين، وبه قبالة العينين منظاران من مادة شفيفة كالزجاج أو الميكا الطبيعية أو الصناعية تقى العين شر الغاز ولا تحجب الرؤية .

هذا وقد استنبطت مواد تؤثر إذا أطلقت فى الهواء فى العين والأنف والرئتين جميعاً ، أى أنها تجمع خواص الطائفتين السابقتين معاً ، وهذه المواد فى الغالب من مركبات الزرنيخ الصلبة فى درجة الحرارة العادية ، ولكى تؤدى الغرض منها تقذف على العدو مع مفرقعات القنابل ومقذوفاتها فتتوزع غباراً أو هباء دقيقاً ينفذ إلى الرئتين والعينين ولذا اقتضت إدخال تعديلات عدة على الكمامات والأقنعة الواقية .

الغازات المحرقة

وهى الطائفة الأخيرة الكبرى وتصيب الجلد بقروح وحروق حيثما لمسته ، وكان أشدها أثراً وأكثرها شيوعاً فى الحرب

الأوربيـة الماضية المادة المعروفة بغاز (المستردة) أو غاز الخردل واسمه الكيميائى (ثاني كلور — كبريتيد — الايثيل) وتسميتها غازاً خطأ شاع برغم أنها مادة سائلة فى درجات الحرارة العادية ، بل إنها تتجمد وتصلب إذا انخفضت درجة الحرارة إلى ما يقرب من الصفر ، وتغلى عند درجة تزيد عن ضعف درجة غليان الماء .

وتتحول هذه المادة إلى بخار ببطء شديد . ولذا لا تكون ذات أثر واضح محسوس وقت إطلاقها ، فيُخلد ضحاياها إلى شيء من الطمأنينة ويتهاونون فى أمر الوقاية منها ، ثم لا يلبث أذاها الكامن أن يبرز بعد فترة من الزمن . فتفتك بمن أمن شرها . ولا يقف أذى هذه المادة عند إحداث القروح والحروق التى تصيب الجلد ، بل إن بخارها يضر بالعين والأنف فتفسد البصر وتسمم الرئتين . ويقررون أن الجرام الواحد من هذه المادة يكفى لقتل خمسين رجلاً إذا وزع بالقسطاس على رئاتهم جميعاً . وليس لهذه المادة رائحة خاصة تميزها عن غيرها أو تنذر بها . ولذا كان خطر التوسع فى استخدامها فى هذه الحرب لا يزال قائماً يتوقعه الطرفان وقد استعد كل منهما به وبغيره ، وله وللمستحدث من أمثاله . وتنذر الحكومات بعضها بعضاً على ألسنة زعمائها بأن من يلجأ من المتحاربين إلى تسخير المواد الكيميائية فى الحرب

سيجد جزاءه دقة بدقة والبادى أظلم . ويرجح المختصون إمكان إلقائها من الطائرات فوق المدن وميادين القتال حيث يحتشد الجند، ولذا درست خواصها درساً مستفيضاً ونظمت طرق الوقاية منها تنظيماً جعل من الميسور التغلب عليها وإفساد أثرها قبل أن يتضخم ضررها وتتعدد ضحاياها . وقد أعدت فى المدن الكبرى فرق مرنت على إزالتها بمجرد الشعور بوجودها ، والاستعانة على ذلك بالماء وكلوريد الجير مثلاً ، كما وزعت على محاربيها أردية خاصة وأقنعة مجهزة تحول الأولى دون أن يلوث (الغاز) ملابسهم أو يمس أجسادهم بسوء ، وتقى الثانية أنوفهم وأعينهم فِعْلَ (الغاز) الضار ، وبإحسانهم وقاية أنفسهم يحسنون وقاية غيرهم .

هذه أهم طوائف الغازات السامة وأنواعها . وأما طرق إطلاقها وتوجيهها نحو ضحاياها فتتوقف على زمان ومكان استخدامها . وأبسطها كما رأينا هو إطلاقها من مستودعات تحتويها وهى تحت ضغط ما ، ولا بد فى هذه الحالة من اغتنام فرصة اتجاه الريح نحو العدو وتحميلها الغاز الذى يختلط بالهواء متغلغلا فى ثناياه ، فتتحول أنفاس الحياة إلى زفير الموت ، وهذه طريقة بدائية غير مأمونة العاقبة ، فربما خفَّتْ شدة الريح أو تراخت أو تغير اتجاهها وتعارضت تياراتها — وهذه أمور كلها

متوقعة الحدوث — فيعود السلاح إلى صدر مرسله ويقع الصائد في الحبالة التي أعدها لفريسته ، ولذا قل استخدام هذه الطريقة تدريجاً حتى كادت تبطل في الفترة الأخيرة من الحرب الماضية .

والطريقة الثانية إطلاقها من مستودعات تحملها الطائرات وتوزعها سحباً أو رذاذاً وهي محلقة في الجو . والوسائل الحديثة للدفاع ضد الغارات الجوية تجعل تطبيق هذه الطريقة عقيماً . فلكي تنجو الطائرة من قذائف المدافع المضادة للطائرات — وهي كثيرة ومتعددة الأنواع ومختلفة مدى المرمى — يجب أن تحلق على ارتفاع يجعلها بمأمن من قذائف هذه المدافع الصائدة ، وينأى بها عن الطائرات المقاتلة وطائرات المطاردة الخفيفة الوزن السريعة الحركة . وإذا أطلقت الطائرة الغازات وهي على هذه الارتفاعات البعيدة كانت مسرفة غاية الإسراف إذ لا سبيل لأن تدرك سمومها الأرض من غير أن تتشتت وتنتشر وتتوزع ويخففها الهواء إلى درجة التلاشي . ولربما نجحت مثل هذه الطريقة إذا هبطت الطائرات فجأة على أقوام آمنين مطمئنين أو على شعوب لم تستعد للحرب الكيميائية ولا لغيرها . بل لقد نجحت بالفعل في الصين وبلاد الحبشة . ولكن هيهات أن تفلح في أمة أعدت عدتها للوقاية والمقاومة

والطريقة الثالثة هى إيداع الكيميائيات بطون القنابل التى تقذف بها الطائرات من عل ، فإذا ما أصابت قنبلة منها هدفا انفجرت وتناثرت شظاياها وانسابت محتوياتها فى كل صوب . ولكن حرب الغازات تفقد بهذه الطريقة أولى ميزاتها وأهم عنصر يعين على شدة فتكها وتعدد ضحاياها ، وهو عنصر المفاجأة ؛ فإن الناس إذا عرفوا أن طائرة من طائرات العدو تحلق فوقهم (وهم لا بد عارفون من الإنذارات المألوفة بقدوم الطائرات) استعدوا لها باللجوء إلى مخابئهم وبلبس أقنعتهم الواقية ، واستعد الحراس لإزالتها قبل أن يقع لها ضحايا . فاستخدامها فى مثل هذه الظروف يكون عقيما بل هو إسراف لا تسوّغه إلا حالة الحرب ، وفيها ترخص الأموال كما ترخص الأنفس .

أما طرق الوقاية من الغازات فقد تمشت مع الابتكار فيها جنباً إلى جنب ، بل لقد سبقته فى الحرب الماضية ، ولقد دُرست طبائع الغازات درساً مستفيضاً ووزعت على الجند المحاربين أقنعة واقية كما وزعت على المدنيين فى هذه الحرب ، ونَشرت المصالح المسئولة عن وقاية جماهير الشعب تعليمات مستوفاة بكافة طرق النشر من نشرات مطبوعة وأحاديث فى المنتديات ومحاضرات فى الإذاعة ، ودَرَّبت الآلاف من رجالها على طرق الوقاية .

وشحنت الكمامات والأقنعة بالمواد التى تفسد أثر المعروف من الغازات أو المتوقع استخدامه منها . ولعل أسلم الطرق وأهونها عدم التعرض لها ، وذلك بإعداد ملجأ حصين لا منفذ له يلوذ به من يلوذ حتى تمر العاصفة ، ولنا فى قوة الدفاع وفى نشاط رجال الوقاية أكبر ضمان على أن حالات الاعتكاف والتوارى لن تطول ، والله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين .

أما بعد فقد أدخل فى هذه الحرب سلاح حرب الأعصاب والدعاية ، وقد أدخل هذا السلاح الجديد فى روع الناس نوعا من الفزع جسّم لهم خطر الغازات حتى خيل إلى كثير منهم أنه أفتك أسلحة الحرب وأشدها هولاً وأكثرها ضحايا . وقد ساعد جهل جمهرة الشعب حقيقة الأمر على انتشار الفزع وكلٌ مجهول الأثر مهيبٌ بطبيعة الحال ، ولعل فيما سبق ما ينير الأذهان ويرد إلى النفوس شيئاً من الاطمئنان ، ولست متفائلا بلا مسوغ ، فالاحصاءات فى الحرب الماضية تثبت صحة ما أذهب إليه ، فقد بلغ عدد القتلى من الجيش البريطانى ١٨١٠٠٠ نسمة ، كان صرعى الغاز منهم ٦٠٠٠ نسمة ، أى أقل من ٣٪ ، وقد دلت الاحصاءات كذلك على أن نسبة قتلى القذائف النارية قد بلغت ٢٥ ٪ من المجموع وقدروا أن بإزاء كل قتيل من ضحايا الغازات سبعة قتلى فى

الحرب من فعل المفرقعات واثنا عشر من فعل الرصاص . حدث هذا فى أول ما استحدثت حرب الغازات وتجريب الكمامات الواقيات ، والمنطق يوحى بأن هذه النسبة ستهبط حتما فى وقت تقدمت فيه أساليب الوقاية إلى درجة تقرب من الكمال .

حرب اللهب :

ولنتحدث الآن عن قاذفات اللهب ، وهى السلاح الثانى من الأسلحة التى اصطلحوا على تسميتها بالسلاح الكيميائى . والحرب باللهب ليست حديثة ، بل كثيراً ما استخدم الأقدمون اللهب فى سبيل التغلب على جيش يحاصرهم أو على مدينة يحاولون اقتحام أسوارها . ولقد كان الكبريت هو العنصر الهام فى سلاحهم المحرق ، يخلطونه بالغاز أو بالنفط ويشعلونهما ثم يصبون المزيج الملتهب على الأبواب الضخمة أو يقذفون به فى المنجنيقات على شكل كتل متماسكة أو يرشونه عجينة رجراجة على الجيوش المتزاحمة حول أسوار قلاعهم وبروجهم الشاهقة . ومنهم من كان يخلط الكبريت والنفط بالجير الحى حتى إذا ما حاول المدافعون توقى شره برشه بالماء تفاعل الماء والجير وألهبت الحرارة الناشئة من ذلك الكبريت والنفط فتتقد نارهما وتأتى على كل ما تعلق به . أما اللهب الحديث فأسهل من كل ذلك وأنقى . فقد كان الألمان

أول من انتفع به في الحرب الماضية ، فاستخدموا مشتقات البترول أو النفط كالبنزين والكيروسين وغيرهما يقذفون بها من أسطوانات خاصة ركبت عليها أنابيب ذات فوهات ضيقة يندفع منها السائل الملتهب بقوة الهواء المضغوط أو بقوة غاز آخر محبوس فيها تحت ضغط شديد ، فينساب اللهب إلى مسافة تبلغ في بعض الأحيان عشرات الأمتار . ويستطيع القارئ تصور الجهاز ولهبه الممدود إذا وازن بينه وبين (البورى) الذى كثيراً ما يحمله السمكرى أو مُوقِد (جلوبات) الغاز ، فهو جهاز يرسل لساناً طويلاً من لهب حام بفعل الهواء المضغوط ، ولم يثمر استخدام هذا السلاح الجديد الثمرة المرجوة منه ، فهو برغم ثقل أجهزته وتعقّدها سلاح ذو حدين يجعل حامله من نفسه هدفاً سهلا ،حتى إذا ما نالته قذيفة أو انتابه جرح أو اختل توازنه بسبب وعورة الأرض وما يكتنف سبيل السائر فيها من عقبات طبيعية أو صناعية ، تحول اتجاه اللهب إليه وأحرق نفسه ومن يجاوره من إخوانه ، ولذلك ندر استعماله . ثم تطور في هذه الحرب القائمة وجعلت حاملاته في بطون الدبابات التي تسير في طريقها لا تعبأ بالعقبات ولا تؤذيها القاذفات الصغيرة ، وأثمرت في غزو فرنسا وغيرها من البلدان التي لم تستعد للحرب بمثل ما استعدت به ألمانيا ، فاجتيحت أراضيها

وضربت دورها وتفرقت جيوشها وانهار صرح حكوماتها ، فأصبحت أثراً بعد عين . ويرجع سبب كل ذلك إلى الاستعداد بأسلحة غير متوقعة ولا مألوفة مع أن أساسها بسيط معروف ، ولولا فعل المفاجأة بها وما سبقه من تهويل ودعاية لما كان لها هذا الأثر الفادح . وكيف يعقل أن الجندى وهو ينزل إلى الميدان عالماً بما سيقابله من قذائف ومفرقعات تخترق قلبه أو تطير بجزء من جسمه أو به كله فتنثره أشلاء غير معروفة فلا يصده ذلك عن خوض غمار الحرب واقتحام المعاقل والحصون — كيف يعقل أن الجندى وهو كذلك يخاف مَسَّ لهب وهو أخف ضرراً ، إذ قلما يرديه أو يقعده نهائياً عن القتال . كيف يعقل ذلك ويتصوره العقل لولا ما ألقى فى روع الناس ومنهم الجندى أن النار الجديدة تقتل ولا تحرق وتبيد ولا تنطفىء وتزداد فلا تخبو وتستقر بقوة السحر أو قل قوة العلم المجهول ، وما كل ذلك فى الحقيقة إلا نتيجة لفساد عقول الناس وضعف نفوسهم بالسماح لهذه الأضاليل أن تذاع بينهم وهذه الأخيلة أن يبثها العدو بوساطة مروجين من بين صفوفه يتخذون أردية غير أرديتهم إمعاناً فى التخفى ، وهم (الطابور الخامس)

الأدخنة :

ولعل خير الأسلحة الكيميائية الحديثة جميعاً الأدخنة التي تستخدمها الجيوش في البر والأساطيل في البحر فتعمى العدو عن حركاتها واستعداداتها ، فلا يستعد للقائها وتنطلق خلفها السفن والبوارج في البحر مقبلة ومدبرة والعدو لا يدرى مستقرها ، فلا يسدد إليها سهماً ولا يصوب لها قذيفة . ولقد اضطرت الجيوش في عهدنا هذا وهو عهد المفرقعات الحديثة إلى استحداث الأدخنة والسحب الكثيفة لأن أكثرها لا دخان له ، على حين كانت أدخنة البارود الأسود في عهد استخدامه تغنيهم عن الاستعانة بمواد خاصة . وأهم هذه الأدخنة وأكثرها شيوعا الآن رابع كلوريد التيتانيوم والفسفور الأبيض ، وكلاهما مادتان تتحولان بالحريق إلى ما يشبه النقع المثار في شكله وتزيدان عليه في الكثافة والانتشار وطول المكث في الجو فتتكون منهما سحب بيضاء أو سوداء متراكمة متلاحقة تخفي ما وراءها وتحجبه عن النظر .

القذائف المنيرة والأسهم النارية والمشاعل :

والقذائف المنيرة أحدث ما ابتدعه الكيميائيون ، فهي قذائف تطلى بمادة فسفورية تمرق كالسهم المضيء وتتبعها عين

قاذفها أو منظاره فيرى مسيرها ويعرف منتهاها فيعرف الضارب مقدار نجاحه فى إصابة الهدف المقصود .

وثمة سلاح حديث آخر ، هو الصواريخ الملونة التى ينبعث من كل واحد منها لون خاص له دلالة خاصة ومعنى يتفق عليه ، ويرسلها فريق معزول أو حارس مطار أو طيار مستفهماً عن أمر خاص أو معلناً كشفاً جديداً أو خبراً هاماً ، فيراها مراقبوها ويحلون رموزها فإذا هم يعلمون ما كانوا يجهلون من قبل ، وهذه الصواريخ هى عبارة عن أملاح كيميائية لعناصر خاصة تمتاز كل طائفة منها باكساب اللهب لوناً خاصاً . واللهب تحدثه المفرقعات التى تدفع بالصاروخ إلى الجو كما تسخن الأملاح وتفضح لونها .

وهناك المشاعل المضيئة التى تنطلق من قذائف خاصة من الطائرات ، وقد تحملها حاملات من نوع المظلات الواقية (البراشوت) فتخرج منها كرية الشكل ينبعث منها ضوء وهاج يهتك ستر الظلام ويحيل سواد الليل الحالك نوراً يبلغ فى بعض الأحيان من القوة ما يضاهى ضوء مليون شمعة .

ويستخدمه الطيارون عادة فى إغاراتهم على المدن فى الليالى المظلمة ليتبينوا على ضوئها أهدافهم المقصودة .

هذه وغيرها كثير من مبتدعات الكيمياء استغلها قوم

للحرب وللاضرار بمرافق الناس وبما أنعم الله عليهم ، ولسوف تخرج علينا الحرب القائمة الآن بطائفة جديدة من المكشوفات والمخترعات هى بلا شك أدوات تدمير وهلاك ، ولكن رب ضارة نافعة . وربما كان فيها كلها أو بعضها فائدة للإنسانية من بعد ، وأعتقد كما يعتقد غيرى أن العلم كلما توغل فى التقدم — وهو بلا شك متقدم — تمكن من تسخير قوى جديدة لم تزل سراً فى ضمير الغيب يحيل بها الحرب جحيما يكتوى بنارها كل حى . ولسوف يشعر الساسة والزعماء وذوو المطامع ومثيروها أنهم لن يكونوا بمأمن من شر ما يدفعون إليه بالملايين من بنى جنسهم ، وسينالون وهم قابعون فى دورهم أو فى دواوين الحكم للأمر والنهى والتسلط والتدبير ما ينال إخوتهم فى مجالات الموت ، بل إنهم مهما أتقنوا حراسة أنفسهم وافتنوا فى أن يقيموا حول أشخاصهم البروج المشيدة سيحيق بهم بلاء الحرب كما يحيق بغيرهم على السواء .

البترول والحرب

لم يعد معنى (الحرب الميكانيكية) يخفى على أحد من سكان مصر، ريفها وحضرها، فليس منهم من لم ير السيارات الكبيرة والصغيرة، والطويلة والقصيرة، والضخمة العالية والقزمة السريعة، والمسلحة والعاطلة، والدبابات والطائرات؛ وإن من الطائرات ما يمرق فى الجو كالسهم لا يكاد يظهر حتى يختفى لصغر حجمه وكبير سرعته، ومنها مايسير كالطود يتهادى وصوت محركاته الأربعة يطغى بأزيزه المزعج على ضجيج المدن وأصوات الناس؛ وليس منهم من يجهل الآن أن هذه الآلات المتعددة الأشكال والأنواع هى عدة الحرب وعتاده اليوم، حلت فيها محل الخيول الصافنات والجياد المطهمة ودواب الحمل من جمال وبغال وحمير، وأن من لوازم الحرب السريعة الخاطفة أن تكون وسائلها من السرعة بحيث تستطيع أن تقطع الفيافى والقفار فى ساعات وتخترق الحدود وتدك الأسوار فى لحظات، لا يعوقها فى سيرها ظمأ ولا جوع، ولا تذعرها المفرقعات فتثور وتتمرد إذا توالت

الانفجارات . وقد صار لبعضها دروع لا تؤثر فيها القذائف كأنها قلاع على عجلات ، وأنها لتطوى السهل المنبسط وتصعد فى الجبل المتوعر لا يتكاءدها سهل أو جبل ، ولا يقعد بها تعب أو ملل ، ماضيه على مشيئة راكبها ، لاحرونا ولا جموحا ، ما دام الوقود يملأ خزانها والزيت يسيل رقراقا فى أجزاء آلاتها .

هذه هى الحرب اليوم تطورت مع الاختراع وصارت آلية سريعة خاطفة مدمرة بفضل ما يسمونه الآلات ذات الاحتراق الداخلى التى تعتمد فى حركتها وتسيير آلاتها على الزيوت المعدنية أو مشتقات البترول . ولا غرو فان البترول عصب الحرب الأساسى كما كان ماء الحياة والحركة فى السلم ، تقوم بفضله أركان هامة فى الصناعة والتجارة ، ويجلب حيثما كان الرخاء والمال ، وتتدعم بوجوده اقتصاديات الأمة فيتدعم تبعا لها مركزها السياسى . فلا عجب أن تقتتل فى سبيل الحصول عليه الأمم وتتخذ منابعه أهدافا تسعى إلى السبق لاستغلالها بالمفاوضات فى السلم ، وإلى تدميرها بالدبابات والطائرات فى الحرب .

وقصة البترول ومشتقاته والنمو السريع المدهش فى وسائل استنباطه لا تخلو من طرافة ، فهى قصة ممتعة مليئة بعناصر المجازفة والإقدام وما يقابلها من عوامل اليأس والقنوط والخيبة ،

وقد كانت سبباً إلى تحصيل الثروات الضخمة والغنى الفاحش ، كما كانت سببا إلى الإفلاس وما يجره من فقر وفاقة وألم . هى قصة امتزجت فيها عوامل الحظ السعيد بالجد المتصل والبحث العلمى المثمر والاختراع المفيد والمال الوفير ، وتضافرت فى سبيل إنمائها عقول جبابرة الاقتصاد ونوابغ العلماء من كل جنس ، وخاصة أصحاب الكيمياء والمهندسين ، فأدركت فى قرابة نصف قرن ما لم تدركه غيرها من الصناعات فى قرون عدة .

فالبتروليم أو النفط كما سماه العرب معروف من قديم الزمان ، استخدمه جدودنا المصريون القدماء ومعاصروهم من أهل بابل وإيران وهنود أمريكا وغيرهم فى مرافق كثيرة ، منها الإنارة ومنها الاستشفاء من بعض الأمراض ، إلا أنهم كانوا جميعاً يستخدمونه كما وجدوه فى الطبيعة خاماً قذر اللون كريه الرائحة لزجًا تعافه النفس ويمجه الذوق .

والبتروليم كلمة مركبة من لفظتين لاتينيتين ، هما بترا (Petra) أو الصخر وأوليم (Oleum) أو الزيت ، ومعناهما معاً الزيت الصخرى أو المعدنى تشبيهاً له بالمعادن ، لأنه مثلها مستنبط من باطن الأرض ، وسماه العرب النفط ، والغريب أن اسم أحد مشتقاته الهامة هو نافثا (Naphtha) والشبه بين اللفظين واضح .

أما كيف تكون النفط فى باطن الأرض فسر من أسرار الطبيعة لا نملك حياله إلا أن نأخذ مع العلماء الذين اهتموا بموضوعه بالظنون والنظريات الفرضية ، فمنهم من يقول إنه تكون من تأثير الماء فى بعض مركبات الحديد الكربونية أو الفحمية ، ومنهم من يظن أنه كالفحم تكون فى جوف الأرض من كر العصور على بقايا نباتية أو حيوانية مدفونة فى الأرض تحت ضغط الطبقات الأرضية السطحية وحرارة باطنها . ولكن الرأى الغالب أن البترول من أصل حيوانى خالص كما أن الفحم من أصل نباتى خالص .

ويوجد النفط فى مناطق عدة من العالم بمقادير متفاوته . وأغزر منابعه فى بعض مناطق الولايات المتحدة الأمريكية ، ويقدرون محصولها بنحو ٦٠٪ من المحصول العالمى ، وثمة منابع أخرى فى جنوبى روسيا وبخاصة فى بلاد القوقاز ، وفى جزائر جاوة وبورنيو من جزر الهند الشرقية ، وفى بلاد المكسيك ، وفى مصر وعلى سواحل بحر العرب وخليج فارس .

والزيت الخام الطبيعى سائل لزج كريه الرائحة كما قدمنا ، يختلف لونه بين الأسود القاتم والأصفر ، وكثيراً ما يوجد فى طبقات من الأرض مسامية كالطبقات الرملية والطفلية الجيرية

فيختزن فى مسامها ، وفى الكهوف التى تتخللها على حين تعلوه طبقة أو طبقات من الصخر الصلد أو الحجر الصلب المتماسك ويستخرج منها بحفر الآبار خلال الطبقات الصخرية التى تعلوه فإذا ما وصل الحفر إلى الطبقة المسامية اندفع الزيت المختزن فيها بقوة تتناسب مع مقدار الضغط الناشىء مع احتباسه فيها ، واندفع معه طائفة من الغازات المتكونة معه فى محبسه . ولقد يحدث أن يخرج الزيت عمودياً فى شكل نافورة يبلغ ارتفاعها مئات الأمتار ويستمر فى ارتفاعه حتى يقل الضغط ويهبط مقدار الخارج منه تدريجياً ، ولقد يعجز مستخرجوه عن جمعه فتضيع عليهم منه مقادير وافرة . ويقولون إنه عند محاولة استغلال بعض الآبار فى بلاد القوقاز اندفع الزيت وفاض وسالت به الأباطح حتى تكونت منه بحيرة فاض زيتها إلى بحر قزوين ، وقدر ما خرج فى الأيام الثلاثة الأولى بنحو أربعة ملايين ونصف مليون جالون من الزيت الخام . وإلى جانب مثل هذه البئر الفياضة آلاف الآبار لا تنتج الواحدة جالوناً واحداً ، أو تخرج مقادير شحيحة ضئيلة لا تكاد تفى بعشر معشار ماصرف على حفرها من جهد أو مال .

والنفط مركب كيمياوى مزيج من عدة مواد تختلف كثافتها

وأعراضها وخواصها الكيمياوية ، إلا أنها تكاد تتفق جميعاً في جوهرها ، إذ هي مركبات من الكربون أو عنصر الفحم ، والإيدروجين أو عنصر الماء ، ولذا اصطلح على تسميتها بالإيدروكربونات وقد دل البحث العلمي والتحليل الكيميائي على أن النفط الخام يتكون من ٨٤ ٪ من وزنة من الكربون ، و١٢ ٪ من الإيدروجين ، وتشوبه مقادير متفاوتة ضئيلة من الكبريت والأكسجين والنتروجين .

ولقد استخدم الزيت الخام في أوائل عهد استنباطه بحالته الطبيعية ، ومن غير تنقية إلا من بعض ما يعلق به من المواد الصلبة ، كالرمال ونحوها ، وذلك بترشيحه خلال طبقة من النسيج ولقد كان بصورته تلك لا يصلح إلا لمرافق محدودة ، ولذلك كانت عملية استنباطه قديماً عملية خاسرة . ولولا أن تقدم الأستاذ بنيامين سليمان أستاذ الكيمياء في جامعة يال (Yale) بفحص النفط كيمياوياً ودراسة خواصه حتى تمكن بعد بحث طويل مستفيض من اشتقاق جملة مواد منه بحالة نقية مقبوله الشكل والرائحة — لولا ذلك لتأخر ميلاد صناعة البترول سنوات بعد عام ١٨٥٩ م وهي السنة التي تمكن فيها سليمان أن يحصل من الزيت القطراني الكريه الرائحة على منتجات شفافة تشبه أن تكون عطرية الرائحة

استخدم بعضها للإنارة وبعضها وقوداً . ولما نشرت بحوثه هب المستثمرون من كل صوب يبحثون عن الزيت المرموق ويستخرجونه من باطن الأرض خاماً ثم «يكررونه» إلى مشتقاته .
والإحصاء التالي يبين مدى نشاط هؤلاء المستثمرين ففي عام ١٨٥٩ ميلادية استنبط من آبار بنسلفانيا في الولايات المتحدة ما يملأ ألفي برميل يبلغ سعة الواحد منها أربعين جالوناً ، وزاد هذا المقدار كما يلي : —

في عام	١٨٦٩ م	كان المستخرج من نفس المنطقة	٤,٢١٥,٠٠٠	برميل
و » »	١٨٩٩ م	بلغ	٥٧,٠٨٤,٤٢٨	»
و » »	١٩٠٦ م	»	١٢٦,٤٩٣,٩٣٦	»
و » »	١٩٣٨ م	»	٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠	»

وليس من شك في أن حاجات الحرب قفزت بهذا المقدار إلى أضعافه .

هذا في أمريكا ، أما في مصر وقد استنبط البترول من أرضها لأول مرة عام ١٩١٣ م على يد الشركة المصرية الإنجليزية للنفط فقد استخرجت المقادير التالية

في عام	١٩١٤م	بلغ المستخرج	٧,٠١٠	طن	أي ما يعادل	١,٧٩٥,٠٠٠ جالوناً
» »	١٩٢٤م	» »	١٥٩,٥٩٠	»	» »	٤٠,٨٥٥,٠٠٠ »
» »	١٩٣٤م	» »	٢٢١,٠٢٨	»	» »	٥٦,٥٨٣,٠٠٠ »
» »	١٩٣٨م	» »	٢٢٥,٧٣٣	»	» »	٥٧,٧٨٨,٠٠٠ »

وعملية تقطير النفط صناعياً أو تكريره كما يقولون ، معقدة

وتختلف بمختلف الأمكنة ، إلا أنى سأتناول بالشرح هنا الخطوات الأساسية وهى التى تتفق فى جميع الأحوال والمناطق .

وتقطير سائل كما هو معروف عبارة عن تسخينه فى وعاء مناسب مع الاحتفاظ بالأبخرة المتصاعدة وإمرارها فى أنابيب ومسالك تبرد بطريقة ما فتهبط بذلك درجة حرارة البخار ويتكاثف فيتحول إلى سائل يستقبل فى وعاء نظيف ؛ وهذه العملية نفسها هى عملية تقطير النفط الخام ، إذ يوضع فى أوعية أو أحواض من الحديد تحمى بوقود مناسب وترتفع درجة حرارتها حتى تغلى ، ويتصاعد منها فى أثناء ذلك أبخرة المشتقات المختلفة الداخلة فى تكوين المزيج ، وتمر هذه الأبخرة فى أنابيب تحملها إلى خزانات خصص كل واحد أو عدة منها لنوع معين من المشتقات التى تنتج من التقطير .

وأساس العملية هو تجزئة النفط إلى ٤ أقسام : القسم الأول هو ما يقطر فيما بين درجتى ٤٥° — ٧٠° مئوية ، ويسمى تجارياً : إيثير البترول ، وهو سائل تبلغ كثافته نحو ثلثى كثافة الماء ، ويستخدم فى الصناعة كمذيب للزيوت والمواد الدسمة ، إذ كثيراً ما تحصل على زيوت بعض البذور بعد طحنها بنقعها فى إيثير البترول ، ولما كانت هذه المادة سريعة التطاير فإن من الممكن

أن يتخلص الزيت منها بسهولة ويبقى فى وعائه ؛ وتستخدم هذه المادة أيضاً فى تنظيف الملابس كما تتخذ مذيباً للمواد الراتنجية والشمعية فى صناعات الأدهنة والورنيش .

والقسم الثانى هو ما يقطر فيما بين درجتى ٧٥° — ١٥٠° مئوية ، ويعرف فى الصناعة باسم (الجازولين) ويشتهر بين العامة باسم البنزين أو البترول ، وهو وقود محركات السيارات والطائرات .

والقسم الثالث هو ما يقطر فيما بين درجتى ١٦٠° — ٣٠٠°م ويعرف فى الصناعة باسم (الكيروسين) ويشتهر بين العامة باسم (الجاز) ويستخدمه سواد الشعب فى الإنارة والطبخ والمرافق المنزلية الأخرى وفى إدارة بعض الآلات الزراعية . وهو سائل شفاف ذو لون خفيف الزرقة تبلغ كثافته حوالى أربعة أخماس كثافة الماء ، أى أن خمسة لترات منه مثلا تزن ما تزنه أربعة لترات من الماء .

أما ما يبقى فى أوعية التقطير بعد ذلك فإنه يترك فى كثير من الأحوال ليبرد فتنفصل منه عند ذلك مادة صلبة شفافة تميل إلى البياض تسمى بالبارافين ، وتستخدم فى عمل الشموع وفى بعض أدوات العزل الكهربية . ويبقى فى قاع الوعاء بعد فصل البارافين

منه سائل أسود لزج يعرف بالمازوت أو « الزيت الوسخ » ويستخدم فى إدارة بعض آلات رسمت على أساس استخدامه وقوداً ، ومنها آلات (ديزل) .

وإذا قطر المازوت فى درجة أعلى من ٣٠٠° مئوية حصلنا منه على بعض مواد أخرى ، نذكر منها الفازلين ، وهو عجينة رخوة لينة ، والنقى الشفاف منها يستخدم كثيراً فى عمل المراهم والأدهنة الطبية وفى مواد التطرية والزينة للسيدات كما نحصل على نوع رخو من الشمع يستخدم فى طلاء الأراضى والأثاثات الخشبية وعلى أنواع أخرى مختلفة من الزيوت اللزجة يشيع استعمالها فى تشحيم أجزاء الآلات نذكر منها زيت المحاور وزيت الاسطوانات وزيت سولار وهلم جرا . . .

ولا يبقى فى الأحواض بعد ذلك إلا الأسفلت والقار ، ويستخدمان غالباً فى رصف الطرق وبعض منافع أخرى .

ولما كان النفط كما قدمت مزيجاً يتجزأ بالتقطير إلى منتجات عدة فإن كل واحد من هذه المنتجات يمكن أن نحصل منه على مشتقات أكثر نقاء وأقل تعقيداً فى تركيبها من المزيج الأصلى أو الفرعى ومعنى ذلك أن المشتقات البترولية المألوفة كالغازولين والكيروسين ليست مواد نقية ذات جوهر خاص ومزاج خاص

كالماء أو الكحول مثلا ، ولكنها مادة تتكون من مزيج من جملة مواد متقاربة متشابهة فى الشكل والخواص والتركيب ، ولذلك ربما اختلف بترول « فاكوم » عن بترول « شل » بعض الاختلاف ، ولا قيد يربط استنباطهما إلا درجات التبخر والغليان والاشتعال ، ومثل هذا القول ينطبق على البنزين للسيارات ، ولا يتسع المجال هنا لتفصيل هذا الموضوع وإيفائه حقه من الشرح والبيان لأننا قصرنا مقالنا على آثار هذه المواد فى الحرب .

والنفط المصرى إذا صفى تصفية عادية حصلنا منه على المنتجات الآتية :

منتجات خفيفة وجازولين	٧٫٧٣ ٪
« متوسطة أو كيروسين	١٤٫٢٤ ٪
« ثقيلة أو مازوت	٧٧٫٢١ ٪

ولا يختلف النفط المستخرج من أماكن أخرى كثيراً عن هذه النسب ، ومما نعرفه جميعاً أن سعر البنزين (الجازولين) يزيد على ضعف سعر الكيروسين أو البترول حجماً بحجم ، فثمن الجالون من البنزين اليوم يبلغ ١٠٥ مليمات على حين لا يزيد سعر جالون البترول على ٤٨ مليما والكميات التى يستنفدها العالم منهما فى نمو مطرد ، فعدد السيارات والطائرات فى زيادة مستمرة

وبخاصة الآن ونار الحرب تستعر فى أركان الأرض الأربعة ، ويبلغ عدد جيوشها المتحاربة نحو سبعين مليونا يؤلف كثير منها فرقا ميكانيكية سريعة الوثبة خاطفة الحركة متنقلة فى ميادين مائعة رجراجة تبدأ المعركة فى أحدها على مسمع من سكان الاسكندرية مثلا وينتهى بعد أسابيع على مرأى من سكان تونس ، يعاونها على ذلك آلات القتال الحديثة الميكانيكية السريعة على سطح الأرض والماء وفى جوف البحر . وفى كبد السماء ، والغازولين طعامها وشرابها .

ومن قبل ، فى أيام السلم الماضية ، وفيما بين الحربين العظيمتين ، تطورت صناعة السيارات والطائرات وتنوعت أشكالها حتى كان من الميسور على كثير من الناس فى أمم عدة اقتناء السيارات الخاصة والتطلع إلى اقتناء طائرات خاصة كذلك ، فزاد الطلب على الجازولين والكيروسين زيادة حدت بالكيمائيين إلى البحث وراء زيادة إنتاجهما والحصول على مقادير أوفر مما أمكن الحصول عليه ، واتخذ العلماء لذلك طريقتين نجحوا فيهما إلى حد كبير .

أما الطريقة الأولى فقد قامت على أساس ما سبق أن ذكرناه فى هذا المقال ، وهو أن النفط مزيج من جملة مركبات متشابهة

التركيب مختلفة الجوهر والأعراض بعضها بسيط وبعضها مركب ، وأن المشتقات الخفيفة القليلة الكثافة تتكون من البسيطة التركيب ، وأنه كلما زاد تعقد المركب منها زادت كثافته واحتُسبت مواده من المشتقات الثقيلة ، فلو تمكن العلماء من تبسيط التركيب لأمكن تحويل المشتقات من ثقيلة قليلة القيمة إلى خفيفة مرغوب فيها ومطلوبة بأثمان أعلى ، وقد نجح العلماء فى ذلك فعلا بعملية تعرف بعملية التحطيم ، تنحلّ فيها جزئيات الزيوت الثقيلة بفعل الحرارة الشديدة إلى زيوت خفيفة ، ويتم ذلك باستخدام عوامل مساعدة خاصة و بتقطير النفط من بروج مرتفعة لا يتصاعد منها إلا أبخرة المنتجات الخفيفة ، وأما الثقيلة فيمنعها إرتفاع البرج وثقلها من التصاعد ، فتتكاثف قبل أن تصل إلى القمة وتتساقط رذاذا خفيفا على السائل المحمى فى جوف البرج ، فتحطمها الحرارة الشديدة بتأثير المواد المساعدة فتنحل إلى منتجات أخف ؛ وهكذا أمكن رفع نسبة الجازولين الحاصل من التقطير من ٨٪ إلى أكثر من ٢٠٪ من النفط الخام .

هذا وقد اتضح أن المنتجات الحاصلة من تقطير النفط الخام لا تصلح للاستخدام الصناعى إلا بعد تنقيتها من الشوائب التى تخرج من الأبخرة ، وهذه الشوائب فى الغالب هى مواد دهنية

وقطرانية لو سمح لها بدخول مسالك الآلات الدقيقة لسدتها وعطلت عملها ، ولذلك حرصوا فى الطريقة العامة لتنقية مشتقات البترول ، على مزجها أولا بزيت الزاج ، أو حامض الكبريتيك المركز الذى يفحّم تلك الشوائب فيرسّبها ، ثم تنق الزيوت بعد ذلك من آثار الحامض بغسلها بمحلول الصودا الكاوية ، ثم بالماء النظيف الذى يزيل آثار الصودا . وإذا كان الزيت الخام يحتوى الكبريت عند خروجه من باطن الأرض ، فإنه ينقى منه بأن يضاف إليه المرتك الذهبى (وهو أكسيد الرصاص الأصفر) فيرتبط بالكبريت مكوناً راسباً يسهل التخلص منه ، وإذا تمت تنقية الزيوت من الشوائب الغريبة أعيد تقطيرها المرة الثانية ، فتخرج نقية خالية من كل ما يضر الآلات .

أما الطريقة الثانية : فهى طريقة الحصول على البترول الصناعى من الفحم ، وقد قامت لذلك مصانع عدة فى البلاد الصناعية الكبرى التى حرمتها الطبيعة نعمة وجود النفط الخام فى أراضيها ، وبطلُ هذه الصناعة ومبدعها كيميائى ألمانى فذ اسمه (بيرجيس) بدأ تجاربه منذ عام ١٩٠٩ م ، ولم ينجح فيها نجاحا ذابال إلا عام ١٩٢٦ م ، وبدأت المصانع تعمل فى إنتاج الجازولين الصناعى من الفحم ، وتكثر حتى بلغ محصولها ٧٥٠,٠٠٠

طن عام ١٩٣٦ على حين كان انتاج مصنع آخر من نفس النوع في إنجلترا ١٥٠,٠٠٠ طن ، وهذا أمر طبعي فإن في الإمبراطورية البريطانية منابع عدة للزيت الخام تغنيها عن البترول الصناعي ، وليس لألمانيا شيء من ذلك .

وعملية « بيرجيس » مبنية في الأصل على مشاهدات وحقائق معروفة ، أولها أن الفحم كالنفط يرتكز في تركيبه على عنصري الكربون والإيدروجين ، إلا أن نسبة وجود الإيدروجين إلى الكربون في الفحم أقل منها في النفط ، وعلى هذه القاعدة بدأ يجري تجاربه وبحثه ، محاولا أن يزيد نسبة الإيدروجين في الفحم إلى الحد الذي يأمل أن ينقلب فيه الفحم إلى زيت ، أو ما يشبه الزيت . وقد اتخذ لذلك طرقاً عديدة كثيرة التكاليف ، ولكنه نجح فيما أراد إلى حد ما . وفي أثناء هذه التجارب كانت الحرب الماضية قد نشبت وضُرب على ألمانيا الحصر البحري المعروف الذي كان من أكبر عوامل هزيمتها ، وكان من نتائج هذا الحصار أن اشتدت حاجة بلاده للبترول ، فضاعف جهده وعاونه غيره ، لكنه لم يدرك نجاحًا يحقق الغرض بإنتاج مقادير كثيرة .

انتهت الحرب ولكن ألمانيا لم تنس ما لقيت من الحرمان

والفاقة ، وكانت عمليات التحطيم التى أجملنا وصفها فيما سبق تسير قدما فى طريق النجاح بأمريكا وانجلترا وفى ألمانيا ذاتها ، وكانت تنتج من تحطيم جزئيات الزيوت الثقيلة إلى منتجات خفيفة مقادير هائلة من زيوت لم يفكر أحد فى الانتفاع بها إلى حد كبير فى الصناعة ، فاستغلها (بيرجيس) فى تحويل الفحم الألمانى الفج الرخيص إلى زيت بترول .

وتتلخص عملية (بيرجيس) فى سحق الفحم وعجنه فى النفط الأولى مع عامل مساعد هو أكسيد الحديد ، ثم حبسه مع غاز الأيدروجين والغازات البترولية الأخرى فى أوعية خاصة وتسخينها تحت ضغط يتشبع عنده الفحم بالأيدروجين ويستحيل زيتاً ، وتمكنت المصانع من استغلال نتائج هذا البحث فحصلت على مقادير كبيرة عام ١٩٢٦ م كما قدمنا .

والطريقة الألمانية وغيرها أسرار يحرص أصحابها على الاحتفاظ بها ، ولكن من المعروف المسلم به أن تكاليف الحصول على الغازولين بهذه الطريقة الصناعية تزيد أضعافاً عن الحصول عليه من النفط الأولى ، ولولا الحاجة الحربية وخوف الحصر البحرى وانقطاع الوارد من النفط بسببه لكانت هذه العملية فى حساب الصناعة من العمليات الخاسرة .

وألمانيا تعرف كل ذلك ، فقد بلغ ما استوردته من الزيت الأولى فى عام واحد قبيل الحرب ١٬٧٢٤٬٠٠٠ طن بينما استوردت بريطانيا العظمى ٨٬٣٥٦٬٠٠٠ طن فى نفس المدة ، ويقدر العارفون حاجة ألمانيا فى سنة واحدة من سنى هذه الحرب بما لا يقل عن ٢٠٬٠٠٠٬٠٠٠ طن ، وربما تضاعف هذا المقدار الآن إذا حسبنا حاجة جيوش الأمم التى تُظاهرها فى حربها الحالية ، ومعنى ذلك أن مصانع البترول الصناعى لا بد أن تنتج منه أمثال ما كانت تنتجه فى عام ١٩٣٦ م أى قبيل الحرب بثلاث سنوات ، خمسين مرة . وليس هذا بالأمر الهين ، وبخاصة بعد ما اتخذت الطائرات البريطانية والإمريكية والروسية هذه المصانع بالذات أهدافاً تخيرها وتصب عليها قنابلها فتدمرها تدميراً .

فلا عجب مع ذلك أن تسعى ألمانيا إلى اقتناص آبار الزيت فى القوقاز ، ولولا أن أفسد الحلفاء عليها تدبيرها بالاستيلاء على مناطق النفط فى العراق وإيران لبلغت مبلغاً له خطره فى هذه الحرب القائمة .

الخرسانة

ماجينو ، وزجفرد ، ومارت ، وستالنجراد : أسماء لاكتها الألسن بكل لغة ، وسمع بها الناس فى جميع أنحاء الأرض، وكتبت عنها الصحف الفصول الطوال ، ورددها المذيعون فى إذاعاتهم صباح مساء فى أقطار الأرض ، فاحتلت لذلك مكاناً مرموقاً فى أذهان الناس وسمرهم . وسيكون لها فى كتب المؤرخين الحربيين المكانة التى امتازت بها من قبل نامور ولييج وحصونهما المنيعة فى الحرب الماضية .

وأمثال حصون ماجينو وزجفرد ومارت : خطوط طويلة تتألف من عديد من القلاع والحصون أقامتها دول أوربا على حدودها وفى الأماكن التى كانت تخشى منها خطر الغزو ، وصرفت فى سبيل ذلك المال الكثير والجهد الجبار لتأمن شر عدو طامع ، أو لتحتفظ بربح جاءها عن طريق المطامع فى الماضى القريب أو البعيد ، وكلها حصون منمقة مدروسة حوت كل سلاح واستمدت لكل طارئ ، ففيها المخازن للزاد والذخيرة

والوقود ، والمهابط للطائرات ، والكهوف للمدافع ، والملاجئ للجند ، وفيها مسالك وطرق ومساكن انتظمت فيها مرافق الإنسان جميعاً وما يحتاج إليه حُراسها فى ساعات الجهاد أو فى سويعات الراحة من الضرورى والكمالى .

وإقامة المعاقل والحصون قديمة معروفة ، حتى لقد كان جدودنا ومعاصروهم يقيمون الأسوار حول المدن ويفتنّون فى تضخيمها وتسليحها بكل ما يزيد فى مناعتها ويحفظ على أهلها عزتهم وكرامتهم ويصونهم من غارات عدو عاد أو غاز جبار . وكانوا يسخّرون فى سبيل ذلك آلاف الجند والعمال والأسرى ، يجلبون الأحجار وينقلون الصخور ويقدّونها من التلال الحجرية والجبال الصخرية القريب منها والبعيد ، وربما استغرقوا فى بنائها السنين الطويلة . وكان الأمراء والملوك يتسابقون فى أمر تنميقها وتقويتها والإضافة إليها ، وظلت الحال كذلك قروناً طويلة ، حتى عهد البارود وما بعده ، إلى أن تطورت أدوات القتال واحتلت القذائف النارية وحرب المفرقعات مكانها من المدنية الإنسانية الحديثة ، فضعف إيمان الناس بالقلاع والحصون بعض الضعف ، وبخاصة حينما قضى نهائياً على الرق والعبودية وحددت أمور أسرى الحرب باتفاقات دولية ، فاكتفى من هذه الحصون بالقليل

النادر ، واتخذت منها مخافر ومعاقل وثكنات للجند على النقط الهامة من حدود هذه الدولة أو تلك .

ثم جاءت الحرب الأوربية الماضية وتطورت الأساليب مرة أخرى ، وانتقلت مواقع الحرب من الميادين إلى الخنادق يرابط فيها الجند آمادا طويلة يتبادلون القذائف والمهلكات ، ويستنفدون الآلاف المؤلفة من أطنان المفرقعات ، فتهلك الملايين من الجند وتنتهى الحرب بانهيار الدولة وما سقط حصن من حصونها ولا تهدم معقل من معاقلها .

حدث هذا التطور فى أساليب الحرب فظن الناس أنه الأسلوب الأخير من أساليب القتال ، وأنه سيدوم ، فاستعدت فرنسا بخط طويل من الخنادق المعدة إعداداً صالحاً ، وجعلته تام التحصين كامل العدة ، وبذلت له الكثير من أموالها ومن جهد رجالها وفن مهندسيها واحتيال قوادها العسكريين وزعمائها السياسيين ، وكان خط ماجينو وخط مارت هما نتيجة ذلك الجهد الجبار ، وقد أضفوا عليهما من الأوصاف ما نشر الطمأنينة فى نفوس الشعب الفرنسى وحكوماته المتتابعة ، فتقاعسوا عن الاستعداد بغير ذلك من الأسلحة ، ونسوا أو تناسوا أن الدبابة والطائرة الحربية قد ولدتا مع حرب الخنادق الحديثة ، وأن تطورهما

جدير بالتفكير ، كتطور الخنادق وإعدادها ، وكان الأجدر بهم أن يستعدوا بهذه وتلك كما فعل غيرهم .

ولكن ما لنا ولهذا ، فإنما بدأنا هذا الحديث لبيان أن شئون الحرب وأساليبها تتطور مع الزمن بتطور الاختراع والكشف العلمى الحديث ، وأن القلاع والحصون المبنية فى بطن الأرض ، والتى حلت محل الحصون المبنية على سطحها — بعد أن ثبت أن الحصون المبنية على السطح لا تقوى على مقاومة المفرقعات والمدافع وداناتها والطائرات وقنابلها — هذه الحصون والقلاع قد صار فى حيز الممكن الميسور التوسع فيها بفضل استخدام (الخرسانة) والتطور الذى أدخل على تكوينها بفضل اختراع (السمنت) . فأصحاب الكيمياء بكشفهم السمنت وطرق عمله وتيسير الحصول عليه مكنوا المهندسين من تكوين الخرسانات ، وهذه لسهولة عملها مع متانتها الفذة ، وبخاصة بعد تسليحها بالحديد ، استغلها الحربيون فى إقامة القلاع والحصون والانتفاع بها فى الأساليب الدفاعية المشابهة لها التى تعوق الغزو وتؤخره إن عجزت عن صده تماماً ، كما أثبتت تجربة هذه الحرب القائمة أن السمنت المسلح أثبت المواد التى تنال منها قنابل الطائرات أو قذائف المدافع عن بعد أو قرب ، وأقواها على مقاومة فعل المفرقعات المتفجرة .

ولعل أحسن ما تعرف بِه الخرسانة أنها الصخر الصناعى . واختيار هذا الاسم فى اللغة العربية اختيار موفق ، فالخرسان نوع من الصخور النارية التى كونتها الطبيعية من مواد مختلفة لا تربط بين الكثير منها علاقة كيميائية ظاهرة ، وإنما صهرتها الحرارة الشديدة فامتزجت ثم بردت فجمدت وتماسكت فصارت شديدة الصلابة قاسية النحت والتشكيل . ويتفق هذا فى شىء ويختلف فى أشياء عن الخرسانة (أو الصخر الصناعى) . فهى تتكوَن أو يمكن أن تتكون من جملة مواد ليس بينها صلة كيميائية ظاهرة إلا أنها التصق بعضها ببعض بفعل مادة ملصقة هى (السمنت) ، ويتم ذلك بفعل الماء لا بفعل الحرارة . وهذا الصخر الصناعى سهل التشغيل ميسور التشكيل على كل صورة يراد لها ، أعمدة وأساساً وكتلاً منظمة أو غير منظمة وشرائح طويلة أو قصيرة منبسطة ، وقضباناً ممتدة وزخارف . ولا تحتاج صناعته مع ذلك إلا إلى أحجار وماء ومكان صالح لخلط هذه المواد ، ثم تصب فى قوالب أعدت على الصورة المطلوبة . ولو أريد بناء أهرام جديدة من الخرسانة كهذه الأهرام بالجيزة التى استنفدت جهود الآلاف من العمال فى سنين متطاولة لأمكن ذلك فى أيام معدودات بعدد من العمال يعجز مثله عن نقل ثلاثة من أحجار هذه الأهرام الفرعونية

و « السمنت » مادة يعرفها أكثر الناس ، فهو مسحوق رمادى اللون يباع فى الأسواق فى أكياس من الورق المتين أو الخيش ، وتعرف وحدته بالشيكارة ، وتزن فى الغالب خمسين كيلو جراماً . وإذا ما لمسته أدركت أنه مسحوق ناعم غاية النعومة ، ولعلك تدهش إذا علمت أنه لنعومته يمر خلال ثقوب منخل حريرى يبلغ من دقة النسج أن فى السنتيمتر المربع منه أكثر من ٣٦٠٠ ثقب . وتعرف هذه المادة السنجابية باسم (سمنت بورتلاند) وإنما سمى كذلك فى الأصل لأن الخرسانة المتصلبة منه تشبه فى لونها نوعا من الحجر يستخرج من محاجر منطقة بهذا الاسم فى بلاد الإنجليز :

والسمنت ليس مادة طبيعية ، بل هو نتيجة عملية كيميائية صناعية موادها الأولية : حجر الجير ، والطمى أو الطفل ، يخلطان معا بنسبة معينة ، ثم يسحقان ويمزجان جيداً ، ويُعرَّض هذا المزيج الدقيق بعد عجنه بقليل من الماء إلى حرارة شديدة الارتفاع فى اسطوانات منحدرة . وتبلغ الحرارة بهذا المخلوط درجةً تجعله أقرب إلى درجة التلين الذى يسبق الانصهار ، ثم ينقل هذا المزيج المطبوخ إلى اسطوانات فى داخلها كرات ثقيلة من الصلب وتدور هذه الاسطوانات فى حركتها على محاور ثابتة فتهرس

الكرات الصلبية المتحركة المزيجَ فى داخلها وتُحيله دقيقاً ناعماً هو السمنت . وحجر الجير مادة كلسية تعرف كيمياوياً باسم كربونات الكالسيوم ، وتتركب من الجير وثانى أكسيد الكربون (أو غاز الكربونيك) الذى يخرج من جسم الإنسان والحيوان فى حركة الزفير ، وينحلّ حجر الجير إليهما بالتسخين . والطمى مادة رملية أو سليكية يدخل فى تركيبها عنصران : هما السليكون « أساس الرمل » مع الألومنيوم الفلز المعروف ، ومعهما عنصر الحياة وهو الأكسجين . والحرارة الشديدة تحيل هذه المواد المختلطة إلى مواد جديدة ذات مزاج وخواص جديدة ، هى كما يسمونها خليط من ثالث سليكات الجير ، وثالث ألومينات الجير ، ومنهما يتكون المسحوق الناعم الأشهب المعروف بالسمنت . وإذا ما أضيف الماء إلى السمنت حدثت تفاعلات كيميائية جديدة معقدة مجهولة الحقيقة تماما ؛ ولكن الذى نعرفه أن الماء يحيل المسحوق الدقيق إلى إبر متداخلة متماسكة ، وهذا سر متانتها وصلابتها ، فإنها تبتلع قطع الصخر أو الزلط والرمل وتكسوها وتتغلغل فيما بينها من فجوات وثقوب ، مالئةً ما فيها من مسام ، كاسية سطوحها بدقيقها أولا ، ثم بعجينتها بعد ذلك ؛ وعندما ينقضى الوقت الكافى لتمام التفاعل الكيميائى تتكون البلورات الإبرية وتتداخل وتتماسك ،

فتضم قطع الصخر أو الزلط بعضها إلى بعض وتجعلها كتلة واحدة لها صلابة الصخر الطبيعي أو تزيد ، وتثبت مثله لتقلبات الجو وفعل الرياح والأمطار ، ولا ينال منها مر السنين والقرون . وقد أثر الفحص الكيميائى عن السمنت وفعله فى الخرسانات بعض الآثار المفيدة ، وثبت أنه يمكن بإضافة مقادير قليلة من مواد أخرى مثل مركبات المنجنيز والكروم إلى مكونات السمنت أن ينتج منه أنواع تصلح لإنشاء خرسانات مائية تعمر طويلا وهى مغمورة بالماء الملح . وينتفع بهذه الأنواع فى بناء أرصفة الموانى وقواعد المنائر والفنارات مثلا .

ومن نحو ستين عاماً اخترع جوزيف مونييه الفرنسى ما يسمى بالخرسانة المسلحة ، وهى عبارة عن قيام الخرسانة العادية حول هيكل من قضبان الحديد أو الصلب أو أسلاكهما مشتبكا بعضها ببعض متماسكة الأطراف والنواصي على صورة الجدار أو البناء المراد إنشاؤه . ويقام حول هذا الهيكل الحديدى قالب أو قوالب من ألواح الخشب يصب فى جوفها مخلوط الخرسانة بعد مزجه تماما ، ثم تزال هذه القوالب بعد فترة من الزمن ، فإذا الخرسانة الصلبة قد انتصبت كتلة متماسكة حول قضبان الحديد الدفينة فى داخلها وكستها كما يكسو اللحمُ العظام فى الجسم الحيّ ،

وبهذه الوسيلة أمكن زيادة مقاومة الخرسانة لقوى الضغط والاحتمال ، ولذلك سميت بالخرسانة المسلحة ، وأمكن تشكيلها فى صور لم تدخل فى حساب البنائين من قبل . ولقد حدث فى أثناء الحرب الماضية أن عز الحصول على الصلب اللازم لبناء السفن ، على حين زاد الطلب عليها لكثرة ما كان يغرقه العدو منها من ناحية ، ولسد طلبات الجيش المحارب فى فرنسا والميادين الأخرى . وقد دفعت هذه الحاجة الملحة الطارئة إلى التفكير فى بناء هيا كل السفن الصغيرة من السمنت المسلح ، وقد أظهرت التجربة أنه يصلح لذلك من جميع الوجوه ، إلا أنه لا يحتمل آثار الاصطدام الفجائى ولا يقوى على مقاومته ، لقلة مرونته بالنسبة إلى غيره من مواد بناء السفن كالحديد والصلب والخشب .

وتمتاز الخرسانة المسلحة من الوجهة الحربية بسرعة إقامتها وسهولة تشكيلها على كل صورة مرغوب فيها ، مع متانتها الفائقة ومقاومتها للنار ولفعل القذائف وآثار المواد المتفجرة وضغط الانفجارات . وقد ذكرنا فيما سبق أن تحول ميادين الحرب من ساحات إلى خنادق فى الحرب الأوربية الماضية حمل الدول على التفكير فى ضرورة حماية الحدود بإقامة خطوط من التحصينات فى باطن الأرض وعلى سطحها ، ومعاقل للجند والأسلحة ،

ومخازن للدخائر والمؤن ، وثكنات للعسكر ومساكن لضباطهم . وقد أنفق فى سبيل إنشاء ذلك كثير من المال والجهد ، ولكن سرعة تطور الاختراع قد جعلت ذلك كله هباء كأن لم يكن . فكلما ابتدع مخترع سلاحا جديداً للهجوم نشط خصمه للتفكير فى ابتداع سلاح مضاد يدافع به عن نفسه ضد هذا السلاح ، وهكذا كان تسابق الأمم فى أمور التسلح بالحديد ، وفى الاستعداد لأسلحة غيره .

وتمتاز الحرب الحالية عن سابقتها بالهجوم الجوى على المدن والمعسكرات والمعاقل والأهداف الأخرى من مصانع ومطارات ومحطات وموان ، حتى السفن فى البحر لم تنج من المهاجمة ولا الغارات الجوية ، ولذا اهتمت الدول جميعاً فى شتى أنحاء الأرض بإقامة المخابىء يلجأ إليها الناس وقت الغارات لاتقاء شر القنابل وشظاياها والانفجارات وتدميرها ، واستغلوا فى ذلك السمنت والخرسانة المسلحة إلى أقصى حدود الاستغلال . ويقول العارفون الذين درسوا مسير القنابل فى أثناء سقوطها فى الجو من الطائرات وحللوا تأثيراتها إلى عناصرها ، أنها لا تسقط أبداً فى خط رأسى ، إذ أنها تشق طريقها أولا فى الجو فى اتجاه الطائرة وفى مثل سرعتها بحكم القصور الذاتى ، ثم تميل نحو الأرض بحكم

الجاذبية ، فتتخذ طريقاً مقوساً يستقيم بالتدريج كلما دنت القنبلة من سطح الأرض وبعدت عن مسقطها ، ولذلك كثيراً ما تصيب واجهات المبانى دون سطوحها ، فإذا كانت حيطانها من الخرسانة المسلحة تكسرت وتهشمت ، ولكن بعض أجزائها يظل متماسكا نوعا ما ، على خلاف ما يحدث للحيطان المبنية من الطوب أو الحجر ، فإنها تتهشم وتتناثر فتؤذى خلقاً كثيراً .

ويقول العارفون كذلك إن القنبلة إذا مست هدفا سارت موجة تأثيرها فى اتجاهين اثنين لا ثالث لهما . أولهما موجة تتجه إلى أسفل وتبدأ حيث أصابت القنبلة هدفها ، والموجة الثانية تسير فى اتجاه أفقى بمحاذاة سطح الأرض أو مستوى الإصابة فتهتز الجدران تبعاً لذلك وتتصدع أو تنهدم إذا كانت غير متينة أو متماسكة تماسك الخرسانة المسلحة .

ثم يأتى الانفجار بعد ذلك وتناثر الشظايا ، وتصحب ذلك موجة تضاغط فجائى شديد يكتسح بقوته الكثير مما يقع فى دائرة تأثيره ، تتبعها موجة تخلخل فجائى شديد كذلك تضر بالمبانى ضرراً فادحا ، لأنها تحدث تفريغاً تاماً للمبانى مما يملأها من الهواء ، فتنهار الجدران دافنة تحت أنقاضها من يكون فيها من الناس ، اللهم إلا إذا كانت هذه الجدران من الخرسانة المسلحة ،

فإنها لقوتها تقاوم إلى حد كبير فعل موجتى التضاغط والتخلخل ، كما تثبت لصدمات الشظايا فلا تكاد تخدشها ، وإنما لتخترق غيرها من الحيطان . ولهذا السبب أى لقوة مقاومة الخرسانة المسلحة للشظايا ولموجات الانفجار شاع استخدامها فى بناء المخابىء السطحية والمخابىء المدفونة ، وقد جعل للثانية حوائط مزدوجة وسقوف مزدوجة ، حتى إذا تهشم الحائط الخارجى منها ثبت الثانى وسلمت المخابىء بمن فيها من الناس والمتاع .

أما بعد فهذا هو فعل السمنت السحرى ، وهذه قوة خرسانته ، فهو يخرج من المصنع دقيقاً كيمياوياً يتحول من عجينة رخوة إلى صخر صناعى صلد يحيله المهندس إلى أكواخ أو قصور وزخارف أو حصون لا تقوى إلا المفرقعات الشديدة الانفجار على النيل منها بعد جهد ، فأتاح للإنسان أن يجد ملاجىء يأوى إليها ويتقى فيها شر هذه الحرب الضروس .

الحديد والصلب

تنعت الحرب الآن بالميكانيكية الآلية ، لأن قوامها الآلات والعربات والسيارات والطائرات والأسلحة الضخمة والخفيفة وغيرها من الآلات ، ولا يتم بحث فى موضوع الحرب وآلاتها إذن إلا بذكر شيء عن الحديد والصلب ، فمنهما بنيت واتخذت سبيلها فى البر والبحر والجو جميعاً . وقديماً استغل الحديد فى عمل الأسلحة فى أركان الأرض جميعا ، ولطالما تغنى الشعراء وتفاخر الخطباء بالمهند واليمانى وهى سيوف صيغت من حديد الهند أو فى بلاد اليمن . وقد ورد ذكر الحديد فى الكتب السماوية ، وعثر على ما صنع منه فى آثار الأمم المتقدمة فى الشرق والغرب . وليس هذا بالمستغرب ، فإن خام الحديد متعدد ومتوفر فى كثير من أنحاء الدنيا ، كما أن استنباط الفلز من خام الحديد سهل ميسور إذا أحمى هذا الخام فى نار شديدة وقودها الخشب أو الفحم

والحديد مع وفرة خامه لا يوجد خالصاً فى الطبيعة إلا فيما ندر ، كأن نعثر عليه كتلا أو عروقا معدنية لامعة فى بطون الشهب

السماوية التى تتساقط على الأرض آونة بعد آونة . وأكثر ما يعثر عليه فى خامة مرتبطا بالأكسجين أو الكبريت . وجبال منطقة أسوان غنية بنوع من أكاسيده ، ويبلغ حداً من الكثرة هناك جعل بعضهم يقدر أن حديد أسوان يكفى لسد حاجات العالم لمدة ثمانين عاما ، فى أيام السلم طبعا .

ويرجح العلماء أن الأرض كرة من الحديد المنصهر، تكسوها قشرة من المواد المحتوية على العناصر الأخرى ومركباتها ، ويستدلون على هذا الرأى بأن كثافة الكرة الأرضية أقل من أن تتناسب مع كثافة قشرتها ، وبأن للارض أثراً مغناطيسيا لا يعرف إلا للحديد ، وبأن الحديد يكوّن جزءا هاما من أجسام الأجرام السماوية ، وذلك مشاهد ملموس فى النيازك والشهب المنفصلة عن نجومها كما انفصلت الأرض ، فلا عجب أن تكون مادة الأرض من مادة هذه الأجرام .

وليس من الميسور تحديد مقدار ما يستخرجه العالم الآن من الحديد فى عام ، ولكن بعض الإحصاءات تدل على أن ما استخرج منه فى عام ١٩٣٥ يربو على مائة مليون طن . ولا بد أن يكون هذا المقدار قد تضاعف بعد عام ١٩٤٠ عند ما تحركت الآلات الصناعية فى انجلترا وأمريكا وغيرهما بكامل قوتها وتمام

جبروتها لسد حاجات الحرب وتجهيز جيش ميكانيكى يتألف من ملايين المحاربين وما يحتاج إليه من سلاح وعتاد ومطايا وأساطيل من السفن كلها أو جلها من الحديد والصلب وما يتبع ذلك من بناء استحكامات تجمع بين سرعة الإقامة ومتانة البناء من الخرسانة المسلحة بالحديد. وقد قدر بعض الباحثين أن ما يستهلكه العالم من الحديد الآن فى ساعات معدودات من يوم واحد من هذه الحرب يربو على المقدار الذى كان يسد حاجة العالم فى عام كامل منذ قرن واحد من الزمان.

واستخلاص الحديد من خامه سهل ميسور، بدليل إمكان القدماء الحصول عليه واستخدامه فى مرافقهم وحروبهم، مع ما كانوا عليه من جهل نسبى بطبائع الأحجار والخامات والمعادن. أما الآن فيجهز الحديد بخلط خامه الغنى به بفحم الكوك وحجر الجير ثم إيداعه بطون أفران يتخللها تيار شديد من الهواء يساعد على احتراق الفحم ويسهل اختزال الخام وتخليصه من الأكسجين وما قد يكون به من مواد غريبة. هذه الأفران تعرف بالأفران العالية، لأنها تشبه الأبراج، وتنصب من الحديد وتبطن بالقرميد النارى. وتغذى الأفران من فوهاتها العليا بالخام وما خلط به، وينساب الحديد المنصهر من فتحات فى أسفلها ويخرج معه سائل

آخر يطفو على سطحه لخفته، وهو مادة يجتمع فى تكوينها كل ما كان فى خام الحديد من خبث مع بقايا حجر الجير والرمال. وإذا بردت هذه المادة الطافية تجمدت واستحالت مادة صخرية زجاجية القوام شـديدة الصلابة تستغل فى رصف الطرق ونحو ذلك.

ويسرى الحديد المنصهر فى مجار خاصة حيث يجمع وينقى إذا أريد تحويله إلى صلب أو فولاذ كما سنرى. وتعمل الأفران العالية باستمرار ليل نهار، يغذيها القائمون على أمرها بالخام ويجمعون ما يسيل منها من حديد منصهر، وهى فى أثناء ذلك لا تخبو لها نار ولا يضعف لها أوار، وتظل كذلك أشهراً وسنين حتى يدركها الوهن أو يتسرب إليها التلف أو ينال منها القدم فيقف عملها حتى ترمم ثم تعود سيرتها الأولى، ولذلك تبنى الأفران العالية عادة فى مجموعات متقاربة ليظل أكثرها عاملا حين يكون بعضها فى دور الإصلاح أو الترميم أو فى دور الإنشاء، فحاجة العالم للحديد متجددة لا تفتر، بل إنها فى ازدياد متصل لا يحتمل تباطؤاً أو تأخيراً. والتزاحم الصناعى بالغ أشده فى كل بلد، فلا يجرؤ مستثمر على تعطيل الطلبات أو التسويف فى تسليمها وإلا هجره عملاؤه إلى غيره من المنتجين الأسرع إلى تلبية ندائه، وينتج

الفرن الواحد عادة من الحديد المنصهر ما يزن نحو ألف طن فى يومين اثنين .

وعلى أن الحديد من الفلزات الميسورة الاستنباط من معادنها وخامها فإنه يختلف عن غيره فى أن النقى الخالص منه قليل القيمة صناعيا ، بل هو أكثر ما يكون فائدة إذا كان مشوبا ببعض مواد أخرى . وهو فى هذا يختلف عن النحاس مثلا ، فإنه يفقد الكثير من قيمته الصناعية إذا شابته شائبة ما من مادة غريبة وخاصة ما يحتاج إليه منه فى صناعة الآلات الكهربية وأسلاكها، ولذا كان تنقية النحاس تنقية تامة عملا ضروريا بل أساسيا مع ما يكتنف ذلك من صعوبات ودقة وتكاليف .

أما الحديد فإنه لا يكتسب قيمة صناعية إلا إذا دخل فى تركيبه بعض مواد غريبة بمقادير محدودة معروفة ، وأهم هذه المواد هو الكربون (عنصر الفحم) وبإضافته وإضافة بعض عناصر أخرى إلى الحديد الخالص يتكون الحديد الزهر ويتكون الفولاذ.

والحديد الزهر أقل أنواع الحديد نقاء وصلابة ، وهو يحتوى على نحو ٤ ./. من وزنه من الكربون إلى قليل من آثار الكبريت والفسفور والسليكون (عنصر الرمل) وهذه المواد تجعله محبب التكوين أشهب اللون سهل الانصهار لا يحتمل الطرق أو

السحب بالتسخين ، ويسيل وهو منصهر على أى شكل يراد له بصبه فى قوالب ، ولا يجبر كسره باللحام أو التسخين والإحماء كالحديد العادى ، لأنه على رغم شدة صلابته هش قليل المرونة ، وهو محدود المنفعة . وهذا الحديد الزهر هو أول ما يخرج من الأفران العالية، ولتحويله إلى حديد نقى أو فولاذ يجب أن يخلص أولاً مما به من شوائب الكربون ومن آثار الكبريت أو الفوسفور أو غيرهما . وهو لذلك يعالج وهو منصهر فى أفران خاصة ، ويمرر فيه تيار جارف من الهواء الساخن مرة أخرى فيخلص مما كان عالقاً به . ثم يضاف إليه ما يراد إضافته من المواد الأخرى بمقاديرها المحدودة المعروفة كما قدمنا ليتحول بذلك إلى سبائك حديدية مختلفة التركيب والخواص تعرف بالصلب أو بالفولاذ . وإذا أضيف الكربون إلى الحديد الخالص بمقادير قليلة تكونت سبيكة يطلق عليها عرفا اسم الحديد ومنه تصنع ألواح وشرائح وقضبان وأنابيب وعيدان وأسلاك وتتخذ منه السلاسل والمراسى والآلات الزراعية والمسامير والمحاريث ونحوها . والصاج الأبيض فى الأصل ألواح من الحديد تنظف سطوحها تنظيفاً تاماً من آثار الصدأ ثم تغمس فى الخارصين (الزنك) المنصهر فتغطى سطوحها بطبقة منه تحميها من فعل الصدأ وأثره

المتلف الضار الذى يأكل الحديد ويحيله رماداً هشاً . والصفيح الذى تصنع منه أوعية الزيوت بأنواعها والمأكولات المحفوظة وغيرها هو صفائح رقيقة من الحديد تنظف سطوحها بالطريقة التى نظف بها الصاج الأبيض ثم تغمس فى القصدير المنصهر بدل الخارصين.

والقصدير والخارصين عنصران فلزان يقاومان فعل الجو بهوائه ورطوبته إلى درجة كبيرة جداً ، ولا يتأثران بهما إلا تأثراً محدوداً يظهر أثره على السطح الخارجى وحده مكوناً مركبات لهما تحمى مادتهما من تغلغل أثر الجو إلى الصميم منهما .

أما الحديد فعلى نقيض من ذلك ، ولذلك يتحتم طلاء سطوح الأدوات المصنوعة منه بأدهنة مختلفة ، كالسلاقون ونحوه، ويجب تجديد قشرة الدهان من وقت إلى آخر لتحميه من التآكل والتلف بفعل العوامل الجوية .

أما الفولاذ وهو أكثر أنواع الحديد شيوعاً وأعمها فائدة فيجب أن يخلص من جميع الشوائب إلا آثاراً من الكربون وكميات ضئيلة من معادن المنجنيز أو الكروم أو النيكل أو التنجستن وغيرها من الفلزات النادرة الأخرى . ويمكن أن تضاف هذه المواد أزواجاً أو أكثر فتتكون بذلك سبائك تتميز

بصفات خاصة من الصلابة أو المرونة ، ومنها ما يكتسب مظهراً لامعاً لا يتأثر بالصدأ حتى ولو لم يُطلَ بما يحميه كالخارصين والقصدير والأدهنة : وعلى تعدد أنواعه تختلف أوجه الانتفاع به، فنوع يصنع منه محاور الآلات الضخمة ، وثان للآلات الدقيقة وثالث لدروع السفن والدبابات ورابع تصاغ منه الأسلحة الدقيقة وخامس لصياغة آلات الحديد المرهفة الحد، وسادس لدعائم القناطر والجسور والمنشآت الضخمة ، وسابع لزنبرك الساعات وما شاكلها ، وثامن للابر الدقيقة والأطراف الحادة ... وهلم جرا.

ومما سبق يتبين اتساع نطاق هذه الصناعة وضخامتها وأنها من الأهمية بحيث يستحيل على فرد واحد أن يلم بجميع نواحيها وأسرارها ، بل هناك خبراء واختصاصيون بكل نوع ، ومما يزيد الأمر تعقيداً أن تراكيب الحديد المختلفة تعتبر سراً من أسرار الصناعة الهامة . وصناعة الحديد فى تجدد مستمر، وتطوراتها تسبق تطور الصناعة والاختراع فى كل ناحية ، وتماشى ذلك الإنتاج المدهش الذى تطالعنا به الحضارة كل يوم منذ أنشئت المصانع التى تخرج مصنوعاتها إلى الأسواق بالآلاف لا بالآحاد والعشرات . ولنضرب لذلك مثلاً صناعة السيارات ؛ فإنه فى مقدور الرجل المتوسط الحال بأمريكا أن تكون له سيارة ذات مظهر ونخامة ،

وكان ذلك شيئاً لا يتمتع به إلا الغنى الموسر . وينطبق هذا القول على أجهزة الاستماع للاذاعة وعلى المنتجات الصناعية الأخرى كالمنسوجات الرخيصة والغالية ونحو ذلك من مرافق الحياة المختلفة التى أزالت كثيراً من الفوارق الاجتماعية بين الطبقات وجعلت حظ الغنى والفقير من هذه المدنية على قدر سواء .

هذا فى أوقات السلم . أما الآن ومصانع الحرب كلها تخرج من الفولاذ أضعاف ما كانت تخرجه قبلاً ، لبناء البواخر والماخرات والسيارات المدرعة وغير المدرعة والمدافع المختلفة الأشكال والألوان والمزايا ، وغير ذلك من الأسلحة ، ولصناعة الأوعية الصغيرة والكبيرة لحفظ الزاد للجنود ، ولحمل الماء لمئات الآلاف منهم فى جوف الصحراء القاحلة ، ولسبك الدانات والقذائف لكى تودع فى بطونها المفرقعات المهلكات وما .... وما ....

كل ذلك أو جله يصنع من نوع أو أنواع من الحديد الصلب ومن الفولاذ ، وتمضى به الحرب إلى حيث تمضى ، ويستقر ما يستقر فى جوف المحيط ، ويتبعثر منه ما يتبعثر فى ساحات الحرب الشاسعة ، فيضيع كل ذلك كما تضيع فى صناعته وصياغته ونقله ملايين الجنيهات ، فاللهم رحمة منك وهداية يا أرحم الراحمين .

قصـــة الألمونيوم

فى يوم من أيام شهر فبراير سنة ١٨٨٦م دخل الطالب « تشارلس مارتن هول » الأمريكى على أستاذه فى معمله وهو يصيح متهللا فرحاً (لقد عثرت على الطريقة) قال هذا وهو يناول أستاذه أقراصاً من معدن أبيض ناصع لامع كالفضة لا يختلف عنها كثيراً فى المظهر، فلو لا ما يشعر به الإنسان من خفة وزنه فى يده لأول ما يحمله لحسبه إياها . كان هذا المعدن (الفلز كما نسميه فى كتب العلوم الطبيعية) هو الألومنيوم ، وقد وفق «هول» إلى طريقة هينة لاستخراجه من مواده الأولية بوفرة وبنفقات قليلة ، فأصبح بفضل طريقته مادة مألوفة معروفة لدى أكثر الناس . فمنه تصنع أوانى الطبخ وأدوات الزينة وأسلاك الكهربا وآلاتها ، ومنه تتخذ دعائم القنطرة الضخمة كما تتخذ أنابيب عجائن الأسنان والصابون الرخو وغيرها ، ومن بعض صفائحه الرقيقة كالورق تتخذ لفائف الحلوى ، كما تتخذ منه هياكل السيارات ومراكب ديزل وأجسام الطائرات فى بعض

الأحيان ، وتصاغ منه أسلاك يبلغ من دقتها أن سلكا منها يكفى للاحاطة بالكرة الأرضية كلها لا يزن فى جملته أكثر من رطل ونصف رطل . فهو لا يكاد يوزن ولا يكاد يرى ، ولذا سمى لدقته بالأعصاب الكهربية . وقد احتل الألومنيوم مكاناً ملحوظاً بين مواد البناء فى فن العمارة الحديث ، لمتانته وقوة مقاومته لتقلبات الجو من حرارة وبرودة ورطوبة وجفاف ، على أنه جميل المظهر ولا ينال منه الصدأ الذى يأكل غيره من المعادن كالحديد والنحاس ، فهو غنى عن الطلاء بالأدهنة . ويقولون إن بعمارة (بيت الاذاعة) فى نيويورك وهو المعروف باسم (راديو هاوس) آلاف الأطنان من قضبان وصفائح الألومنيوم استخدمت دعائم وإطارات للنوافذ المختلفة.

وقديماً بنيت من الألومنيوم هياكل المطاود الضخمة فى ألمانيا وانجلترا وأمريكا . وقد زاحم الألومنيوم النحاس والصلب فزحمهما . وهو فى سبيله إلى التغلغل فى صميم أدوات الحياة الحديثة فى المنزل والمتجر والمصنع ، وفى الآلات الثابتة والمتحركة ، وفى السلم والحرب كما سنرى .

كان « هول » عندما كشف طريقته الهينة لاستخراج الألومنيوم منذ خمسين سنة ونيف شاباً فى الثانية والعشرين من

عمره ، وكان مشغوفاً بدراسة الكيمياء ، فتتلمذ على الأستاذ « جيوت » فى كلية (أو برلين) وذات يوم غدا الأستاذ « جيوت على تلاميذه يشرح لهم خواص هذا الفلز الغريبة التى تميزه عن غيره من المعادن . فهو إلى متانته وليونته و بياض لونه ومقاومته الشديدة لمؤثرات الجو والماء العادية وقبوله السحب والطرق — هو إلى ذلك كله خفيف الوزن . فالقطعة منه تزن ثلث ما يماثلها فى الحجم من الحديد أو من النحاس مثلاً . ومضى الأستاذ فى درسه فقال : وعلى رغم كل هذه المزايا ووفرة مواده الأولية قد عز على العلماء والباحثين حتى ذلك الوقت التوفيق إلى طريقة يحصلون بها عليه رخيصاً وكثيراً حتى يصير فى متناول العامة من الشعب . وختم الأستاذ درسه قائلاً : « إن مجداً مزدوجاً ينتظر الرجل الذى يهتدى إلى طريقة للحصول على الألومنيوم بنفقات قليلة تجعل الحصول عليه وعلى مايصنع منه فى طاقة الرجل العادى، فيخلد اسمه بين الممتازين المحسنين إلى الإنسانية وينال درجة عالية بين أغنياء العالم المحسودين » .

سمع « هول » ذلك وكان طموحاً مشغوفاً بدراسة الكيمياء محباً للعمل فيها ، فقام من فوره وأنشأ لنفسه معملاً متواضعاً فى ركن مهجور من دار أبيه ، وبدأ يعمل بجد للحصول على حل

لمشكلة الألومنيوم ، وبعد عمل متصل لمدة عامين كاملين وفق إلى الطريقة ، فحمل بشرى نجاحه لأستاذه . وتكونت عقب ذلك شركة برأس مال ضخم وبدأت فى إنتاج الألومنيوم . وبلغ ثمن الطن منه فى أول عهد هذه الشركة نحو ٦٠ جنيهاً ، وهو ثمن يعادل ما كان يباع به الرطل الواحد قبل اكتشاف هول . وتضخم إنتاج الشركة حتى بلغ حوال ٤٠٠ مليون رطل قبيل هذه الحرب ، وتضاعف هذا المقدار بطبيعة الحال فى هاتين السنتين الأخيرتين حتى لقد قدر ما ستنتجه مصانع الولايات المتحدة خلال عام ١٩٤٣ بنحو بليونين من الأرطال ، لمناسبة ذلك التوسع المعدوم النظير فى بناء الطائرات ، والألومنيوم مادتها الأساسية ، كما يستخدم فى أغراض حربية أخرى . وسجل اسم « هول » فى عداد الخالدين من العلماء والمخترعين ، ومات عام ١٩١٤ م . تاركا وراءه ثروة تقدر بملايين الدولارات تبرع بنحو ثلاثة ملايين ونصف مليون منها للمعهد الذى سدد خطاه نحو المجد والغنى والخلود بفضل أستاذه « جيوت » .

وفى ماضى التاريخ دلائل وثيقة على أن ثمة تناسباً عظيماً بين تقدم العالم وانتشار المدنية ، وبين كشف المعادن والتوسع فى استخدامها ، حتى لقد اصطلح المؤرخون على تقسيم مراحل المدنية

إلى عصور تبدأ بالعصر الحجرى ، وتنتهى فى هذه المرحلة إلى عصر الحديد . فقد كان استخدام الفحم والحديد فى القرنين التاسع عشر والعشرين سبيلا إلى ابتداع آلاف الآلات وبناء آلاف المصانع التى استغلت كشف قوة البخار وقوة الكهربا فى صنع وإدارة القاطرات ، وفى بناء البواخر ، وفى استنباط النفط ومشتقاته ، وفى اختراع السيارات والطائرات ، وفى الافتنان فى صنع المنسوجات وتنوعها وفتل خيوطها وصبغها ، وفى هندسة العمارة ؛ وعلى الجملة فى كافة مرافق الإنسان المدنى من مسكن وملبس ومأكل وسفر للعمل أو للنزهة . وشغف الإنسان بالسرعة ، فجاراه المخترعون ، وساعده استنباط المعادن الخفيفة كالألومينيوم ، وسهولة الحصول عليها ، فافتنوا فى تحسين وسائل النقل السريعة الآن ، فغيروا وبدلوا من أشكال العجلات ، وحاولوا القضاء على أهم عناصر البطء ، وهو ثقل الوزن ؛ فاستخدموا سبائك الألومينوم ، كما حاولوا القضاء على مقاومة الهواء فابتدعوا الأشكال الانسيابية ، وعلى مشكلة الوقود فسخروا البنزين والكهربا ، وصار الانسان فى انتقالاته وأسفاره يسابق الريح فيكاد يسبقها ، ويطير بأجنحة الهواء فيجتاز الأمم ويخترق القارات ويعبر البحار والمحيطات فى يوم أو بعض يوم ،

ويتنقل بين أمم الأرض فى ساعات حتى ليشاهد شروق الشمس فى مكان ومغربها فى مكان آخر و بين المكانين بحار وجبال وفياف لا يحدها خيال ، وطغت الحقيقة الواقعة على ما كان يتمثل الكتاب والشعراء والفلاسفة فى العصور المتقدمة ، ورأى الناس برهان بساط الريح وبراق الاغريق ، فإذا هما حقائق لا يكذبها الواقع . وما ظنك بالقلاع الطائرة تقفز من أمريكا إلى أوربا ، أو إلى أفريقيا بالعشرات والمئات كل يوم ، وأغلب الفضل فى كل ذلك يرجع إلى التوسع فى استخدام الألومينيوم . وقد تمكنوا أخيراً فى الولايات المتحدة — ولم تزل منذ كانت مهد استخراجه وصناعته — من صنع سبائك من الألومينيوم صاغوا منها صناديق وأغطية للمحركات فى الطائرات ، وكانت تصنع قبل ذلك من حديد الزهر السميك لتقوى على احتمال ضغط أساطين المكبس (السلندرات) وعلى حرارة الاحتراق ، وقد نشأ عن هذا الابتكار وإبدال الألومينوم بحديد الزهر أن زادت سرعة القلاع الطائرة بما يقرب من ٢٠ ميلا فى الساعة ، إذ خف وزنها بذلك نحو ٥٠٠٠ رطل وزادت تبعاً لذلك طاقتها على حمل مقدار من الوقود يكفيها للطيران ألفى ميل ، أو حمل قنابل فوق ما كانت تحمل من تلك القنابل التى تزن الواحدة منها ٥٠٠ رطل

وثمة تعديل آخر أدخل على صناعة الطائرات الحديثة بفضل الألومينوم ، وهو الاستعاضة عن أسلحة المراوح الصماء بأخرى جوفاء مصنوعة من سبيكة أساسها الألومينيوم كذلك ، ونشأ عن ذلك تخفيض جديد فى وزن الطائرة يقدر بنحو ٢٥٠ رطلا للطائرات المطاردة وطائرات القتال الخفيفة و٧٠٠ رطل لحاملات القنابل المتوسطة و٢٥٠٠ رطل لحاملات القنابل الثقيلة ، ومعنى ذلك زيادة طاقة الطائرة على حمل الوقود ، أو زيادة فى وزن الأسلحة أو القنابل التى تحملها تضاهى هذا النقص فى الوزن ، فتستطيع الطائرة أن تبقى فى الجو وقتاً أطول ، أو أن تقطع مسافات أبعد مما كانت تقدر عليه ، وبهذا ونحوه تقدم الطيران البعيد المدى بخطى واسعة ، وأصبحنا نسمع من وقت بعد وقت بقيام الطائرات من انجلترا للإغارة على قلب إيطاليا وما هو أبعد من ذلك ، وكانت إيطاليا عندما دخلت الحرب تحسب أنها فى مأمن من ذلك ، ولم تحسب حساب التقدم فى صناعة الطيران ، فأصبحت اليوم تعانى الأمرين من بلاء الغارات التى أذاقتنا حيناً بلاءها . فسبحان المنتقم الجبار .

ولا يقف استخدام الألومينوم فى الحرب وأدواتها عند حد الطائرات وبناء هيا كلها وأجزائها المختلفة ، بل إنه يكاد يكون

هو العنصر الأساسى فى عمل القنابل المحرقة ، فحشوها مخلوط من برادة الألومينيوم أو مسحوقه مع أكسيد الحديد ، ويعرف هذا بالترميت ، وكان ولا يزال يستعمل فى جبر القضبان الحديدية المنكسرة ، وأحسب كثيراً منا قد شاهدوا عمال شركة الترام جملة مرات يستخدمونه لذلك فى شوارع القاهرة ، إذ يضعون هذا المخلوط (الترميت) فى صندوق من الحديد أو بوتقة فى حجم القلة الكبيرة ، ثم يشعلونه بشريط من المغنيسيوم ، أو بشرر كهربى يستمدونه من أسلاك الترام ، فيلتهب المخلوط ويترك الحديد سائلا جاريا يملأ ما بين القضبان من فراغ أو كسر ، فإذا جمد ربط ما بين القطعتين فإذا هما قطعة واحدة . ويصحب هذه العملية انبعاث حرارة شديدة يتطاير لها شرر محرق يصحبه نور وهاج ، ولذلك نرى العمال وقد وقوا أعينهم بمناظير سوداء كبيرة .
وتصنع أغلفة القنابل المحرقة من المغنسيوم ، لأنه معدن قابل للاشتعال بحرارة عظيمة ، وتحشى القنبلة (وهى على شكل زجاجة « الترموس » تقريباً) بالترميت وتوضع فى طرفها المحدد كمية صغيرة من مادة مفرقعة تشتعل بقوة الصدمة فتنتقل منها النار إلى الألومينيوم وما خالطه فيشتعل ويشمل الغلاف معه ، وتتولد من ذلك حرارة ينصهر بها الحديد فيسيل مخترقا السقوف ملهباً

كل ما يصادف فى طريقه . وإنه لمن حسن الحظ أن أمر الوقاية من هذه القنابل هين لا يتطلب إلا اليقظة وإعداد الوسائل ، وهى وعاء رمل ومِسْحاة مستطيلة اليد (جاروف) فإذا ما سقطت القنبلة تلقفتها يد الحارس اليقظ وأودعتها جوف الرمل فى الوعاء فتأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله، ولا تصيب أحداً بأذى .

فهذه أخرى من منافع الألومينيوم فى الحرب ، أما فى الحياة العادية ، فقد دخل الألومينيوم فى كثير من المرافق ، وبخاصة فى أدوات الكهرباء ، فقد حل محل النحاس فى عمل أسلاك البرق والمسرة ، وقد توسعت ألمانيا فى هذا الباب توسعاً كبيراً لخلو أراضيها من النحاس ، وهى فى حاجتها إلى مقادير كبيرة منه لتغليف « وخشخنة » مواسير البنادق والمدافع ، ولذلك يقولون إنه حُرِّم على الألمانيين منذ ١٩٣٥ م عمل أوان نحاسية للطبخ وغيرها من الأدوات المنزلية الأخرى ، كمقابض الأبواب والشبابيك وما أشبه ذلك ، وجمعت القديم من كل ذلك ، ومن أسلاك الكهربا النحاسية القديمة واستبدلت بها الألومينوم .

أما بعد . فلعل فيما سبق ما يظهر أهمية الألومينيوم وقيمته فى أيام السلم والحرب ، ولعل الطبيعة كانت تضمر أن يبلغ هذا المبلغ من المكانة لفائدة لبنى الإنسان ، لما نثرت مركباته بيد سخية فى

أنحاء العالم ، فجعلتها من أوفر العناصر وجوداً وتنوعاً فى القشرة الأرضية ، وبخاصة في التربة الظاهرة منها . فالطمى والكاولين والطين وغيرها من أنواع الرمال والصخور هى من مركبات الألومينيوم ، كما زاد الله قدره بأن جعل كثيراً من الأحجار الكريمة كالعقيق والزبرجد والياقوت والماشت وعين الهر ، من مركباته كذلك .

العلماء والحـــرب

ضمني وأحد حضرات النواب المحترمين ندوة باحدى عواصم الريف . وصاحبنا محام مشهور بين رجال القانون وله فن وصيت فى صناعة الكلام ، فهو يجيد النقاش ويرسل برأيه مدعماً بحجته فى منطق فصيح وبيان فياض .. وكان معنا فى المجلس صفوة من رجالات المدينة بينهم الحاكم والقاضي والطبيب والوجيه المثقف . وعرف صاحبنا النائب اللهسن طبيعة عملى وصلتى برجال العلم فأخذ يهاجم فى شخصى العلم والعلماء ، ويحملهم تبعة الحرب القائمة وما تجر وراءها من بلايا نسمع ونرى ونقرأ ونحس آثارها ، ونجد لذلك من الألم والضيق ما نجد ، حزناً على ما يصيب الإنسانية من الموت والتدمير والخراب وقد ناصره أكثر الحاضرين فى اتهامه الذى يستند إلى أنه لولا ما كشفه العلم وابتدعه العلماء والمخترعون من مدافع ودانات وقنابل ومفرقعات وسيارات ودبابات وطائرات وغواصات لما حل بالعالم هذا الويل الذى يغمره بالمصائب والنكبات.

تلك كانت حجته وهى حجة ظاهرها معقول مقبول ، ولكنها

تقوم على مغالطة يسترها زخرف القول الذى سحر به السامعين فنحوا نحوه فى التفكير والقول، ولا جرم فكلهم قد نالته الحرب بشيء مما نالت به الناس جميعاً فى أربعة أقطار الأرض، وكلهم قد تأثر بالحرب فى ناحية أو أكثر من نواحى حياته الخاصة والعامة. على أننا جميعاً لم نستشعر حرها اللافح الخانق كما يستشعره المباشرون لها والمحاربون فى ميدانها، ولم يصبنا من لهبها إلا شرر متطاير عن عمد أو لفحة ساخنة من جحيمها المستعر حملتها الرياح عفواً الى ناحيتنا، فمست جلودنا مساً ليس له كبير خطر وإن كانت قد تركت فينا من آثارها ما تركت، حتى لا نسمع إلا أحاديث الحرب وأخبارها، ولا نتحدث إلا عن وقائعها وتطوراتها ومفاجآتها، وامتد أثرها إلى طعامنا وشرابنا، وما نلبس وما نلتمس من وسائل التسلية والمتعة، حتى لا نكاد نجد شيئاً مما نشتهيه إلا قليلا من قليل، على مقدار ما تسمح به ميزانيتنا التى تضخمت تضخم الطبل: له حجم ومنظر وليس فى جوفه إلا الهواء، فقد عجزت ميزانياتنا عن التمشى مع قوة الشراء، فشعرنا بآلام الحرمان وضقنا ذرعاً بتكاليف الحياة.

تلك حالنا فى هذه الحرب، وإن لها أثرها فى الخاصة والعامة منا، وما أرى أصحابنا الذين شايعوا النائب المحترم على رأيه، إلا

متأثرين بما نالهم من حكم هذه الظروف العامة ، فانساقوا إلى رأيه فى موجة من الحماسة ، فلم يفطنوا إلى دقائق الأمر ووجه الرأى فيه .

لقد نسى صاحبنا وأشياعه وهم يحاورونني ، ما بلغته الحياة فى أوقات السلم والرخاء ، من رقى وترف ، وما كان يتمتع به الناس من أمان واطمئنان ورغد وما ينال مرافق العيش جميعاً من تطور فى جميع النواحى ، بفضل تقدم العلم وجهود العلماء ، وامتداد أثر ذلك ، حتى شمل الطعام والشراب والملبس والحركة والسكون والصحة والمرض ، وحتى صار من ضروريات الحيـاة عند بعض الناس ما كان من كمالياتها التى لم يكن يظفر بها من قبل ، إلا المترفون من الأغنياء والسادة الأمراء ، وطعم الفقير ما لم يتذوق الغنى فى أزهى عصور الترف الخالية ، واستمع السوقة إلى غناء المغنين فى بلاط الملوك ، واستمتعوا بالنظر الى أروع المناظر وركبوا قطر البخار ، ومطايا النفط ، وبلغت أصوات الملوك والزعماء والقادة والعلماء ، الناس فى قراهم ودورهم ، يحملها الأثير إليهم ، وهم جلوس فيسمعون ويأنسون ويفوزون بنصيب فى اللذة والمتاع ، أو من العلم والمعرفة وهم فى أكواخهم ومرابض أبقارهم . وإذا لكل داء دواؤه ولكل عليل شفاؤه . وإذا المصانع تخرج السلع

أصنافاً ومراتب ، وتجعل فى ميسور كل طالب ما يسد حاجته ويشبع نهمته مهما قل دخله وقصرت طاقته .

ذلك جهد العلم والعلماء للترفيه عن البشر ، فما ذنبهم إذا ركب شيطان الطمع رؤوس قوم أضلهم الثراء الضخم ، وأعمتهم مطامع أنفسهم ، وفقد المال عندهم قيمته لكثرته ، فلا يعبأون بربح ولا خسارة . وما ذنبهم إذا ركب الشيطان رءوس قوم من هؤلاء فأقحموا أنفسهم ، أو أقحمهم القادة والزعماء السياسيون ، فى سبيل الحصول على الجاه ، فعبثوا بالمكشوفات والمخترعات ، وحولوها من وسائل خير ونعيم إلى أداة شر وتحطيم .

ولكن ما لنا ولكل هذا ؟ ألم تخلق الحرب مع الإنسان منذ كان ، فإن بنى آدم ليقتتلون أفراداً قبل أن يصيروا أسرة ، ويقتتلون أسراً قبل أن يبلغوا حد القبيلة ، ويقتتلون قبيلاً قبل أن تجمعهم رابطة الأمة ، ويقتتلون أمماً منذ اجتمعت أمة إلى جانب أمة ، فأين كان العلماء يوم ذاك ؟ وهل عليهم تبعة هذه الحروب منذ نشأ تاريخ الحروب ؟ أو لم تتطور الحرب من اقتتال فردين إلى عراك فئتين إلى حرب ضروس بين جيشين أو جملة جيوش ؟ إنها أساليب الحرب تتطور مع الإنسان وتتجدد أسبابها بتجديد معلوماته، وعلى مقدار معرفته بطبائع الأشياء وما يصلح منها ليكون أسلحة للدفاع

أو للهجوم . تنوعت أشكال الأسلحة وتعددت أصولها، وهل كانت الأسلحة جميعها منذ كانت إلا أداة للتجريح والتقتيل وسبيلا لتسلط القوى على الضعيف الأعزل ؟ وماذا يضير الجندى إذا مات طعيناً بالرمح أو ذبيحاً بالسيف أو قتيلا بالرصاصة أو القنبلة ؟ إن الموت لهو الموت ولا إخال الجرح يسببه السهم المنطلق من قوس مشدودة أقل ألماً أو أقرب إلى الشفاء من جرح القذيفة أو الشظية . بل إنى لأجزم أن العلم بمخترعاته والطب بوسائله والإنسانية بما نالت من التهذيب تعمل اليوم جميعها جاهدة على تخفيف الآلام والتماس أسباب الشفاء . ولا إخالنى كذلك مبالغاً إذا قلت إن الحرب فى صورتها الرهيبة الحاضرة أدنى إلى الرحمة بالجند مما كانت الحرب قديماً . فأين الأوبئة التى كانت تفتك بآلاف المحاربين حتى ليبلغ ضحاياها أضعاف ضحايا السلاح ؟ وأين مذلة الأسر التى كانت يوم كان الأسرى يباعون ويشترون كالأنعام وهم يرسفون فى أغلال العبودية .

لست بهذا أدافع عن الحرب ، وإنها لشر . ولكنى أريد أن أبرئ العلماء ، وأصحاب الصنعة والاختراع من تبعة هذا البغى الآثم ، فإنما المسؤول عن الحرب هم ذوو المطامع من الساسة والزعماء وتلك الطبقة التى ينعتونها بملوك المال والصناعة . إن

العلماء هم أبعد البشر قاطبة عن المطامع السياسية ، فهم فئة اتخذوا العالم بأسره ميداناً لنشاطهم ، لا يعترفون بحدود ، ولا يخضعون لغير سلطان الحق ، ولا يؤمنون إلا بالحقائق الملموسة ، تكشف عنها تجاريبهم وتربط فروعها فى أصل واحد نظرياتهم . إنهم لا يعنيهم إلا أن يبحثوا عن قوى الطبيعة الظاهرة والكامنة ، ليكبحوا جماح الضار منها ، أو يحيلوه إلى وسيلة من وسائل الخير والرفاهية ، ويستغلوا السلس الذلول منها ويسخروه لخدمة الإنسان مهما يكن وطنه ، وأينما كان مقامه . وقد عملت اختراعاتهم على تقريب البعيد، وربط أجزاء العالم فى البر والبحر والجو ، حتى أصبح وحدة متماسكة ، فليس فى طبقات الجو العليا حدود ولا حراس ، ولا بين طيات الأثير رقباء ولا مفتشون ، يسمحون لموجاته أن تحمل الخبر الملائم ، ويمنعون أن تنشر الحديث المثير . ولو كانت مقاليد الأمور إليهم لعم الرخاء الناس ، وفاض خصب العالم المعمور على القاحل منه والبور ، ولتقاسمت أمم الأرض ما تشاء من المادة الأولية ، والخام الطبيعى ، فلا ينفرد شعب منها بنصيب الأسد وتحرم شعوب ، ويتمتع بلد بالغنى والثروة وتبوء بلاد بالفقر والإملاق ، ثم يكون الغيظ الكظيم ، والثورة العارمة ، والحرب المدمرة ، حين تثور الأمة المحرومة ،

طامعة أن تنال عن طريق الحرب شيئاً من الغنيمة . وهل كان سبب الحرب إلا ذاك ؟ وهل كانت نتيجتها إلا أن يكتوى بنارها الغالب والمغلوب ؟

ولو نظر الساسة والزعماء إلى العالم هذه النظرة ، وتخلوا عن نعرة القومية والوطنية ، واعترفوا مع العلماء بأن الإنسان أخو الإنسان ، وأن لكل فرد من الناس حقه فى ثمرات الطبيعة ، ونصيبه الذى يتكافأ مع جده ، ومقدار سعيه ، لحل الوئام والسلام والإخاء ، مكان التطاحن والتشاحن ، فإن الله لم يخلق العالم عبثاً ، ولم يخلق فيه الإنسان إلا وقد كفل له فيه العيش الميسور ، والرزق الموفور .

هذا حلم العلماء ولا بد أن تحققه الأيام ولو بعد حين ، بما يكتشف العلماء من مخترعات تتغلب على المسافات ، وتزيل الحدود بين الأمم ، وتعمل على توحيد الثقافات ، وتقضى على ما وقر فى أوهام بعض الناس من نظريات مضللة ، تقوم على نعرة القومية ، ودعوى الكرامة الوطنية ، وعلى مذاهب فى الاجتماع والسياسة وأصول الحكم ، ترجع بالإنسان إلى وحشيته الأولى ، حين تزعم لشعب من الناس أنه الشعب المختار الممتاز على شعوب الأرض ، وترتب بنى الإنسان درجات ومراتب على غير أساس

الحاكم والمحكوم ، ولكن على أساس أن هذا سيد مهما بلغ من هوان الشأن ، وذاك مسود مهما بلغ بالعمل والجهاد ، لأن أحدهما أنبته الله فى أرض ، وأنبت الآخر فى أرض أخرى ، أو لأن الطبيعة التى أنشأت كلاً منهما لونت أحدهما لوناً ، ولونت الآخر غيره ، فبحكم المنبت أو بحكم اللون كان السيد والعبد لا بحكم الله ولا بحق العمل . وقد خلق الله الأرض وما عليها ملكا خالصاً للناس من كل لون وجنس وأورثهم إياها أباً عن جد ، ورتب لكل نصيباً من خيراتها ، وقد قال الله فى كتابه العزيز : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى » ، وإلى هذا المنزع الكريم ينزع العلماء ، وإلى هذه الغاية السامية يهدفون .

فإن كان للعلماء فى الحرب جهد ، فلا عليهم من التبعة إذا هبوا للجهاد بما عليهم للوطن من حق ، وليسوا دون غيرهم من بنى وطنهم إقداماً وحمية ، ولا غيرهم أكثر منهم وفاء بحق الوطن ، فإنهم ليتطوعون لخدمته بأجسامهم وثمرات عقولهم عاملين على إنقاذ بلادهم بما يقدرون عليه باختراع سلاح لمقاومة سلاح ، أو كشف وسيلة تجلب نفعاً ، وتدفع مضرة فى الدفاع ، أو فى الهجوم ، أو فى التموين والتطبيب ، وفى الإسعاف والوقاية .

ولعل أقرب الأمثلة على ذلك ما حدث فى أوائل هذه الحرب .

فقد خرجت ألمانيا إلى الميدان بسلاح جديد ، كانت ترمى من ورائه ، إلى شل حركة الملاحة ، حول سواحل انجلترا ، وهو سلاح الألغام المغناطيسية . فكلما خرجت سفينة من مينائها ، أو همت أن تدخل إلى الميناء ، أصابها ذلك السلاح المجهول ، فاستقرت فى قاع المحيط ، أو أصابها ضرر بالغ يعطل عملها حيناً . وبلاد بريطانيا هى كما نعلم ، مجموعة من الجزر ، تعتمد فى طعام شعبها ، على ما يرد إليها من غيرها عبر البحار . فكأنما أرادت ألمانيا ، أن تمنع عنها ورود المؤن والمعونة ، ليذلّ الجوع أهلها فيسلموا لعدوهم مختارين .

وسلاح الألغام قديم . واللغم العادى ، هو وعاء يحمل فى جوفه مادة مفرقعة شديدة الفتك ، ويربط هذا الوعاء بحبل ، وفى الطرف الآخر من هذا الحبل ثقل أو مرساة ، تثبته فى قاع البحر ويظل اللغم طافياً مستتراً تحت سطح الماء ، وهو مثبت فى مكانه بالجبل ، يتحرك ولا يجاوز موضعه إلى بعيد . فإذا اصطدمت به باخرة أو سفينة انفجر ، وألحق بها ضرراً بالغاً ، وربما أغرقها . ولاتقاء شره ، اخترعت السفن المسماة بكاسحات الألغام ، وهى سفائن سابحة على السطح لا يغوص من جسمها فى الماء إلا جزء قليل ، وتخرج للعمل أزواجاً أزواجاً يصل كل زوجين منها حبل

متين طويل يتدلى وسطه فى الماء وتسير السفينتان فى اتجاه واحد، وهما تجران هذا الحبل، الذى يعتبر مصيدة للألغام، يمسكها من أربطتها ويجرها ويحزّ فيها حتى يقطعها، فتطفو على سطح الماء بمجرد انفصالها عن مراسيها، وتصاد برصاص البنادق بمجرد ظهورها فتنفجر من غير أن تلحق أذى بأحد، أو تجمع وتفرغ ويبطل عملها ويتقى أذاها .

أما اللغم المغناطيسى فقد بنى على أساس أن تقذف به الطائرات إلى الماء . ومتى بلغ فى هبوطه بعداً معيناً من سطح الماء، انبسطت فوقه مظلة، تهبط به فى بطء، حتى لا يرتطم بسطح الماء، أو بقاع البحر، فى قوة، فينفجر قبل أن يؤدى عملاً . وعلى سطحه الخارجى زوائد ونتوء وزعانف تحد من حركته كثيراً، عند ما يستقر على سطح اليابس تحت الماء، فليست له مراس ولا حبال تربطه، ويظل فى موضعه من قاع البحر، حتى تقترب منه سفينة فينفجر، و بذلك يظل خطراً كامناً لا تدركه كاسحات الألغام ونحوها . وقد فتكت هذه الألغام بكثير من سفن الحلفاء، وعطلت أو كادت تعطل حركتها البحرية إلى حد كبير . وحدث أن قذفت الأمواج لغما من هذه الألغام فى حالة سليمة على مقربة من ميناء بورتسموث والتقطه « الكومندور أوفرى » أحد رجال

البحرية البريطانية المختصين بالألغام وراح يختبره ، فلم تمض اثنتا عشرة ساعة على التقاطه حتى فضح سره وعرف تركيبه ، وصمم علماء الانجليز تصميما أبطل عمله وحد كثيراً من شره الظاهر والمستتر . وأنقذ بذلك رجال العلم بلادهم من ضرر محقق ، وقضوا على سلاح كان أعداؤهم يقدرون له أبعد النتائج فى محاربة البحرية الانجليزية وفى إذلال أهلها بالجوع والحاجة .

ولعله من المفيد وقد بينت أثر اللغم المغناطيسى أن أحاول شرح تركيبه . فهو يختلف عن الأنواع المألوفة قبله من عدة وجوه . ذلك أنه يستقر فى قعر البحر، ولذا تكون إصابته أكثر ما تكون فى قاع السفينة، وبذا يكون غرقها محققاً فى الغالب، على حين كانت الألغام الأخرى طافية بين السطح والقاع فتصيب السفن أكثر ما تصيبها فى جوانبها فتحدث فيها صدوعاً وثقوباً لا تسبب الغرق العاجل، إذ يستطيع الربان ومساعدوه أن يسدوا هذه الثقوب بطريقة ما حتى تدرك السفينة مرفأ تأوى إليه لتعالج جرحها . وكان لا بد أن يصطدم اللغم العادى بجسم السفينة لينفجر . أما اللغم المغناطيسى فقد بنى على أساس استخدام جاذبية المغناطيس ، لذلك كان مجرد مرور سفينة بجسمها الصلبى على مقربة منه كافياً لأن تتذبذب داخل اللغم إبرة وتقفل بحركتها

دائرة كهربية تقدح شرراً يثير ما يحشو اللغم من مواد مفرقعة فيلهبها وينفجر اللغم ويحدث ما يحدث من ضرر .

فأساس اللغم المغناطيسى كما هو واضح قائم على الخاصة المعروفة ، وهى أن الحديد والصلب يتأثران لدرجة ما بمغناطيسية الأرض للأجسام المصنوعة منها ، فيكون لها مثل ما لقضيب المغناطيس من أثر، وهذا الأثر وإن كان ضعيفاً يكتسب شيئاً من القوة بكبر حجم السفينة . ويقول العلماء إن الأثر المغناطيسى لجسم ممغنط يتخذ من الجو المحيط به مجالا يظهر فيه على قوة أو ضعف على حسب حجم الجسم وقوة المغناطيسية فيه . كما أن سلكا يمر فيه تيار كهربى لا بد أن يتولد حوله مجال مغناطيسى مثل ذلك الذى يكون حول المغناطيس . وعلى ذلك يمكن لو أردنا إبطال أثر مغناطيس ما وتعطيل مجاله أن نلف سلكا بطريقة معينة حول ذلك المغناطيس ونمر فيه تياراً كهربياً فى اتجاه معين ، وبقوة مختارة فيعطل المجال المغناطيسي للسلك المكهرب كل أثر لمجال المغناطيس الحديدى ، ويجعله كأن لم يكن . وبهذه الطريقة أمكن توقى شر الألغام الممغطسة وتعطيل عملها فى البواخر والسفن المصنوعة من الحديد أو الصلب وكلها كذلك تقريباً . وقد نفذوا هذه الطريقة بأن جعلوا حول

كل باخرة منها سلكا ضخماً يمر فيه تيار كهربى ينشئ مجالاً مغناطيسياً يفسد مجال المغناطيسية فى جسم الباخرة الحديدى . وتسير الباخرة بعد ذلك على مقربة من اللغم فلا تؤثر فى إبرته أثراً ما ، كما لو كانت هى سفينة من الخشب أو الفلين أو نحوهما من المواد الكثيرة التى لا أثر لمغناطيسية الأرض فيها ، وإذا لم تتذبذب إبرة اللغم فلا سبيل إلى انفجاره ، ويظل عاطلا لا عمل له فتسلم الباخرة من شر انفجاره .

هكذا تغلب العلماء الإنجليز على ما ابتكره أصحاب الصنعة فى ألمانيا . وفى هذا الأسبوع من مايو ١٩٤٣ قرأنا فى الجرائد خبر كشف ضابط بولونى من رجال العلم جهازاً يفضح مكان الألغام الأرضية فتنسف أو تجمع قبل أن تطأها قدم أو تمر بها عجلة سيارة أو دبابة فتقتل ضحاياها . ويقول الخبراء إن هذا الاختراع قد أفاد جيوش الأمم المتحدة كثيراً فى خلال معركة مصر وطرابلس وتونس . فهذا أثر من آثار العلم وجهاد من جهاد رجاله للقضاء على روح الشر فى هذه الحرب التى أشعل نارها ذوو المطامع من الساسة والقواد والزعماء . وإن لرجال العلم فوق ذلك لأيادى أخرى لا يحدها حصر . فمن المعلوم الآن أن لدى الأمم المتحاربة أجهزة كهربية مختلفة النوع والعدد تدل على

الغواصات فى جوف الماء ، وأجهزة أخرى تستخدم فى تعرف الطائرات المغيرة ونوعها وسرعتها وارتفاعها واتجاهها ، وثالثة تفضح مكان المدافع المستورة فى الأحراج والمخابئ ، وغير ذلك من الأجهزة والمخترعات العديدة المتنوعة التى تتطور بمرور الزمن، وكلها من ثمرات العلم والاختراع وتقدم الصنعة .

ولأصحاب الكيمياء من العلماء مجالات متسعة فى الحروب والصناعات المتعلقة بها والمتفرعة عنها لا يمكن حصرها فى مثل هذا البحث ، ومن الواضح أن مركز الأمة الصناعى والتجارى يتوقف على مبلغ تقدمها العلمى ، ويتبع انتشار الصناعة ورواج التجارة ما تتمتع به الأمة من عزة وترف . ولكى تزدهر الصناعة لا بد لها من توافر المواد الخام أو ما يسمونه بالمواد الأولية . وإذا كان من الحق المقرر أن التجارة حرة فلا سبيل إلى رواج سوقها إلا بإتقان الصنع وتخفيض الثمن . والتقدم العلمى وتوافر المواد الأولية هما العاملان الأساسيان لتحقيق هذين الشرطين ، ومن ثم كانا هما العاملين الأساسيين لضمان النصر فى زمن الحرب ، وبخاصة مثل هذه الحرب الحديثة التى تقوم على الآلات السريعة الحركة والمفرقعات الشديدة الفتك ، وما دمنا قد ذكرنا الآلات والمفرقعات فلا بد من التنبيه إلى أن لكليهما مواد أولية تسعى

كل دولة من الدول المتحاربة فى سبيل الحصول عليها والعمل على توفرها لديها . إما بالطرق السلمية عن طريق الشراء ، أو الاستبدال ، وإما بالعنف أو القوة والتماس الأسباب لإعلان الحرب ، وخوض المعارك والتضحية بحياة الآلاف . ولقد رأينا فيما سبق كيف جعلت ألمانيا من أهم أهدافها الحصول على بترول القوقاز والعراق وإيران ، وكيف دفعتها جيوش روسيا بعد أن كانت قد أشرفت على منابع الأولى بالغزو وعلى منابع الثانية بالدسيسة والمكر . كما جاهدت ألمانيا ونجحت إلى حد ما فى الحصول على البترول صناعياً من فحمها الفج الرخيص .

وقد نوهنا قبلا بالمواد النتروجينية الصناعية التى يمكن الحصول عليها فى أماكن عدة من العالم باستخدام نتروجين الهواء للحصول على حامض النتريك الصناعى ، وهو أساس صناعة المخصبات والأسمدة الكيمياوية الصناعية فى زمن السلم ، كما أنه أساس صناعة المفرقعات الحديثة الفاتكة فى الحرب .

وتسمى هذه المواد الصناعية التى يستعاض بها عن المواد الخام الطبيعية ، وعن المواد الأولية (بالأعواض) . وكان الدافع للحصول عليها ضرورات الاقتصاد وحاجات الحرب ، وهى كثيرة متنوعة . فمنها السكر الصناعى الذى يمكن الحصول

عليه من الخشب بدلاً من البنجر والقصب .

ولقد قفز المطاط واحتل — مع أنواع النترات والبترول — الصف الأول من المواد الحربية الأولية بعد أن اجتاحت اليابان شبه جزيرة ملايو وجزائر الهند الشرقية التى تحوى أكبر حقول المطاط التى كانت تمون العالم بهذه المادة الأولية فى زمن السلم. ولكن الولايات المتحدة الأمريكية لحسن الحظ ، وهى أكثر بلاد العالم إنتاجا للسيارات ، والمطاط جزء هام منها ، كانت قد جدّت من زمان طويل فى البحث عن عوض للمطاط الطبيعى ، ونجح علماؤها الكيمياويون فى الحصول على صنفين منه هما « الديوبرين » ويجهز من غاز الإستيلين وحامض الإدروكلوريك؛ ويحضر الإستيلين من مركب من الفحم والجير ويطبخان فى فرن كهربى ، ويحضر حامض الإدروكلوريك من ملح الطعام ، وهذه المواد الثلاث التى يستنبط منها الديوبرين — وهى الفحم والجير وملح الطعام — هى من المواد الأولية الرخيصة المتوفرة بكثرة حيث تراد . أما النوع الثانى من المطاط الصناعى ، واسمه « الثيوكول » فيحضر من النفط الطبيعى وغاز الكلورين والكبريت ، وهى مواد أولية متوافرة ورخيصة كذلك .

ويقولون إن أصحاب الكيمياء فى الاتحاد السوفيتى تمكنوا من

الحصول على نوع ثالث من المطاط الصناعى بطريقة ما ؛ ومما لاريب فيه أن زملاءهم فى الأمم الأخرى دائبون على البحث والتجربة ، ولعل فيهم من قدر له النجاح بدرجة ما ، إلا أنه يفوتنا التنبيه إلى أن تكاليف الحصول على المطاط الصناعى تفوق تكاليف المطاط الطبيعى ، وينطبق مثل هذا على البترول الصناعى وغيره من الأعواض ، ولكن العارفين يجزمون ، بأن المطاط الصناعى أكثر احتمالا وأطول عمراً وخاصة فى أطر العجلات ، وأن العوض أصلح من الأصل فى كثير مما يستخدم فيه كلاهما . ولكى يظهر مقدار ما ينتج من أحد أنواع المطاط الصناعى يضربون مثلا لمصنع لإنتاج الثيوكول يشغل مساحة قدرها فدان — هذا المصنع ينتج ما يزن ١٠٠ طن فى الساعة الواحدة من المطاط الصناعى ، وهو مقدار يعادل محصول مزرعة من أشجار المطاط مساحتها ١٠٠٠ فدان فى عشر سنوات .

أما بعد ، فموضوع الأعواض متسع الأرجاء شاسع البحوث متشعب النواحى ، ولذلك نقتصر منه على هذه الناحية التى تمت إلى الحرب الحالية بصلة . ولكننا نستطيع أن نضيف إلى ذكر ما قدمنا من الأعواض أعواضاً أخرى تنفع الإنسان فى وقت الرخاء وتسعفه فى وقت الشدة . فهناك الحرير الصناعى والصوف

الصناعى ، وهناك العجائن المختلفة التى تستخدم اليوم فى بناء كثير من الهياكل والأجسام والحاجات الإنسانية من قرط السيدة وحبة السبحة الصغيرة إلى هيكل قاذفة القنابل الضخمة ، وما بين هذين من نحو أدوات الزينة والزخارف ، وصناديق الراديو وآلات الكهرباء ورقائق التصوير وأفلام السينما و . . . و . . . الخ . . . ولا شك أن هذه العجائن (الطبخ) هى مادة المستقبل السحرية حتى لقد اقترح أن يطلق على عهدنا هذا الذى نعيش فيه عصر العجائن .

وثمة موضوعات أخرى تناولتها مباحث العلماء وكشوفهم لخير الإنسانية ، سواء أبدأت فى أيام الحرب ومن أجلها أم فى أيام السلام ، وسوف تدر جميعها على العالم الخير الكثير . ولربما كانت الحرب نعمة مستترة لبنى الإنسان بما تغدقه من مال بغير حساب للعلماء والباحثين والكاشفين والمخترعين ، فيتوفر لهم من وسائل العمل ما لا يمكن أن يتوفر مثله فى أيام السلم . ويقدر العارفون أن ما يصرف على الحروب فى يوم واحد يزيد على خمسين مليونا من الجنيهات ، ومبلغ كهذا لو رصد على البحوث العلمية لتمكن العلماء فى الجامعات ومعاهد العلم والبحث وفى معاملهم الخاصة من التغلب على الأوبئة الفتاكة والأمراض القاتلة ، ولتيسر لهم الحصول على المواد

الكافية لتغذية بنى الإنسان كماً ونوعاً فتنعدم الفاقة ويضمحل المرض ويسود العالم روح الرضا والقناعة والاطمئنان .

ولعل أحسن ما اختتم به هذا الباب هو برقية نشرتها جريدة المصرى لمكاتبها فى لندن بتاريخ ٢٩ من مايو سنة ١٩٤٣ تقول :

« قال مراسل التيمس فى جنيف إنه عملت أمس تجربة فى لوزان قدم فيها عشاء يعد الأول من نوعه فى أوربا لمعرفة مقدار مايمكن الاستفادة به من الكيمياء فى مساعدة الأمم على الاقتصاد. وقدحضر الوليمة عدد من الخبراء والشخصيات المعروفة ، وقدمت فيها أصناف من الطعام صنعت كيميائياً من السليلوز (أولب الخشب) وأضيفت إليه مستحضرات من منتجات تقطير قطران الفحم الحجرى لإكسابه طعما مقبولا . وكان الصنف الأساسى طبقاً من اللحم المصنوع من لب الخشب مزج بعصير اللحم الصناعى ، وكان أكثر الخضر من النوع الأصيل .

أما الحلوى فكانت مصنوعة من الفانيليا المستخرجة من الفحم والكريمة المشتقة من لب الخشب الذى صنعت منه أصناف الطعام الأخرى .

ويقول الكيميائيون الذين أعدوا هذا العشاء إنهم مقتنعون بأنهم قد ينقذون بعملهم هذا بلادهم (سويسرا) من المجاعة إذا

ما شحت مواردها وانقطع ورود العون . وثمن هذا العشاء يقل كثيراً عما لو كانت أصنافه من المواد الطبيعية ، على حين لا تنقص قيمته الغذائية عنه ولا يخالفه طعما بل إنه ليتعذر التمييز بينهما .

هذا ما ضمنه المراسل برقيته وما نشرته الجرائد على الناس . ولعله قد فاته أن يذكر أن السكر الذى حلى به بعض الطعام كان من نوع السكارين الذى يستنبط من قطران الفحم أو من سكر الخشب. ولعل المكاتب قد فاته أيضاً أن يذكر أن الزبد المستخدم كان من النوع الصناعى الذى يستنبط من زيوت البذور النباتية المتصلبة بفعل غاز الأيدروجين والذى يحتم القانون فى أمريكا وانجلترا الآن على مصانعه إضافة الفيتامينات الصناعية أيضاً إليه لتجعل من هذا الزبد غذاء صالحاً نقياً مفيداً يضاهى زبد البقر والجاموس ويقل عنه فى الثمن .

هذا مثل مما يعمله الكيميائيون الآن وما كانوا يعملونه قبل الحرب وما سيستمرون على عمله بعد الحرب ، فيسهلون بنتائج أعمالهم الحصول على كل نافع مفيد، ويستخرجون بصنعتهم الخيرات التى يمكن أن تعوض خيرات الطبيعة إذا شحت أو عز منالها على العاجز المحروم .

أما ماذا يعمله العلماء لو ولوا أمر الحكم وآل إليهم السلطان

فموضوع آخر، ولكن ليس من شك فى أنهم لن يلجأوا للحرب إذا تحرجت الأحوال بينهم وبين منافسيهم وضاقت الصدور وتغلبت المطامع وقامت البغضاء مقام التسامح والقناعة والرضا. وإن لجأوا إليها فسيكون أسلوبهم فيها من غير شك يخالف ما نراه الآن، فربما ابتدعوا مثلا نوعا من الغازات إذا أطلقوه على أعدائهم نزل بهم سبات عميق يستمرون فيه أياماً يقضونها فى لذيذ الأحلام، حتى إذا ما أفاقوا من غشيتهم وجدوا الغزاة قد احتلوا ديارهم وهيمنوا على مرافقهم بعد تجريدهم من سلاحهم، فلا هدم ولا تقتيل ولا تجريح.

وتحضرنى بهذه المناسبة قصة قرأتها عن نقاش قام ذات يوم بين بسمارك السياسى الجرمانى المعروف وعالم طبعى مشهور. فقد احتدم الجدل بينهما ذات مرة حتى عز التوفيق، فركب السياسى رأسه ودعا العالم للمبارزة تاركا له تحديد السلاح. فلما عاد العالم إلى مقر عمله أرسل لبسمارك طبقاً يحمل شريحتين من الخبز المغموس بالزبد ومعهما رسالة. فلما فضها السياسى قرأ فيها ما يلى:

« يا صاحب السعادة لست من رجال السيف ولا أحذق استخدام السلاح وإنما أنا رجل علم. وقد قبلت مبارزتك بسلاحى الذى تجده على هذا الطبق الذى يحمل إليك رسالتى هذه.

أمامك شريحتان من الخبز تحمل إحداهما مكروب مرض قاتل يذوق آكله أشد الآلام ، على حين لا تحمل الثانية منهما شراً فاختر لنفسك ما يحلو .

قرأ بسمارك الرسالة فتملكه الجزع ورفض المبارزة بهذا السلاح ، سلاح العلم ، وتدخل الخيرون وانفض النزاع من غير أن يسيل دم .

أرأيت إلى هذا السلاح الفذ الغريب ، أم رأيت كيف وقف العلم دون إراقة الدم ؟ وأنه ليغلب على ظنى أنها ربما كانت خدعة نجح فيها العالم وتغلب ذهنه المفعم بمعانى السلام على ذهن السياسى الجبار ، ويكاد يكون من المحقق عندى لو صح أن إحدى هاتين الشريحتين كانت تحمل ميكروب مرض فتاك أن العالم المبارز قد أعد المصل الواقى من ذلك الميكروب قبل أن يستفحل أمره ويقضى على المريض ، فإن ضمير العالم لا يستبيح القتل ولو كان دفاعا عن النفس لأنه واهب الحياة وطبيب الإنسانية والسلام .

فهـــــرس

١٩٤٤/٣/١/١٢٣٥